علي العـــــــريبي

وجـــــــــــــــــــــوه لا تنســـــــى

كلمـــة أولى

أما بعد فإننا نصادف الكثير من الأشخاص في حياتنا منـذ نعومـة أظفارنا، آلافا رأيناهم، ومروا من أمامنا، ولكن لم يبق منهم إلا القليـل، رأيناهم في المدرسة والمعهـد والكليـة والإدارة، وحـتى في الشـارع،ثم مروا في حال سـبيلهم، ولم ينطبـع منهم في الـذاكرة إلا زمـرة قليلـة، أخذنا عنها العلم، وتعلمنا منهم الكثـير، ومنهم من صـاحبناهم، وأمضـينا معهم شطرا من أعمارنا، ولكن حتى هذه الزمرة القليلـة لم يبـق منهـا في البـال إلا العـدد القليـل، وهـذا القليـل هـو الـذي عزمنـا على تقييـد خواطرنا نحوه، إجلالا وتقديرا ومحبـة لهـؤلاء النـاس الـذين تعلمنـا على أيديهم، أو عشنا معهم أياما ممتعة، وأوقاتا سعيدة لا تنسى،وهل ينسـى الإنسان هذا الجانب المضيء من حياته، وهل يتنكر لذوي الفضل عليـه، إن من الأصدقاء أو من المعلمين والأسـاتذة، وأغلبهم من الـذين دخلـوا تاريخ تونس الثقافي من بابه الواسع، ولن ينسى التـاريخ إسـهامهم في رفع مكانة تونس بين دول العـرب والإسـلام، وتـونس دائمـا معطـاء إن في المجال الأدبي أو العلمي، التاريخ يشهد أن أول مفسـر للقـرآن هـو يحي بن سلام(أي قبل الطبري الذي يعد أول مفسـر للقـرآن) وأن أول منظر لفلسفة التـاريخ هـو عبـد الرحمـان بن خلـدون، وأنهـا أنجبت أبـا القاسم الشابي الذي يعد من أكبر شعراء العالم.

لقد أسـعدني الحـظ بـالتعرف إلى هـذه الوجـوه الـتي لن ينسـى ذكرها التاريخ، وهل ينسى، وهو الحكم المنصف، ما أعطت هذه الوجوه لتونس الشعب وتونس التاريخ.

أنا أعرف أن لتونس وجوها أخرى، وأعلاما آخـرين، لهم مكـانتهم في تاريخ تونس الثقـافي، ولكنـني لم أعـرفهم عن قـرب، أو كـانت لي معهم علاقة ما، ولكن هذا لا يعني أنـني لا أجلهم ولا أقـدرهم، غايـة مـا في الأمر أن هذه الوجوه التي تحدثت عنها في هذه الصفحات استفدت منها، بعـد اتصـالي بهـا عن كثب، أو عشـت معهـا سـاعات من عمـري، فأردت أن أعرّف بهـا، نعم هي ليسـت في حاجـة إلى التعريـف، أو هي مجهولة لدى النـاس،فـالكثير من هـذه الوجـوه يعرفـه الخـاص والعـام، ولكن النظرة إليها تختلـف من كـاتب إلى آخـر،ومـتى كـان الواحـد منـا ينظر إلى الشيء بعيون الآخرين؟

إن هذه الوجوه الثلاثين أو أكـثر هي جـزء من حيـاتي، وبـدونها لا تساوي الحياة شيئا، ومـتى اسـتغنى الإنسـان عن المعلم والصـديق، إن الحيـاة لا طعم لهـا إذا خلا منهـا هـذان القطبـان الفـاعلان في حياتنـا،

فالحديث عن هؤلاء الناس يعني بوجه من الوجوه الحــديث عن النفس، عن فترة عاشها الإنسان، ثم مضت في حال سبيلها، ويبقى لنـا التـذكر والذكرى، كأنهما سلوى للمحزون، لقد طوى الموت البعض ممن تحدثنا عنهم في هذه الصفحات، وواجبنا هو أن لا ننساهم، ووسـيلتنا في ذلـك هي نعمة الكتابة،هذه التي تصارع الزمن، وتحاول التغلب عليه.

قد يقـول أحـدهم: من خـول لـك أن تكتب عن فلان وفلان ممن بلغوا القمة في العلم والفكر والأدب؟ وجوابي أن هذه الوجوه أصـبحت ملكا مشاعا لجميع الناس، وليست حكـرا أو ملكـا لأحـد، ثم أن الكتابـة عنهم تقـدير لجهـودهم، وإجلال لعلمهم، وهم يسـتحقون أن يكتب عنهم بمداد من الحب، أو كما يقال بماء الذهب.

فرحم الله من توفاه الله منهم، وأسـكنه فـراديس جنانـه، وأمـد الله في أنفاس من كان حيا منهم.

الفنان محمد التريكي

نتعــرف في حياتنــا على الكثــير من الرجــال، ولكن لن يبقى في البال إلا القليل منهم، ربما لأنه صادف هوى في نفوســنا، وقـد تمضـي عشـر سـنين مـع أحـد الـزملاء في الــعمل، ثم إذا افترقتمـا يمحى من الـذاكرة تمامـا، ولا تتـذكره إلا إذا التقيت بـه، وقـد تقضـى عشـر تلـك الـمدة مع زميل أخـر ثم يكـون الفـراق، فيبقى شخصـه في الـذاكرة لا يمحى، ومن هؤلاء نذكر الفنان محمد التريكي رحمه الله .

كـان الرجـل ضـحوكا يسـتقبلك ببشاشـة وعذوبـة منطـق، كأنـه يعرفــك منــذ ســنوات وســنوات، حديثــه يقطــر عذوبــة وحلاوة غــير معهــودتين، كلامــه كأنــه الســحر الحلال، ومــازلت أذكــر ذلــك الوجــه الضحوك والابتسامة الرقيقة الملائكية الـتي تبـدو على محيـاه كالطفـل الصـغير، وكيـف لا يـذكر من كـان سـداه من المسـك والريحـان، فـإن اقتربت منه انتعشت الر وح، وطابت النفس، وتلـك هى خصـال الفنـان الحق.

ومن كريم أخلاقه، ولطـف معشـره، أنـه عنـدما يـذكر رفيقـا من رفقاء الدرب الذين توفاهم الله، يطلب لـه المغفـرة والرحمـة، ويقـول (الله يرحمو وينعمو) أمـا الأحيـاء من أربـاب الفن الـذين أسـاؤوا إليـه، فيقول عنهم، وهو يتنهد: غفر الله لهم .

تعرفت عليه أيام كان يدرس أصول الموسيقى بمدرسة إطـارات الشـباب ببـئر البـاي ، وكنت ملحقـا بهـا، لم تكن لقاءاتنـا كثـيرة ،ولكن القليل منهـا كـان مفيـدا، وذات يـوم طلبت منـه صـحبة الأسـتاذ خليفـة حمـدي أن يحـدثنا عن مسـيرته الفنيـة، فلبّى طلبنـا، وجلبنـا معنـا آلـة

تسجيل، وما سأذكره فيما يلي نقلته بحذافيره عن الشريط، إلا ما أضفته من جملة هنا ولفظة هناك، اقتضاها السياق، والرجل شاهد على عصره في مجال الموسيقى بتونس،فقد عاش قرابة القرن(1900 ـــ 1998) فإن قال: إن فنانة مصرية اسمها (طائرة) غنت بتونس، فلا مجال للتردد في هذه المعلومة، وقد رأيت أحدهم ـــ بعد أن نشرت ما كتبت عن المرحوم محمد التريكي ـــ ممن يدعي أنه ملم بتاريخ الغناء والموسيقى كتب في بعض الصحف هذا العنوان: هل أتاك حديث مطربة مصرية اسمها طائره؟ وأخذ يسخر مني، أو بالأحرى من المرحوم التريكي الذي سمع الحفل الذي غنت فيه المطربة طائرة، ولكن الرجل لا يفهم ما يقرأ، فقد اعتبرني من تلامذة المرحوم التريكي، وأنا قلت: إننا كنا زملاء في المدرسة، والزميل غير التلميذ، ثم أن المغنية طائرة ذكرها غير واحد من مؤرخي الموسيقى والغناء في تونس، تصديقا لما قاله المرحوم التريكي الذي حضر حفلتها الغنائية التي أقامتها بتونس(وقد نشر مؤخرا محمد الهادي المطوي دراسة في مجلة الحياة الثقافية ذكر فيها مجيء المطربة المصرية طائرة إلى تونس)

ولنبدأ الآن في نقل ما جاء في الشريط بصوت المرحوم التريكي:

ولد الفنان محمد التريكي بضاحية رادس، بزاوية سيدي بويحي في 25 ديسمبر 1900 على الساعة الواحدة صباحا، حيث كانت أسرته في زيارة لهذه الزاوية التي تعودت الذهاب إليها .

ووالده محمد بن مختار التريكي ، من أصل تركي، كما هو واضح من لقبه، وأبوه أول موزع بريد بتونس، وأمه السيدة شاذلية بنت محمد عمار، تنتمي إلى أسرة محافظة، كشأن الأسر التونسية في ذلك العهد، وابنها محمد هو أكبر إخوته الذين هم صالح وأحمد وعلي ومختار، وقد أصبح الأول طبيبا، والثاني ممثلا، والثالث مدرسا ومقرئا بجامع الزيتونة، والرابع موظفا بدار الإذاعة، كما أن له أختين هما حبيبة وجميلة، وكان والده من أتباع الطريقة العيساوية، ومشارك في الأذكار والمدائح التي كانت تقام في زاوية سيدي عبد الله بوقميزة ليلا، والتي سيكون لها تأثير كبير في الطفل محمد، وفي حياته الفنية بالخصوص.

عندما بلغ السابعة من عمره أخذه والده إلى الكتّاب والمدرسة في نفس الوقت، أما المدرسة فتقع بنهج الكنز، وهى مدرسة عربية فرنسية، وكان مديرها محمد القرطبي، وتسكن عائلته في هذه الفترة من حياة الصبي التريكي بنهج القمح، أما زملاؤه في الدراسة، فيذكر منهم محمد الحبيب، ومحمد عبد العزيز العقربي، اللذين سيصبحان فيما بعد من أكبر رجالات الأدب والمسرح بتونس.

وفي سنة 1909 انتقل الـتريكي إلى المدرسـة الابتدائيـة الكائنـة بشـارع المحطـة الحـالي المـدخل الجنـوبي للعاصـمة، وكـان مـديرها المستشرق الفرنسـي (بوكـبي) ويـدرس بهـا أجـانب، ومن بينهم القس (فيسكي) الذي كان يحذق العزف على الكمنجة، وعلى يدي هذا القس تعرف الطفل على آلة موسيقية جديدة بالنسبة إليـه، وقـد حـاول صـنع آلة تشبهها، تتكون من صندوق خشـبي، وخيـوط تشـبه الأوتـار، وأجـزاء من القصــب، وبــدأ العــزف على آلتــه الــتي تمكن من صــنعها أغنيــة (قولولـو... قولـو قولـو) وهي أول قطعـة موسـيقية تمكن من أدائهـا، وكان يقوم بمثل هذه الأعمال خفية، حتى لا يراه والده،إذ كان امتهــان الفن، والانتماء إلى الوسط الفني مجلبـة عـار واحتقـار في رأي الكثـير من أفراد المجتمع التونسي.

ولما رأت أمه شغفه بالموسيقى اشترت له آلة من سوق النحاس بثمن قدره فرنكان ونصف.

وكانت أمه تردد في البيت بعض الأغاني الشائعة في ذلك العصـر، ومن بينها الأغنية التي أداها ابنها بالآلة التي صنعها بنفســه،وكـان القس فيســكي يعلم في المدرســة المــذكورة أناشــيد الأطفــال، والحلقــات الراقصة للصـغار، فكـان لهـذا القس تـأثير كبـير في اتجـاه الطفـل إلى الفن بصفة عامة ، والعزف على الكمنجة والاهتمـام بالأناشـيد التربويـة بصفة خاصة، فهل اكتفى الطفل بمـا كـان يعلمـه القس(فيسـكي) من موسيقى وأناشيد تربوية في القسم ؟

كــان القس(فيســكي) يقــوم بســاعات إضــافية بعــد الــدروس المسائية في العزف على الكمنجة، بالنسبة للنجباء من تلامذتـه، وكـان التلميـذ محمـد التونسـي الوحيـد الـذي انضـم إلى الفـوج المتكـون من أوروبيين وفرنسيين وغيرهم، وكان لدروس (فيسكي) أثرها في توجيـه الطفل إلى الاختصاص في العزف على الكمنجـة، كمـا أشـرنا، وبسـبب هـذه الـدروس كـان يعـود إلى الـبيت متـأخرا فيلجـأ إلى خلـق الأعـذار لوالدته، ليبرر حضوره لهذه الدروس الإضـافية، وكـانت أمـه تقـول لـه: (قل الحق على خاطر الحق كيف تعملوا كمامة وتردمــو برخامــه يطلــع بالتاج والخامة) ويصارحها بالحقيقة قائلا لها كنت عند السـيد فيسـكي، فهـل أشـبعت هـذه الـدروس الموسـيقية نهم الطفـل ؟ وهـل نجح في دراسته العادية ؟

واصل دراسته بنجاح فتحصل على الشهادة الابتدائية، وتمكن من الالتحاق بالمدرســة العلويــة، كمــا تمكن من الإلمـام بالموسـيقى، فقـد أصبح قادرا على أداء الـكثير من القطع الموسيقية العربيــة والفرنســية بواسطة الكمنجة، وكذلك المالوف المأخوذ عن الصادق الفرجاني، أحد مشاهير رواة الـمالوف في تلك الفترة، وكان الصادق الفرجاني يشتغل نقرزان (طبال باشا) ولم يكتف الـتريكي بمـا كـان يقدمـه لـه محيطـه

العائلي، وخاصة تشجيع أمه له، وكذلك محيطـه الدراسـي، وإنمـا تطلـع إلى ما كان يجري في تونس من حفلات موسيقية وعروض مسرحية.

وفي هـذه الفـترة وفـد من الشـرق العـربي بعض الفنـانين إلى تـونس وقـاموا بتقـديم عـروض مسـرحية وموسـيقية ،و من بين هـؤلاء الفنانين نذكر: سليمان قرداحي، و سـلامة حجـازي، قـدم سـليمان إلى تــونس في ديســمبر 1908 وقــام بحفلات بسوســة أولا، ثم بمدينــة صـفاقس، وأخـيرا بالعاصـمة، إلى أن مـات في مـاي 1909 والعـروض التي قدمها هي صلاح الدين وهملت، وهارون الرشـيد، وخليفـة الصـياد، وأوتلو(عطيل) والسيد، وروميو وجوليات وضحية الغواية، والبرج الهائل، وشهداء الغرام، أما سلامة حجـازي فقـد زار تـونس سـنة 1914 قصـد التداوي والعلاج وقدم ببلادنا عروضه المسرحية والموسيقية، ومن هـذه العروض نذكر: صلاح الدين، وغانية الأنـدلس، وهنـاء المحـبين، وغيرهـا، وقد حضر التريكي الطفل بعض هذه العروض الجديدة، لا بالنسبة إليـه، بل بالنسبة إلى كل التونسيين الذين تأثروا بهـذه الفـرق الوافـدة، ومـا تقدمه من عروض موسيقية وتمثيلية .

ووجـد الفنـان الصـغير الفرصـة من خلال هـذه الحفلات للاطلاع على الموسيقى الشرقية، وعلى الطابع الشـرقي، الـذي يمثلـه سـلامة حجازي، فامتلأت أذناه بأنغام جديدة، لم تألفها قبل تقديم هذه العروض الموسيقية والمسرحية، التي كان لها الفضل في تعرف التونسـيين إلى المســرح باللغــة العربيــة، ومن هنـا كـانت الانطلاقــة لتأسـيس مسـرح تونسي خاصة، بعد تشتت فرقة سليمان قرداحي إثر وفاته بتونس .

وتوالى مجيء الفـرق الشـرقية، وخاصـة المصـرية منهـا، ونـذكر على سبيل المثال فرقة كامل الغلعي الذي زار تونس، بـدعوة من عبـد العزيـز زروق سـنة 1916 وقـد حضـر بعض التونسـيين جلسـات كـان موضـوعها الغنـاء والموسـيقى، أشـرف عليهـا كامـل الخلعي وتسـنى للــتريكي حضــور تلــك الجلســات، واســتفاد منهــا، من حيث الإطلاع والتعرف إلى جوانب جديدة في هذا الميدان، لم يسبق أن عرفها.

وفي أثناء انتقال الأسرة إلى السـكنى بحي سـيدي منصـور سـنة 1917 وهو من أحياء العاصـمة الشـعبية، تعـرف الشـاب الـتريكي على عـدة مـولعين بـالفن، نـذكر من بينهم الطيب الصـحبي، وأخـيرا محمـد السـحبي، وإلى جـانب ذلـك كـان يـتردد على الكتـاب، لحفـظ القـرآن الكـريم، على يـد الشـيخ عمـر المغـربي، وفي أواخـر الحـرب العالميـة الأولى (1918) قـررت إدارة الحمايـة بتـونس إدخـال حصـص للإعـداد العسكري بالمدارس الثانوية، وظهر لأبيه أن ابنـه سينضـم إلى الخدمـة العسكرية في صفوف الجيش الفرنسي، وكـان التونسـيون يسـتنكفون من الالتحاق بجيش الاستعمار، فقرر فصله عن الدراسة، فوجد الشـاب

الفرصة سانحة للتفرغ للموسيقى، فأين ستصل به مغامرة الانقطاع عن الدراسة ؟

عندما غادر المعهد العلوي أنتدب للوظيف بإدارة المالية، وبهذه الإدارة تعرف على مجموعة من محبي الفن والطرب، مثل الشيخ أحمد إدريس، ومحمد فقوسة وغيرهما، ممن كانوا يجتمعون بمنزل الشيخ محمد الأصرم، الذي تحول فيما بعد إلى المعهد الرشيدي.

وواصل تعرفه إلى الفنانين والموسيقيين الذين عاشوا في عهده، من محترفين، وهواة في محل الشيخ عبد العزيز الجميل، أمثال: مصطفى بوشوشة، والعروسي سعيد، وعبد العزيز العقربي، وأحمد إدريس وغيرهم، وفي هذه الأثناء بدأت ترد إلى تونس أسطوانات مصرية بها أغان لزكي مراد، والشيخ السفطي، وأم كلثوم، ومن هذه الأغاني (على كيفك) و(مالي فتنت بلحظك الفتاك) (ولي لذة في ذلتي وخضوعي)الخ ...

وتعرف بعد ذلك على الفنانة المصرية طائرة، والفنان مرسي بركات، وطائرة هذه هي أول من غنى الموشح :

أحن شوقا إلى ديار رأيت فيها جمال سلمى

وفي هذه الفترة تعرف إلى الشيخ المألوف أحمد الوافي، وهكذا استفاد التريكي من الحفلات الموسيقية التي حضرها، ومن اتصاله بالفنانين تونسيين وشرقيين، فهل سيبقى في مستوى الهواية، وهو في الرابعة والعشرين من عمره؟

ولج ميدان الاحتراف، إثر خروجه من إدارة المال سنة 1924 بعد أن أحس بأنه قادر على اقتحام الميدان الفني، الذي استعد له منذ نعومة أظافره، فقد أصبح يحسن العزف على بعض الآلات الموسيقية، إلى جانب إلمامه بالثقافة الموسيقية السائدة في عصره، وأصبح اتصاله بفناني عهده أكثر من ذي قبل، وكان همه مع رفقائه مواجهة الجمهور بتقديم حفلات موسيقية، والمشاركة في عروض مسرحية: إذ لا يخفى أن الموسيقي كانت أحد العناصر الأساسية في التمثيل العربي عصرئذ، ولم يلبث أن انضم إلى فرقة العوادجي الكبير محمد المغيربي، الذي يعتبر من مشاهير العازفين على آله العود في تونس، وكان يرأس فرقة محمد الهادي باي، وقد عرف بحفظه للموسيقى، ودراية تامة بدقائقها، فتأتت له شهرة بين سكان الحاضرة التي قدم إليها من بلدة بني خيار بالوطن القبلي، وأستقر بتونس العاصمة، إلى أن توفي بها، وكان للمغيربي علاقة بالفنان اليهودي (خيلو الصغير) أحد المتمكنين الكبار من العزف على الكمنجة، وله دراية وحفظ للموسيقى.

ورغم انتماء التريكي إلى الاحتراف، وقيامه بالعزف على الكمنجة، مع فرقة المغيربي، لم يقطع صلته بالهواة، من أمثال

مصطفى بوشوشة، ومحمد بدرة، ومصطفى كاهية، وعبد العزيز الجميل، وكانوا يجتمعون بدكان هذا الأخير الكائن بحي الحفصية، نهج سيدي مفرج ببطحاء رمضان باي، أو بمنازلهم خاصة، وأن عبد العزيز الجميل، ومصطفى كاهية، كانا مولعين بالعزف على الكمنجة، وهى الآلة الأثيرة لدى التريكي، وبالإضافة إلى ذلك كان الجماعة يبحثون عن الجديد من الأغاني من خلال الأسطوانات الواردة من الشرق وكانت لهفتهم شديدة لكل ما يرد من مصر من الأدوار الموسيقية التي لم تكن رائجة كما هو الحال اليوم ومن يعثر على إسطوانة يعرضها على أصدقائه فيحفظونها ويتأثرون بها وإلى جانب ذلك يتردد على معهد الموسيقى الكائن بنهج زرقون . والذي يشرف عليه موسيقيون فرنسيون كبار. وكانت غايته الاطلاع على ألوان من الموسيقى الجديدة والإلمام بالقواعد الخاصة بالموسيقى وأصولها .

ومن الشخصيات الفنية القريبة إلى نفس التريكي نجد الشيخ خميس ترنان الذي حل بتونس العاصمة سنة 1917 وهو ينحدر من عائلة مشهورة بصناعة العيساوية بجهته . وقد انضم الشيخ خميس إلى مجموعة الصادق الرايس للسلامية الشهير في هذا الميدان . ودور ترنان في هذه الفرقة كان القيام بالغناء. ويعتبر من أهم حفاظ (الفنون لسيدي عبد السلام) واحترافه بالفن أعفاه من القيام بالخدمة العسكرية.واشتهر الشيخ ترنان بصوته الممتاز في الأوساط الفنية .وأخذ عنه التريكي أثناء عمله بفرقة المغيربي الكثير من المقطوعات الغنائية . ومن ذلك الحين أرتبط التريكي بصديق العمر الشيخ خميس ترنان. وقدما معا حفلات غنائية. منها تقديم عروض وحفلات غنائية بمدينة نيس بفرنسا صحبة المطربة حبيبة مسيكة.

وكان نهمه شديدا على تعلم كل جديد يهم الموسيقى وآلاتها , فقد تعلم في هذه الفترة الموسيقى النحاسية , ودعى للقيام بدروس في العزف في الجمعية الموسيقية الإسلامية من قبل المختار المملوك, وعبد الستار الحربي تدوم ساعتين كل أسبوع بصفته متطوعا، وذلك لمدة خمس سنوات , وتعتبر الموسيقى النحاسية عويصة الأداء, نظرا لصعوبة مسايرتها للسلم الموسيقي , ومع ذلك فقد تمكن من إتقانها , فأدى بعض القطع الموسيقية السائدة وقتها ، وفعلا قدم ضمن الفرقة النحاسية على مسرح على بن كاملة " رشا رماني " وأدى بحضور حبيبة مسيكة دور الشيخ سيد درويش " ياااللي قوامك يعجبني" فأعجبت حبيبة مسيكة بهذا الدور أيما أعجاب.

وشارك التريكي بوصفه موسيقيا في كثير من العروض المسرحية التي قدمتها جمعيات التمثيل مثل النجاح , ومديرها محمد الحبيب , والآداب ورئيسها أحمد بوليمان، والتي كان من أبرز مسيريها إبراهيم الأكودى , وقد كانت العلاقة متينة في ذلك العهد بين التمثيل

والموسيقى، فكثيرا ما تتخلل فصول المسرحية أدوار وأغـان قـد تكـون علاقتها بمضمون المسرحية بعيدة إلى حد ما.

وبعد زواجه سة1928 اتصـل بالممثـل البشـير المتهـني، صـاحب فرقة المستقبل التمثيلي التي كانت لها شـهرة كبـيرة في ذلـك العهـد، وعرض عليه صاحب المستقبل فكرة الروايات الغنائيـة الـتي لم تعـرف بعد في تونس، وطلب منـه المشـاركة فيهـا، وواصـل العمـل معـه إلى بداية الأربعينات.

وفي سنة 1932 انعقد أول مؤتمر للموسيقى العربيـة الـذي ضـم مشاهير الموسيقيين في العالم العربي، ومثل تونس في هـذا المـؤتمر الشيخ خميس ترنان ومصطفى صفر، وإثر عودة الوفد نشـر مصـطفى صفر نداء دعا فيه أهل الخبرة بالفن والغنـاء الى الاهتمـام بالموسـيقى التونسية، والعمل على النهوض بها، ومسـاعدته على بعث معهـد خـاص بالموسيقى، وفي مقهى المرابط التأم أول اجتماع لهـذا الغـرض، تلبيـة لنداء مصطفى صفر، وحضره جماعة من أهل الفن نـذكر منهم خميس ترنان ومحمد التريكي الذي كـان يحسـن الـترقيم، وقـراءة الموسـيقى حسب النوطة، والعـزف في آن واحـد، خلافـا لمن كـانوا معـه، والـذين كانوا يحسنون الحفظ فقط، مع اختلاف في النغمات، وكان الهـدف من الاجتماع جمع التراث الموسيقي التونسي، إلا أنـه اعترضـتهم صـعوبات في الاتفاق على جمع التراث.

ونظرا لما يتمتع به الفنـان محمـد الـتريكي من أداء على للعـزف، وحذق للترقيم الموسـيقي، فقـد اقـترح على الجماعـة أن يسـجل هـذه النغمات، ولكنهم رفضوا اقتراحه، لأن النوطة حسـب رأيهم لا تتماشـى مـع الموسـيقى العربيـة، وإنمـا هي أمـر خـاص بالموسـيقى الغربيـة، وجـاراهم في هـذا الـرأي صـديقه خميس ترنـان، ممـا جعـل الـتريكي ينسحب من هذا الاجتماع.

واتصل بعد ذلك أحمد الضحاك بمصطفى صفر وقال له: إن هـذه الجمعية لا يمكن أن تنجح في عملها، ما لم يشارك فيها محمد التريكي، وطلب منـه اسـتقدامه، وفعلا رجـع محمـد الـتريكي، ففـرح برجوعـه مصطفى صفر، وطلب منه مشاركته في العمل على تأسـيس الجمعيـة الرشيدية، وإنجاح عملها، ثم أخذه مصطفى صفر الى الجماعـة، وطلب منهم أن يمكنـوه من تـرقيم مـا يحفظـون من تـراث وموسـيقى، وبعـد إملاء ما لديهم من محفوظ أعاده عليهم الـتريكي عزفـا على الكمنجـة، فتعجبوا من صنيعه، لأنهم لا يعرفـون النوطـة، ولا الـترقيم الموسـيقي، وصار يملي عليهم ما اتفقوا عليه، قصد الحفظ والتسجيل النهائي، ومن ذلك الحين أصبح التريكي رئيسهم، وسر مصـطفى صـفر بهـذا العمـل، والتأم مهرجان النوبة بالمسرح البلـدي، وحضـر الشـيخ على الـدرويش

البروفة الأولى، قصد الإشراف على رئاسة الفرقة، ولما رأى مقدرة التريكي الموسيقية اقترح أن يشرف على هذا المهرجان.

ورحب التريكي بالفنان المصري في منزله حيث أقام مدة طويلة، وبقي حتى سنة 1937 واستغل التريكي إقامة الشيخ علي الدرويش بتونس لتسجيل ونسخ محفوظاته الفنية، وهكذا تأثر التريكي بالشيخ الدرويش، ومحمد المغيربي،وعبد العزيز الجميل، وأخذ عن هذا الأخير البشارف التونسية، والعزف على الكمنجة.

أما كلمات الأغاني والمقطوعات الشعرية فهي إما أن تكون من تأليفه، وإن كانت لم تبلغ مستوى الأغاني التي كتبها جلال الدين النقاش، وعبد الرزاق كرباكة، وغيرهما من الشعراء المشهورين في ذلك العهد، وكان يختار المطرب الذي يستطيع أداء هذه الأغاني، مثل شافية رشدي، وفتحية خيري، وصليحة، وحسيبة رشدي، ثم نعمة، كما شارك في تلحين بعض المسرحيات مثل شمشون ودليلة، وقرطاج، وبين نومين لعلي الدوعاجي، واوبريت عبد الرحمان الناصر، واوبريت كليوباترا، وعمل بجميع الفرق المسرحية بتونس، وهي الشهامة والآداب والنجاح وغيرها.

ومن جهة اخرى قام المرحوم محمد التريكي بتلحين الكثير من الأغاني العاطفية، وهو اللون الغالب على أعماله الموسيقية، وشرع في تلحين بعض الأناشيد الوطنية منذ سنة 1949 للشبيبة الدستورية التي كانت تتردد على المعهد الرشيدي، وبهذه القطع الموسيقية بث الروح الوطنية في نفوس الشباب، وكان يقوم بتدريس الموسيقى والأناشيد التربوية والوطنية في معاهد الترشيح، حيث ابتعد عن الاحتراف نهائيا بسبب" تدهور الاعتبارات"على حد قوله، وأخذ يهتم بتدريس الموسيقى للشباب، مثل جمعية الكشافة، وذلك بمركز تكوين الشباب ببئر الباي، وفي عهد الاستقلال أصبح متفقدا للموسيقى بالمعاهد الثانوية حتى سنة 1969 وكرمه الرئيس الحبيب بورقيبة، وأوفده إلى الحج، وأهدى له سيارة، كما قال لي.

ويذكر أن من أعز أصدقائه المربي المشهور أحمد صفر صاحب الكتب المدرسية الجيدة، ولعله كان يمد التريكي ببعض الأناشيد التربوية ليضع لها لحنا، ورجع من جديد لمدرسة بئر الباي لمواصلة تدريس أصول الموسيقى والأناشيد التربوية، ولم يلبث أن انقطع عن هذه الدروس، ولم نره بعد ذلك، إلا من خلال التلفزة الوطنية، أما لماذا لم يواصل دروسه بالمدرسة المذكورة، فكل ما نعرفه أن الرجل يتصرف مع الناس ومع الطلبة بالخصوص بكل أريحية وتلقائية وطيبة نفس، أما مدير المدرسة المذكورة فشيء آخر... رحمهما الله

محمد الصالح الخليفي

محمــد الصــالح الخليفي(1906 ـ 1988) ولــد بســيدي خليـف ،وهي قريـة تقـع بولايـة سـيدي بوزيـد بالوسـط التونسـي على الطريق الجهوية (رقم73) شمال شـرق قريـة فـائض، وشـمال غـربي مدينة أولاد حفوز،يقع غربها جبل سيدي خليف الذي يبلـغ ارتفاعـه 705 م.

عرفته وأنا طفل، ثم شاب، ولا أنسـى أنـه كـان رجلا متمـيزا في دشرتنا القريبة من زاوية سيدي خليف، كـان هـو الوحيـد الـذي يحسـن القراءة في هذه الدشرة، والذي تصل إليه الصـحف والجرائـد، ويتطلـع إلى مـا فيهـا من أخبـار تهم الثـورة التونسـية ضـد الاسـتعمار آنـذاك، والمفاوضات الجاريـة بين الدولـة الفرنسـية وزعمـاء تـونس من أمثـال صالح بن يوسف والحبيب بورقيبة، وكان مؤدب الزاويـة (زاويـة سـيدي خليف) كثيرا ما يرسلني إليه لآتي له بالجريدة،أذكـر أنهـا كـانت جريـدة الصباح في أول ظهورها، لم أكن أحسن القراءة بعد، كـان الرجـل كمـا تبين لي فيما بعد من جنود الخفاء، ومن أعـوان الثـورة المسـلحة الـتي اندلعت في خمسينات القرن الماضي، وكانت فرنسا تنقص من شـأنها، وتطلق على المجاهدين التونسيين الفلاقـة: أي المتمـردين والخـارجين عن القـانون، وحـتى بورقيبـة كـان في خطبـه يسـميهم الفلاقـة، وهي تسمية لا تليق برجـال نهضـوا للـدفاع عن الـوطن، واسـترجاع السـيادة المفقـودة، وكلمـة الفلاقـة أرادت منهـا السـلطة الاسـتعمارية تشـويه سمعة الوطنيين، واعتبار هؤلاء الثـوار شـرذمة من قطـاع الطـرق ليس إلا، أما الزعيم بورقيبة فكان يقلل من شأنهم، ويعتبر أن تحريـر تـونس جاء على يديه،أي عن طريق المفاوضـات السياسـية، وليس على أيـدي هؤلاء الثوار.

قال بورقيبة في أحد خطبه مقللا من دور المقاومين في تحريــر تونس من ربقـة الاسـتعمار الفرنسـي: "هم أنـاس بسـطاء اسـتقر في أذهـانهم أنهم هم الـذين رفعـوا السـلاح، وحـاربوا في الجبـال، إلى أن خرجت فرنسا، و هكذا أصبحوا يحسبون أنهم هم الذين أسسوا الدولـة، ومن ثم يجب أن تكــون تحت تصــرفهم، وأن يكونــوا هم الــوزراء والسياسيون والسفراء والقادة

وأن تسـند إليهم رخص النقـل، وتمنح لهم الضـيعات، و امتيـازات التصدير و التوريد... هكذا كانوا يتصـورون الاسـتقلال، وبمـا أنهم قـاموا في الجبال، و شكلوا ما يدعى جيش التحرير،

وظهر فيهم القائد الأزهر(الشرائطي)، و القائـد ساسـي(الأسـود)، و من لف لفهما فأنهم يجسمون هذه الدولة، هذه هي نفسية "الفلاقة"

ولم يكن في نية هؤلاء المقاومين شيئا مما ذكـر بورقيبـة، كـانت غـايتهم أن تتحـرر تـونس من سـطوة الجنـدرمي الفرنسـي الـذي كـان وحشا ضـاريا لـدى التونسـيين، وأن تحـرز تـونس على اسـتقلالها ،كمـا استقل غيرها من البلدان، وأن تكون تونس كمـا كـانت عربيـة اللسـان، دينها الإسلام ليس إلا.

ولكن بورقيبة أراد أن يقول: إنه محرر تونس أو "محرر أمـة"وأنـه المجاهد الأكبر، وليس لأحد أن ينازعه في هذا الاعتقـاد، بيـد أن الواقـع يقول خلاف ذلك،فهناك كوكبة من الرجال المقاومين والزعمـاء الأفـذاذ الذين قاوموا المحتل، أن يكون بورقيبـة واحـدا منهم، فهـذا ممكن، أمـا أن يكـــون هـــو وحـــده حـــرر تـــونس فهـــذا مســـتحيل.

الشيخ محمد الصالح، وهذا هو الاسم الذي عرف به بين الناس معتدل القامة، مـع ميـل إلى البدانـة، ابيض البشـرة مـع حمـرة، خفيـف شـعر الناصية، وباختصار كان جميل الوجه، فصيح اللسان،ذا هيبـة ووقـار،ومـا زال شخصه أمام ناظري بلباسه التقليدي: جبته البيضاء،وقد تكون بنية اللون، وتتخذ عادة من الصـوف،وتحتهـا"البدعيـة" وشاشـية حمـراء، لم تفارقه طيلة حياته، وفي الشتاء يرتدي مـع الجبـة برنسـا أبيض"مصـدرا تصديرة بديعة"

لم نكن نعرف عن ماضيه، وخاصـة في شـبابه الشـيء الكثـير، ولكن ابنه عمر ذكر لنا أنه خـدم في الجيش الفرنسـي ببلاد الشـام من سـنة 1925 حـتى سـنة 1930 وعنـدما عـاد إلى تـونس التحـق بجـامع الزيتونة، وواصل به الدراسة، وقد يكون نجح في شـهادة التحصـيل، أي ما يعادل شهادة البكالوريـا، ويبـدو أنـه أراد أن يواصـل الدراسـة، ولكن اندلاع حوادث 9 أفريل 1938 حالت دون رغبته، فقـد شـارك في هـذه الحوادث مع زملائه من طلبـة الجـامع الأعظم، واسـتطاع أن يفلت من قبضة البوليس الفرنسي، وان يعود إلى مسـقط رأسـه(سـيدي خليـف) واختفى هناك، وكانت هذه الدشرة في سفح الجبل، وتبدو كأنها مختفية عن الأنظار،ولم نر فرنسيا أو جندا من جنود الاحتلال وطئت قدماه هـذا المكان إلا عندما اشـتدت المقاومـة المسـلحة كمـا سـنرى، كمـا لم نـر سيارة من أي نوع كان، وذات يـوم مـرت دراجـة عاديـة، فانـدهش من رآها، وحار في الأمر، كيف يركب إنسان على عجلتين، ولا يسـقط على الأرض.

ورغم أن الشيخ محمد الصالح قد درس بجامع الزيتونة، إلا أننا لم نعرف عنه أنه كان يتحدث في أمـور الـدين، أو كـان لـه توجـه زيتـوني، ولكن كانت له كلمته المسموعة بين الناس، ورأيه السـديد، خاصـة في إصـلاح ذات الـبين في محيطـه، وحـتى ذوي الأمـر في عهـد الاسـتقلال كانوا يستشيرونه، ويسـتمعون إلى رأيـه، لم يكن من الأعيـان، ولم يكن من الأثريـاء، ولكنـه كـان من الـذين يهـابهم النـاس، ويجلونـه تقـديرا ومحبـة،ومن أجـل ذلـك وجـد حظـوة لـدى السـلط الجهويـة في عهـد الاستقلال، فقربوه إليهم، وكان يحضـر اجتماعـاتهم، ويسـتهدون برأيـه، وفي نفس الوقت كان يعرفهم بموظفي جهتـه، إن كـانوا في الإدارة أو في سلك التعليم، ويعرف بمن تخـرج منهم حـتى يقبلـوا في الوظـائف، وكـانت حكومـة الاسـتقلال في حاجـة ماسـة إلى من يسـد الفـراغ في الإدارة وفي المدارس، وفي كل دواليب الدولة الجديدة.

كان هاجس الشيخ محمد الصالح أن يتعلم أطفـال القريـة، فكـان دائم التشجيع لهم، يزورهم في الكتاب، ثم لما تكونت مدرسة ابتدائيـة، بالمكان قبيل الاستقلال، ربما بإيعـاز منـه، سـجل أبنـاءه وأبنـاء أقاربـه، وكل الأطفال الذين يسكنون بالجهة في هذه المدرسة.

ولا أنسـى ذلـك اليـوم الـذي جـاءني فيـه على عربـة يجرهـا حصان(تسمى كليس) وكان الحر شديدا، وأخذني إلى بيته التي تبعد عنا ربما أكثر من عشرة أميال، استضافني، وبت عنـده، وكـان أكـثر حديثـه معي عن الاجتهاد في الدراسة والنجاح فيها، ثم أعادني إلى مكـاني في اليوم التالي، وكانت هذه الاستضافة من رجل له مكانتـه في الجهـة من أكثر العوامل والحوافز التي دفعتني إلى بذل أقصى مـا يمكن من جهـد في دراستي.

وأذكر أننا خرجنا ذات مساء من المدرسة المذكورة فوجدنا لفيفا من الجيش الفرنسي، نصب أسلحة قرب المدرسة ، وكان يريد القبض على أفراد من المجاهدين ، وصلته أخبار عنهم أنهم متواجدون في هـذا المكان،ولكنهم يجهلون أسماءهم وصفاتهم، فأخـذوا يجمعـون الرجـال، كما اتفق، وكانت ليلة مخيفة ومرعبة، فقد اندلع بكاء النساء والأطفـال في الجهة كلها، والوحيـد الـذي تركـوه، ولم يلتفتـوا إليـه،هـو رجـل من أعيان الجهة، لما أحس بقدومهم شرع في الصلاة، ولم ينته منها إلا بعد أن ذهبوا في حال سبيلهم، وكـانوا ينتظـرون أن يتم صـلاته،ثم يأخذونـه معهم، ولكنه لم يفعـل، وكـان من الـذين أركبهم الجنـود في سـياراتهم الشيخ محمد الصالح.

ركب الرجال في السيارات العسكرية، وأخذوا إلى مدينـة قمـودة (سيدي بوزيد) وهناك وقع فرزهم، ثم أطلق سـراح البعض منهم،ومنهم المرحوم والدي، فعادوا راجلين، ولم يصـلوا إلى منـازلهم إلا في صـباح اليوم التالي، ومن بينهم الشيخ محمد الصالح.

وكان الثوار في صباح ذلك اليوم، وعددهم أكثر من عشـرين، قـد حلوا بالجهة، ووضعوا أسلحتهم،بعد مسحها وتنظيفها، ثم نشـروا الكثـير من الرصاص، وكان له لمعان وبريق تحت أشعة الشمس،مـا زال أمـام ناظري حتى الآن، ثم قدم لهم الأهالي الطعام،فأكلوا وارتووا، ثم صـلوا الظهر جماعـة،وبعـد ذلـك أخـذوا أسـلحتهم، وغـابوا عن الأنظـار، كـانوا يتنقلـون من جبـل إلى آخــر ، ومــا أكـثر الجبـال في البلاد التونسـية، ووجـودهم في مجموعـات صـغيرة أربـك الجيش الفرنسـي، وحـار في أمـرهم، فكـان يبحث عنهم من جبـل إلى آخـر، ولكنهم كـانوا يتنقلـون بسرعة من مكان إلى آخر، كما حدثني صهري الذي انضـم إلى الثـورة، وتبين للجيش الفرنسـي أنـه كمن يبحث عن الأوهـام،ولكنهم يفـاجؤون بنصب كمين لهم ،فيقتل منهم الكثير، ثم ينسحبون ، وكأن شيئا لم يقع، وتلك هي طبيعة حـرب العصـابات :كـر وفـر، ويبـدو أن الثـوار بعـد أداء صلاة الظهر توجهوا إلى جبل سيدي خليف.

وقبـل اشـتباكهم مـع الجيش الفرنسـي نشـير إلى أنـه قبـل هـذه المعركـة كنـا نسـكن في سـفح جبـل سـيدي خليـف، ولمـا كمن فيـه المجاهدون، واتخـذوه ملجـأ لهم، لمقاومـة جنـود الاحتلال أمـر الشـيخ محمد الصالح سكان الدشرة بمغادرة منازلهم، والسكنى بمركـز القفـا، وهو يبعد حوالي ست أو سبع أميال عن الجبل المذكور، أغلـق السـكان منازلهم، واتخذوا مركز القفا سكنا مؤقتـا لهم، ريثمـا تهـدأ الأمـور،فقـد كان الرجل على علم تام بتحركات الثـائرين، كمـا كـان على درايـة بمـا سيقوم به جنود الاحتلال في تلك الجهة.

وذات صــباح(8 أكتــوبر 1954) تفطن الجيش الاســتعماري إلى وجـود خليـة للثـوار بجبـل سـيدي خليـف، فقـدمت فرقـة من الجيش بدباباتها ومدافعها ، وأخذت تمطر الجبل بوابل من القـذائف، كنـا ونحن أطفال ننظر إلى المعركة من بعيد، والدخان يتصـاعد من أعلى الجبـل، وانسحب الثوار، لأن العساكر الفرنسية طوقت المكـان من كـل جهـة ، في محاولة لحصار الثائرين، واستشهد رجلين أو ثلاثـة من المجاهـدين، ودفنوا في الجبل المذكور، وما زالت قبـورهم بهـذا المكـان إلى اليـوم، وبعد منتصف النهار بقليل عاد الجيش الفرنسي من حيث أتى.

لم تـدم المعركـة أكـثر من ثلاث سـاعات، تبـادل الطرفـان فيهـا إطلاق النار، ولكن المجاهدين كانوا يردون على العدو بأسـلحة خفيفـة، لا تؤثر في هذا الجيش المدجج بالسـلاح ، وطيلـة المعركـة كنت تسـمع من الرجال البعيدين عن ساحة المعركـة التهليـل والتكبـير، أمـا النسـاء فقد اختفين في البيوت، ولذن بالصمت، وهن يرتعدن من الخوف، وبين الرجال كان يقف الشيخ محمد الصـالح ينظـر بإعجـاب إلى المقـاومين، كيـف يواجهـون جنـود الاسـتعمار الـذين يمتلكـون أسـلحة ثقيلـة،وهم يمتلكون الإرادة والعـزم على طـرد الاسـتعمار من بلادهم، وفجـأة رأى

رجلا قد هبط من الجبل يجري بسرعة، وهو يوجه سلاحه إلى العدو، ثم أطلق الرصاص، قد يكـون قتـل واحـدا أو اثـنين،أو أكـثر، ثم اختفى عن الأنظار، كان يعرف هذا الرجـل البطـل، وكـان يـردد بصـوت مسـموع: اللهم سلم.

ومعركة جبل سيدي خليف وغيرها من المعـارك الـتي وقعت في جبال ولاية سيدي بوزيـد طمسـها بورقيبـة ، وزعم أنـه المحـرر الأوحـد لتونس بالمفاوضات، وبذكائه ودهائه السياسي،والواقع يشهد أنه وقعت في هذه الولاية من شهر جويلية 1954 إلى شهر نوفمـبر1954 ثلاثـون معركة حربية مـع جنـود الاحتلال، وكـان عـدد المقـاومين(1157) وهـذا العدد في جبل بوهدمـة وجبـل الجبـاس وجبـل المالوسـي وجبـل مقلي وقصر الحدادة وزليم وجبل قبرار فقط.

كان الشيخ محمد الصالح منخرطا في حزب الدسـتور من جهـة، ومن جهة أخرى كانت له يد مع الثـورة، ولكن السـلطة الاسـتعمارية لم تتفطن إليه، ولم يبلـغ عنـه أحـد،أو يوشـي بـه، لأن الرجـل كـان حسـن الأخلاق، رفيقا بالسكان،مهابا من الجميع، لا يألو جهـدا في مسـاعدتهم، وتقديم العون لهم،كأن يتدخل لدى المراقب المدني، لمسـاعدة فقـراء الجهة، ومن أنواع المساعدة ما تتفضل به حكومة الاحتلال على الفقراء من حبـوب تسـميها(إعانـة القلالـة) وهي كميـة من القمح قليلـة، ولكن الناس في زمن العسر والشـدة في حاجـة ماسـة إلى هـذا القليـل من الحبوب.

ولما استقلت البلاد عين الشيخ محمد الصالح شيخا لتراب كامــل الجهة(أي معتمدية أولاد حفوز الآن) ويسمى الآن العمـدة، كـان يتنقـل على حصـانه من دوار لأخـر، ومن دشـرة لأخـرى، والخـرج(كيسـان مزركشان من صوف ملتصقان، يوضعان فوق ظهر الحصان) بـه دفـاتر وأوراق، وخاتم المشيخة.

لم يقصـر الشـيخ محمـد الصـالح مهامـه على الجـانب الإداري المنوط بعهدته، وإنما كانت له وظيفة اجتماعيـة تتمثـل في الفصـل بين النـاس في خصـوماتهم، ومـا أكثرهـا في الريـف، كمـا كـان يصـلح بين الرجل وزوجته، وبين الرجل وأولاده، وبهـذا السـلوك أراح المحـاكم من النظر في الخصومات بين الناس،وأراح الناس من التنقـل والمصـاريف الـتي تـدفع إلى جهـات التقاضـي، ولم يكن يتـدخل بين النـاس لفض الخصومات بصفته شيخ التراب، وإنما كـان يتـدخل بالحسـنى، فيرضـي هــذا ويحســن إلى الآخــر، كــل ذلــك بأســلوب مقنــع، يقطــر محبــة ولطفا،وبهذا السلوك عاش الناس في جهته في سلام وأمن، حتى قلت السرقات، وكانت منتشرة في ذلك العهد، وخاصة في الليل، فقــد كنت تسمع من حين لآخر في جنح الليل مطاردة السراق، وإطلاق الرصـاص

من بنادق الصيد يشق سكون الليل، ونباح الكلاب يتعالى في ظلمة الليل الداكنة.

وإن أنسى فلا أنسى ما فعله ذلك اللص المحترف، فقد ذهب ليلا إلى حي من أحياء الهمامة التابع اليوم لولاية سيدي بوزيد، وتبعد عشرات الأميال عن الجهة التي يسكن بها، استطاع أن يفك قيود جمل أحد السكان، فتفطن إليه صاحب الجمل، وقبض عليه، وقيده بقيد الجمل، ثم تركه في بيت لا باب له، ليفعل ما يراه في الصباح معه، فما كان من هذا اللص إلأ أن زحف بقيده الذي لا يفك منه إلا بالمفتاح،وركب ألجمل، ثم ساقه، ولما طلعت الشمس وجد نفسه قرب منزله، ففكت قيوده، ثم تخلص من الجمل إما بالنحر أو بالبيع،ولما قبض عليه وأودع السجن، قالت زوجته بكل فخر واعتزاز: السجن للرجال، حتى بورقيبة في السجن، وكان الناس يتندرون من هذه المقارنة السخيفة، ويقول البعض منهم: كيف تقارن بين رجل دخل السجن من أجل السرقة، وبين رجل في السجن من أجل قضية وطنية؟

ولكن هذا اللص وأمثاله لم يقترب من دشرة محمد الصالح،فقد كان الرجل محبوبا من كل سكان الجهة ، حتى النساء تهابه وتحترمه وتحبه،وتعتبره حاميا لهن من جور الرجال،وإهانتهم لهن، وكانت المرأة في تلك الأيام أكثر من ناقصة عقل ودين.

وكان المرحوم محمد الصالح حريصا على الجهة، وخاصة على مواردها من الفلاحة التي هي كل شيء بالنسبة لهؤلاء السكان، وذات يوم هبت على الجهة أسراب هائلة من العصافير، واتخذت أشجار الزيتون مكانا لأعشاشها، والتفريخ فيها، فطلب محمد الصالح من الأهالي أن يفسدوا تلك الأعشاش ببيضها وفراخها،وبدأ هو بالعمل،وأذكر أنه رفعني على كتفيه لأفسد تلك الأعشاش، لأن الأيدي لا تصل إليها لارتفاعها، وقضينا يومنا، ونحن نخرب ما بنته تلك الأسراب من العصافير التي تعتبر جائحة للفلاحة.

وفي تلك السنوات العجاف نزلت الأمطار فاستبشر الناس خيرا، وكان عاما زراعيا خصبا، فقد كان المحصول من الحبوب قمحا وشعيرا وافرا، لم ير الفلاحون مثيلا له في حياتهم، وربما حتى بالنسبة لآبائهم، ولكن العجيب والطريف في تلك السنة تكاثر الفئران بصورة مهولة، تجدها في البيوت،وفي أي مكان بالعشرات ، بل والمئات، ترفع القليل من الحشائش الجافة فتفر من تحتها أفواج من الفئران، لم تكن كبيرة، ولم تؤثر في المحصول الزراعي، ولما جاء الخريف اختفت تلك الفئران، كأنها لم تكن موجودة بالمرة، وأصبح ذلك العام يسمى عام الفأر، تؤرخ به الولادات، ويقال حج فلان عام الفار،وتزوج فلان في ذلك العام، دون ذكر التاريخ الهجري أو الميلادي.

لم يترك الشيخ محمد الصالح أثرا،ولا مدرسة تحمـل اسـمه، وهـو أحق الناس بأن يكون له ذلك، وعلى كل فقد ترك أبنـاء صـالحين، كمـا ترك كوكبة من المتعلمين والمثقفين يلهجـون بـذكره، ويـرددون اسـمه بكل احترام وتقدير، لقد تخـرج الكثـير من جـامع الزيتونـة، ولكنهم لم يفيـدوا إلا أنفسـهم وذويهم،ولم أر قي الجهـة من تخـرج من مدرسـة مدنية، أو تحصل على وظيفة إدارية، ولكن الشيخ محمـد الصـالح عـزم أن ينفض عن النـاس التواكـل والتكاسـل والخمـول، ويـدفع الشـباب خاصـة إلى التعلم والتحصـيل، وكـان يـذكرهم دومـا بـأن حيـاتهم ومستقبلهم تتمثل في نجاحهم في دراساتهم، وكانت حكومة الاسـتقلال تشجع الإقبال على العلم، ومن كانت سكناه بعيدة عن مدرسته توفر له المبيت والأكل.

لقد مات الشيخ محمد الصالح منذ ربع قرن، ولكنـه لم يمت، لأنـه عمل في حياته من أجـل الآخـرين، ومن كـان شـأنه كـذلك فلن ينسـى ذكره ورسمه من مخيلة عارفيه، ومقـدري فضـله، والـذي يسـتحق منـا كلمة وفاء وتقدير وإجلال، رحم الله الشيخ محمد الصالح، وطيب ثراه.

محمد الفاضل ابن عاشور

هذا وجـه لا ينسـى، فمـا زال صـوته ملء الأسـماع والقلـوب، ورسمه حاضـرا في ذاكـرة التونسـيين ومخيلاتهم، بالنسـبة لمن قـاربوا الستين من العمر، وما زالت قامته المديدة أمام ناظري، وهو في جبتـه وعمامته اللتين لا يرى إلا بهما، وهل ينسى ما يتحلى به هذا الرجـل من مهابـة ووقـار قـل نظيرهمـا، كـانت الأعنـاق تشـرئب إليـه عنـد مـروره بأسواق المدينة، وبالذات بنهج جامع الزيتونة وباب البحر، والكثـير منهم يقف إجلالا لـه، وقـد يتجـرأ البعض منهم فيقـترب منـه، ويقبـل صـدره المليء بعلـوم الشـريعة،كمـا يقولـون، والبعض الآخـر يستفسـره عن مسألة دينية، فكان يستقبل المسترشد بالابتسام والتبجيل، ويغدق عليه من غزير علمه بمـا يشـفي الغليـل، فلم يكن الرجـل متكـبرا، بـل كـان التواضع شيمته، ومعاملة أي كان من الناس باللين واللطف ديدنه، فمن تواضع رفعه اللـه، وجعلـه مقبـولا عنـد عبـاده، ذلكم هـو العلامـة البحـر

محمـد الفاضـل ابن عاشـور(1909 ــ 1970) سـليل أسـرة علميـة، كريمـة المحتـد، عريقـة الأصـل، وزاد هـو في شـرفها ورفعتهـا، وأشـاع صيتها في العالم الإسلامي قاطبة.

كانت أحاديثه ومحاضراته في الإذاعة وفي غيرها فريدة في بابهـا من حيث المضمون والتقـديم، صـوت جهـوري، يجلجـل كالرعـد، يأسـر سامعه لفصاحته وبيانه، ولا أبـالغ إذا قلت إن هـذه الفصـاحة لم تعرفهـا تـونس في تاريخهـا، ولئن قيـل إن عبـد العزيـز الثعـالبي بعـد من أبـرز خطباء العـرب في القـرن العشـرين فـإن الشـيخ الفاضـل ابن عاشـور يفوقه بفصاحته وبيانه، ولا يمكن لأحد أن يجاريه فيهما.

أذكر أنني حضرت مع طلبة السنة الأولى بكليـة الشـريعة، وكـانت الـدروس آنـذاك (خريف1964) بمقـر جمعيـة الأوقـاف بنهج جـامع الزيتونة، دخل الشيخ الفاضل فسكت الطلبة سكوتا رهيبا، وكـانوا قبـل مجيئه في ضجيج وصـخب، جلس الرجـل وأخـرج وريقـات، سـجل فيهـا عناصر درسه، وشرع في إلقائه، لا أذكر الآن موضوع الدرس، لأنـني لم أهتم بهذا الجانب، فقد انبهرت بهذا الهدير العاصف، وهذه التلقائيـة في الكلام، كأنه يغرف من بحر، فلم يتوقـف الهـدير، ولم يتعـثر أو يتلكـأ أو يتوقف، وتلك موهبة لا يجود الزمان بمثلها إلا نادرا، فقد كان الرجل من فرسان الخطابة، تهتز المنـابر في المشـرق والمغـرب لصـوته المـدوي والمجلجـل، وكـان هـذا الـدرس مسـك الختـام بالنسـبة لي، فلم أعـد لجمعية الأوقاف، بعد قبولي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بشارع 9 أفريل 1938، وبقي هـذا الـدرس بالنسـبة لي ذكـرى وحلمـا لا ينسـى، وبقيت أسـتمع إلى محاضـرات الشـيخ الفاضـل، إن في الإذاعـة أو في غيرها.

نعم أن شيوخ الزيتونة كـانوا يرتجلـون دروسـهم،ولم تكن لهـذه الدروس خطة واضحة، وإنما يمضي الدرس على وتـيرة واحـدة، خـروج عن موضوع الدرس إلى أشياء أخرى يذكر بها الدرس، ويمضي الـوقت على وقـع الشـيء بالشـيء يـذكر، تعلم الفاضـل ابن عاشـور منهم الارتجال، ولكنه أضاف إليه منهجية في الدرس: عناصر واضـحة تعتمـد، وخطة مضبوطة تتبع، ولا تسـأل عن مضـمون كلامـه، فهـو إلى التعمـق أميل، وإلى الفلسفة أقرب، مع مراعاة أفهام مسـتمعيه، وأضـفى على كل ذلك تلك الفصاحة والبيان التي هي في المحل الأرفع كما أشرنا.

لم تتأت شهرة الرجل من تأليفه، كما كان الشـأن بالنسـبة لأبيـه، وإنما بلغ هذه الشهرة وهذا الذيوع لأسباب أخرى، منها فصاحته وقدرته على الخطابة، فقد أصبحت اللغة العربية طيعة لديه، تسيل على شفتيه كالماء الزلال، وتـترقرق من فمـه عذبـة سـائغة للسـامعين، أضـف إلى ذلك هذا الحضور الشخصي المهيمن على أحاديثه وخطبه، ومنها نضـاله ضد المستعمر، وانضمامه إلى صفوف النقـابيين والفقـراء والمعـوزين،

وقد تعجب الناس من اهتمام الفاضل بالعمل النقـابي، وهـو عـالم دين، فأجابهم بأن الفوارق في الإسلام بين مسلم وآخر معدومة، ولا أثـر لهـا في دين الإسلام، والحروب أو الفتن التي تقوم بين الطبقات الاجتماعية إنما هي ناشئة على غير مبادئ الإسلام، ومن واجب المسـلم أن يشـعر بما يربط بينه وبين أخيه من مواثيق الأخوة التي هي أمتن من النسـب، فالمدار على الاتحاد القلبي، لا ما يرتديه الشـخص من الـبرنس الأبيض، أو الـرداء الأزرق، أمـا سـلطات الحمايـة فلم تكن تتوقـع هـذا التعاضـد والتعـاون بين عـالم الـدين، وبين العمـال والنقـابيين، فأخـذت فرائصـها ترتعـد، ولجـأت كعادتهـا، عنـدما تـرى التونسـيين متحـدين إلى تفريـق صفوف النقابيين ببذر الشقاق، والتفرقة بين الطبقات.

ومما يحسب له في رصيده النضالي مشاركته مع فرحات حشـاد في توحيـد صـفوف العمـال الـذي كـان ينتمي البعض منهم إلى النقابـة الفرنسية، والبعض الآخر إلى النقابة التونسـية ،فسـعى فرحـات حشـاد والشـيخ الفاضـل ومسـيرو الـديوان السياسـي للحـزب الدسـتوري في اجتماعات متواصلة لضم صفوف العمـال التونسـيين في نقابـة واحـدة، تكون تونسية لحما ودمـا، وبعـد أن أتت هـذه الاجتماعـات أكلهـا اجتمـع العمال بالجمعية الخلدونية، وكلف الفاضل ابن عاشور برئاسة المـؤتمر التأسيسي للاتحاد العام التونسي للشغل يـوم 20 جـانفي 1946 وكـان حدثا عظيمـا جمـع كـال الشـغالين والمـوظفين والمدرسـين في وحـدة نقابية صماء، ومنظمة وطنية عتيدة،تدافع عن حقوق العمال، وتشد أزر الحركة الوطنية.

وفي صائفة 1946 انعقد مؤتمر ليلة القدر بحضور كافة العناصـر الوطنية: أحزابا ومنظمات وجمعيات أعلن الحاضرون في هذا الاجتمـاع المطالبـة باسـتقلال البلاد اسـتقلالا تامـا، وانضـمام تـونس الى جامعـة الـــدول العربيـــة، ومنظمـــة الأمم المتحـــدة، فمـــا كـــان من الإدارة الاسـتعمارية إلا أن اعتقلت طائفـة من المـؤتمرين، بتهمـة التـآمر على أمن الدولة الداخلي والخارجي، وكان من بين المعتقلين الشيخ الفاضل ابن عاشور، وانتفضت المملكة كلها احتجاجا على هـذا الاعتقـال، فقـام السكان بالإضرابات التي شملت التجار والصناع والعمـال والمـوظفين، وإعلان الامتنـــاع عن القيـــام بمظـــاهر الزينـــة يـــوم عيـــد الفطـــر(1365/1946) وامتنـاع البـاي عن عقـد المـوكب الرسـمي تضـامنا مـع الأمة في انتفاضتها ضد الوجود الاستعماري.

وإزاء تعــاظم دوره البــارز في الحركــة الوطنيــة، ونضــاله ضــد المستعمر، رأى حاقدوه أنه أصبح من أبرز الزعماء في تونس، ولا شك أن سيفتك مشعل الزعامة من بين أيديهم، فما كان منهم إلا أن أوعزوا لبعض أفـراد مليشـياتهم،كمـا حـدثني بعض الـزملاء الـذي عـاش تلـك الفـترة، فاعتـدى أحـدهم عليـه بالضـرب في نهج الكنيسـة(نهج جـامع

الزيتونة الآن) فأخذ الرجل يستغيث ويصرخ، طالبا النجدة والحماية، ويقول: من يحمي العلم، ولم يكن الشيخ الفاضل يدري أن فاعل الخير للوطن والشعب يجازى بمثل هذه الإهانة، وهو كما قلنا أعلاه رجلا مهابا، لا يتصور أنه يكون عرضة للاعتداء، فحزم حقائبه، وقصد القاهرة، ريثما تستتب الأمور، ويخلو الجو لحاقديه، ليدبروا أمرهم،وفي القاهرة ألقى على طلبة معهد الدراسات العربية العالية محاضرات عن الحركة الأدبية والفكرية في تونس، وطبعت هذه المحاضرات في القاهرة أولا ثم بتونس بعد ذلك.

انغمس ابن عاشور في العمل الجمعياتي، كما نقول اليوم، فبالإضافة إلى التدريس في الجامع الأعظم، والمدرسة الصادقية التي استمر يعمل بها ثلاثين عاما، بدأ نشاطه وهو دون العشرين في الجمعية الخيرية، وفي جمعية قدماء الصادقية والنوادي الطالبية، ثم انضم إلى الجمعية الخلدونية سنة 1931 وأصبح رئيسا لها سنة 1945 وعلى منبرها شرع في إلقاء محاضراته التي يمجد فيها العروبة، ويبسط مفاخر الإسلام على سامعيه، مما بعث في النفوس الحماس والاعتزاز بالحضارة العربية الإسلامية، ووقفت سدا منيعا ضد الثقافة الوافدة، والتيارات الهدامة التي عمل الاستعمار على نشرها وإشاعتها بين الناس بكل الطرق، وأصبحت هذه المحاضرات حديث الناس،فأصبحت الخلدونية مقصد الشباب المتعطش إلى معرفة تاريخ بلاده وحضارتها، وأعاد للخلدونية مجدها القديم، أيام كان البشير صفر، كما يقول الشيخ الفاضل، يلقي بها دروسه في التاريخ الإسلامي، فرفع قيمتها بفصاحته، وقوة بيانه، وإقدامه على شرح الحقائق الاستعمارية، وكشف الاخطار المحدقة بالعالم الإسلامي، حتى صارت دروسه معهدا تتلقى فيه التوجيهات الوطنية، قبل التوجيهات العلمية، فصارت زعامة البشير صفر على شبان ذلك الجيل مطلقة لا تزاحم، وكان الأمر كذلك عندما أصبح الشيخ الفاضل رئيسا للجمعية الخلدونية.

وأنشئت الإذاعة التونسية فكانت رافدا من روافد الثقافة، ونشر المعرفة على نطاق واسع، وقناة للتواصل بين المثقفين والمستمعين، ووجدها الشيخ الفاضل فرصة للتعريف بحقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ثم كان التعريف بالعلماء الأعلام الذين أقبلوا على تفسير القرآن، وبيان المناهج التي اتبعوها(وقد طبعت هذه المحاضرات في كتاب سماه التفسير ورجاله) وكذا تقديم تراجم الرجال الذين عرفتهم تونس في عهدها القديم والحديث، وسنعود إلى مسالة التراجم في آخر هذه الخواطر.

أما كتبه، فقد ذكرنا سابقا أنه لم يقبل على التأليف إقبال الدارس والباحث، فجل ما طبع من كتبه هو عبارة عن محاضرات يلقيها ارتجالا، ولا يعد منها إلا بعض الأسطر، أو الخطوط العامة التي سيؤكد

عليها عند إلقائه لهذه المحاضـرات، وعنـدما سـألته مجلـة النـدوة(لعـل السـائل هـو البشـير العريـبي)عن إنتاجـه ألقلمي أجـاب:" إذا اسـتثنيت المقالات الـتي نشـرت لي في المجلات العلميـة والأدبيـة فـإني لا أجـد إنتاجـا قلميـا صـرفا أحـدثكم عنـه، وإن اسـتغراق الـدروس والأشـغال لأوقاتي هي أعظم حائل دون ذلك، وبعـد فمـتى ثبت رأس المـال حـتى يسأل عن إنتاجه"، فما نشر له في الغالب هو خطب ومحاضرات ألقاها في مناسبات مختلفة.

ونذكر فيما يلي تراجمه لعلماء ومصلحين عاشـوا في المغـرب العربي، ونهتم خاصة بالكوكبـة الأخـيرة من هـؤلاء العلمـاء والمصـلحين في تونس، أعني الذين عاشوا في العصر الحديث، وقد نشرنا بحثـا في مجلة الهداية حول هذا الموضوع، وقلنا إن فن التراجم من أقدم الفنون التي عرفتها الثقافة الإسلامية، فقد نشا هذا الفن إثـر الاهتمـام بسـيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كان الاهتمام بالعظماء والأبطال قبــل الإسلام لا شك في وجوده، إلا أنه لم يتخط المرحلة الشفوية، ولم يقـع الاهتمام بهـذا الجـانب اهتمامـا خاصـا إلا بعـد مجيء الإسـلام، فهـو من ثمراتـه اليانعـة، فقـد كـان الاشـتغال بـرواة الحـديث وعلمـاء التفسـير، وتراجم حياة الصحابة والخلفاء الراشـدين، وتـوالت المؤلفـات في هـذا البـاب، ونمـا هـذا الفن نمـوا عظيمـا في المشـرق والمغـرب، وأصـبح يشــمل بالإضــافة إلى رواة الحــديث والمفســرين الأدبــاء والشــعراء والأعيـان، ونـذكر في هـذا البـاب وفيـات الأعيـان لابن خلكـان، ومعجم الأدباء لياقوت، وكتب الطبقات الخاصة بالمذاهب الفقهية، وفي تــونس برز علماء من المترجمين مثل المالكي في رياض النفوس وأبي العرب في طبقات علماء إفريقية، والدباغ وابن ناجي في معالم الإيمان.

وتلقف الكتاب المعاصرون فن التراجم، فكـان وسـيلة لإيقـاظ الشعور الديني والوطـني، وإحيـاء عظمـاء الرجـال الـذين يمكن النسـج على منوالهم، والاقتداء بهم، فبرع في هذا الفن كتاب ومصلحون، ومن بينهم محمد الفاضل ابن عاشور.

لقد توفرت له أسباب هذا الفن، بما أوتي من مقدرة فنية، ومـادة علمية وتاريخية خصـبة، فقـد كـان الرجـل مشـاركا في النهضـة الأدبيـة والفكرية، إن لم نقل من أبرز رجالهـا العـاملين، واتصـل بهـذه الكوكبـة من العلماء والأدباء والمصلحين في تونس، إما مباشـرة، أو عن طريــق الرواية الشفوية، والوثائق الهامة في المكتبة العاشورية، أو عن طريــق والده الـذي عمـر مـا شـاء اللـه تحت دوحـة العلم الوارفـة الظلال، ولا ينبئك إلا خبير مثله بالرجال وتراجمهم وآثارهم.

أما لماذا اهتم الأستاذ الفاضـل بفن الـتراجم فيجيبنـا بلا عنـاء أو التــواء:" إن الشــعور بالوطنيــة الخاصــة، وهي التونســية، إلى جــانب الشخصية القومية الواسـعة قـد بـرز هـذا التعلـق في خصـوص التـاريخ

التونسي إبرازا لعظمته، وتحريكا للهمم إلى بعث مستقبله، على نحو ما تقتضي عظمة ماضيه، فتوجهت الأقلام إلى التاريخ التونسي، وتراجم التونسيين"

ومن البديهي أن الرجل أراد أن يساهم في التعريف برجالات تونس، وإبراز دورهم في نهضتها، بعد أن لاحظ جهل الناس بعلماء تونسيين مثل محمد المكي بن عزوز الذي اعتبره أحد المستشرقين مراكشي الأصل، انتقل إلى الآستانة، وهذا الجهل حمله على أن يقول:" يألم ذو الشعور الحي، والنفس اليقظة من ذلك الكابوس العجيب الذي نزل على التاريخ التونسي في أحداثه وآثاره ورجاله، فلزه إلى زاوية الإهمال، وكساه ثوب الذبول والخمول، وضرب عليه التلاشي والضياع، وألزمه انعدام المصادر، وفقدان التأليف، وتعطل البروز حتى أصبحت الجهالة بأحواله سنة متبعة، والنكران لرجاله شرعا سائغا، والطمس لمعالمه حقا مرعيا".

و هكذا دخل الشيخ الفاضل غمار فن التراجم في المجلة الزيتونية و مجلة الثريا،ثم الندوة،فالإذاعة التونسية و مجلتها،و كان في هذه التراجم فارس الميدان بلا منازع،و قد نتج عن هذا الاهتمام بتراجم الرجال صدور مجموعة من الكتب تعد طريفة في بابها،و هي التفسير و رجاله، و أركان النهضة الأدبية في تونس، و أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، و تراجم الأعلام،ويتجاوز عدد المترجم لهم في هذه الكتب ستين شخصية علمية و أدبية و سياسية،و جل هذه الشخصيات برزت، و أثرت في المجتمع التونسي تأثيرا قويا .

أما منهجه في هذه التراجم فيتمثل في أن الاهتمام بترجمة الشخصية يعود إلى مدى ارتباطها بالمجموعة: إذ فيها تتمثل مطامح الناس و تطلعاتهم ، فكانت التعبير الملائم عن أمالهم و أشواقهم نحو الإصلاح و التجديد، فهو لا يدرس هذه الشخصيات بمعزل عن التاريخ العام، و الحوادث و الوقائع التي عرفها المجتمع، بل هي عنوان لتلك العوارض والأحداث، يقول في مفتتح التعريف بالشيخ محمد السنوسي: إن الحقب التاريخية إذا أخذت باعتبارها تراثا خالدا ساري الوجود في الأزمان المتسلسلة بعدها نفضت عنها الظروف والمؤثرات والانفعالات والعوارض والملابسات، فتمخضت لوجودها الجوهري المصفى البادي في مجموعة تلك الحوادث والأطوار أعلام الرجال، والنتاج الفكري، والنتاج الديني، فإنه يصبح حينئذ لمسجل التاريخ أن يجد أسماء عظيمة من أسماء الرجال تتصل اتصالا جوهريا بتلك المجموعة في كامل عناصرها، حتى يصبح أحد تلك الأسماء أصدق عنوان على تلك الفترة التي يريد تحديدها، تمتزج فيه أطوارها،

ومظاهر نتاجها، حتى لا يمكن أن تستحضر مجموعة متلاقية إلا تحت ذلك العنوان"

وهذه الفقرة تبين بوضوح مدى اعتبار البيئة التي عاش فيها المترجم له، فهي إحدى الركائز التي تقوم عليها الشخصية، وبها تتميز أخذا وعطاء، فالشيخ سالم بوحاجب، نشأ في ظلال الساحل نشأة قروية، لقي فيها الشمس حارة، وانتشق الهواء نقيا، وتعرف إلى البحر طاهرا كريما، وخدم الأرض، ورعى الغنم، وجاء إلى تونس، فسكن عند عمه، ولم يكن في نيته أن يتلقى التعليم بجامع الزيتونة، ولكنه صادف التفات المشير الأول أحمد باشا باي الأول إلى تأسيس التدريس الرسمي بجامع الزيتونة، وتسامع الناس بذلك، فحرك منه ذلك داعيا للتوجه إلى طلب العلم بجامع الزيتونة، وأقبل على العلم بعناية وجد، فكان منه العالم سالم بوحاجب.

وينتقل ابن عاشور بعد ذلك من مؤثرات القرية أو الحي: أي البيئة الضيقة إلى البيئة العامة، فيذكر الأحوال السياسية، إن في تونس أو في العالم العربي والإسلامي، أو في غيرهما، ثم يعود ابن عاشور إلى التخصيص، فيذكر حياة المترجم له وشيوخه الذين اثروا فيه، وساهموا في تكوينه العلمي والثقافي، إذا كان عالما، أما إذا كان من رجال السياسة " فتقع العناية بالأحداث الخارجية المتصلة به"

أما المرحلة الموالية فتتمثل في آثار المترجم له وأعماله السياسية أو الأدبية أو الدينية ، وهنا يقع الإلمام بهذه الأعمال والآثار، والملابسات التي حفت بها، فإصلاحات خير الدين السياسية والإدارية " اصطدمت بأنواع من الصعوبات الداخلية والخارجية سقطت بسببها البلاد بين حالة الخراب والدمار والفوضى، وأحاطت بها عوائق الحرب الأهلية والمجاعات والأوبئة ست سنين كاملة، انتهت بالانتقاص من سيادتها، إذ دخلت ماليتها بسبب ذلك تحت الرقابة الأجنبية"

وهكذا نلاحظ أن الشيخ الفاضل لا يتناول التعريف بالإعلام في حد ذاتهم، وإنما هم يمثلون عنده تيارا اجتماعيا وأدبيا وسياسيا ودينيا، حتى ليصعب الفصل بين المترجم له ومجتمعه وعصره، وكثيرا ما يكون ذلك العلم ممثلا لذلك التيار وعنوانا له، لما يتوفر فيه من خصال القيادة والتفرد والتوجيه.

اقرأ ما شئت من هذه التراجم فستلاحظ هذا التزاوج والانسجام بين المترجم له وبيئته، فلم يكن هؤلاء الأعلام يعيشون وينشطون بمعزل عن مجتمعهم وواقعهم، والتربة التي نشؤوا فيها، بل نبغوا من صميمها، ومثلوا ما فيها أصدق تمثيل، يقول الشيخ الفاضل في مقدمة كتابه(أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي):" لقد حاولنا في المقالات الخمس عشرة التي نقدمها في هذا السفر الصغير إبراز خمس عشرة حقبة من حقب التاريخ مجلوة كل حقبة منها في المنبع

الفكري الديني الذي يعتبر مصدرها ومددها" فطموح الشعب وأشواقه تمثلت إذن في هذه النخبة من الرجال الذين ترجم لهم الشيخ الفاضل، ولا غرابة أن تكون هذه التراجم كما يقول إحسان عباس في كتابه "فن السيرة" ذات طابع أكاديمي، تقوم دراستها على التشريح والتحليل والتدقيق في الاستنتاج، بعد عرض المتناقض المضطرب من الروايات لاستخلاص الحقائق منها، وتحتاج هذه الدراسة قوة خارقة من النقد اللازم لكل من المؤرخ والأديب" وقد كان ابن عاشور كذلك.

وإذا كان المترجم له يشع على عصره، بما له من تأثير وتجاوب مع بيئته فإن الشيخ الفاضل لا يهمل تأثيره فيمن أتى بعده، مثل خير الدين ومحمود قابادو، فإن كان الأول داعية للإصلاح السياسي، فإن الثاني يعتبر من الدعاة إلى التجديد الأدبي، ولهذا نرى هذين العلمين يسيطران على أركان النهضة الأدبية والفكرية في تونس.

وهكذا فإن الأستاذ الفاضل يعد من أبرز الكتاب والمؤلفين التونسيين الذين واصلوا السنة الأدبية والدينية التي بدأها أبو العرب في طبقاته، والمالكي في رياضه، والدباغ وابن ناجي في معالم الإيمان وغيرهم، إلا أن ابن عاشور جدد في هذا الميدان، وذلك بتلقيح فن التراجم بالصبغة التي تلائم العصر من ناحية، وجعل هذه التراجم وسيلة للنهوض الاجتماعي والديني والأدبي، وإيقاظ الهمم وإلهاب الشعور الوطني من ناحية أخرى، ولا غرو أن اعتبر العلامة ابن عاشور من رواد النهضة الحديثة في تونس، وفي العالم العربي والإسلامي بلا منازع.

الشـــاذلي بــــو يحي

كـان يمشـي أمـامي شـيخ، متوسـط القامـة، في ظهـره بعض الانحناء، بدا لي أني أعرفه، دفعني الفضول إلى أن اقـترب منـه لأتـبين من هـو، فـإذا هـو أحـد أسـاتذتي، خففت بعض الشـيء من سـرعتي، وكـدت أولي هاربـا، فأنـا من جيـل المتعلمين الـذي لا يجـد الشـجاعة الكافية لمواجهة أساتذته و معلميـه، و لـو أصـبح الواحـد منـا كهلا، نعم نحن نجلّ من علمنا،

ونقدر كل كلمـة أو حـرف تلقينـاه عنهم، و كثـيرا مـا نغـير اتجاهنـا عندما يعترضنا في الطريق معلم أو أستاذ، ممن أسعفنا الحظ، فتلقينا عنهم العلم،تمامـا كمـا فعلت مـع أسـتاذي الشـاذلي بـو يحي (1918-1997) هـذا الـذي كـان يـدب أمـامي بنهج اسـبانيا بالعاصـمة، و الـذي عرفته، رغم هذه الجموع الغفيرة من المارة، الذين يقفزون بين أمتعــة الباعة المتجولين، الذين تطاردهم الشرطة البلدية من مكان إلى آخر.

لله أنت أيتها السنون، كم أنت ظالمة، فـبين يـوم و آخـر، و بين سنة و أخرى، تمر منك العقود، فتحولين القوة إلى ضعف،والشباب إلى كهولة، و الكهولة إلى شيخوخة، فهذا الأستاذ بو يحي كان بالأمس يبدو طويل القامة، يتقد وجهه حمرة و نضـارة، صـحيح أن في عينيـه بعض الحول، أو ما يشبه الحول، و أن شعره منحسر عن مقدم رأسـه، كـل ذلك

وغيره لا ينقص من المهابة و الوقار اللذين يتحلى بهما الأستاذ بــو يحي.

لله أنت أيتها الأعوام،هاهو الأستاذ بو يحي جالسا مع جمـع غفـير من الأساتذة و الطلبة في فضاء كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية يوم اختتـــام الســـنة الجامعيـــة،و توزيـــع الجـــوائز على المتفـــوقين من الطلبة،وكان ذلك قبيل وفاته،في هذه الكليـة الـتي كـانت تسـمى كليـة الآداب

والعلوم الإنسانية بشارع 9 افريل 1938 و أعوان الكلية يوزعــون المرطبـات و المشـروبات على الحاضـرين،و يـد الأسـتاذ بـو يحي تمتـد لتأخذ المأكولات،و تتناول الزجاجة تلو الأخرى من المشروبات الغازية، كان بالأمس بشوارع باريس، و في شارع سان جرمـان بالـذات يرتـدي تبانا،و هو ينشد المتع بكل أصنافها، و الصـحة و القـوة تغريانـه بالإقبـال على اقتنـاص اللـذات،والعبّ منهـا كمـا يشـاء،وهـو من خلال ممارسـته

للآثار الشعرية،ولأرباب اللذات بالذات،يعلم أنه كلما تقـدم الإنسـان في العمر يقل إقباله على اللذات الحسية، وبالتالي يزهد فيها،لأنها تسـتلزم النشاط والصحة والقـوة، و لا يبقى أمامـه إلا تنـاول بعض المشـروبات الغازية التي كانت بالأمس في رأيه تافهة،و يضحك منها كلما رأى غـيره يحتسيها.

انتهى حفل توزيع الجوائز، وقام الأستاذ بويحي بكل تؤدة ورفــق، وغادر الكلية، رفقة تلميذه وزميله الأستاذ الطيب العشاش، وهو يمشي الهوينا، غادر الكلية التي أمضى فيها أعواما وأعوامـا أسـتاذا ومدرسـا، ولم يطمــع في منصــب إداري، ولم يــرغب في تــولي خطــة إداريــة، وزملاؤه من حوله يتهافتون، ويتنافسون للحصول عليها بشـتى الطـرق، كل ما يعنيه أن تكون محفظته بيده، وأن يكون القسم مقصـده، ليشـبع رغبــة هــؤلاء الطلبــة في التعــرف إلى الأدب العــربي، واكتســاب منهج علمي لدراســته، وامتلاك آليــات تســاعدهم على الغــوص والبحث في مطاويه.

أذكر أنه دخل علينا ذات صباح، ونحن في سنة التخرج، دخل قاعة أبي القاسم الشابي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية(أصبحت تسمى الآن كلية العلوم الإنسـانية والاجتماعيـة)وهي القاعـة الواسـعة الوحيـدة في الكلية آنذاك، صففت مقاعدها على شكل مدارج، ورغم اتساعها كــانت تملأ إلى حــد الازدحــام، فتختلــط الأجســام، وتضـيق الأنفـاس إلى حــد الاختناق، ووجد بعض الطلبة اللعب بشعر بعض زميلاته الـتي وجـد فيـه سبائك ذهبية، تتدلى وراءها، وكثيرا ما يقتطع بعض الشعيرات الصفراء، ويضـعها في دفـتره للـذكرى، في حين يواصـل الأسـتاذ بـويحي تحليـل قصائد الغربة والحنين إلى الأوطان في شعر ابن حمديس، وتـذكّر أيـام الشـباب، ومـا فيهـا من إقبـال على اللـذات والتنعم بهـا، مركـزا على القصائد التي تنتهي قافيتها بحرف الحاء، وخاصـة عنـدما تكـون سـاكنة، وهـو حـرف يـدل على الحس والتلـذذ، وتـدل بالتـالي على مـا يصـاحب الإقبال على اللذات والاستمتاع بها، وقد تكون في حـالات أخـرى رمـزا للتوجع والألم، ونشير بذلك إلى قصيدة ابن حمديس التي جاء فيها:

طرقت والليـل ممـدود الجنـاح مرحبـا بالشـمس في غير صباح

سـلّم الإيمــــاء عنهـا خجلا أو مـا كـان لهـا النطـــــق مباح

غـــــادة تحمـل في أجفانهـا سـقما فيـه منيـــــات الصحاح

بت منها مستعيــــدا قبلا كـان لي منهـا على الدهر اقتراح

المهم أن ابن حمديس يدعو في قصيدته التي شرع الأستاذ في تحليلها إلى الانهماك في ملذات الحياة، والدعوة إلى التمتع بالحياة، تماما كما فعل ابو نواس وابن الرومي.

وما لا أنساه أنه كان ينعى على الشرقيين تسرّعهم في تحقيق المخطوطات ونشرها، ولا يتفطنون إلى الأخطاء التي يقعون فيها، وحتى مدننا التونسية لا ينطقون بها كما ننطقها نحن، وإنما يكتبونها كما يكتبها الفرنسيون، فبنزرت تصبح بزرته، وهكذا، ونحن نحتفل بكل ما ينتجه الشرقيون، ولو كان غثا، لأننا لسنا من قوم يأكل الغلة ويسب الملة، صحيح أننا لا نكبر أدباءنا وكتابنا، ولا نجل إنتاجهم، وصحيح كذلك أن أهل الشرق متهاونون بأمرنا، ويرون أننا تابعون لهم، وكل ما نكتبه أو ننتجه لا يصل إليهم، وحتى إن وصل إليهم لا يلتفتون إليه، وإذا نظروا فيه نظرة عجلى يرددون قول من قال:"هذه بضاعتنا ردت إلينا" وفي بعض الأحيان يسطون على إنتاجنا وأبحاثنا، وينسبونها إلى أنفسهم، وحتى إن تفطن كاتب من أهل الشرق العربي إلى هذا السطو يلوذ بالصمت، كما فعل بعض الكتاب مع المرحوم الشاذلي بويحي، حول تأثر ابن حزم في كتابه طوق الحمامة بإبراهيم الحصري القيرواني بالاعتماد على مخطوط أكتشفه في مكتبة ليدن بهولندة، ونشر بحثه في مجلة علمية بتونس، ثم ألقاه في مؤتمر المستشرقين بالهند، ومع ذلك نسب هذا الكاتب الشرقي نتائج هذا العمل إلى نفسه، ولا من رادع يردعه، ولا من أخلاق تمنعه على التعدي على أبحاث الغير، والغريب في الأمر أن الباحثين من بلاده ينسبون إليه ذلك العمل، ولو كانوا على علم بالسطو والتعدي على ملكية هذا الإنتاج للأستاذ بويحي، ولكن هذا المتعدي أو اللص نطق بدون شعور منه، عندما قال:ونحن نشاهد في عصرنا من يؤلف كتابا يرشد إلى مراجعه، فيأتي مؤلف آخر ليرجع إلى هذه المراجع، متأثرا بسابقه الذي كان له فضل السبق في هذه المراجع، فيشير إلى تلك المصادر، دون أن يشير إلى الكتاب الذي انتفع به.

ولم يجد الأستاذ بويحي بدا من أن يصرخ بأعلى صوته: سبحان الله الذي أنطق الظالم بحق المظلوم، وكيف لا يصرخ ولا يستغيث، والمجلة التي نشرت البحث المسروق رفضت أن تنشر رد المرحوم بو يحي، اعتقادا منها أن صاحب الرد لا يمكن أن يكتب مثل هذه الأبحاث، وقد ذكّرنا هذا الموقف بممثلة عربية كبيرة، فعندما سمعت أبا القاسم الشابي يقول في قصيدة إرادة الحياة: إذا الشعب يرما أراد الحياة، لم تصدق أنها لشاعر تونسي، وكانت تظن أنها لإبراهيم ناجي أو محمود حسن

إسماعيل مثلا، وهي شتشنة أعرفها من أخزم كما يقول المثل العربي.

كانت حصة الأستاذ بويحي في قاعة أبي القاسم الشابي بالكلية المذكورة تمتد من الساعة التاسعة إلى الواحدة بعد الزوال، أربع ساعات كاملة، قد تتخللها بضع دقائق للاستراحة، والأستاذ طيلة هذه الساعات الأربع منكب على ديوان ابن حمديس، لقد استوعبنا وفهمنا فهما جيدا عالم ابن حمديس الشعري، وفهمنا كذلك ماهية الشعر العربي منذ بدأ هذا الشعر، ولا أقول إن درس الأستاذ بويحي هو من نوع الشيء بالشيء يذكر، ولكن القصيدة العربية كما فهمها بويحي تحذو في لغتها وأغراضها وأسلوبها على منوال المعلقات والشعر العمودي القديم بصفة عامة، منذ إن كان الأدب العربي إلى ما شاء الله ولم تزل، فبقي العالم العربي يردد صدى " قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" و"ودع هريرة أن الركب مرتحل" ويتمتع من شميم عرار نجد، وإن لم يقف للبكاء يوما، ولا ودع هريرة، وفضل على العرار أطيب عطور الشرق والغرب، فقد يتطور نوع حياته وتفكيره وشعوره، لكن أدبه باق على حاله، وابن حمديس لم يغن خارج سربه، ولا تخطى الحدود المرسومة منذ بدأ الشعر، فالمعاني واحدة، ولكن الصياغة والتعبير هي مجال إبداع الشاعر وتجديده، فالعرب كما يقول بويحي اقتنعوا بأن المعاني كلها قد قيلت منذ عهد اكتمال الشعر في العصر الجاهلي، واقتنعوا أيضا، سواء منهم أنصار القديم وأنصار الجديد، بأن المتأخرين ليس لهم إلا التصرف فيما وصل إليه القدماء، إما بتوليد المعاني من تلك الأخرى القديمة، وإما بصياغتها في قوالب جديدة، فالأمر قصاراه تصرف في موجود لا اختراع لغير موجود، وظاهر أن التصرف سواء أكان بالتوليد أم بالصياغة إنما هو تعاط للآلة، أي لما نسميه بالصياغة والأسلوب، وما يطلق عليه كلمة لفظ بالمفهوم الأعم، لا تعاط للمعنى أي للمادة المصبوغة التي هي الرصيد والكنه والأصل، وبالتالي فإن الأدب عند العرب، كما يرى الشاذلي بويحي، لفظ أكثر منه معنى، وقد درس هذه المعاني في مقال له طويل وسمه بـ (العرب وأدبهم) وقد أحدث ضجة عند ظهوره، وخاصة العنوان، و(هم) هذه في أدبهم، فلماذا لا يقول، كما قال منتقدوه: أدبنا العربي مثلا، فهل استثنى نفسه من العرب وأدبهم، والاستعمال متداول عند العرب القدامى لو دري المعترضون.

وقال آخر: لقد كان المؤمل أن ينظر الأستاذ، وهو الذي يربي جيلا على حب الحرية والصدق والتجرد والبحث والاستقصاء، أن يكون أكثر تحررا من الأحكام القبلية، فلم يعد تلميذا عليه أن

يقبل تحكمات أساتذته، وإلا أحــرز صــفرا، فضــلا على أنهم ليســوا من التحكمية(يقصد أساتذته المستشــرقين) بحيث يحقــدون عليــه إذا دمغتهم الحجة، وإن كانوا لا يسلمون بسهولة.

اســتمع الطلبــة إلى أســتاذهم في الأول مبهــورين، وكــانوا يلتقطــون كــل كلمــة يتفــوه بهــا، ثم لم يلبثــوا أن أحســوا بالملــل والضــجر، فقــد طــالت الســنة الجامعيــة، ولم يكن تقســيم الســنة الدراسية إلى سداسيين موجــودا خلال ســتينات القــرن الماضــي، ولم يلبثــوا أن وجــدوا طريقــة للتســلية، تتمثــل في إنشــاء نشــرية متجولة، يكتب فيها كل طالب ما يعن له من ملاحظــات أو تعليــق، وجل هذه التعاليق كانت تنتقــد الــدرس، وتشــنع بالأســتاذ تشــنيعا فظيعا، لا لشيء إلا لأنه كــان محافظــا حســب رأيهم،وعيبــه ـــ إن كان هذا يعد من العيوب ــ محبــا للغــة العربيــة في صــفاء عبارتهــا ونقاوة ألفاظهــا، وقــد ســرت في هــذه الآونــة بين الطلبــة تقليعــة الهيكليــة والشــكلانية والبنيويــة والتجريبيــة، والارتمــاء في أحضــان الاشــتراكية باعتبارهــا المنقــذ الوحيــد حســب رأيهم من التخلــف الاجتماعي والاقتصادي.

لم يكن الأستاذ بويحي يعتمد على طلبتــه فيمــا يعدونــه من بحــوث وعــروض، كبعض زملائــه الــذين يســتمعون إلى عــرض الطالب حول موضوع في الأدب أو اللغة أو الحضــارة، ثم يعيــدون في آخر الحصــة تلــك الآراء الــواردة في العــرض بأســلوب جديــد، وينتهي الدرس، ولم يكن كذلك من الذين يملون مــا يكتبــون على طلبتهم، وإنما كان يحلل ويناقش بالاعتماد على نقاط أعــدها من قبل، ويقدم كل معلوماته وآرائه بأســلوب نقــدي، يصــل في بعض الأحيان إلى العنف والرفض، لكل ما هو متعارف لدى نقــاد الأدب، وقد يتغاضى عن المحاسن، ربمــا لأنهــا مفــروغ منهــا، ويؤكــد على المساوئ والعيوب حتى يقع تجنبهــا، وككــل النــاس قــد يميــل مــع الهوى، وهل يسلم منه أحد؟

ظهر لي ميله مع الهوى، وأنا أطالع تقديمه وتحقيقه لكتــاب محمد القروي(حادثة جوية على الاستطلاعات الباريسية) والكتاب كله استنقاص للشيخ محمد السنوسي، وتابعه في هذا الاستنقاص الأستاذ الشاذلي بويحي، الــذي عــاب على السنوســي جهلــه للغــة الفرنســية، وقــال عنــه أنــه خــريج جــامع الزيتونــة، في حين كــان القروي خريج المدرسة الحربية بباردو يحسن الفرنسية، ومع ذلك فإن إدارة الحماية اختارت السنوسي لزيارة معــرض بــاريس على نفقتها، وتركت القروي، والحــق أن كلا منهمــا كــان خادمــا لركــاب الحماية، وسائرا في فلكها، نعم ذاق السنوسي النفي والإبعاد عن موقفه المعارض للوجود الفرنسي بتونس، ثم لانت قناته، وخضــع

للواقع الجديد المفروض على تونس، أما القروي فقد رضي بالأمر منذ البداية، وهو ما لم يؤكد عليه الأستاذ بويحي.

وسبب العـداوة بين القـروي والسنوسـي حصـرها المحقـق في واقع الحال ومجريات الأمور التي كانت سائدة في عصــرهما، في حين أن السبب الحقيقي لهذه العداوة، والذي لم يتفطن إليـه الشاذلي بويحي رحمه اللـه ذكـره محمـد ابن الخوجـة بخـط يـده على جريدة الحاضرة التي كانت في مكتبته، والمودعـة الآن بـدار الكتب الوطنية، فقد كتب حول مقال تلقيح الجدري ما نصه:" هذا الفصل منشأ عـداوة السنوسـي مـع القـروي، ومعلـوم أن الشـيخ السنوسي حـرر الإدخـال على فصـل القـروي في الجـدري،فحقـد عليه هذا بـدعوى أنـه قصـد تجميلـه، وأن الكلام في هـذا الغـرض قامت به المصنفات"

نشـأت العـداوة إذن بين الـرجلين بسـبب هـذا الإدخـال أو المقدمة التي مهد بها السنوسي لمقـال القـروي، حـول الجـدري، والــذي نشــره الرائــد التونســي، ثم أعــادت الحاضــرة نشــره، وتطورت العداوة، ربما من جانب القروي وحده، فلم نجد ما يـدل على أن السنوسـي التفت إليـه، أو اطلـع على حادثـة جويـة على استطلاعاته الباريسـية، والحـق أن محمـد القـروي كـان لـه تـأثير شخصـي في عصـره، تمامـا كالشـيخ سـالم بوحـاجب، فكـل من الرجلين لم يكن مؤلفا، ولم يهتم بالكتابـة، ومـا كتبـه القـروي في نقد السنوسي كان بدافع الهوى والغـرض، وحـتى رسـالته(كشـف السر المكتوم في أحـوال النـوم) ليسـت بـذات قيمـة، وبالمقابـل فقد أثرى السنوسي المكتبة التونسـية بمؤلفـات عديـدة كـان لهـا الصدى البعيد في تونس وخارجها.

وتواصلت النشرة المتجولة أثناء درس الأستاذ بويحي تنتقـد الدرس، وتعيب عليـه في تقـديم درسـه، وذلـك من قبـل طـالبين مشاغبين، وواصل هو درسه بكل جـد وعنايـة، وصـادف ذات مـرة أن رأى عدم الاهتمام والانتباه لما يقول، وكـان الطلبـة منشـغلين عنه بنشرتهم المتجولة، فأخذ محفظته وخــرج في خطى ســريعة، شتان بينها وبين قيامـه من الكرسـي الـذي كـان يجلس عليـه في فضاء كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، يوم توزيـع الجــوائز على الطلبة النجباء من كل أقسام هذه الكلية الثمانية، فقد غادر الكلية متثاقلا يحمل عبء الثمانين.

لقد أمضى الرجل حياته يـدرس ويبحث، واسـتقام لـه منهج في البحث جديد، يذكرك بما كـان عليـه العلمـاء والنقـاد في عهـد ازدهار الثقافـة العربيـة، فهـو ينطلـق من المفـاهيم، ويسـتند إلى معـنى الألفـاظ في اللغـة، فالإسـلام (في مقالـه المتمـيز: الثـورة

الكبرى) مثلا معناه المسالمة، لا الاستسلام، كما قالوا،ولم يذكر من هؤلاء الذين قالوا، يقول: وإن رابك من ذلك ريب، فابتغ له القول الفصل في هذه الآية:" وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" والجاهلية غير الجهل، ومفهومها غير ما يقابله العلم والمعرفة، بل لا يقابله إلا الإسلام في معناه الأصح، ذلك أن الجاهلية معنى للحياة، ولون للمجتمع البشري، يتصف به من كان لا يدين إلا بالقوة الغاشمة، يخشاها عند ذويها، ويسلطها على من استطاع تسليطها عليه، والمثل الأعلى في مجتمع هذا ديدنه يمثله بيت عمرو بن كلثوم أحسن تمثيل، إذ يقول، وكم ردد الأقوام قوله:

إلا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وليس شأن الإسلام كما قال الأستاذ بويحي، كاليهودية والمسيحية: إذ هو لم يعن بالروح ومصيرها في الآخرة فحسب، بل كان همه الأول حياة الناس في الدنيا، نقوله، والكلام للمرحوم بويحي، وإن كره الكارهون، فلقد سن للناس شرائع دنياهم، وجعل من قبائل العرب أمة، وأحدث في قاحل أرضهم دولة لها نظمها وشعارها، ونظر في أمرهم، وفيما بين أمرهم من الأمم، وأعلن الإخاء بين البشر، ولم يعلن من قبله، ولا من بعده فيما علمنا، وتلك هي الثورة الكبرى، فلقد جعل من تباين البشر سببا للتقارب والإخاء قائلا للناس:" وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"

ولئن نزل الوحي في أمة العرب، فإن نبيهم حذرهم الغرور فقال:"أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء، ليس لعربي على عجمي فخر إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب" وهكذا كون أمة من عدم، أركانها الإيمان والتقوى، لا العصبية والمصالح، فجاءت في العمران البشري مثلا أعلى، حق لخالقها أن يقول لها:" كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر".

يقول تعليقا على هذه الآية :إن المفكر الحر المتجرد من التحيز إلى القوم ،

والتعصب للدين يقف من تاريخ العرب و الإسلام وقفة المتسائل :هل أن هذه الأمة كانت كما وصفتها الآية أم لا ،و يسأل التاريخ، و يستنطق الواقع،ثم يحكم و لا إخال مفكرا نزيها يقرر أن المسلمين أدوا الأمانة ، فكانوا خير أمة ... و التاريخ يشهد.

وهكذا يثبت الأستاذ بو يحي ، أن الإسلام كان ثورة عالمية كبرى، و لكن المسلمين لم يرقوا إلى مستوى الإسلام، فقد

ألقيت إليهم النبوة، فلم يحسنوا فهمها، ولم يؤدوا الأمانة ،فإن كانوا مسلمين فهل هم مؤمنون؟ و لكن هذا الفهم لا ينطبق على كامل عصور الإسلام.

هذا الرجل القادم من إحدى مدن الشمال، و الذي أدخله والده إلى إحدى المدارس الفرنسية العربية بالجهة، ثم انتقل إلى العاصمة، لينخرط في صفوف تلامذة المدرسة الصادقية ، يجد السفينة، في يوم ما، تمخر به عباب البحر المتوسط، ليسجل اسمه في جامعة السربون بباريس، و ينال منها أعلى الشهائد ، ليس في الطب أو المحاماة أو الرياضيات أو العلوم الطبيعية والفيزيائية ، ولكن في الأدب العربي، فقد كان المستشرقون ينصحون التونسيين بالتخصص في علم يستطيعون الاسترزاق منه عند عودتهم إلى تونس، أما العلوم الأخرى فهي حكر على الفرنسيين، وعلى أبناء الذوات، و التخصص الذي اختاره بو يحي، و ثلة من زملائه، يندرج تحت المبدإ القاتل الذي كان ينادي به غلاة المعمرين و هو: لندع التونسيين يتطورون ضمن ثقافتهم، كدراسة العربية و العلوم الدينية، أما العلوم الأخرى فهي ممنوعة عليهم، لأنها تفتح البصائر، و تدعو إلى المناداة بالاستقلال.

لم نستطع أن نقترب منه، و نتحدث معه على انفراد، فقد كان الرجل محبا للانطواء على النفس، لم نعرف أنه ابتسم و لو تكلفا، ولا أذكر أنني تكلمت معه مباشرة، وهذا البعد عن الطلبة ليس من باب التكبر و الشموخ، و إنما هي طبيعة فيه، أما غيره فقد اتخذ من طلبته أصدقاء و زملاء، و انتهت السنة الجامعية،

وانتهينا من شرح قصائد ابن حمديس، و نسي الطلبة أمر الأستاذ بو يحي، و كنا نراه من حين لآخر في أروقة الكلية بقامته المديدة، خلافا لما أصبح عليه عندما رأيته بنهج أسبانيا، يكاد يكون مقوس الظهر، و من بعيد كنت أرقبه، وهو يمشي الهوينى ، حتى اختفى في الزحام، و لم أره بعد ذلك.

أشيع بين الطلبة أنه رفض بعض الجوائز و الأوسمة التي أسندت إليه ، و تبين فيما بعد من خلال ما ذكره لي الأستاذ عبد الوهاب الدخلي الذي كان مديرا للآداب بوزارة الثقافة ، و أحد طلبة الأستاذ بو يحي أنه لم يقع من ذلك شيء، فقد أسند إليه وسام أو جائزة، و توجه فعلا إلى وزارة الثقافة، و لما نظر حوله وجد نفسه جالسا بين بعض المغنين و المغنيات، فانسل هاربا، و ترك الجائزة أو الوسام، و في أوائل التسعينات اقترحت اللجنة المشرفة على توزيع الجوائز التقديرية للآداب و الفنون

(الآداب و العلوم الإنسانية) إسـناد الجـائزة إليـه، و لكنـه لم يحصل من ذلك شيء، فقـد كـانت اللجنـة استشـارية، و البت في إسناد الجوائز خارجا عن نطاقها.

وقد حدثنا الأستاذ الطيب العشاش، و هو صاحب دعابة و فكاهة، بل يعد من ظرفاء العصر في تونس، أنه كان يتجاذب أطـراف الحـديث مع الأستاذ بو يحي، و كان ذلـك في أخريـات أيامـه بهـذه الـدنيا، و جـاء ذكر الصلاة عرضـا، بوصـفها ركنـا من أركـان الإسـلام ، فقـال الأسـتاذ بويحي :أما أنا فلم أشرع بعد بأداء هذه الفريضة ... رحمه الله.

محــمـــــد علي السهيلي

ذكاء نادر، وقريحة وقادة، واستظهار للعلوم الدينية، يكـاد يكـون عن ظهر قلب، ومنها خاصة علم أصول الفقه، وهو من أعـوص العلـوم الدينية على الفهم، فما بالك بالحفظ، هذا إلى جانب استظهاره لأشـعار العرب القدامى، وحـتى النصـوص النثريـة يسـردها عليـك بكـل تلقائيـة وسـهولة، ذلكم هـو الشـيخ والأسـتاذ محمـد علي السـهيلي(1920 ـــ 1979) أصيل بلاد الجريد، موطن العلمـاء والشـعراء والصـحفيين، فلـو حذفنا هذه الكوكبة من العلماء والأدبـاء من الخريطـة الأدبيـة والفكريـة في تونس، فماذا يبقى يا ترى؟

وفي تـوزر بلاد التخيـل والتمـور نشـأ محمـد علي السـهيلي في أسرة فقيرة، لم تبخل عليـه بإدخالـه إلى الكتـاب لحفـظ القـرآن، ومن عادة الشبان في هذا البلد أن يفتح الواحــد منهم محلا في جهتــه أو في بلد آخر لتعليم الصبية كلام الله، ولكن المرحـوم السـهيلي اختـار ،على ما يبدو، أن يكون أجيرا عند ملاك النخيل، يـؤبر النخـل، ويقـوم برعايتـه من تلقيح وجـــني، ثم رأى ان هـــذا العمـــل لا يناســبه، فقصــد تــونس العاصــمة، وعــزم على أن يتعلم بجـامع الزيتونـة، ويخـرج منـه حـاملا لشهادة العالمية (أي مسـتوى الإجـازة أو الأسـتاذية) ولا شـك أنـه كـان يكافح على جبهـتين، فمن جهـة يعمـل للحصـول على لقمـة العيش، ثم الاجتهــاد في الــدرس، ولم يكن القــدوم إلى جــامع الزيتونــة في عهــد الحماية أمرا ميسورا، إلا لمن كان من أسرة ثرية، ومن جهة أخرى فقد كان الحصول على عمل بعد التخـرج يكـاد يكـون مسـتحيلا، فقـد كـانت أبواب الإدارات موصدة أمام جميع المتخرجين من التونسيين مدرسيين وزيتونــيين، ولــو كــانوا يحملــون شــهادات عليــا، ثم ان أهــل الحاضــرة احتكــروا كــل الوظــائف كالتــدريس في جــامع الزيتونــة أو الوظــائف الشرعية الأخـرى، ومنعوهـا على كـل وافـد من خـارج العاصـمة، أو مـا

يسمى بالأفاقين، ويبدو أن محمد علي السهيلي جاء في فترة انتقاليــة، فقد كانت البلاد تتهيأ للاستقلال، وكانت البلاد في حاجـة إلى المتعلمين، وذوي الشهادات العلمية.

والشيخ السهيلي أسمر اللون، ليس بالقصـير ولا بالطويـل، يضـع على عينيـه نظـارات طبيــة،طيب القلب، وكثــيرا مــا يطرفنــا بــأقوال ومواقف تضحكنا، ويضحك هو الآخر، فتمتد أسارير وجهه بشرا وابتهاجا، ويعود بعد التفكه إلى الدرس، وقد أدخـل علينـا الانشـراح، ممـا يجعلنـا منتبهين إليه كل الانتباه، كثير التدخين، جهوري الصوت، إذا غضــب من تلميذ متهاون بالدرس، إما بداخل القسم أو خارجه علا صوته،في لهجــة جريدية متميزة، وله فراسة لا تخيب، وسرعة بديهة لا مثيل لها.

أذكر أنه دخل علينا ذات صباح في أوائل الستينات، وهـو يرتـدي لباسا تونسيا صـميما، الجبـة والطربـوش والـبرنس، وشـرع يحـدثنا عن المتنبي، وعن أطوار حياته، كما لو كان معـه في المقهى يحتسـي معـه القهوة قبل أن يدخل إلى القسـم، كـل ذلـك في لغـة لم أر في حيـاتي أفصح منهـا، مـع الـتزام آداب البحث، لم يضـع أمامـه ورقـة صـغيرة أو كبيرة، قيدت بها نقاط أو عناصر يسير حسبها في الدرس، كمـا لم يكن كلامه عن المتنـبي سـردا جافـا، وإنمـا هـو عـرض نقـدي، يـذكر الـرأي ويدعمه أو يرفضه بالحجة والبرهان، والاستشهاد من هذا الناقد أو ذاك، ولقد وضعنا منـذ اللحظـة الأولى في عصـر المتنـبي،وعرفنـا حيـاة هـذا الشــاعر الــذي أطفــأ نجم خمســمائة شــاعر، كمــا يقــول بعض النقــاد القدامى.

وكان أول نص كلفنا بشرحه هو قول المتنبي:

فـــــؤاد ما تسليه المدام وعمر مثـل مــــا تهب اللئام

ودهر ناسه ناس صغار وإن كــانت لهم جثث ضخام

ومــا أنــا منهم بــالعيش فيهم ولكن معـــــدن الذهب الرغام

أرانب غـــــير أنهم ملـــــوك مفتّحـــــــة عيـــــــــــونهم نيام

بأجســام يحـر القتـل فيهـا ومــا أقرانهـا إلا الطعــــــام

وخيـــل مـــا يخـــر لهـــا طعين كـــأن قنـــا فـــــــوارسها ثمام

وطلب منا شرح هذه القطعة، وبيان حالة المتنبي النفســية من خلال هذه الأبيات، ونظرته إلى أهل عصـره، وبمـاذا وصـفهم؟ ومـا هـو رأيه في نفسه؟

لم يكلفنا بشرح قصائد طويلة من ديوان المتنبي، وسيتدرج فيما بعد إلى الأغراض الشعرية من مـدح ورثـاء وهجـاء وفخـر، وهي قصـائد ذات نفس طويل، وقبل أن نصل إلى هذه المرحلـة وزع علينـا القطعـة التالية مرقونة، فلم تكن كتب النصوص متوفرة، كما هـو الحـال اليـوم، ولم توجد بعد هذه الآلـة الناسـخة،فقـد كنـا ننقـل مطالعاتنـا من الكتب صفحات وصفحات، أما اليوم فقـد أصـبح التلميـذ او الطـالب يصـور مـا يريد من كتب، وحتى الدروس يقوم بتصويرها، وكفى الله التلاميذ عنــاء الكتابة، ومن جهة أخرى قلّت الاستفادة وقلّت العناية، يقول المتنبي:

وما العشق إلا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب

وغير فـؤادي للغــــــواني رميـة وغـير بنـاني للزجـاج ركاب

تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهــــــن لعاب

نصرفه للطعــــن فوق حواذر قد انقصفت فيهن منه كعاب

فخير مكان في الدنا سرج سابح وخير أنيس في الأنام كتاب

ثم قـال: هـذه القطعـة من قصـيدة مـدح بهـا كـافورا، والمتنـبي مشهور بالطموح في حياته إلى المعالي، والتشوق إلى الحكم والولاية، لازمه هذا الشغف من نشأته إلى مماته، ورأيه أن القـوة وحـدها كفيلـة بتحقيق هذا الهدف.

يعـرض علينـا المتنـبي ،كمـا يقـول الأسـتاذ السـهيلي، في هـذه القطعة رأيه في العشق والغرام، فيقرر أن العشق بله ، يعتري ضعاف العقول، وطمع تمنى به الأفئدة المريضة، والنفوس الشرهة(ولعل هـذا الـرأي في الغـرام تسـرب إليـه من بعض النظريـات الفلسـفية، وقـد انتشـرت في عصـره، وعـرف العشـق بعـدة تعـاريف منهـا تعريـف أفلاطــون: إن الحب طمــع يتولــد في القلب عنــد رؤيــة العين مــا يستملح)وصـادفت هـذه النظريـة في نفسـه، لمـا فطـر عليـه من حب العظمة، والولع بالسيادة، فقلبه مشحون بها، لا تجد فيه المـرأة مكانـا، ولا تلفي إليه سبيلا، فهو يرى أن قلبه أرفع من أن تستولي عليه امرأة، مهما بلغت فتنتها، ويقول إن يده لا تمتد إلى كؤوس الـراح، وإنمـا تمتـد إلى المجـد والإمـارة، فلذتـه في رمح يـداعب بـه الأعـداء في سـاحة الوغى، حتى تنكسـر مفاصـله من الطعن في الصـدور، وإذا وجـد غـيره المتعة في غادة يلاعبها، أو زجاجة خمر يجرعها فمتعته في جواد أصيل، يركب متنه، أو كتاب مفيـد يكـرع من فيضـه، وبـذلك يصـل إلى الهـدف المنشود.

ثم يمر الشيخ السهيلي إلى نقد المعنى فيقول:فكرة صادقة نحس فيها شخصية الشاعر واضحة جلية، فهو رجل العظمة والقوة، وجدير بمن كان عظيما أن يسمو عن سفاسف الأمور، وأحرى بمن كان شديدا أن يتعشق الأسلحة والحروب، وللشاعر غزل في الغيد الحسان، وتشبيب بمفاتنهن، ولكنه غزل ناشئ عن تقليد واتباع، لا عن حب وهيام، وليس لنا ما نؤاخذه عليه سوى انه أخرج الحب في صورة رذيلة مستبشعة، مع أنه كثيرا ما يكون حافزا على المجد، باعثا على الكمال، بينما اقتصر في الخمر على أن يده لا تلامسها، وهي أعظم ضررا، وأشد خطرا، فلا تبعث همة صالحة، ولا تخلد ذكرا طيبا.

وفي نقده للتراكيب في هذه القطعة يقول الأستاذ السهيلي رحمه الله: إن التراكيب في هذه القطعة أغلبها واضح جلي، وخاصة البيت الأخير، فهو منتزع من نفس الشاعر وصراحته، منبعث من قليه الميال إلى الحكم وضرب الأمثال، غير أن البيت الأول فيه تأثر بالفلسفة والمنطق، فهو أقرب إلى التعبير العلمي منه إلى التعبير الأدبي، كذلك البيت الرابع فيه تعقيد وثقل ناتجان عن تكرار الضمائر وتجاورها(فيهن،منه)كما نجد فيه مخالفة لقواعد النحو، حيث أرجع الشاعر الضمير في (نصرفه)، وهو مفرد إلى القنا وهو جمع، وهذا يتماشى أبضا مع صنيع الشاعر واعتداده بذوقه، فلا يتقيد بقواعد العرب، ويستعمل استعارات وتراكيب لا توافق قواعدهم، ومن أجل ذلك أخرجه شيوخ ابن خلدون من هيكل الشعر العربي.

وفي أثناء الشرح كان يعرض علينا قصائد المتنبي للمقارنة، قصد التوضيح والفهم، ولم يكن ديوان الشاعر أمامه، وقس على ذلك بقية الشخصيات الأدبية الأخرى، موضوع السنة الدراسية، وهي المعري وابن هاني وابن زيدون.

وكان من حين لآخر يدعونا إلى مراجعة بعض المسائل بأنفسنا، والتثبت منها، وخاصة في باب اللغة والنحو، دون أن يجبرنا على ذلك، فمثلا الوحدة العربية، وكانت حديث الساعة في ذلك الوقت، وكان جمال عبد الناصر رحمه الله هو بطلها والداعي إليها، فهل تكون الواو في(الوحدة)بالفتح أو بالكسر، وكان يقول أريد أن أتعلم منكم.

وما زلت أذكر سخريته من بعض الكتاب الذين يريدون أن يثبتوا بأدلة واهية أن الكاتب أو الشاعر الفلاني هو من أصل عربي، يقول: فما الفائدة أن يكون عربيا أو بربريا أو أعجميا... المهم أن يكتب بالعربية وكفى.

تغيبت عن الدروس لمدة يومين أو ثلاثة أيام لا أدري، ثم رجعت فناداني الأستاذ السهيلي رحمه الله إلى مكتبه، وقال لي: هل أنت في حاجة... ولم أتركه يكمل، فقلت له: صدقني يا أستاذ لقد كنت مريضا.

وزارنا ممثل (قـد يكـون الأسـتاذ رشـيد قـارة رحمـه اللـه) يريـد تسـجيل أو اختيـار من يرغبـون في التمثيـل قصـد تكـوينهم، وإعـدادهم للمسرح، فأسرعت بتسـجيل اسـمي، ولكن الأسـتاذ السـهيلي منعـني، وقـال: أنت لا تصـلح لهـذا، ألم أقـل إن للأسـتاذ السـهيلي فراسـة لا تخيب ؟

ولكنني لم أعمل بنصيحة الشيخ السهيلي،فلما قـرأت إعلانـا في صحيفة يوميـة من فرقـة مسـرحية، تطلب من يـرى في نفسـه قابليـة للتمثيل أن يشترك فيها، توجهت إلى الفرقة المعنية، وهي فرقة (أنصار المسـرح) قبلت طلـبي بـدون تـردد، ومـدتني ببطاقـة عليهـا صـورتي، بوصفي انتمي إلى هذه الفرقة، ومن الغد مسـاء تـوجهت إلى المسـرح البلدي لحضور إعداد مسرحية، وإجراء التمرينات عليها من قبل الفرقة المذكورة،وحضر الممثلون بعد التاسعة ليلا، وكان الفصل شتاء، اتخذت كرسـيا، وجلسـت اسـتمع إلى الممثلين، وتوجيهـات المخـرج إليهم، وجـاءت العاشـرة، وجـاء منتصـف الليـل، وتواصـلت التمرينـات حـتى الواحدة صباحا، فكرت في الخروج والهروب، وأنا أسكن بعيـدا،ولكنـني لم استطع، ومن الغد صباحا سأتوجه إلى المعهد، كنت جالسـا، وكـأنني على الجمر، وفكـرت في والـدي، مـاذا سيصـنعان بعـد غيـابي في هـذا الليـل، ولم أقـل لهمـا إنـني سـأتأخر، مـاذا أصـنع يـا رب، ثم انتهت التمرينـات، وخـرجت أركض في الشـوارع ، والشـوارع خاليـة إلا من سيارة هنـا وهنـاك، شـعرت بـالخوف، وأخـذت ارتعش، إلى أن وجـدت نفسي بين أمي وأبي، وهما في حيرة من أمرهما، وأقسمت أن لا أعود إلى مثل هذا الصنيع، وكان علي أن أعمل بنصيحة المرحوم السهيلي.

وذات يوم، وكنت أدرس بالمدرسـة الوطنيـة لمنشـطي وريـاض الأطفال بقرطاج درمش، أردت في آخر الحصة أن أتعرف على أسـماء الحاضـرات بالقسـم، ووجـدت طالبـة تحمـل لقب أسـتاذي محمـد علي السهيلي، تذكرته ــ والرجل لا يغيب عن ذهـني أبـدا ـــ فسـألتها: هـل تعرفين الشـيخ السـهيلي؟ فقـالت بكـل هـدوء: هـو أبي... رحمـه اللـه، غطيت وجهي بـدفتر المنـاداة، وكـدت أجهش بالبكـاء، ولم اسـتطع ان أكمل المنـاداة، ثم تماسـكت، وطلبت من الحاضـرات مغـادرة القاعـة، واستبقيت ابنة شيخي وأستاذي، وبعد أن حدثتني عن والـدها قلت لهـا: اعتبريني وليك في هذه المدرسة، وكـان الأمـر كـذلك، وعلمت أنـه في الليلة السابقة لوفاته تحـدث مـع أبنائـه، كـل على حـدة،كأنـه يـودعهم، وأوصاهم بـأمور لا أذكرهـا الآن، وبعـد أداء صـلاة الصـبح أسـلم الشـيخ السهيلي روحه لبارئها، وهو دون الستين ... رحمه الله.

محمد العروسي المطوي

بعض الناس لا تأنس إليهم إلا بعد لقاءات وجلسات عديدة، وقد لا تأنس إلى أحدهم بالمرة، ولو بعد أن تجالسه، وتتحدث معه عشرات بل مئات المرات، ثم عندما تفترقان تنسى أمره وشخصه تماما، والمرحوم محمد العروسي المطوي(1920 ــ 2005) ليس من هذا القبيل، فقد حضرت مرة في أحد لقاءاته بجماعة نادي القصة، وكان الاجتماع بمقر شعبة التعليم الثانوي بشارع الحبيب بورقيبة، وقد تحولت الآن إلى مقر لأحد البنوك، وأردت أن أسمع الحاضرين قصة قصيرة، وانتظر رأيهم فيها، وأذكر أنه بعد الانتهاء من القراءة قال بعضهم: إن القصة تخلو مما سماه بتطور الأحداث أو شيء من هذا القبيل، وأتى ببعض الملاحظات الخاصة بتقنيات القصة لا أذكرها الآن، أما الأستاذ المطوي فقد أخذ مني القصة، وأدخل بعض الإصلاحات عليها، وشجعني على المواصلة، وكان هذا أول وآخر حضور بهذا النادي، فقد اشتغلت بالدراسة، ثم بالعمل، ولما تعرفت على ابن أخيه الكاتب والباحث هو الآخر محمد الهادي المطوي، توطدت صلتي بالأستاذ المطوي العم، وكنت أرسل إليه بقصصي ودراساتي

فينشـرها بمجلـة(قصـص) وكـان من حين لآخـر يـدعوني لحضـور الأنشـطة الثقافيـة الـتي يقـوم بهـا النـادي الثقـافي أبـو القاسـم الشابي.

محمد العروسي المطوي، معتـدل القامـة، أبيض البشـرة، خفيف شعر الناصية، لطيف المعشر،فصـيح اللسـان، بليـغ الكلام، يشد سامعه إليه إذا تكلم أو تحدث،يرحب بزائريه ويحتفي بهم.

اهتممت في فترة ما بنقد القصص الفصـيرة، ورأيت أن أبدأ بقصص العروسـي المطـوي، فجمعتهـا أولا، ثم قمت بدراسـة حولها، نشـرتها مجلـة (قصـص)، وفاجـأني باختيـار فقـرة من هـذه الدراسـة، وضـعها في الغلاف من مجموعتـه القصصـية(طريـق المعصرة).

وقدمت بحثا إلى دار للنشر قصد طبعه، فنصحني الموظف بهـذه الـدار أن آخـذ البحث إلى محمـد العروسـي المطـوي بمقـر اتحاد الكتاب التونسيين لقراءتـه وتقييمـه، وقـد كلفتـه تلـك الـدار بـــالقراءة والتقـــييم، وفعلا ذهبت إلى مقـــر الاتحـــاد، وســـلمت المخطوط إلى أحـد الكتبـة ليوصـلها إلى الأسـتاذ المطـوي، وبعـد مدة قصيرة أمدتني دار النشر بتقرير الأستاذ المطوي الذي نصــح بنشـر هـذا البحث،بعـد العمـل بملاحظاتـه، وملاحظاتـه كـانت في المحــل الأرفــع، فقــد قــرأ الرجــل هــذا البحث الــذي يصــل إلى خمسمائة صفحة مرقونة سطرا سطرا وكلمة كلمـة، وهـو مـا لم يقم بـه من قيم هـذا العمـل، وناقشـه من الأسـاتذة، تعجبت من صـبر الأسـتاذ المطـوي، وأكـثر من ذلـك هـذه الأمانـة والجديـة والشغف بقراءة كل ما يتعلق بتونس وتاريخها وحضـارتها، ونصـب نفسه، وله ألف حق راعيا للفكـر في تـونس، وحارسـا أمينـا لكـل من يمس أو يخـدش مقومـات الثقافـة التونسـية، واعـترف أنـني اسـتفدت اسـتفادة جمـة من تلـك الملاحظـات الـتي كتبت بقلم الرصاص، فقد تعلمت منها الشيء الكثير.

ولم تنشر تلك الدار البحث المشار إليـه، لأسـباب لا فائـدة في ذكرها هنا ، ونشر في مكان آخر، ولم أجد فقـرة تعـرف بهـذا الكتاب أحسن مما كتب الأستاذ المطوي في تقريره، فـأثبت تلـك الفقرة في الغلاف الأخير من كتابي، وأهديت له نسخة منه، ففرح بها، وذكر لي أنه أهدى مكتبته إلى النادي الثقافي بالمطويــة، ولم يترك في منزله إلا الكتب المهداة له فقط.

وكنت عندما أريد مقابلته اتصل بـه أولا عن طريـق الهـاتف بمقر النادي الثقافي أبو القاسم الشابي بالوردية، وكان يرابط بــه من الصـباح البـاكر،وربمـا حـتى المسـاء، وكـان يرفـع السـماعة، فأسمع صوته الضعيف، فـيرحب ويسـتقبلني بمكتبـه بكـل حفـاوة

وتـــرحيب، وكـــان يســـألني عن مشـــاريعي في الكتابـــة والبحث، ويطلب مـني المزيـد منهـا، وكأنـه يلمح إلى كتابـة مـا، ولم أفهم مقصده إلا بعد أن حدثني ابن أخيه محمد الهادي المطوي عن نيته في الكتابة عن عمه، وإصدار مؤلف عنه، وهو أهل لذلك، وبالفعل ظهر هذا الكتاب تحت عنوان (الرؤية النقدية عند محمد العروسي المطوي 1992).

ما نعرفه عن محمد العروسي المطوي أنه شخصية متعددة الجوانب له مساهمة في شتى فروع الإنتاج الفكري والأدبي، فهـو مؤرخ(الحروب الصليبية في الشرق والغرب، السلطنة الحفصـية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي) ومحقـق(خريـدة القصــر وجريــدة العصــر للأصــفهاني)وشــاعر(فرحــة شــعب) وروائي(التـوت المـر وحليمـة)وقصـاص (طريـق المعصـرة)هـذا بالإضافة إلى إثراء مكتبة الطفل بمجموعة من القصص الطريفـة، والمشـاركة في كتابـة مقـالات وخـواطر في الصـحف والمجلات الصادرة بتونس، وذلك منذ ستين سنة، وسيجد جامعو آثـاره عنـاء كبـير، فالرجـل كمـا نـرى مشـارك في أنـواع شـتى من العلـوم والفنـون،فهـو يـذكرنا من هـذه الناحيـة بالعلمـاء القـدامى الـذين يبرعون في كل ميدان يتجهون إليه،ويعـد هـذا الإلمـام بكـل هـذه الفنون عند البعض تشتيتا للجهد الفكري، ولكن مـادام الرجـل لـه هذه القدرة والبراعة فلماذا نحرم من إبداعـه في هـذا الجـانب أو ذاك، ولعل هذا التعدد في شخصية المطوي هو الذي أكسـبه هـذه المكانة في مسيرة الأدب والفكر إن في تونس أو في غيرهــا من البلدان العربية.

ويبدو أن الكتابة عن العروسي المطـوي لا تعـد ذات قيمـة، وربما حتى كتابات هذا الرجل الذي أفـنى عمـره في الكتابـة عنـد فئة من المتعالمين، فعندما أضع بعض الأبحاث المتعلقة بالمطوي في ملفي العلمي تقابل بالاستنقاص، فهم يهللــون لمن يكتب عن الجاحظ والمتنبي وغيرهمـا، في حين أن هـؤلاء الأعلام قـد أخـذوا حظهم لدى كتّاب مصر والشرق العربي عمومـا، وأصـبحوا عبـارة عن برتقالة تم عصرها، سيقولون إننـا تناولنـا تلـك الشخصـية من وجهة معينة، وبمنهجية ألمانية أو فرنسية، وبفلسفة جديـدة، ولكن يبقى كــل شــيء على حالــه في آخــر الأمــر، ولعــل المشــارقة سـيقولون كمـا قـال ابن بسـام عنـدما تصـفح كتابـا شـرقيا :هـذه بضاعتنا ردت إلينا، وهؤلاء البـاحثون من يقـرأ لهم؟ هـل تجـاوزت أسماؤهم بن قردان أو رأس جدير؟

إن شهرة محمد العروسي المطوي كاتبا ومؤرخـا وأديبـا في العالم العـربي لا تقـل عن شـهرة الشـابي، فهـو اسـم يـردده

الكبير والصغير في تونس، ويعرفه الكتـاب والأدبـاء في المشـرق العربي، ويكفي أن نـذكر ان هـؤلاء الكتـاب والأدبـاء نصـبوه أمينـا عاما لاتحاد الكتاب والأدباء العرب سنة 1990 بعد أن تولى رئاسة اتحاد الكتاب التونسيين لمدة عشر سنوات.

ولم يقصر حياته ونشاطه على الإنتاج والتأليف ، وإنمـا قـام بدور كبير في تخريج الكتاب والقصاصين، فمنـذ سـنة 1964 وهـو يشرف على نـادي القصـة، ويجتمـع بالأدبـاء الشـبان كـل أسـبوع، ومن هذا النادي تخرج كتاب كبـار أمثـال محمـد الهـادي بن صـالح وغيره، وعمل على نشر إنتاجهم في مجلة تحت اسم(قصـص) ثم أصدر لهم مجموعات قصصية، كان لهـا الـدور البـارز في النهضـة الأدبيـة بتـونس، أصـبحت لـدى بعض البـاحثين موضـوعا للـدرس، وجعلت هــذا النــوع من الأدب يقــف جنبــا إلى جنب مــع الأدب المصري والسوري والعراقي، وقد حدد الأسـتاذ المطـوي أهـداف هذا النادي منذ البداية، وتتمثـل في تظـافر الجهـود، وشـحذ الهمم في المجال القصصي، ومن ثم كـان يـرمي فيمـا يـرمي إليـه الى جمع إنتاج الأقلام الشـابة الـتي كـانت موزعـة مشـتتة، والى بعث الماضي القصصي الوطني وإحيائـه، والى اكتشـاف الأقلام الفتيـة المتطلعة والمواهب التي تهفـو إلى الخلـق والإبـداع، وإلى الـدفع المتواصل النشيط بالذين ساروا بعد في هذا السبيل، ونحسب إن هـذا يقتضـي لا محالـة إزالـة الخمـول، ونفض الغبـار، والتعريـف بالإنتاج، والتشجيع على اقتنائه، حتى لا يبقى مجتمعنـا متخلفـا في هذا الميدان.

عاش الأستاذ المطوي" طوال حياته شغوفا بالمعرفة، كثـير القراءة، محبا للكتاب، كحبه لوطنه، ومصداق ذلـك تجنـده للـدفاع عن الكتاب تأليفا ونشرا وحماية، والاحتفال به غايـة الاحتفـال في مظاهر عديدة، منها مكتبته الزاخرة بشـتى العلـوم والفنـون، كمـا عاش محبـا للغـة العربيـة، وكـان من أبـرز أنصـار هـذه اللغـة في تونس، لأنهـا عمـاد هويتنـا التونسـية العربيـة الإسـلامية، فهـو بهـا يكتب، وعنهـا يـدافع، وإليهـا يـدعو، في الصـحافة، وفي المنـابر السياســية، وفي مــداولات مجلس النــواب، وفي التظــاهرات الثقافية، كما قال عنه الأستاذ محمد الهادي المطوي بحق.

وفيما يلي عرض لكتابه (من طرائـف التـاريخ) وقـد أهـداه لي، وكتبت عنــه في الإبــان،ونشــرت هــذا التقــديم في جريــدة (الصباح) تحت عنوان : الوجه الآخر للتاريخ، قلت:

انصب اهتمام المؤرخين العرب القدامى بدون استثناء على الجـانب الرسـمي من التـاريخ، فحـدثونا عن الخلفـاء والسـلاطين والولاة، وعن تعـاقب الـدول والحكـام، وكيـف تغلب هـذا الخليفـة

على شـقيقه وقتلـه، ليجلس على كرسـي الحكم، أو كيـف تحين الآخر الفرصة، ودخـل على أبيـه في سـريره واغتالـه، وأصـبح هـو الحاكم بأمره، وكيف سـمل هـذا عين الآخـر، وهلم جـرا من هـذه الأخبـــار الـــتي عرفناهـــا في دروس التـــاريخ، وملئت بهـــا كتب الأقدمين.

أما حياة الشعب أو الرعية، هذا الجانب المهم في التـاريخ، فلا نعرف عنه شيئا، وإن تحدثوا عنه فلا تجـد إلا السـخط والتـبرم والتحقير ، خاصة إذا ثار أحد من السـواد الأعظم على الخليفـة أو السلطان، فهو كافر ومارق وزنديق، ويستحق أن يمثل به ويقطـع دابره ، ليكون عبرة لغيره من الرعاع.

هكـذا نسـي المؤرخـون العامـة أو الشـعب أو تناسـوه، فلا تستطيع مثلا معرفة الحياة اليومية في القـيروان في عهـد الدولـة الأغلبيـة، إلا من خلال كتب الطبقـات الـتي تتحـدث عن العلمـاء والقضاة ومجالسهم واتصالهم بالناس، وإن وجدت هذه النصـوص فهي قليلـة لا تفي بـالغرض المطلـوب، إلا أنهـا رغم قلتهـا تلقي أضواء كاشفة على الجانب المفقود في كتب المـؤرخين، وهـو مـا قام به الأسـتاذ محمـد العروسـي المطـوي في كتابـه الـذي صـدر أخيرا تحت عنوان(من طرائف التاريخ)

وهذا الكتاب هـو ثمـرة لمطالعـات الأسـتاذ المطـوي لكتب التراث التونسي، فالرجـل حـتى آخـر لحظـة من حياتـه لا يفارقـه القلم والورق الذي يسجل فيه ما يقرأ أو ما يعن له أن يكتب، إنـه ثمـرة رحلتـه الطويلـة مـع الكتـاب، فقـد جمـع هـذه الأشـتات المتفرقـات من هنـا وهنـاك، وألـف بينهـا فكـانت هـذه الطرائـف الممتعـة من مهـاوي التـاريخ،فقـد اعتنت بأنـاس لا علاقـة لهم بالتاريخ الرسمي، وإن كان تأثيرهم في التـاريخ لا يقـل شـأنا عن غيره من العوامل المحركة للتاريخ وتغيير اتجاهاته.

وقد أرجع الأستاذ المطوي هذه النماذج البشرية إلى الإطار المكاني والزماني الذي ظهـرت فيـه، وهي موزعـة على الفـترات والعصور السياسية التي عرفتهـا تـونس منـذ عهـد الـولاة العـرب حتى عهد الدولـة الحفصـية، وحاكمهـا المستنصـر باللـه الحفصـي الذي فكر في الهرب وعزم عليه، عنـدما أراد الصـليبيون الهجـوم على تونس بقيادة لويس التاسع، وتصدى له الشعب بقيادة عمـار المعـروفي الـذي نسـيه النـاس والتـاريخ، واعتـبروه وليـا صـالحا، صاحب كرامات وخوارق، وقس على ذلك صاحب الحمار(أبو يزيد مخلد بن كيداد) الـذي اعتبرتـه المصـادر السـنية والشـيعية كـافرا ملحدا، يوضع في آخر الأمر في قفص، مع "قردان" يلعبـان عليـه، ثم يؤمر بسلخ جلده وحشوه تبنا.

ويبرز المؤلف دور العلماء في مقاومة الحكم الشيعي الذي انحرف عن الشريعة الإسلامية، وغالى في تقديس خلفائه، وذلك في فصل (بنود الفقهاء) والتعليق على هذه الثورات التي قام بها أشخاص، لم يحكموا الخطة،ولم يتضح أمامهم الهدف، يذكر المطوي ذلك عندما يتحدث عن احمد المسيلي أو الخياط الدعي، فهي ثورات لم تقم على أساس واضح، ولم تنبع عن مبادئ ومثل جاءت اثر فساد في الحكم، لكنها كانت تحمل نفس الفساد فلم تعمر، ولم يكتب لها النجاح.

إلا أن هذه الثورات والانتفاضات سجلت صفحات مشرقة في تاريخ الكفاح الشعبي ضد الغزاة والمتجبرين، وأبرز مثال على ذلك انتفاضة صفاقس ضد النورمان، وكذلك تضحية عمر الغرياني بأبيه الذي أخذه النصارى رهينة، يقتل عندما يثور ابنه ضد حكم النورمان بصفاقس، وهكذا كانت انتفاضة صفاقس على النورمان سببا في تحرير بلدان السواحل وزوالها من أيديهم.

وكذلك موقف محرز بن خلف ودوره في إبعاد الفتنة بين أهل تونس وأهل القيروان في عهد الدولة الصنهاجية، وفي عهد الأمير الصنهاجي باديس بالذات، فلولا تدخل العالم الصالح لدى باديس لوقع القتل في علماء تونس ووجهائها.

هذا هو الجانب الأكيد في هذا الكتاب إلى جانب التعريف ببعض الشعراء والعلماء العاملين الذين كانوا يحملون الكتاب بيد، وباليد الأخرى السيف للدفاع عن الدين والوطن.

ولنا أن نعتبر هذه الطرائف قصصا قصيرة حوت كل مميزات القصة من حوار ومشاهد والتركيز على بطل معين، مع الاهتمام بتطور الشخصية الرئيسية، ولاغرو فالمؤلف كاتب قصصي وروائي معروف، فقد استطاع أن يستغل التاريخ ويطوعه، ليجعل منه قصصا ممتعة وجذابة.

وأبرز هذه القصص في رأيي(ووالد وما ولد) و(المضحّك أبو عمار) الذي كان يظن أنه سيكون رحمة لأعداء سيده، وإذا به يتحول إلى سيف مسلط على رقاب العباد.

أما الباحث والمؤرخ فيجد في هذه الطرائف بغيته، إذ هناك جمع للمعلومات المتفرقة في المصادر القديمة مع التأليف بينها، ونقد الروايات وغربلتها، واختيار ما يتناسب مع المنطق التاريخي وطبيعة الأشياء.

وبعد فالكتاب ممتع وشيق في لغته وأسلوبه، ويجد فيه كل القراء على اختلاف مشاربهم متعة خاصة، إذ أنه يتحدث عن المغمورين وعامة الشعب، هذا الجندي المجهول الذي يدافع عن المبادئ والقيم،ويموت من أجلها دون أن يلتفت إليه أحد، وأخيرا

فما ورد في هذا الكتاب من أوله إلى آخره هو الوجه الآخر للتاريخ، كما أشار إلى ذلك الأستاذ المطوي بحق في مقدمته.

ونختم هذه الانطباعات عن الأستاذ المطوي بنقل فقرات من كتاب(طرائف التاريخ) ومن قصة (عمار المعروفي) وهي آخر عنوان في هذا الكتاب، وعمار المعروفي عاش في عهد المستنصر بالله الحفصي، الذي بويع بالخلافة بعد سقوط بغداد، وفي عهده هجم لويس التاسع على تونس في نطاق الحروب الصليبية، يقول المطوي: فماذا كان موقف أمير المؤمنين من هذه الغزوة؟ وهل كان في مستوى الأمل الذي بسببه جاءته البيعة من مكة؟

إن الواقع التاريخي يأتي بعكس ذلك، وأن الاستعداد الحربي لهذا الخليفة لم يكن بقادر على رد العدوان، حتى أنه فكر في الهجرة عن تونس، بل استعد للرحيل الى مدينة قسنطينة(...) ولم يخرج المستنصر لقتال الغزاة، وهم محتلون لقرطاج على أميال قليلة منه، مكتفيا بارسال الجيوش إليهم، ولولا تفشي الوباء في الجيوش المتحاربة، وموت لويس التاسع زعيم المتحالفين الغزاة.

لقد ذكروا عن الحادثة ان عدد المقاتلين المسلمين كان أربعين ألف رجل ، وقد جرت بينهم وبين الغزاة عدة معارك في السهول الواقعة بين هضبة قرطاج وبحيرة تونس، ولكن هذه المعارك لم تكن تمثل قوة البلاد والجيش الرسمي لها، بل كانت أساسا تمثل القوى الشعبية من المتطوعة للجهاد الذين جاؤوا من جهات مختلفة، وخاصة القيروان، وكان زعيم المقاومة الشعبية أبو علي عمار المعروفي، أحد صلحاء القيروان وزهادها، فما أن سمع بما حل بقرطاج حتى اخذ يحرض الناس على الجهاد في القيروان والأرياف، وما وصل تونس حتى كان معه عشرات الآلاف(...)

وتناسى الناس بطولة زعيم المقاومة الشعبية، وظل في أذهانهم ذلك الولي الصالح صاحب الكرامات والخوارق، ومحل البركة والتوسل، بينما الجانب الايجابي منه طواه الزمن، ونسج عليه عنكبوت التخلف شبكة الوهن والخنوع والاستسلام، وظل مدح المستنصر مدونا في كتب التاريخ لا يشير إلى هزيمة، ولا يحدد غرامة، وتلك غريبة من غرائب التاريخ.

رحم الله محمد العروسي المطوي، وجازاه الله عما قدم من خدمات للثقافة التونسية.

البشير العريبي

قصير القامة، أسمر البشرة، ضعيف البنية، حاضر البديهة، سهل المعاشرة، من شيمه التواضع، ومعاملة من يعرف من الناس باللين والرفق، واسع الثقافة، يلجأ إليه الكثير من الباحثين وأساتذة الجامعة، للسؤال عن مسألة في النحو، أو بيت شعري لا يعرف صاحبه، وهو بالتالي علم بارز في دنيا الثقافة والأدب، وقائد من قواد الكشافة، ومحدث إذاعي بارع، ومرب فصيح، وشاعر، سخر الكثير منه لرثاء الأدباء والعلماء، فتجده حاضرا في كل منبر، وخاصة في ذكرى الأربعين، وهو ناقد له في مجالس الأدب والفكر كلمته ورأيه الحصيف، ويذكرنا هذا التنوع في ثقافته بالعلماء السابقين الذين أخذوا من كل علم بطرف، فهو شاعر وناقد وكاتب ورحالة وصحفي، وصاحب أحاديث إذاعية يحرص الناس على سماعها كل صباح، وهو أخيرا خطاط مجيد، وله مشاركة في الصحف والمجلات تدل على مشاركته في الحركة الأدبية والفكرية في تونس مشاركة فعالة.

ويكفي أن نذكر أنه نشر بالصحف والمجلات التالية لنتبين مدى مساهمته في الحياة الثقافية والفكرية بتونس، فقد نشر في مجلة الشبان التونسيين، ومجلة الفكر، والندوة، والنهضة، والصباح، والعمل، وجوهر الإسلام، ومجلة السبيل الكشفية، وكان هو صاحب ركن(أدباؤنا بأقلامهم) بمجلة الندوة التي قدمت أدباء وعلماء من أمثال حسن حسني عبد الوهاب، ومحمد العربي الكبادي، ومحمد الحليوي، وشارك في إعداد كتب مدرسية، وهي التعليم والتعليم الزيتوني مع محمد العروسي المطوي، والتربية الإسلامية، والاجتهاد والتجديد الذي يعد من أهم المراجع بالنسبة للكثير من الباحثين في الفقه والتشريع، كما ألقى محاضرة دينية في ليلة القدر أمام الرئيس الحبيب بورقيبة،عنوانها(الحضارة الإسلامية بين أمسها الزاهر وغدها المأمول) ويبدو أن عنوانها لا يدل على موضوعها كما ذكر لي،وأسس مع محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي(نادي القلم بتونس).

ونشير إلى أنه فاز في مسابقة النشيد الوطني الليبي التي شارك فيها الكثير من شعراء البلاد العربية، وقام بتلحين النشيد الموسيقار محمد عبد الوهاب، وكان آخر نشاط له إشرافه على رئاسة تحرير مجلة الهداية التي أصدرتها الوزارة الأولى في البداية سنة 1973 وحرر افتتاحياتها منذ عددها الأول حتى سنة 1986

ونريد أن نهتم بجانب من نشاطه الأدبي، وهو فن المقالة عنده، تاركين الجوانب الأخرى من نشاطه العلمي والفكري إلى فرصة أخرى.

ارتبط فن المقالة أساسا بظهور الصحافة عند العرب، ومعنى ذلك أن هذا الفن لم يعرف في الأدب العربي إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، صحيح أن بذور هذا الجنس الأدبي قد وجد عرضا

في أدب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكـاتب، وخاصـة في الفن الموسوم عندهم بالرسائل.

ولم يختلـف النقـاد على شـيء كـاختلافهم على تعريـف المقـال وتحديده، ولا يتسع المجال لذكر هذه التعاريف، ونكتفي بالتعريف الذي اقترحه محمد يوسف نجم، وهو أن المقالة الأدبية قطعة نثرية محـدودة الطـول والموضـوع، تكتب بطريقـة عفويـة سـريعة، خاليـة من الكلفـة والرهق، وشرطها الأول أن تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب، أما ما هي الشروط التي لا بد من توفرها في هذا النوع من الأدب؟ فيجيبنا زكي نجيب محمود قائلا: شروط المقالة الأدبية أن يكون الأديب ناقمـا، وأن تكون النقمة خفيفة، يشيع منها لون باهت من التفكه الجميل، فإن التمسـت في مقالـة الأديب نقمـة على وضـع من أوضـاع النـاس فلم تجدها، وإن افتقدت في مقالـة الأديب هـذا اللـون من الفكاهـة الحلـوة المستساغة فلم تصبه، فاعلم أن المقالة ليسـت من الأدب الرفيـع في كثير أو قليل، مهما تكن بارعة الأسلوب رائعة الفكرة.

فالنقمة والتفكه الجميل شرطان ضروريان لنجاح المقالة الأدبيـة وامتيازها، لأن النقمة والسخرية ينبعان من شخصية الكـاتب، ويعـبران عن موقفه إزاء ما يصـادفه في حياتـه من ألـوان التحـدي، واسـتخفاف الناس بالقيم والمبادئ التي يؤمن بها الكاتب والمجتمع عموما، ويـدعو إلى التشـبث بهـا، فمـا صـدى تنظـير النقـاد للمقالـة في أدب العريـبي المقالي؟

إن المقالات التي رجعنا إليها، واعتمدناها في هذه الخواطر كتب معظمها في أوائـل الاسـتقلال، والدولـة الجديـدة تبحث عن الاختيـارات الكـبرى لبنـاء هياكلهـا الثقافيـة ومؤسسـاتها الاجتماعيـة والاقتصـادية والإدارية، على أسس تـراعي هويتهـا الحضـارية، بعـد أن تعرضـت تلـك الهوية للتشويه والمسخ من قبـل الاسـتعمار الفرنسـي الـذي جثم على البلاد طيلة عقود من السنين.

وتشعبت السبل أمـام النخبـة المثقفـة، وتبـاينت الاتجاهـات، كمـا حدث في كثير من البلدان الحديثة عهد بالاستقلال، وكانت هذه الأسئلة تتردد على السنة المثقفين وأقلام الكتاب: هل نتوجه إلى الشرق مهبط الإسلام واللغة العربية، أم نيمم وجهنا شطر الغرب، صـاحب الحضـارة القوية والحياة المغرية، أم نجمع بين أصالة الحضارة العربية الإسلامية، وما به تقدم الغرب، ثم حصروا تساؤلهم في اللغة التي يجب ان تكـون وسيلة لتعليم الناشئة في المدارس والمعاهد والكليات، هل هي العربية أم اللغة الفرنسية أو اللغة الانجليزية، خاصة وقد انتظر معظم السـكان في تونس رحيل جنود الاستعمار، ورحيل لغتهم معهم، هذه اللغـة الـتي ارتبطت بـألوان التعـذيب في السـجون والمنـافي والمحتشـدات، وإذا بالجنود يرحلون وتبقى لغتهم معززة مكرمة، كانت هـذه الأفكـار تتلجلج

في صــدور الكثــير من المثقفين، وهم في غمــرة الفــرح بالاســتقلال والنصر وطرد الأجنبي من بلادهم.

وتبعا للتحول الذي عرفتـه البلـدان العربيـة من الاسـتعمار إلى الاستقلال، تغيرت سمات المقالة الأدبية، فتحولت من طور التلميح إلى مرحلة التصريح، وانتعشت الحركة الأدبية والفكريـة في تـونس بظهـور ما يسميه طه حسين بالخصام والنقد، وانعكست هذه المعركة في أدب فجر الاستقلال، وخاصة في فن المقالة الأدبيـة، فـافتح صـفحات مجلـة الفكر، أو مجلة الشباب فسترى هذا الحوار حول مسـتقبل الثقافـة في تونس.

وبالفعل خصصت مجلة الفكر في سنتها الأولى عددا خاصا حــول هذا الموضوع المذكور، وقد عرض البشير العريـبي محتـوى هـذا العـدد عرضا نقديا، وفي لهجة لا تخلو من تفكه وسـخرية خفيفـة وإمتـاع، مـع وضوح الفكرة، وبراعة في التعبير، وجمال في الأسلوب، وتشــعر وأنت مقبـل على قـراءة هـذا العـرض وغـيره بمداعبـة الكـاتب لرفـاق القلم والفكر، وتصل هذه المداعبة أحيانـا إلى مسـتوى الخصـام والعتـاب، ثم اللوم والتقريع في أحيان أخرى، كل ذلك في محاولة من الكاتب لإقناع قرائه وخصومه بسداد رأيه المتمثل في أن الثقافة لا يمكن تقسيمها أو تجزئتها إلى ثقافة شرقية وثقافة غربية، بـل هي ثقافـة إنسـانية، وكـان العريبي يواجه تيارا قويـا يـرى أن اللغـة الفرنسـية هي اللغـة المختـارة للتعليم، في حين يرى هو ان اللغة الانجليزيــة هي الـتي يمكن اختيارهـا لتعليم أبنائنا، وبذلك نبتعد عن لغة الجنـدرمي الـذي كـان يخيـف القـوم بهذه اللغة.

ثم عرض الأسـتاذ العريـبي عـدد الفكـر الخـاص بالثقافـة عرضـا نقديا، وقد قدم المشاركون في هذا العدد رأيهم في الثقافـة وتعـريفهم لها، واختار من هذه التعاريف ما يلائم وجهة نظره، والتعريف للمرحــوم أحمد عبـد السـلام يقـول فيـه: إن الثقافـة وعي، وتقـاس ثقافـة الفـرد بدرجة وعيه للكون، ومنزلته في الكون، وثقافة الأمـة وعيهـا لمنزلتهـا في الوجود، والثقافة نزوع إلى الكمال، ولا يتم هذا الكمال إلا بالعمل.

وتتحــول المقالــة عنــد العريــبي إلى حواريــة يجريهــا بينــه وبين المخـالفين في الـرأي، فيسـتدرج المخـالف في لين ورفـق، فـإن تيقن الانتبـاه إليـه، وشـده إلى مـا يقـول وثب عليـه وصـرعه، فهـو يخـاطب خصمه في البدايـة بيـا أخي، ويغـدق عليـه ألفـاظ الشـكر والتحيـات،ثم يصبح هذا المخالف أستاذا خاطئا، وجاهلا بتـاريخ الأدب، ثم ينتهي معــه على وفـاق، ويـودع صـديقه الحميم، وهـذا الأسـلوب مـع المخـالف في الحــوار ليس حبــا في الخصــام أو إثــارة للشــخص، بــل ينــدرج ضــمن مميزات المقالة عنده، وهو أنه يؤثر الصراحة على الكتمـان" فمـا كـان

من الحملات هادئا رصينا لا يرمي إلى الإثارة والتحدي، بل يهدف إلى الإصلاح والإقناع"

لقد أصبحت المقالة عند البشير العريبي أثرا فنيا، يمتزج فيه الأدب الوصفي بالإنشائي، وتبرز هذه الظاهرة خاصة في مقاله الطريف(بين العقاد وشوقي)

وقلنا إنها مقالة طريفة، لأنها على قصرها، وعلى قدر ما ألف حول خصومة العقاد مع شوقي من الكتب والمقالات قد ألمت بمعركة أدبية وقعت في الثلث الأول من القرن العشرين، لا تقل حدة عن المعركة بين طه حسن وخصومه حول كتابه في الشعر الجاهلي، فقد اتخذ العريبي من احتفال المصريين بشوقي بعد مرور ربع قرن على وفاته موضوعا لمقالته، ليبرز اتجاهه الأدبي، وليحيط بأسباب الخصومة بين أنصار شوقي ومحبي شعره من جهة، وبين العقاد الذي أنكر على شوقي أن يكون شعره متميزا من جهة ثانية، وهي خصومة سياسية واجتماعية في المقام الأول، ثم أدبية بعد ذلك.

وإزاء تمسك العقاد برأيه في أدب شوقي بعد مرور ربع قرن على وفاته المتمثل في أن شوقي لا يصلح لتمثيل الشعر في عصره، وإن إسناد إمارة الشعر إليه هي ضرب من العبث والخور، إزاء ذلك تجاذبت العريبي نفسان أحدهما مطمئنة والأخرى شاكة.

قالت الأولى : لو تملكت العقاد رصانة الشيوخ حقا لما كتب في الهلال عن شوقي بعد خمس وعشرين سنة من وفاته، أو لما أصر على ما كان له فيه، وفي أدبه من رأي، رغم اعترافه بأن هذا الأمد الطويل قد غير مقاييس الأدب والنقد، وموازين الثقافة على وجه العموم، إن أقل ما في هذه الكتابة، إنها تطبع أحكام العقاد بالجور، وتصمها بالتحجر والجمود، إذ هي لا تتأثر بما اختلف من أزمان، ولا تتطور مع تطور المعايير النقدية في العالم.

وتجيبه النفس الثانية: لا جمود ولا تحجر، فليس حقا أن من مستلزمات الرصانة في الشيوخ أن يتنكروا لما اقتنعوا به يوما من الآراء، وليس من مستتبعات تداول الأجيال، واختلاف الأيام والأعوام ان تختلف الحقائق، فيصبح قويا ما كان بالأمس ضعيفا، وحسنا ما كان ينعت في الماضي بالقبح، ويلمز بالسوء.

ويخلص العريبي بعد ذلك إلى أن ما كان بين العقاد وشوقي من اختلاف جوهري كان على صلة وثيقة بالمشاكل الذاتية بين الأديبين، وبالمذهب الأدبي الذي كان لكل منهما، وبالوجهة السياسية التي يتجه إليها هذا وذاك.

وبعد أن أحاط بالأسباب والملابسات الخفية، والتي أثارت الخصومة بين العقاد وأنصار شوقي يقول: أحسب أن من أوثق الأسباب صلة بهذه النفرة بين العقاد وشوقي أن آية شوقي محت كل

آية من آداب العرب في عصره، وشعره بز كل شعر في مصـر، وذكـره أخمل كل ذكر، وذاته حجبت كل ذات، فإذا شاعر الأمـراء شـوقي أمـير الشعراء، وإذا كل شاعر عداه طفل، وكل شعر عداه لغـو، وكـل قصـيد أو نشيد يتقدم به غيره إلى النـاس لا يفـوز برضـاهم، ومن الـذين كـان يحجبهم شوقي بحق وبغير حق صاحبنا العقاد.

هذه المقالات التي مضى على كتابتها أكثر من نصف قرن، مـا زال لها بريقها، لأنها نابعة من ذات الكاتب ومعـبرة عن موقفـه إزاء مـا تعج بـه السـاحة الثقافيـة والأدبيـة في تـونس قبيـل الاسـتقلال وبعـده، ويبقى رأيه في شوقي هو الذي يعول عليه، فمـا زال شـعر شـوقي لـه بريقه، وهذا البريق واللمعان يزداد كل يـوم بعـد هـذه الدراسـات الـتي كتبت حول شعره،وأبرزت ما له من براعة وتفوق في الفن الشعري.

وتتضـح القيمـة الفنيـة والأدبيـة في أدب العريـبي في ترجمتـه أو تعريفـه بـوجهين من وجـوه السياسـة والأدب في تـونس، أعـني بهمـا فرحـات حشـاد بطـل الكفـاح الاجتمـاعي والنقـابي، ومحمـد العريـبي الشاعر الغنـائي المشـهور، والمقالتـان تنـدرجان فيمـا يسـمى بمقالـة الترجمة أو السيرة، فمـاذا يمكن أن يقـال في مقالـة واحـدة عن كفـاح حشاد النقابي، وجهاد هذا الزعيم الشهيد.

إن الإحاطة بكفاح هذا الرجل ونشاطه الاجتمـاعي لا يمكن أن يلم به كاتب في صفحات قليلة، مهما اوتي من براعة، والكـاتب الفنـان هـو الذي يلجأ إلى اختيار الأحداث المعبرة عن هذه الشخصية، والتي تصور بحق تفرد هذا الرجـل وعظمتـه، وقـد سـار العريـبي على هـذا الـدرب، فسجل بأسلوب أدبي رائق ما رآه يعكس ملامح شخصية حشـاد، ويـبرز الجانب الوطني والإنساني فيه، فاختـار موقفـا وطنيـا كـان فيـه حشـاد رائدا، فقد أقنع خصومه من الفرنسيين وغيرهم بأن من حق التونسـيين كبشـر أن يطـالبوا بالحريـة، ويهتفـوا بالاسـتقلال، فكيـف تصـبح هـذه المطالبة بهذه الحقوق المشروعة جناية تستحق العقوبة، ثم موقفه من اغتصاب فلسطين سـنة 1948 عنـدما أعلن الإضـراب العـام لمناصـرة الفلسـطينيين في محنتهم، وقـام حشـاد بـدور بـارز في إنجـاح يـوم فلسطين، رغم منع السلطات الاستعمارية من القيام به.

لا يحـدثك العريـبي عن حشـاد الإنسـان والمناضـل فقـط، وإنمـا يحدثك عن ذكرياته معه، فهو شاهد عيان لنشاط حشـاد، ومشـارك في هذا النشاط، ولا ينبئك مثل خبير.

وقس على ذلـك بقيـة الأعلام الـتي اهتم بهـا العريـبي، ومنهـا الشاعر الغنائي محمد العريـبي، فقـد عرفنـا هـذه الشخصـية المتقلبـة، وعرفنا من خلالها جماعة تحت السور التي كتب عنها الكثير من الأدباء، ولكن هل يبلغ مـا كتب عنـه شـأو مـا كتبـه البشـير العريـبي عن سـميه الشاعر محمد العريبي، لقد رافقه في هـذا المقـال منـذ صـباه، وتنقـل

معه من طور إلى طور، ومن بيئة إلى أخرى، حتى وفاته بباريس إما منتحرا أو تسرب إلى غرفته الغاز فكتم أنفاسه.

واضح أن مقالات العريبي التي أشرنا إلى نماذج منها تستجيب للشروط التي وضعها دارسو فن المقالة، وقد رأينا جانبا منها أعلاه، كما تصور هذه المقالات مشاعر الكاتب وأحاسيسه ومواقفه من قضايا عصره، كما تعكس شواغل المثقفين واهتماماتهم في العهد الذي كتبت فيه، وتبرز مدى تطور الأدب المقالي في تونس بعيد الاستقلال. وأخيرا أقول عن قرابتي للبشير العريبي كما قال هو نفسه عن الشاعر الغنائي محمد العريبي: ليس محمد العريبي الذي أتحدث عنه واحدا من أقربائي، وإن توهم بعض الذين عرفوني وعرفوه، وكاشفوني بوهمهم هذا، وأنا أقول: إن البشير العريبي أخي(المولود سنة 1920) وصديقي وكفى، متعه الله بالصحة والعافية.

حمـــدة سليـــم

عرفته، وأنا تلميـذ بالمرحلـة الأولى من التعليم الثـانوي مـديرا للمكتبة العمومية بنهج الجبل، قـرب حي الحفصـية، أبيض البشـرة، مـع ميل إلى الحمرة، جميل الوجه، ليس بالطويل ولا بالقصير، يرتـدي حلـة إفرنجية أنيقة، ويضع على رأسه طربوشا مجيديا، أكسبه مهابة ووقارا.

ثم التقيت به، وهو في عشرة الثمانين، فالرجل من مواليد 10 سبتمبر 1923 بالمكنين من ولاية المنستير، متخرج من جامع الزيتونة، ومتحصل على شهادة التحصيل والحقوق التونسـية والعالميـة، وشـهادة الدكتوراه في الآداب من جامعـة السـربون، وأحيـل على التقاعـد سـنة 1983

ما زال وجهه، رغم تقدمه في السـن، يتـوهج حمـرة، ومـا زال يحتفـظ بكـل تقاسـيم وجهـه، فلم تغـير السـنون منـه شـيئا، مـا عـدا الطربوش المجيـدي الـذي اختفى من على رأسـه،كمـا اختفى من على رؤوس التونسيين جميعـا، ولم تعـد تلـك الأناقـة في ملبسـه الـتي كـان يتحلى بها عندما كـان حافظـا لمكتبـة نهج الجبـل، وكنـا نظن أنـه طلّـق الكتب إلى غـير رجعـة، فهـو عمـل كـان يسـترزق منـه، وهـو الآن ينعم بالراحة في مرحلة التقاعد، إلا أن هذا كان وهما بالنسبة لي.

فمـا زال، وهـو في هـذه المرحلـة من العمـر، يفكـر ويبحث في كيفية التعريف بالكتاب التونسي لدى القراء والباحثين، ومـا زال يحمـل كيسا من البلاستيك مثقلا بالجذاذات، كل جذاذة هي عبـارة عن بطاقـة تعريـف للكتـاب التونسـي ولمؤلفـه، يعترضـك في الصـباح في أوقـات محددة قرب محطة القطـار بتـونس العاصـمة، أو في نهج الجزيـرة، أو قرب جامع الزيتونة، ولا تسـتطيع اللحـاق بـه، لأنـه يسـرع في مشـيته، وتـــراه يمـــر من نهج جـــامع الزيتونـــة، وعنـــدما يقـــترب من جمعيـــة الأوقاف(مقر قسم الدوريات التابع لدار الكتب الوطنية سـابقا) يخفـف من مشـيته، ثم يلتفت عن يمينـه، قبـل أن يصـل إلى المكتبـة العتيقـة، فينظر إلى بـاب مغلـق، عنـدما يفتح يجـد درجـا يصـعد بـه إلى الطـابق الأول، فيذكر مكتبة التلميذ الزيتوني التي أسسها قبـل أكـثر من سـتين عاما.

هذا الرجل هو حمدة سليم الذي يعد من أوائل المكتبيين بتونس الـذين خـدموا الكتـاب التونسـي خدمـة جليلـة، فقـد أسـس، وهـو في العشرين من عمره،مكتبة التلميذ الزيتوني(1942) التي كـان لهـا الأثـر الفعال في تقريب الكتاب العربي من التلامـذة والطلاب، وتـرغبهم في

القراءة والمطالعة ، وقد كان لهذه المكتبة دور كبير في نشـر الثقافـة، وتدعيم اللغة العربية، ومزاحمة المكتبات التي تشـرف عليهـا الرابطـة الفرنسية، التي كانت تؤازرها الإدارة الاستعمارية، لنشر اللغة الفرنسية بين الشباب.

ويوجد بمكتبة التلميذ الزيتوني مكتب إرشاد وتوجيه، يتولى متابعة نشاط القراء، وتصـحيح كتابـاتهم الـتي يلخصـونها من مطالعـاتهم، وقـد أصـــدر هـــذا المكتب ســـنة 1952 نشـــرية للتثقيـــف والتوجيـــه تحت عنوان(الدرس المتجول) تشـتمل على دروس تكميليـة باللغـة العربيـة في العلوم الرياضية واللغوية والدراسات الأدبية والتاريخية، تتماشى مع شهادات الأهلية والتحصيل والبكالوريا، وذلك لمساعدة الطلبة وغــيرهم من الراغبين في متابعة هذه الدروس بالمراسلة في الـداخل والخـارج، ولتعزيز الرسالة العلميـة لجـامع الزيتونـة، ونشـرها في العـالم، وهكـذا كانت مكتبة التلميـذ الزيتـوني مكتبـة توجيـه وإرشـاد، ومدرسـة حديثـة للتعليم بالمراسـلة، بالإضـافة إلى وظيفتهـا الأساسـية، وهي المطالعـة وتقريب الكتاب العربي إلى الشباب التونسي.

ولا شـك أن البـاحثين الـذين سـيهتمون بالجامعـات الحـرة الـتي أنشئت بتـونس سـيذكرون دور الأسـتاذ حمـدة سـليم في تأسـيس أول جامعـة حـرة، والمتمثلـة في الـدرس المتجـول المـذكور، وهي نشـرية تحتــوي كمــا ذكرنــا على دروس فيهــا حلــول لمشــاكل ومســائل في الرياضيات، وتحرير مقالات تساعد الطالب والتلميذ الذي يتهيأ لامتحان شهادتي التحصيل والبكالوريـا، على غـرار مـا يقـوم بـه معهـد التكـوين المستمر بباردو الآن، إذ يرسل هذا المعهد وثائق الـدروس إلى أسـاتذة المعاهـد الثانويـة في جهـات الجمهوريـة، ثم يجـري عليهم امتحانـا في المعهد المذكور قصد تحسين مستواهم العلمي والمهني.

وأسس حمدة سليم سنة 1959 مكتبة الأطفال والشباب العامة، وهي أول مكتبة من هذا النوع بتونس، وقـد فتحت بابـا كـان مغلقـا في وجه الأطفال للمطالعة العامة، وغرس عادة القـراءة فيهم، زيـادة على ما هيأته لهم من أنشـطة تربويـة وترفيهيـة وجماليـة في سـاعة القصـة وساعة الرسم والمسرح وغيرها، وكان لظهور هذه المكتبة الفريدة من نوعها بتونس الأثر الكبير في نفوس الأطفال، كما كان لهـا الفضـل في نشر مكتبات ونوادي الاطفال بالجمهورية سنة 1962 وما بعدها.

وبجانب مكتبة الأطفال والشباب أسـس حمـدة سـليم دار الكتب الزيتونية العامة، وهي مكتبة نموذجية تأسست سنة 1955، وتمتاز هذه المكتبة برصـيد كتبهـا المختـارة الـذي يرجـع إلى رصـيد مكتبـة التلميـذ الزيتوني، وبمجاميع الصحف والمجلات العربية التونسية وغير التونسية، وفهارسها المتنوعة، وقسـم الخرائـط والصـور، ومختلـف انشـطتها من العروض السينمائية وناد للمطالعة، ونـادي القصـة، ونـادي أبي القاسـم

الشابي، والمعارض المتجددة للكتب، وركن للأطفال الذي لم يسبق لـه مثيل بالمكتبات الموجودة.

وكانت هذه المكتبة تشغل علوا بنهج الجبـل عـد 18 مكـرر، كـان سـابقا مقـرا للحـزب الحـر الدسـتوري التونسـي، وبـه عقـد مـؤتمره المعـروف بمـؤتمر نهج الجبـل، وتقـع هـذه المكتبـة بـالقرب من جـامع الزيتونة، ومن مدارس سكنى الطلبة، مما يشـجعهم على الـتردد عليهـا في مراجعـاتهم ومطالعـاتهم، بالإضـافة إلى مختلـف القـراء الوافـدين عليها من باحثين ودارسين وعموم المواطنين الذين يجدون فيها جميعـا مرغـوبهم من الكتب، ومـا يتـوفر فيهـا من المراجـع العامـة والخاصـة وغيرهـا، وهي أول مكتبـة نموذجيـة عامـة ، حسـب مواصـفات منظمـة اليونسكو، ولم يقتصـر دورهـا على إعـارة الكتب في القاعـة، بـل كـان حمدة سليم يعمل على الترغيب في المطالعـة، وذلـك بـدعوة التلامـذة والشبان إلى تلخيص للكتاب الذي طالعوه، ثم يعلق تلــك التلاخيص في أروقة المكتبة تشجيعا لأصحابها، وكنت أنا من بين هـؤلاء الـذين علقت تلاخيصـهم، وقـد شـعرت يومهـا بالفرحـة عنـدما رأيت تلخيصـي لبعض الكتب التي طالعتها معلقا، وقد ذكر اسمي بهذا التلخيص.

وقــد مكنتــه حكومــة الاســتقلال من الالتحــاق بفرنســا للقيــام بتربصــات تحســينية، والاطلاع على تنظيم المكتبــات بهــا، مــع متابعــة دروس في فن المكتبات التي تنظمهـا جامعـة السـربون آنـذاك، وقـدم قسما من بحثه "معجم المـؤلفين التونسـيين" لنيـل شـهادة الـدكتوراه من الجامعة المذكورة(1970).

وبعـد عودتـه من فرنسـا أسـس جمعيـة أمنـاء المكتبـات، وأصـبح رئيسـا لهـا، وهي أول جمعيـة تهتم بقطـاع المكتبـات، وحـرر في هـذه الفترة اللائحة الإصلاحية للمكتبات بتونس، التي اعتمدت كوثيقة رسمية في ندوة بيروت المنظمة من قبل اليونسكو سنة 1960

وأسندت له كتابة الدولـة للثقافـة والإعلام بعـد ممارسـته للكتـاب فهرسة وتوثيقا خطة مدير المكتبات العموميـة(1962) ثم رئيس مركـز الوثائق(1965) فرئيس مركـز الإعلام والأخبـار(1967) ووقـع ترشـيحه من قبل وزارة الثقافـة ليشـغل خطـة رئيسـية ومتخصصـة في منظمـة الألكسو، بعد إحالته على التقاعد.

وقد مكنته معاشرة الكتاب طيلة حياته المهنيـة وصـحبته الدائمـة له من تأسيس وكالة تونسية للتوثيق، غايتها تنمية القراءة والمعلومات، وقـد أنجـزت عـدة أعمـال لا تخلـو من طرافـة وابتكـار، منهـا المكتبـة الإعلامية للجميع، وهي مكتبة تعمـل على دعم الثقافـة الوطنيـة، ونشـر التوثيق والمعلومات، وتنميـة القـراءة الهادفـة، والقـراءة السـريعة في مختلف الأوساط، وهي في شكل بطاقات حسب مواصـفات دوليـة من حيث قياس الجـذاذة والأرقـام الـتي تحملهـا، مصـنفة حسـب التصـنيف

الدولي العشري، وكل بطاقة تحتوي على المعلومات البيبلوغرافية، مـع تلخيص لمحتوى الكتاب، وهدفها التعريف بـالكتب الصـادرة بتـونس في كل عام، وتكوين مجموعات مكتبات وثائقية للجميع في مختلف العلـوم والفنون، وتكوين فهارس جاهزة لمساعدة أصحاب المكتبات والبـاحثين والدارسين، بحيث يمكن بواسطة هذه البطاقات الثقافية امتلاك مكتبـة وثائقية متخصصة، تفتح لصاحبها الآفاق العلميـة، يمكن لـه كـذلك بهـذه المكتبة متابعة الحركة الأدبية والفكرية المعاصرة بتونس.

ولم يترك مبتكر هذه الوثائقية وسيلة للفت الانتباه إلى الكتاب التونسي، والترغيب في قراءته إلا اتبعهـا وجربهـا، من ذلـك أنـه ألصـق على جذاذة الكتـاب قطعـة بسـكويت، وكتب فوقهـا:" اقضـم، فالكتـاب كـالخبز" ثم اثبت تحت تلـك القطعـة الشـعار الآتي" القـراءة أسـاس المعرفة، أو القراءة للجميع"

ويمكن للباحث في الكتاب التونسي أن يتعرف إلى كل المؤلفات التي أصدرها التونسيون في جميع مجالات المعرفة، عند الحصـول على هذه البطاقات وضمها إلى بعضـها، وواضـح أن هـذا المجهـود بـذل فيـه حمـدة سـليم من جهـده الشـيء الكثـير، وأعطـاه من خبرتـه بشـؤون المكتبات، وممارسة العمل الوثائقي ما جعله متميزا متفردا، كما يقـول زميله البشير العريبي، الـذي اسـتعان بـه حمـدة سـليم في فن الخـط، ومعلوم أن البشير العريبي يعتبر من رواد الخط العربي في تونس.

ولا شـك أن حمـدة سـليم قيـدوم الـترغيب في المطالعـة، وأب الأطفال، وصديق الكتاب، قد جمـع من اشـتغاله بالعمـل في المكتبـات معلومـات ثريـة وطريفـة عن المكتبـات والكتـاب والعلمـاء والأدبـاء والمفكـرين والصـحافيين الـذين نشـؤوا بـالبلاد التونسـية، ولـه من المؤلفات التي تنتظر الطبع الشيء الكثير.

ولنـا أن نـذكر على سـبيل المثـال مؤلفاتـه عن تـاريخ المكتبـات بتـونس، ومصـادر الدراسـات التونسـية، ولـه معـاجم نـذكر منهـا معجم المؤلفين التونسيين،وقد سبق ذكره، ومعجم الأنساب والأسـر بتـونس، ومعجم الصناعات التونسـية، ومعجم البلـدان التونسـية، ومعجم الأعلام التونسـيين، ومصـادر الدراسـات التونسـية، وتـاريخ المكتبـات بتـونس وغيرها، واهتمامه بمسـيرة الكتـاب والثقافـة بتـونس يـدل على مـدى تعلقه بهـذه التربـة الـتي أنجبت، ومـا زالت تنجب، الكفـاءات العلميـة، وأصحاب الابتكارات الطريفة.

لقد أمضى حمدة سليم صديق الكتاب ورفيقه المخلص أكـثر من نصف قرن في صـحبة المؤلفـات التونسـية، وأمهـات المصـادر العربيـة والفرنسية، وكانت نتيجة هـذه الصـحبة مجموعـة من الكتب والحصـول على معلومات نادرة تتعلق بتاريخ تونس وحضارتها.

وما زال حمدة سليم يذرع شوارع تونس القريبة من محطة الأرتال جيئة وذهابا، وبيده كيس من هذه الأكياس البلاستكية مملوء بالجذاذات والبطاقات، ويكاد الكيس يلامس الأرض، فقد تقوس ظهره، ويكاد يمشي على أربع، ولا ينظر إلا لموضع قدميه، أما ما حوله من المارة فلا يلتفت إليهم، وقفت أنظر إليه، وهو يسرع كعادته في مشيته، وهو على تلك الحال، وقلت كما قال المسرحي اليوناني سوفوكل في رائعته(أوديب) متحدثا عن مسيرة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، وذلك في شكل لغز: يمشي في الصباح على أربع، وفي منتصف النهار على اثنين، وفي المساء على ثلاثة، ولم انتبه إلى حمدة سليم، هل كانت بيده عصا أم لا،ومن أجل الكتاب يهون كل شيء، حتى ولو أدى الأمر إلى أن يمشي الإنسان على أربع.

أبو القاسم محمـــــد كرو

أذكر أنني عرفت أبا القاسم محمد كرو من خلال كتابه (شخصيات أدبية) سنة (1960) وهو كتاب مدرسي يتعرض بالدرس

لشخصيات أدبية من المشرق والمغرب، ثم من خلال سلسلة (البعث) التي أصدرها بعد عودته من المشرق، وكذا كتابه عن (الشابي وصداه في الشرق) هذا بالإضافة إلى متابعة نشاطه إن بالصحف والمجلات أو بالإذاعة، وبصفة عامة كان اسمه ملء الأسماع، تماما كمحمود المسعدي ومحمد العروسي المطوي من المعاصرين والطاهر الحداد وأبي القاسم الشابي من المحدثين.

وتشاء الصدف أن التقي بأبي القاسم محمد كرو منذ سنوات قليلة، وذلك بواسطة الكاتب المعروف محمد المي، فهو الذي سهل لي اللقاء مع كرو في بيته.

طرقت باب منزله فخرج لي الرجل، وهو في قميص من هذه الأقمصة التي يلبسها إخواننا المشارقة والمصنوعة في الصين، كان طويل القامة، أبيض البشرة، فتح لي الباب، ورحب بي ترحيبا زائدا، وأدخلني قاعة الجلوس، وقفت حائرا، وكدت أسأله أين سأجلس، وهذه الكتب قد ملأت تلك المقاعد المخصصة عادة للجلوس، بعض الكتب كانت مفتوحة، والبعض الآخر اصطف فوق بعض المقاعد، وبسرعة تذكرت ما قرأته عن عباس محمود العقاد وطريقته في المطالعة والبحث، فقد كان الرجل يفتح الكتاب، ويتركه فوق البلاط، ويفتح الآخر، ويتركه بجانب الأول، وهكذا، حتى تملأ الغرفة بالكتب المفتوحة، ثم يتركها هكذا، ويخرج في حال سبيله.

وجدت الأستاذ كرو يطالع أحد كتبي، وقد أعجب بما كتبت، ثم نبهني إلى الخطإ الذي وقعت فيه، ويهم الخطأ اسم بعض الشعراء الذين عاشوا في أواخر القرن التاسع عشر، لا أذكره الآن.

لقد كان الرجل على اطلاع جيد بشؤون الثقافة في تونس، وعلى علم تام بمجريات الحركة الأدبية والفكرية إن في عهد الاستعمار أو بعده، وتساءلت بيني وبين نفسي من أين له كل هذه الجزئيات والدقائق التي يسردها على مسامعي، كنت مبهورا بما يقول، وتوالى حديثه، ولم يترك لي المجال لأقول معه كلمة،وماذا سأقول أمام هذا الينبوع الذي لا ينضب من المعلومات، والنهر المتدفق من الإفادات، لم أشعر بمرور الوقت الذي قضيت في بيته، حتى أذنت الشمس بالغروب، فاستأذنت، وقبل الخروج من بيته أهداني بعض منشوراته الجديدة، ثم ودعته شاكرا، ومتمنيا له الصحة والعافية.

كانت أمسية رائعة قضيتها مع رجل أمضى سنّي حياته بين القلم والقرطاس، وكانت حصيلة هذه الرحلة مع الكتابة إصدار عشرات الكتب والبحوث أغنت المكتبة التونسية، وعرفت القارئ العربي بتاريخ تونس الثقافي منذ الفتح العربي لهذه البلاد حتى أيامنا هذه .

ورجعت بتلك المنشورات إلى المنزل، وشرعت في التهام الكثير من صفحاتها، ووجدت الرجل يطلعنا على خفايا من تاريخ تونس الأدبي

والعلمي والثقافي عموما لم نكن نعرفها من قبـل،ولا شـك أن الأسـتاذ كرو يمتلك وثائق نادرة، سعى للحصـول عليهـا من خلال أسـفاره الـتي جاب خلالها عواصم المشرق والمغرب، وبعض البلدان الأوروبية، ولفت انتباهي عودته إلى الكتابة في الموضـوع الواحـد أكـثر من مـرة، وذلـك قصد التنقيح وإضافة بعض المعلومات الجديدة التي تحصل عليها، فمثلا يقول عن عبد الجليل الزاوش إنه مـات في ظـروف غامضـة ، ثم يعـود فيقول إنه مات منتحرا، وكذا الشأن بالنسبة للتيفاشي وغيرهما.

وإذا كانت مصادره عن تاريخ تونس في الأعصر القديمة هي تلك المخطوطات والوثائق التي يمتلكها، فـإن الكثـير من المعلومـات الـتي تخص العصر الحديث لتاريخ تونس الثقافي والأدبي كانت شفوية تلقاهـا من أفواه الذين عرفوا ذلك العلم، أو عاشوا تلك الواقعة.

وليس لنا القدرة على الإلمام بما كتب طيلة ستين عاما أو أكـثر، فهذا العرض والتقـييم لأعمالـه نتركـه لخـريجي الكليـات والمعاهـد، ولا شـك أنهم سـيجدون ضـالتهم إن أرادوا أن يتعرفـوا إلى خفايـا وأسـرار الحركة الأدبية والفكرية، وخاصة في العصر الحديث.

وسنذكر في هذه الخاطرة مثالين من كتاباتـه، يتعلـق الأول بعلم من أعلام تونس المنسـيين، وقـد أراد الأسـتاذ كـرو أن يجلـو عنـه غبـار السنين، ويذكرنا بنضال هذا الرجل، والتضحيات التي قام بها في سـبيل تحرير تونس من الاحتلال الفرنسي، وأبـو القاسـم محمـد كـرو أراد أن يقول لنا:لا تنسوا جـذور الحركـة الاسـتقلالية بتـونس، وتـذكروا الرجـال الذين كافحوا حتى تكون تونس حرة مسـتقلة، وتمعنـوا في سـيرة هـذا الرجل الذي ترك عائلته والجاه والمكانة الـتي كـان ينعم بهمـا، وعـاش في بلاد الغربة مجاهدا من أجل تونس.

هذا العلم الذي ذكرنا به الأستاذ كرو هـو العـالم صـالح الشـريف(1868 ـــ 1920)ولقبه يـدل على انتسـابه إلى الشـرف النبـوي، ينتمي الرجل إلى أسرة علمية عريقة في تونس، تعلم بجـامع الزيتونـة، ونـال إجازاته العلمية، وأصـبح مدرسـا من الطبقـة الأولى وهـو في الخامسـة والعشرين من عمره، كان خلال تعاطيه للتدريس شغوفا بإفادة الطلبـة وعامة الناس، دون تقيد بنظام الدروس الرسمي، فكان معدل ما يقـوم به من ساعات إن في عمله الرسمي أو بالجوامع الأخرى سبع سـاعات يوميا، وقـد عـرف منـذ صـباه بذلاقـة لسـانه وفصـاحة بيانـه وقوتـه في الحجـاج وكافـة العلـوم الدينيـة الـتي كـان يملأ بهـا دروسـه ومجالسـه العلمية.

وعندما زار محمد عبده تونس في خريف عام 1903 عارضه في بعض المسائل العلمية، كما ناظر الشيخ محمد رشيد رضا تلميـذ محمـد عبـده في دمشـق، ولمـا كـان الشـريف مشـرفا على مدرسـة لتخـريج المؤدبين، سارع لويس ماشويل (مدير إدارة العلوم والمعارف) بحضور

حفل تخريج دفعة من هؤلاء المؤدبين، ولما شرع في دخول المسجد نزع قبعته وحذاءه، وهنا تصدى له الشيخ صالح الشريف يصيح في وجهه بانفعال وغضب، وبأعلى صوته: اخرج من بيت الله أيها الكافر، وأذعن المدير الفرنسي، وبارح المكان، والدموع في عينيه، كما زعم ذلك أحد شهود العيان.

وعرف صالح الشريف بميله الشديد للخلافة العثمانية، وبدفاعه عنها، وسيادتها على كامل البلدان الإسلامية، شأن الكثير من ساسة تونس ومثقفيها، فقد كانوا ينتظرون أن تزحف العساكر العثمانية من الجنوب التونسي، ومن طرابلس الغرب بالذات،آخر ولاية تابعة للدولة العثمانية، وتحرر تونس من الاحتلال الفرنسي.

وفكر الرجل في الهجرة شأن الكثير من أتباع خير الدين كإسماعيل الصفائحي ومحمد المكي بن عزوز ومحمد باش حانبة وغيرهم، وقبل أن يغادر تونس أعد العدة لهذه الهجرة فربط صلات برجال الدولة العثمانية، وبلغ الحكومة العثمانية أخباره وتعلقه الشديد بها، وتحمسه لسياستها، ومن ناحية أخرى سعى لدى الجمعية الخلدونية لكي تحدث دروسا خاصة في اللغة التركية، وكانت تكتب حروفها آنذاك باللغة العربية، وكان صالح الشريف أول المتعلمين لها، حتى أتقنها وأجاد الكلام والكتابة بها.

وبتوفر هذين السببين تظاهر بأنه يريد الحج، وغادر البلاد التونسية (1906) بدون رجعة، وعوض أن يتوجه إلى البقاع المقدسة قصد اسطنبول، فوجد من لدن السلطات التركية ترحيبا وتكريما زائدين، وبعد قرابة العام من إقامته بعاصمة الخلافة مبجلا ومحترما، عين مرشدا دينيا وخطيبا في مدينة دمشق، وقبل مباشرته لهذه الخطة قام بفريضة الحج، ثم عاد لعمله بدمشق، وهنا يذكر أبو القاسم محمد كرو تصادم الشيخ صالح الشريف مع محمد رشيد رضا، وكاد ينقلب هذا الصدام إلى ثورة شعبية عارمة في شوارع دمشق، شق مع رشيد رضا، والشق الآخر يناصر صالح الشريف ، وهنا تداركت السلطة العثمانية الأمر حفاظا على الأمن فعين الشريف ملحقا بمشيخة الإسلام بعاصمة الخلافة.

وفي هذه الأثناء قامت إيطاليا بغزو طرابلس الغرب، فأرسلت الخلافة بعض جنودها لتعزيز حاميتها العسكرية بها، وأسندت القيادة العامة إلى أنور باشا، يساعده مصطفى كمال، وألحق الشيخ الشريف بالقائد العام أنور باشا بوصفه معاونا ومترجما، وهكذا انخرط صالح الشريف في صفوف المجاهدين بالقول والفعل، وخاض مع عساكر الأتراك عدة معارك في منطقة برقة التي بقي بها صحبة القائد العثماني خمسة عشر شهرا، ثم انسحبت الخلافة العثمانية من آخر ولاياتها بالمغرب العربي، وانشغلت بالحروب التي فجرتها النعرة

القومية في بلاد البلقان، فتحـول أنـور باشـا صـحبة معاونـه ومترجمـه صالح الشريف إلى هذه البلدان.

وأشار الأستاذ كرو إلى النشاط السياسي الـذي قـام بـه المهـاجر التونسي صالح الشريف في عاصمة الخلافة، فقد تولى قيادة مظـاهرة كبرى في اسطنبول احتجاجا على موافقة الحكومة التركية بالتخلي عن إقليم أدرنة، وانتهت هذه المظاهرة بسـقوط الحكومـة التركيـة، وقيـام حكومة مؤلفة من جماعة الاتحاد والترقي، وكان من أبرز أعضائها أنـور باشـا،الـذي أصـبح وزيـرا للحربيـة، وانتقـل صـالح الشـريف ليكـون مستشارا بهذه الـوزارة، وتم تعـيين بعض التونسـيين في نفس الخطـة مثل محمد باش حانبة وإسماعيل الصفائحي ومحمد الخضر حسين.

ويبدو أن هؤلاء الجماعة ــ كما وضح كرو ــ أعدوا خطـة للقيـام بثورة مسلحة في الجنوب التونسي والجزائري، إلا أن العتاد العسـكري لم يتوفر لديهم، ومن جهة أخـرى فلم تكن الخلافـة جـادة في الوقـوف ضد الغـزو الفرنسـي والايطـالي لكـل من الجزائـر وتـونس وطـرابلس الغرب، فقد دخلت مع ألمانيا في الحرب العالمية الأولى،ضـد الحلفـاء، وهي في حالة من الوهن والضعف لا تحسد عليهما.

ولم يتوان هؤلاء المهاجرون من إسـماع صـوت تـونس، فتقـدموا بوثيقة إلى المؤتمر الثالث للقوميات الذي انعقد في جـنيف، وبينـوا في هذه الوثيقة فظائع الاسـتعمار الفرنسـي ومـا ارتكبـه من ظلم واعتـداء على السيادة الوطنيـة وسـلب للحقـوق والأراضـي، ومن تجهيـل وقمـع وقهر للمواطـنين في تـونس والجزائـر، وقـد كتب هـذه الوثيقـة الشـيخ صالح الشريف ووقعها معه الشيخ إسماعيل الصفائحي، وقام بترجمتهـا إلى الفرنسـية محمـد بـاش حانبـة، وطبعت الوثيقـة كرسـالة وطنيـة سياسـية تعـبر عن هيئـة مغربيـة سـميت بــ (جمعيـة اسـتقلال تـونس والجزائر)وعنـوان هـذه الوثيقـة هـو " بيـان تـوحش فرنسـا في القطـر التونسي والجزائري" وتقع في أكثر من عشرين صفحة، وقد نشر هـذه الوثيقة محمد باش حانبة في مجلته المغرب الصادرة بجنيف 1918.

وتنقل الجماعة طوال الحـرب العالميـة الأولى بين تركيـا وألمانيـا وسويسرا والنمسا للتعريـف بالقضـية التونسـية، وهـو الأسـلوب نفسـه الذي سار على هديه عبد العزيـز الثعـالبي وصـالح بن يوسـف والحـبيب بورقيبة فيما بعد.

وإزاء هــذا النشــاط السياســي المتعــاظم أصــدرت الســلطات الاستعمارية بتـونس حكمـا بالإعـدام ومصـادرة الأملاك لكـل من صـالح الشريف وإسـماعيل الصـفائحي ومحمـد الخضـر حسـين ومحمـد بـاش حانبة.

ولم تكن الظروف السياسية عالميا مواتية لهؤلاء الجماعة، فهذه تركيا وألمانيا خرجتا من الحرب منهزمتين شر هزيمـة، ثم انفـرط عقـد

الجماعـة بوفـاة محمـد بـاش حانبـة وأخيـه علي ثم صـالح الشـريف بسويسرا سنة 1920.

وهكذا انتهى الطور الأولى من مسلسل الحلقة الأولى من الزحف نحو الاستقلال، والأستاذ كـرو يـذكرنا بهـذا الطـور لكي لا ننسـى رجـالا ضحوا بأرواحهم لتحيى تونس مسـتقلة ذات سـيادة، وكـأن أبـا القاسـم محمـد كـرو يـرد (مـع العلم أن التعريـف بصـالح الشـريف كتب سـنة 1982) على أسـتاذ جـامعي صـرح لفضـائية عربيـة أن شـيوخ الزيتونـة وخريجيهـا لم تكن لهم مشـاركة في الكفـاح التحريـري، وهـو محض افتراء، وجهل بجذور الحركة الاستقلالية.

هكذا يعرف كرو بالأعلام، وما أكثرهم في (حصاد العمـر) هـذا هـو المثال الأول .

أما المثال الثاني فيتعلق بالتعريف بإحدى الحواضر الثقافيـة، ومـا نشأ فيها من علمـاء وأدبـاء، ونعـني بهـا ربـوع قمـود في القـرن الثـاني والثالث للهجرة .

وبادئ ذي بدء يحدد الأستاذ كرو جغرافية هـذه الربـوع، فهي تمتـد من قفصة جنوبـا إلى حـدود القـيروان شـمالا، ومن سـبيطلة غربـا إلى صفاقس شرقا، وفي هذه المنطقة التي انتصر فيها العـرب المسـلمون على الـروم البيزنطـيين في الغـزوة المعروفـة باسـم (غـزوة العبادلـة السبعة) وكان ذلـك عـام 27 /ـ 647 وابتـداء من هـذا التـاريخ تـدفقت أمواج المسلمين على هذه البلاد، وتتابعت انتصـاراتهم،حـتى كـانت لهم الغلبة والاسـتقرار النهـائي لا في إفريقيـة فقـط بـل وفي كامـل بلـدان شمال إفريقيا.

وعزز المسلمون جـانبهم بإرسـال العلمـاء إلى هـذه البلاد، لنشـر الإسلام وبيان العقيدة والعبـادة لهـؤلاء السـكان، وخاصـة بعثـة الفقهـاء الذين أوفدهم عمـر بن عبـد العزيـز، ونشـطت الحركـة العلميـة فظهـر علماء ساهموا إلى حد بعيد في نشر الإسلام، ولم يكفهم ما تلقــوه عن تلك البعثات التعليمية، وإنما شدوا الرحـال للاسـتزادة من العلم إن في مصر أو في الحجاز أو في العـراق، وذلـك للاتصـال بأصـحاب المـذاهب الفقهية من حنفية ومالكية وشافعية.

ويسلط أبو القاسم محمد كرو الضوء على ما كانت تزخر به ربوع قمودة من حركة علمية وأدبية تتمثل في كثرة الأعلام الذين نشؤوا في هـذه الربـوع، فمنـذ القـرن الثـالث الهجـري وأسـماء العلمـاء والأعلام تتلاحق جيلا بعد جيل، وامتد هذا الزخم العلمي حتى القرن التاسـع حين بـدأ التلاشـي والـتراجع، ودخـل المسـلمون عمومـا في طـور الضـعف والانحلال إن في مجال الفكر أو العلم أو في ميدان القحط الاقتصادي، والانحلال الاجتماعي.

وقدم لنا كرو قائمة باسم المشاهير الذين برزوا في ربوع قمودة، في الفترة الزمنية المحددة أعلاه، ووقـد بلـغ عـددهم ثلاثين علمـا، ولم يعرف بهم، واتخذ كمثال لهؤلاء الأعلام (أبـو بكـر القمـودي) فعـرف بـه تعريفا جيدا، ووعـد بـالعودة إلى هـذه المسـألة كعادتـه عنـدما لم يأخـذ الموضوع حقه عنده، غـير أنـه لاحـظ أن من بين هـؤلاء الأعلام شـعراء وفقهاء وقواد جيش وموظفين كبارا وقضاة وأطبـاء وعلمـاء في الـدين واللغة والأدب، وأن بعضهم قد تجاوزت شهرته حدود القيروان وإفريقية لتصل إلى طرابلس ومصر والشرق، والظاهرة العامة التي توصل إليهـا كرو بعد فحص حياة هؤلاء الأعلام هو قيامهم بالهجرة من ربـوع قمـودة وعدم الاستقرار بها، وكلهم قد عاشوا واشتهروا في أماكن ومدن خارج ربوع قمودة.

هذه إشارة سـريعة ونقطـة من بحـر إلى مـا قـام بـه أبـو القاسـم محمد كرو، وقد اردنا من وراء هذه الخاطرة أن نحيي هذا الرجـل على عملـه الجـاد لإفـادة بـني وطنـه، وتـذكيرهم بحضـارة بلادهم وثقـافتهم، وكأنه يدعونا إلى الاهتمام بتـاريخ هـذه البلاد عـوض صـرف الجهـود في الحديث عن الأدب الجاهلي والأموي والعباسي، وقد أخذت هذه العهـود الثلاثة من البحث والدراسة ما يكفي وزيادة.

عبـــــد المجيـــــد عطيـــــة

مديد القامة، أسمر البشرة، خفيف شعر الناصية، في صوته بحـة خفيفة، فصيح اللسان، بليغ الكلام، شديد التواضع، يخـاطب غـيره بكـل رقة ولطف، متفتح فكرا وسلوكا، وقد جنى عليه تفتحه الأسـري الكثـير من المتاعب، وهو على أبواب السـتين، والرجـل مولـود بالمهديـة سـنة 1925تلقى التعليم بالمكـــان، ثم واصــــل تعليمـــه الثـــانوي بالمعهـــد الصادقي، ومدرسة ترشيح المعلمين، ثم المدرسـة العليـا للغـة والآداب العربية، سمي أستاذا للغة العربية بصفاقس، وكـانت لـه رغبـة شـديدة في مواصلة التعليم العالي الذي أكمله بحصوله على شهادة التبريز في اللغة والآداب العربية من فرنسا، وإثر عودته من بـاريس عمـل أسـتاذا مبرزا بالصادقية، ثم سمي متفقدا للتعليم الثانوي، فمديرا لمعهد علـوم التربية، ثم متفقدا عاما للتربية القومية.

تعلمنا على يديه، ونحن في المرحلة الثانية من التعليم العالي (التربية وطرق التـدريس) وذلـك لتهيئتنـا للتعليم في المعاهـد الثانويـة، وكـان عملـه معنـا يتمثـل في إلقـاء دروس بالكليـة، ثم حضـور بعض الدروس في معاهد العاصمة،ولن أنسى هذه الحصـص التطبيقيـة الـتي عرفنا من خلالها المهنة التي سنقبل عليها، ومدى خطورتهـا، كـان قبـل الدخول إلى الفصل يقسمنا إلى مجموعات، كل مجموعة، تهتم بجـانب من الحصة التي سمح لنا أحد الأساتذة بحضورها، فهـذه مجموعـة تهتم بتهوية القسم، والأخرى بسلوك الأستاذ، وعلاقته بالتلامذة، والثالثة تهتم بمراحـل الـدرس ومـدى إقبـال التلامـذة عليـه ومشـاركتهم في إنجـاح الحصة، وتراقب مجموعة أخرى سـلوك المتربصـين،وفي الأخـير تقـدم هذه المجموعات ملاحظاتها، ويقوم الأستاذ عبـد المجيـد عطيـة بتقـديم ملاحظات ونصائح، وذلك من خلال الحصة الـتي تفضـل الأسـتاذ بقبولنـا في درسه.

ولما تم انتدابنا بالتعليم الثـانوي كلـف الأسـتاذ عطيـة بالإشـراف على تربصنا، فكنا نجتمع معه يوم السبت من كل أسبوع،ونأتيه زرافات ووحدانا من العاصمة، ومن المدن القريبة كمدينة باجة مثلا التي سميت بهـا، وقـد سـاعدتنا تلـك الحصـص التطبيقيـة الـتي تكـون مشـفوعة بملاحظاته ونصائحه على القيام بعملنا على أحسن الوجـوه، وكثـيرا مـا كان يتطرق إلى مواضيع ذات صلة بالتعليم والتكوين، من ذلك الإشـارة

إلى أن النجاح في الحياة لا يعني النجاح في الدراسة، والأمثلة على ذلك من واقعنا لا تحصى، فكثيرا ما تجد صاحب مشروع كبير قد فشل في دراسته، ولكنه كان ناجحا في حياته العملية،ثم ينبهنا إلى أن النجاح في الحياة يتمثل في التوفيق بين الإمكانيات والطموح، فمثلا أحمد باي الأول بعدما زار فرنسا أراد أن يبني قصرا في تونس كقصر فرساي بباريس، ولكن الإمكانيات أعني خزينة الدولة والحس الحضاري لا يتناسبان مع طموحه،فبنى قصرا بالمحمدية، أنفق عليه أموالا طائلة، ثم أصبح مأوى للبوم والحمام، وكانت موضة الميني جيب في اوج ازدهارها، وقد تشكى الكثير من الناس من هذه الظاهرة التي تبرز فيها المرأة مفاتنها، وما لا يمكن أن يرى، فكان رأيه : إذا كان البعض لا يريد للمرأة ان تتعرى فلماذا هو يبحلق وينظر مليا ، فليغض النظر، أو يلتفت إلى جهة أخرى.

كان هذا حالنا نحن المتخرجين حاملي الإجازة في السبعينات والثمانينات، أما اليوم(ونحن في سنة 2010)فقد تكاثر أعداد المتخرجين، وأصبح الانتداب في المعاهد الثانوية دونه أهوال وأهوال، تتمثل في هذا الامتحان الذي هو بمثابة وحش مخيف، ولكن هذا موضوع آخر.

ولعبد المجيد عطية آثار أدبية في الرواية(المنبت، وخطك ردئ) وقصص الأطفال(عمي الدحداح بياع التفاح، والديك والكبش والماعز والحمار، ومستحضر الجنية، مع المفتش سامي، عم سعيد السنفاج وغيرها) وله دراسة عن تميم بن المعز(بالاشتراك) وغيرها من الدراسات والمقالات المنشورة والمخطوطة، وذكر لي أن قصص الأطفال، يقبل على شرائها الصغار، وبالتالي فإن مردودها المالي أكثر بكثير من القصص الموجهة إلى الكبار، أو هكذا قال لي.

وإزاء ما يلاقيه الكتّاب من انتظار وتلدد لنشر كتبهم، قام الأستاذ عطية بإنشاء دار نشر صحبة بعض زملائه سماها(منشورات دار الجديد) نشر فيها كتبه، وبعض المؤلفات الأخرى، وقد طلب الإحالة على المعاش المبكر ليتفرغ لإدارة تلك الدار.

وصدر عن هذه الدار روايته(خطك ردئ) وهي الثانية بعد (المنبت) التي صدرت سنة 1967 ولاقت استحسانا من قبل النقاد والقراء على السواء(طبعت مرة ثانية سنة 1973) فإن كانت(المنبت) تعالج قضايا التربية والتعليم الذي عرفته تونس بعيد الاستقلال، فما هي المحاور التي عالجها عبد المجيد عطية في روايته الثانية، وعنوانها(خطك رديء)

ترتكز الرواية على بطل رئيسي هو فوزي موظف بإحدى الشركات" كان منذ صغره معجبا بنفسه معتدا بها، ولم يكن قط يكلم أحدا من أقرانه، وكان يعمل على الحصول على المرتبة الأولى، ولا

يقبل أن يفتكها منه أحد، وواصل اجتهاده، وانتقـل إلى الصـادقية، ونجح في دراسته بها، لكن بقيت فيـه تلـك الأنانيـة، وذلـك الصـلف والشـعور بالتفوق حتى الآن"

ونتيجة هذا السلوك أصبح" له مذهب في الحياة خاص به، لا يريد أن يفقد حريته، ولا يريـد إن يربـط مصـيره بـامرأة، في نظـره لا توجـد فتاة في مستواه تليق به، وتستطيع أن تسعده، لذا فضل العزوبة"

لكنه يغرر بالفتيات، ويربط معهن علاقات لا تدوم، إلا بقدر قضـاء مآربـه منهن، خاصـة أنـه قـد ملـك وسـائل الإغـراء من جمـال وسـيارة وحديث معسول، ومن ضحاياه فتاة تعمل في بعض الصـيدليات نصـحها بإسقاط الجنين، ولم يعترف بأبوته لطفلها.

والرواية تعتمـد أساسـا على هـذا الحـدث، إذ أن جميـع الأحـداث تنمو وتتطور، لتؤدي إلى تنكر فـوزي لهـذه الفتـاة وابنهـا، وكـل أحـداث الرواية تقريبـا تقـع بين إدارتين، يربـط بينهمـا التليفـون، ويجـري حـوار طويل ومشوق بين فوزي وإحدى العاملات بإدارة البريد التي أرادت إن تنتصر على غروره وصـلفه ، بعـد اطلاعهـا على أمـره بواسـطة زوجهـا الذي كان صديقا لفوزي في أثناء الدراسـة، وعـرفت كيـف تكشـف لـه عيوبه وأنانيته مما اضطره إلى الاعـتراف بهزيمتـه، خاصـة وان العاملـة بالتليفون التي أحبها فوزي من خلال صوتها وحديثها كانت تريد من وراء ذلك رجوع فوزي إلى تلك الفتاة التي غرر بهـا، وعـذبها مـع ابنهـا" لقـد تعرفت عن أعمق خبايا نفسي، وفرضت علي ولست أدري بأي حق أن أعيد إلى ذاكرتي ماضيا محوته منذ سنوات" كما يقول.

ويبدو أن المـرأة في هـذه الروايـة تتصـرف في مسـتويين، فـإن كانت غير متزوجـة " فيكفي أن تكـون لـك سـيارة جديـدة فخمـة، وزي مسـاير للموضـة، لتكـون في نظـرهن جـذابا خفيـف الـروح، لطيـف الفكاهة... يكفي أن تخـرج بهن بعـد ذلـك إلى مطعم ومـرقص، بإحـدى الضـواحي لتنـال منهن رغبتـك، إنهن يبعن أنفسـهن بـأبخس الأثمـان" ويستوي في ذلك الأمية والمتعلمة، إذ أن التعليم والثقافة كان تأثيرهمـا في المرأة سطحيا" لم أر واحـدة ممن عـرفت تنـادي بالمسـاواة بيـني وبينها، وحتى إذا نادت بها، فلا يتعدى ذلك اللسان، أما في الواقـع فإنهـا تحاول أن تفرض عليك نفسها ومشاكلها، ونظرتها للأمور وذوقها، وترى إن لها جميع الحقوق، وعليك جميع الواجبات".

أما إذا كانت متزوجة، فهي تتصرف بهدوء ودراية، وقـد تتصـرف المرأة بعنجهية كما تفعل زوجة المدير الذي "يكره النساء، وهو مـتزوج عقربا يذوق منها المر، ويتحمل منها ما يتحمـل من الأذى، ومـع هـذا لم يجسر على مفارقتها".

المرأة من خلال هـذه الروايـة إذن لم تبلـغ سـن الرشـد والنضـج الفكــري، مــا خلا هــذه العاملــة بــالتليفون الــتي تبقى المثــال عنــد المؤلف"والاستثناء الذي يشذ عن القاعدة"

هذا هو الاهتمام الأول بالنسبة لهذه الروايـة، أمـا الاهتمـام الثـاني فيتمثل في العلاقات البشرية بين الشركة وموظفيها، فـالإدارة تتمسـك بتطبيق القانون بحذافيره، دون اجتهاد أو تأمل في محتواه، بل أن مدير الإدارة يتصرف وفـق هـواه، لا وفـق مصـلحة الإدارة والمـوظفين، فهـو يأخذ مفاتيح المكاتب عند تمام السـاعة الثامنـة صـباحا " ومن جـاء من الموظفين متأخرا، ووجد مكتبه مقفلا علم من الحاجب أن المفتاح عنـد السيد المدير، وعليه أن يذهب بنفسه ليتسلمه" وينال توبيخا لتأخره.

ولا يعتمد المدير على التأمل والتروي في أحوال موظفيه، بل أن واسطته بينه وبينهم هو الحاجب، " وكل من يعمل بالشركة يعـرف أن المــدير يعــول كثــيرا على رمضــان الحــاجب، ليتعــرف على ســلوك مرؤوسيه داخل الإدارة وحتى خارجها"

والسيد المدير يجد في الإدارة من النفوذ والسـيطرة مـا يفتقـده في المنزل، إذ أن زوجته تسيطر عليه كما أشرنا أعلاه، أما الموظفــون فهم مقبلون على عملهم بكل فتـور، وبلا مبـالاة، بـل إنهم يبـالغون في الإهمال، واستعمال التليفون بصورة غير شرعية، وهذه اللامبالاة ناتجــة عن موقف المدير وسوء تصرفه، ويشير الكـاتب إلى العلاقـة المتأزمـة بين المـدير والمـوظفين في فقـرة قصـيرة تـوحي بقيـام عصـيان ضـد المدير في آخـر الروايـة، يقـول فـوزي: " علي أن أقـف في وجهـه في المستقبل، وأن أكسر شوكته، وأضعف هيمنتـه، وأحملـه على احـترامي واحترام مرؤوسيه، ولو أدى الأمر إلى التصـادم معـه، وأن أتعـرض إلى كلامه البذيء ستكون بيني وبينه مواقـف لم يكن يترقبهـا مـني، ونكالـة فيه سأبقي التليفون على حالـه، بـل سأسـتعمله أكـثر فـأكثر، ولـو أني أعلم أنه يراقب مكالماتي"

وفعلا يقـف فـوزي وجهـا لوجـه مـع المـدير ثـائرا ضـد جبروتـه، ويتضامن جميع الموظفين مع فـوزي، ويرفـع أمـر المـدير إلى المجلس الإداري، وهكذا يصبح فوزي زعيمـا، كمـا كـان في القسـم متفوقـا على أقرانــه في الدراســة، ومن هنــا نلاحــظ مــدى دراســة الكــاتب لهــذه الشخصية، والعمل على تمييزها من بين شخصيات روايته.

وضع المرأة في تـونس، ووضـع الإدارة التونسـية همـا المحـوران اللذان تدور حولهما هذه الرواية، ومن الاهتمامات الأخـرى نقـد الكـاتب لدراســة الأدب العــربي في المعاهــد الثانويــة وخاصــة "هـذه التشـابيه البدوية القديمة التي لا صلة لهـا بواقعنـا، والـتي أتخم بهـا أدبنـا قديمـه وحديثه" وذلك انطلاقا من القول " لم أعـد مالكـا لزمـام نفسـي" وفي قصـته القصـيرة (عظمـة وعظمـة) ينتقـد الجمـل والقـوالب المحفظـة

مثل : كالشمس في رابعة النهار، يقول الرجل لمخاطبته: أعلم أن مثل هذه التشابيه الموروثة المحفوظة لا تروقك، فلنقل واضحا وكفى.

ويبرز الكاتب رأيه في دراسة الأدب العربي في المعاهد الثانوية عندما يقول على لسان بطل الرواية فوزي " ككل تلاميذ الثانوي حملنا على دراسة أدب لم نجد له صدى في نفوسنا، فبادرنا إلى نسيانه بعد اجتياز الامتحان"

والرد على هذا الرأي نجده في الرواية نفسها، ففوزي يستشهد بأقوال الكتاب والشعراء، مثل أبي نواس وبشار وشوقي والحريري والجاحظ، ألا يكفي هذا للتدليل على صدى هذا الأدب في نفس الكاتب أولا، وبطله الذي خلقه خلقا ثانيا، والذي هو صورة حية للموظف أو المثقف الذي تكون بعد الاستقلال.

أما البناء الفني للرواية ـ وإن كان متماسكا ـ إلا أنه لا يخلو من الاعتماد على الصدفة، خاصة هذه العاملة في إدارة البريد التي تخصص وقتا طويلا للحديث مع فوزي الذي يتضح فيما بعد أنه صديق زوجها في الدراسة، وزوجها نبيل على علم بكل ما يجري بينهما، وكذلك ما جرى لوحيدة العاملة بالصيدلية التي غرر بها فوزي.

إن هذه السلسلة من المصادفات لا تقلل من قيمة هذا العمل الروائي، خاصة أن عبد المجيد عطية قد تطور من حيث الشكل بالقياس إلى (المنبت) التي لا تخلو من تقريرية في بعض الأحيان، وكل من الروايتين تجعل هذا الكاتب من رواد الواقعية الجديدة في تونس، وتحددان منزلته في الأدب الروائي في تونس التي لا تقل عن مصطفى الفارسي والبشير خريف ومحمد العروسي المطوي، فإن كان هؤلاء يتعرضون إلى المجتمع التونسي قبل الاستقلال، ويترصدون همومه ومشاغله فان عبد المجيد عطية قد واجه المشاكل الاجتماعية والتربوية التي حدثت بعد الاستقلال بجرأة المفكر وعفوية الفنان.

وذات مساء بينما كنت في عيادة أحد الأطباء جالسا مع ابنتي في انتظار فحصها من مرض ألم بها، دخل إلى قاعة الانتظار رجل طويل القامة، ثم اختار كرسيا وجلس، ولما استوى في مقعده بقيت أنظر إليه، وقلت في نفسي هذا الرجل أعرفه، لقد تغير كل شيء فيه، وجهه المصفر، وشعره الأشيب، ولم أتبينه، إلا بعد أن تفرست فيه، ورأيت أن أحييه، فرد تحيتي بإشارة خفيفة، كان ذلك منذ عشرين عاما، ثم انقطعت عني أخباره، كما أن دار النشر التي أسسها لم تدم طويلا، ويبدو أنه لم ينشر آثاره المخطوطة، ولعلها ما زالت في رفوف مكتبته.

محمد عز الدين سلام

شيخنا محمد عز الدين سـلام (1926-1999) قصـير القامـة أبيض البشرة، مع توهج
وحمرة، أسود العينين، كثيف الحاجبين، ذو شارب، حليـق اللحيـة: إذ لم يكن النـاس، و حـتى الكثـير من شـيوخ الزيتونـة، يـتركون لحـاهم على سجيتها، كما هـو مشـاهد اليـوم، عنـدما عرفنـاه، و نحن في سـن الشـباب، كـانت الابتسـامة و الضـحك لا يفارقانـه، يرسـل النكتـة، تلـو الأخرى، وربما يغلفها بضرب من التورية، لا ينتبه إليهـا إلا من كـان ذكي الفؤاد، حاضر البديهة، درسنا الشعر المعاصـر : أبـو القاسـم الشـابي و إيليا أبو ماضي، و لا أذكر ماذا قال في هذا الـدرس عن الشـعراء، فقـد مرت أكثر من ثلاثة عقود على اجتماعنا بـه نحن التلامـذة، و من ناحيـة أخرى لم يكن الشيخ من أهل الأدب، و لا من محبي دراسته، وإنما كان جـل اهتمامـه بـالعلوم الإسـلامية كعلم المـواريث، أو علم الفـرائض، و توزيع الأنصبة على الورثة، و قد درس هذا الموضوع، و نـال بـه شـهادة دكتورا الحلقة الثالثة في الفقه الإسلامي من الكلية الزيتونية، خولت له التدريس بالجامعة الزيتونية، و كـان موضـوع رسـالته (نظـام الإرث في الإسلام) و هو من المنشورات القليلة التي لم يطبع مثلها من قبل في هذا العلم .

و يظهر من خلال ما يقوله طلبته عنه في الكلية الزيتونية أنه من أقدر أساتذة هذه الكلية علما و دراية واستيعابا للمسألة التي يدرسها.

وكل ما أذكـره الآن، إن حصـة درس الأدب كـان يتبـادل فيهـا مـع أحدنا الطرائف و النكت من هنـا و هنـاك، و جلهـا يـدور حـول المـرأة و مفاتنهـا، وكـان شـيخنا آنـذاك لم يـتزوج، رغم أنـه قـارب الأربعين من عمره، و يبدو أنه تزوج في أخريات عمره، كما حدثني بعض من يعرفه، وكان يعيش قبل هذا الزواج مع والدته، ثم توفيت، ويبدو أن زوجتـه هي الأخرى قد التحقت بالرفيق الأعلى،إن بعده أو قبلـه، ولم يبـق الآن من نسله أحد.

وبعد أكثر من ثلاثين سنة دخلت قاعة الامتحان بمعهـد الحضـارة، بساحة معقل الزعيم، قصد الحراسة، فوجدت رجلا معممـا جالسـا إلى طاولة الأستاذ، تفرست فيه، فإذا هو أسـتاذي محمـد عـز الـدين سـلاّم، صافحته بحـرارة، وجلسـت بـالقرب منـه، كنت انظـر إلى الطلبـة، وهم منهمكون في الكتابة، واسترق النظر إلى هذا الرجل الوقور،لقد ترهــل بدنه، وانطفأت تلك الحمرة الوهاجـة الـتي كـانت تغشـي بيـاض وجهـه، وحلت محلها صفرة في ذلك البياض الناصع، وضخم بدنه بعض الشيء، وكان من قبل ضامر الجسم، وحتى لمعان عينيـه أصـابها بعض الفتـور، لقد غيرت الثلاثون سنة أو تزيد من شيخنا الكثير، شيء واحـد لم يتغير فيه، وهو لباسه: الجبة البيضاء التي تكسو كامـل بدنـه، والعمامـة الـتي تحيط برأسه إحاطة السوار بالمعصم.

تحرك الشيخ قليلا فوق الكرسي، فرأيتـه يفتح محفظتـه، ويخـرج منها شيئا لم أتبينه، وعرفت في الحين أنها قطعة من الشـكلاطة، فقـد مد لي قطعة، فشـعرت في البدايـة بالخجـل، ثم لم أر بـدا من قبولهـا، وأخذ هو من حين إلى آخر يلتهم تلك القطع الواحـدة بعـد الأخـرى، إلى أن انتهت حصة المراقبة، فجمعنا أوراق الامتحان، ثم سـلمتها لـه، فقـد كان حريصا على أن يأخذها هو إلى إدارة المعهد.

ذكرتني قطع الشكلاطة التي كان يلتهمها من حين لآخر بمـا كـان يفعله شيخنا في القسم، يوم كان يدرسـنا الأدب، لقـد كـان معـه علبـة النشوق(أي النفة)لا تفارقه، فكان يستنشق بيد، وباليد الأخـرى محرمـة ذات لون بنّي يمسح به أنفه، بعـد أن يملأه بالنشـوق، ولم نـر في ذلـك العهد بأسا، أو مجلبة للسخرية، فقـد كنـا تلامـذة ذلـك العهـد نـردد مـع شوقي: كاد المعلم أن يكون رسولا.

لم أتبادل معه الحديث في حصـة المراقبـة، وكـان من عادتـه أن يسأل ويتحدث، تعجبت كيف تخبو تلك الابتسامة الحلوة التي لا تفارقـه، قلت في نفسي لعله كان حريصا أن يجرى الامتحان في جو من الهدوء والسكينة، وأن لا يشغل الطلبة بالحديث والكلام معي، ولكن هذا الأمــر استبعدته.

ثلاثون عاما أو تزيـد، حـولت شـيخنا من رجـل ضـاحك إلى رجـل وقور، تعلو الكآبة والأسى محياه، يا للزمن يغير كل شـيء، ويـأتي على كل شيء، ومتى كان الزمن يترك الأمـور على حالهـا كمـا هي، وعلمت من بعض طلبته أنـه مـريض، وأن أشـد مـا أصـابه هـو تلـك الآلام الـتي يحس بها في رجليه، حتى أنها أعاقته عن الحركة بصورة طبيعية.

لقد أمضى الرجل حياته يعظ الناس، ويرشدهم إلى مـا فيـه خـير الدين والدنيا، وما يتضمنه دين الإسلام من دعوة إلى الاسـتقامة لصـلاح المعاش والمعاد، فكان إماما خطيبـا بجـامع الحلـق أكـثر من ثلث قـرن

من ناحيــة، وإمــام خمس بمســجد الشــربات، قــرب نهج الحجــامين لسنوات عديدة من ناحية أخرى.

يقول عنه من يعرفه أنه زاول دراسته الابتدائية بفـرع المدرسـة الصـادقية، وتحصـل على الشـهادة الابتدائيـة بهـا، ثم واصـل دراسـته الثانويـة بالمعهـد الصـادقي، وتحصـل على الـبروفي في الترجمـة من المدرسة العليا للغـة والآداب العربيـة، ثم ظهـر لـه أن يواصـل دراسـته بجامع الزيتونة، وأن ينال الشهادات الثلاث الأهلية والتحصـيل والعالميـة في العلوم الإسلامية.

درّس في جــامع الزيتونــة، ثم في المــدارس الثانويــة بتــونس العاصمة، وأداه طموحه إلى تسجيل موضوع أطروحة دكتورا دولة تحت إشراف المستشرق الفرنسي فانسان مونتاي(اعتنـق هـذا المستشـرق الإسلام وسمى نفســه منصـور الشـافعي) في جامعـة بـاريس الثامنـة، وكان ذلك قبـل أن تظهـر القـوانين المنظمـة للشـهادات العليـا بالكليـة الزيتونية.

وللرجل ميل واضح إلى الطرق الصوفية، مثل الطريقـة القادريـة والتيجانية والشاذلية، وقد أفادني عارفوه أنـه كـان من المـترددين على مغــارة ســيدي بلحســن الشــاذلي، ومن أبــرز شــيوخها، وكــان من المشاركين في قراءة كتاب الشفاء للقاضي عيـاض في رجب وشـعبان وذي الحجــة وربيــع الأول، تــوزع أســفار كتــاب الشــفاء على الشــيوخ الحاضرين، وبعد الانتهاء منها، وهي تسـعة عشـر سـفرا، تختم الجلسـة بالدعاء، ثم يهنئ المشاركون بعضـهم بعضـا، وكـل يـدعو لأخيـه بـالخير والسعادة في الدارين.

أتقن شيخنا اللغـة الفرنسـية، كمـا أتقن أسـاليب البحث العلمي، يظهر ذلك من خلال دراسته لمخطوط وجده بالمكتبة الأحمدية، بجــامع الزيتونة تحت عنوان(رجال البخاري) وقبل دراسته لهذا المخطـوط أتى بمقدمة ضافية أبرز فيها عناية علماء الملـة بالحـديث عنايـة فائقـة، في مواضـيع متعـددة، وباعتبـارات مختلفـة، وأكـد على أن معرفـة أحـوال الـرواة هي نصـف علم الحـديث، لأن الحـديث متن وسـند، والإحاطـة بـأحوال رجالـه مرقـاة إلى معرفـة صـحته، واحتيـاط في أمـور الـدين، وتمييز لمواقع الغلط والخطأ أصل عظيم، عليه مبنى الإسلام، وأسـاس الشريعة، وهو ثاني أدلتها، ويعني بذلك سنة النبي صلى الله عليه وسلم من أفعال وأقول وتقريرات.

وقد تعرض في البداية إلى من ألف في أحـوال الـرواة(أي رواة حديث الرسول) من عدة أوجـه، من حيث أسـماؤهم وألقـابهم وكنـاهم وأنســابهم وطبقــاتهم ووفيــاتهم، والضــعفاء والمــتروكين منهم، ومن صنفهم في معاجم، ومن ألف في جرحهم وتعـديلهم، ومن اهتم برجـال السند في كتاب واحد، كالموطأ، وصحيح البخاري.

وشبيه بهذا النوع الأخير من كتب الحديث المخطوط الذي بين يدي الشيخ عز الدين سلام(رجال البخاري) وقد قام بهذا المدخل الـذي ألم فيه بكل من ألف في موضـوع الرجـال، ليـنزّل هـذا المخطـوط في سياق هذه الكتب.

عنوان هذا الكتاب (التتـاوي في معرفـة رجـال البخـاري) وعـدده بدفتر المكتبة الأحمدية1096 ووجده بنفس العدد، وبنفس العنـوان في الفهارس الخاصة بالمطبعة المذكورة، وبإزاء عـدد الكتـاب وعنوانـه في الدفتر المطبوع بالمطبعة الرسمية للدولـة التونسـية(سـنة 1301) أثـر كتابـة بقلم الرصـاص، خطهـا أحـد المطـالعين، اسـتطاع الشـيخ سـلام الكشف عنها، ونصها(التتائي).

ثم وصـف الشـيخ المخطـوط فقـال عنـه: أوراق الكتـاب من قرطاس شاطبي لماع، وصفحاته(500) وحجمه(5 23 x16 x) ومجلد تجليدا فاخرا، مذهب الأركان، من أحباس المشير أحمد باشا باي الأول، وعليه ختمـه، وخطـه عسـير، ليس هـو نسـخيا، ولا فارسـيا محضـا، ولا ديوانيا صرفا، بل هو خلق آخر منها جميعا، أوله:" الحمد لله الذي خلـق آدم وعلمه الأسماء، وله أظهر فضله على ملائكة الأرض والسماء..."

أما الناسخ فقد أحدث بالنص عطبا كبيرا، قـال الشـيخ سـلام عن الناسخ: إنه موغل في العجمة، ليس بذاك في العربية،، وقـد تم نسـخه في أواسط القرن الثالث عشر الهجري، ونص ما كتبه الناسـخ في آخـر الكتاب: قد وقع الفراغ من كتابة كتاب جمع(؟) رجـال الجـامع الصـحيح للبخـاري في سـنة ألـف ومـائتين وإحـدى وأربعين في يـوم الثلاثـاء من جمادى الأولى في مكة المكرمة، الكاتب شيخ عبد الله البلغاري.

ونبه الشيخ عز الدين سلام إلى أن المؤلف لم يذكر في الخطبـة عنوان أو تسمية للكتاب، وهو ما سيعمل الشيخ سلام على بيانه لاحقـا، وبعد بحث وتحر، كما سنرى، وذكـر الشـيخ سـلام أنـه تعـرف على هـذا المخطوط سنة 1948 وأنه بدون عنوان، وأن اسم مؤلفه التتـوي، كمـا هو في الفهارس، وفي نص التحبيس، التتاوي.

ثم توجـه إلى المراجـع البعيـدة والقريبـة كمـا يقـول، فلم يظفـر بطائل، وسأل كـل من تعشـم فيهم المعرفـة، مثـل محمـد الطـاهر ابن عاشـور وابنـه الشـيخ الفاضـل فلم يجـد عنـدهما إلا افتراضـات قابلـة للاعتراض، فترك أمر هوية المؤلف وعنوان الكتـاب للأيـام، ولكنـه أخـذ يـدرس المخطـوط دراسـة فاحصـة لعلـه يعـثر على اسـم صـاحب هـذا المخطوط، ولكنه لم يعثر على بغيته، وبعد قراءات متتاليـة تـبين لـه أن لهذا المخطوط قيمة ومنزلة لا يستهان بهما في ميدانـه: أعـني معرفـة رجال السند، ورجال البخـاري بالـذات، فقـد رتبهم مؤلـف هـذا الكتـاب على حسب حروف المعجم، فهو يذكر كما يقول الشيخ عز الدين سلام مع كل حرف أولا الصـحابيين والصـحابيات، ثم التـابعين والتابعيـات، ثم

يذكر من دونهم واحدا واحدا إلى الإمـام البخـاري، وذلـك تـرتيب عجيب كما يقول الشيخ.

ومؤلفـه في رأي الشـيخ سـلام عـالم راسـخ في كـل الفنـون والمواضيع التي ذكرهـا في طـالع مقالـه، فهـو يحيـط بالشخصـية الـتي يعالجها من جميع وجوهها، حتى يصيرك تتنسـم أنفاسـها، وكأنـك تعيش معها، جازما بمميزاته، عالما بخصائصها، إذا ما قارنت بينها وبين أمثالها، وهو يلم بأشـياء سـكتت عنهـا المصـادر الـتي أتى عليهـا شـيخنا سـلام، خصوصا فيما يعود الى أسرار إشارات الإمـام البخـاري، فيمـا يـأتي من أسانيد، يختار في سلسلتها بعض الرواة دون بعض، لتصـحيح خطـأ وقـع فيه غـيره، أو رد دعـوى، وهـذا عمـل جليـل في رأي شـيخنا عـز الـدين سلام، يدل على أن المؤلف قـد بـذل غايـة المجهـود في خدمـة صـحيح البخاري دراسة وتدريسا، وتوصل إلى أن مصـادر هـذا المخطـوط تمتـد حتى القرن التاسع الهجري.

وتمـر الشـهور والأعـوام، وذات يـوم لمـا كـان الشـيخ سـلام في مكتب المؤرخ المرحوم عثمان الكعاك مدير دار الكتب الوطنية آنــذاك، وكان معه الدكتور محمد نمر الخطيب، فدخل عليهمـا الأسـتاذ الكعـاك، وبيده كتب جديدة وردت على دار الكتب، فمدت الأيدي لتصفحها، وكان أن تصفح الشيخ عز الدين سلام نشـرية باللغـة الألمانيـة تتخللهـا كتابـة بالعربيــة، واســتوقفه اســم هــذا العلم: عبــد الرحمــان بن أبي الخــير التتوي(؟)النصربوري(هكذا توجد علامة استفهام بين قوسين بعد كلمــة التتوي).

ولمـا أحـال مـا كتب بالألمانيـة اسـم التتـوي إلى الـدكتور النمـر، ليعرب له هذا الكلام، فقال لـه:إن مؤلـف هـذه المجموعـة هـو الأسـتاذ فون ماكس قالس قايلر، وهي دراسات في المخطوطات العربية لكتب الحــديث في اســطنبول،، وأمــا موضــوع اهتمامــك فمخطــوط بإحــدى مكتباتها، ثم قال له:إنه كتاب بلا عنوان، أوله كذا وآخره كـذا، والنسـخة فريدة لا وجود لمثلها.

لما سمع الشيخ سلام كلام النمـر فـرح، وأسـف، أسـف لبقـاء مؤلف المخطوط غامضا، وفرح لوجود نسخة ثانية لهـذا المخطـوط، ثم تعـرف الشـيخ سـلام على بعض الأسـاتذة الأتـراك، واسـتفاد منهم أن أستاذا تركيا عالج بعض المخطوطات العربية في مكتبتين بتركيا.

و رأى الشيخ سلام أن يتوجـه إلى سـفارة تركيـا بتـونس ، و طلب منها أن تعينه على مكان المخطوط و من ألفه، و أفـاده المسـؤول في السفارة أنه يوجد فعلا مخطوط في مكتبة (جوروم ، بلدة شرقي أنقرة) مكتبة عامة تضـم الكتـاب رقم 249 بـه 429 صـفحة عنوانـه (رجـال البخاري) تأليف عبد الرحمـان بن أبي الخـير التسـتري النصـربوني من رجال القرن العاشر توفي سنة 964 هـ ، و لم يذكره بروكلمان.

هكذا بقي هذا الكتاب الشغل الشاغل لعز الدين سلام ، طيلـة ربع قرن (1948-1973)

وقد توصل بعـد هـذه المـدة إلى ضـبط اسـم المؤلـف ، و العصـر الذي عاش فيه .

ولنـا أن نشـير إلى أن الشـيخ سـلام لـه معرفـة جيـدة بمعالجـة المخطوطات ووصفها من حيث أنواع الخطوط، و قيمة الورق، و كل ما يتعلق بتحقيق المخطوطات، و المقابلـة بين النسـخ، إن وجـد أكـثر من نسخة، و لا شك أن الممارسـة لهـذا المخطـوط، و إقبالـه على أعمـال المحققين في الشرق و الغرب قد أكسبته هذه المعرفة العلمية.

وقــد اســتخلص من اهتمامــه بهــذا المخطــوط أولا أن اختلاف الخطوط بين نسخي و ديواني

وفارسـي هـو الـذي ضـلل المحققين للتعـرف إلى اسـم صـاحب (رجال البخاري) و حمل الناسخين الماسخين مسؤولية هذا التضليل.

وثانيا تبين له وجود نسخ ثلاث لهذا التأليف في العـالم اثنتـان في تركيا (اسطنبول و جوروم) و الثالثة بتـونس، ولا شـك أن البعض منهـا يكمل البعض الآخر، و بالمقابلة بينهما يظهر النص الصحيح، كما يقول.

و ثالثـا أن أهـل الاستشـراق قـد أحـاطوا بـأغلب مصـادر الثقافـة العربية في الوقت الذي كان فيه العـرب يعـانون اسـتبداد الاسـتعمار و قهره، و لما أصبح العرب أسيادا في بلدانهم فالواجب أن يسبقوا علماء الاستشراق في الاهتمام بمصادر الثقافة العربيـة، و لا نقـول نلحـق بهم كما نبه سلام .

و لم يقف الأمر بالشيخ سلام عند هذا الحـد، فقـد واصـل البحث فيمن ألــف حــول رجــال البخــاري ، ووجــد أربــع مخطوطــات في هــذا الموضوع، و هذه الكتب الأربعة هي (التعديل

والتجريح لمن خرج عن الجامع الصـحيح) لأبي الوليـد سـليمان بن خلف البـاجي المتـوفى 575/1081(مكتبـة نـور عثمانيـة) و(أسـامي شيوخ البخاري) لأبي الفضـائل الحسـن بن محمـد الصـاغاني المتـوفى 650/1262 (ذكره المستشـرق الألمـاني قـالس قـايلر في مجموعتـه المذكورة أعلاه) و (المجتبى في معرفـة أسـماء من ذكـرهم البخـاري بالأسماء و الألقاب

والكنى) لمحمد العجلوني المتوفى 831/1427 (جامعة نيوهافن بالولايات المتحدة الأمريكية) و أخيرا (غاية المرام في رجال البخــاري إلى سيد الأنام) لمحمد بن داود البازلي المتـوفى 925/1519 (نسـخة منه بأدرنة، و نسخة أخرى بمكتبة الأزهر) رحم اللـه الشـيخ عـز الـدين سلام، وأسكنه فراديس جنانه.

أحمـــــد بكيــــــر

خرج من قاعة الامتحان بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الــدين بنهج أبي زكرياء الحفصي، وهو بين رجلين، ورجلاه تخطــان في البلاط، ويكاد أن يكون محمولا، كان في القاعة يناقش أطروحـة لأحـد الطلبـة السعوديين،موضوعها حول السـيرة النبويـة، كـان الرجـل ذابـل الوجـه، أسمر البشرة، وقد تحولت إلى صفرة من شدة المرض، الذي يبدو أنـه غمر كامل بدنه، وكان صوته في أثنـاء المناقشـة لا يخلـو من حشـرجة، تدل على أن الرجل قاب قوسين أو أدنى من القبر.

صـورته عنـد خروجـه من القاعـة، وهـو محمـول من قبـل رجلين، ذكرتـني بدخولـه قاعـة الجلسـات ببلديـة باجـة في سـبعينات القـرن الماضي، يومها جاء لإلقاء محاضرة عن العـرب في الأنـدلس ـــ إن لم تخني الذاكرة ـــ على جم غفـير من النـاس، كـان وقتهـا يتقـد نشـاطا وحيوية، أما صوته فكان قريا ومتزنا، كان أسمر البشرة، معتدل القامة، ضـعيف البنيـة،ذلكم هـو الـدكتور أحمـد بكـير(1928 ـــ 1991)أو على الطريقة الشرقية أحمد بكير محمود، أوأحمد بكير الهلالي.

جلست معه مـرتين، في المـرة الأولى دار الحـديث حـول بعض الكتاب والعلماء الذين عرفتهم تونس خلال القرن العشـرين، وقـد رأى أن بعض الأســماء لا يمكن أن تكــون أن تــرقى إلى مســتوى الكتــاب والعلماء،وللأمانة فقد ذكر لي أن محمود الشـبعان(تـوفي 1981) ليس من العلماء، والحال أن محمود الشبعان كان من خـيرة المـربين الـذين عـرفتهم تـونس في القـرن الماضـي (ولمكانتـه في التربيـة والتعليم أطلقت وزارة التربيــة على مدرســة ابتدائيــة اســمه، تخليــدا لجهــوده المتميزة، إن في المجال التربوي، أو في بعثه لأدب الطفل بتونس) لـه كتب مدرسية جيدة، واشتغل في أخريات حياتـه بمسـائل الـدين، وقـد ترك آثارا طريفة في هذا المضمار، رحمه الله.

وفي المرة الثانية أملى عليّ شيئا مما يريـد أن يقولـه في إحـدى الجلسات العلمية، وكان ذلك يـوم 17 جويليـة 1991 يومهـا كـان بدنـه يرتعش، ويداه ترتعدان إلى درجة أنه لا يستطيع الإمساك بكاس القهوة الذي وضع بين يديه، أما صوته فلم استطع أن أتبين شيئا مما كان يمليه علي، وكل ما أذكر أن مجمل كلامه كان جملة من هنا وجملة من هناك، مما يدل على أنه لم يكن يتحكم في مداركـه العقليـة، وقـد حـاولت أن أصوغ كلامـه في جمـل واضـحة وأفكـار مقبولـة، ولم يلبث الرجـل أن تـوفي بعـد أسـبوع من كتابـة هـذا الكلام الـذي أملاه علي(24 جويليـة 1991).

كنت أتسـاءل بيـني و بين نفسـي لمـاذا يكلـف نفسـه كـل هـذا الإجهاد والعناء، و الحال أنه مريض، و له الحـق في البقـاء ببيتـه، ريثمـا تتحسن صحته، و يعود لعمله، و قلت لعلـه يريـد أن يتحـدى المـرض، و يذهب إلى عمله قياما بالواجب و إرضاء للضمير.

و كان الرجل يتردد على المستشـفى، وقـد اتفـق أن زرتـه صـحبة زميل في المستشفى(وهو الأستاذ سالم العدالي) و كان على مــا يبــدو يشكو من مرض القلب ، وجدناه يطالع صـحيفة يوميـة، وقـد بـدا عليـه الإرهـاق، و تـبين لي أن بيـده حروقـا، فلمـا سـألت عنهـا الزميـل بعـد الخـروج من المستشـفى ،قـال: لقـد أصـيب بهـا عنـدما أراد احتسـاء قهوة ،فأحضرها بنفسه ، فاحترقت يده.

حضرت مناقشة أطروحة بالكلية الزيتونة ، كما كـانت تسـمى ، و أذكر أنه قال ، كما جاء عن الرسول : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، و فهم الرجل من هذا الحديث أنه يمكن الاكتفاء بظـاهر هـذا الحـديث لدخول الجنة ، و لو لم يصل الإنسان و لم يحج و لم يعمل ،

ولعله يريد أن يقـول إن الخاصـة غـير مكلفين بالقيـام بمثـل هـذه العبادات ،وهو رأي ينسب للإمام الغزالي فيما اعتقد ، و قال أيضـا : إن الله يعلم بالكليات، و لا علم له بالجزئيات ،

وهو هنا يردد قول ابن رشد ، في حين أن الله يؤكـد في كثـير من آي القرآن أن الله عالم بكل صغيرة و كبيرة ترى و لا ترى ، تحـدث في هذا الكون، وعالم بخائنة الأعين ، و ما تخفي الصدور .

و سـمعت زميلا لـه في الكليـة الزيتونيـة يقـول : إنـه يـؤمن بكـل الأديان اليهودية و المسيحية

والبوذية جملة وتفصيلا، و عنده أن البوذية دين، و أن بوذا رسول.

ولد المرحوم أحمد بكير بسوسة، و بهـا زاول تعليمـه الابتـدائي ، وواصـل تعلمـه الثـانوي بجـامع الزيتونـة إلى أن أحـرز على شـهادة التحصيل التي خـولت لـه التـدريس بـالتعليم الابتـدائي ، ثم ارتحـل إلى المشرق العربي لمواصلة تعليمـه العـالي ، كـالكثير من طلبـة الزيتونـة الذين سافروا إلى مصر و العراق و سوريا و لبنان ، لإتمام دراستهم ، و تحصل من الجامعة المصرية على الإجازة في اللغـة و الآداب العربيـة ، و من القـاهرة قصـد بـاريس ، فـانخرط في جامعـة السـربون، إلى أن تحصل على دكتـوراه الدولـة في الحضـارة الإسـلامية عن بحثـه (تـاريخ المدرسة المالكية في الشرق) بالإضافة إلى بحثه : دراسة موطأ مالـك بن أنس ،

وعـاد إلى تـونس لينضـم إلى هيئـة التـدريس بالكليـة الزيتونيـة للشريعة و أصول الدين ، التي أقبل عليها الكثير من المعلمين، و تخرج منها أساتذة لتدريس مادة التربية الدينية و المدينة ،

وليواصـل الكثـير منهم في المرحلـة العليـا، ثم توجـوا هـذا التعليم بالحصول على دكتوراه الدولة ، و نشروا أبحاثهم للعموم ، فكانت هـذه البحوث إثراء للفكر الإسلامي في تونس.

وككل رجال التعليم العالي نشر الـدكتور أحمـد بكـير الكثـير من الأبحاث والمقالات في الصحف والمجلات في نطـاق اختصاصـه، وقـام بتحقيق ثلاثة كتب هي كشـف الغطـاء عن حقـائق التوحيـد لابن الأهـدل في الـرد على أصـحاب وحـدة الوجـود (ط تـونس 1963) وهي طبعـة رديئــة جــدا، والمعتمــد في أصــول الفقــه المعــتزلي لأبي الحســن البصري(ط دمشق/ بيروت1965 ـــ 1966) والمدارك للقاضي عيـاض في طبقـات المالكيـة في خمسـة أجـزاء(ط بـيروت 1967 ـــ 1968) ولعله ترك آثارا مخطوطة أخرى ذات نزعة إسلامية عامة، ولـه دراسـة مطولة عن الجنرال حسين نشرها في النشرة العلمية للشريعة وأصول الدين. وقد أسس بكـير مطبعـة العـرب بجهـة نعسـان من ضـواحي العاصـمة، ولا أعلم بالضـبط نشـاط هـذه المطبعـة، وقـد ذهبت إليهـا فوجدت بناية في مسـاحة كبـيرة من الأرض مسـيجة، وبهـا حـارس، لم يفدني بشيء.

ويبـدو أن الرجـل كـان أميـل إلى دراسـة التصـوف في الإسـلام، والتعــرف إلى مصــادره واتجاهاتــه ورجالــه، والتميــيز بين الغلاة منهم

والمعتدلين، وقد كتب في هذا المجال جملة من المقالات تحت عنوان" التصوف بين الشرق والغرب" نشرها في مجلة الهداية التونسية.

ما هو التصوف؟ لا يعرف بكير التصوف بصفة مباشرة، ولكنه يقدم التصوف من خلال الأسئلة التالية: أهو حركة عقلية دينية فكرية؟ أو هو فلسفة وعبادة؟ أو هو زهد وتقى؟ أو زندقة وإلحاد؟ أم هو شعوذة واستهتار، ثم يقول: فيه كل هذا، وإذا كان كذلك فما هي مصادره؟ هل هو من الإسلام أو دخيل عليه جاءه من الحضارات القديمة، ومن الأديان السماوية، وهل دخل إليه صدفة أو عن قصد؟ وهل هو زهد وورع؟ أو تأمل وبحث وطريق ووصول؟ هو كل هذا، أو فيه من كل هذا.

يجد الدارس للتصوف حركات زهد قديمة عن أتباع كونفشيوس وبوذا وماني، تدعو إلى ترك الأذى والتأمل، وإدامة الصمت، والاستماع إلى الحكم والمواعظ، والدعوة إلى تغليب الخير على الشر، وتهذيب الأخلاق،والأخذ بأيدي الضعفاء، وإنارة سبيلهم، ويوجد هذا في المسيحية، وعند المتصوفين المسلمين، وخاصة بعد حركة الترجمة في العصر العباسي، ودخل في أوساط العرب مسلمون ليسوا بعرب، لسانهم وثقافتهم عربية، لكن رؤوسهم فارسية أو هندية أوغربية، شحنت بآراء، وملئت ثقافات ، تعبر عن حضارات قديمة، قد تتشابه ومبادئ الإسلام، وقد تتضارب مع مبادئه تضاربا كاملا، فكانت وحدة الوجود مع الحلاج، وجواز الوحي للأولياء عند الكرامية، وإسقاط الفرائض على الأقطاب عند ابن عربي وابن سبعين وجلال الدين الرومي، عندما يصل الإنسان إلى درجة الكمال، وأرقى مقام الولاية، قد يفوق مقام النبوة، إلى آخر هذا الهوس والخرافة، وبرروا هذه الخرقنة بالاعتماد على أحاديث مكذوبة على الرسول، وهؤلاء المتصوفة بعضهم سني، وبعضهم يدين بالحلول ووحدة الوجود، وبعضهم يتزندق، وآخرون يحلون المحارم، وآخرون يرقصون على أنغام المزامير وضرب الدفوف، فكان فيهم الجد والهزل والعلم والأدب والجهل والشعوذة.

ثم انتقل بكير إلى أصول التصوف الإسلامي من الكتاب والسنة، مبينا أن أصحاب التصوف اتخذوا من بعض الآيات الواردة في القرآن قاعدة للتصوف والزهد والورع، مثل قوله تعالى" ومن يتق الله يجعل له مخرجا" وقوله:" يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" وغيرهما من الآيات التي تحث على التقى وتغرس قي النفوس آداب الروح، وقد حرص المتصوفة على التأمل فيها وتأويلها، وجعلهم قانونا لمبادئهم في التصوف.

وتوجد أحاديث منسوبة إلى الرسول تحث على التقوى والورع، وقد سار الصحابة على خطاها، الى أن جاء الحسن البصري مؤسس المدرسة الصوفية الأولى، واتخذ قول حذيفة بن النعمان شعارا له،

وهو" كان الناس يسألون النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه، وعلمت أن الخير لا يسبقني، وعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير"

والصوفي كما يقول بكير : مرهف الإحساس سخي النفس، محب للخير، فاعل له، يحمل هموم الناس في نفسه، تخنقه العبرة عند رؤية اليتيم الفقير، ويتأوه لمن تحل به الصدمات والكوارث، ويبكي للمظلومين، ويحس ألم جوع الجياع بين ضلوعه، كذلك كان الخليل عليه السلام أواها حليما، كذلك عيسى الروح متقربا إلى الله بإخلاصه وعزمه وفقره، ومحمد بصبره في الله، وإخلاصه وتقاه، والصحابة كانت لهم الأسوة، فهم يتبعون خطاهم ويهتدون بهداهم.

وعرض بالاستناد إلى أبي طالب المكي صاحب (قوت القلوب) كوكبة من زهاد الصحابة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والبراء بن مالك، وحذيفة، وأبو الدرداء، وأبو ذر، وعبد الله بن عمر، وصهيب، وبلال، وخباب بن الأرت ،وهم قريب من ألف عابد، ومن التابعين ذكر: علي بن الحسن، وابنه محمد الباقر، وجعفر الصادق، وأويس القرني، والحسن، ومن تابعيهم: إبراهيم بن أدهم، وسفيان الثوري، وابو سليمان الداراني، وذو النون، وبشر الحافي، والسري السقطي، والحارث بن أسد المحاسبي، والجنيد.

ثم كان لمقتل الحسين من قبل يزيد بن معاوية الأثر الكبير في ظهور اتجاهين للتصوف: الأول حركة التوابين بقيادة الصحابي سليمان بن صرد الخزاعي، الذين ندموا على تفريطهم في نصرة الحسين، حتى آل مصيره إلى أن ذبح وحز رأسه، فعملوا بالآية الكريمة" فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم" فكانت حركتهم حركة انتحارية للتكفير عما سلف منهم، وعن تفريطهم في نصرة الحسن، حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكفروا عن ذلك ببذل أرواحهم، وإهراق دمائهم فكانت حركتهم مجلبة لعطف الناس لهم، وإكبارهم لهذا الإيثار بالنفس.

أما الاتجاه الثاني فهو الزهد في الدنيا والغربة فيها، ويمثل هذا الاتجاه علي بن الحسين(زين العابدين) رأى أباه يذبح، وهو لم يبلغ الحلم بعد، فارتاع لذلك، وغلب الحزن على نفسه، ولم ير ضاحكا طوال حياته، بعد يوم كربلاء، وكان يقول:فقد الأحبة غربة، فصار الاغتراب من أسس الزهد والتصوف، فكان علي يتهجد ليله ويبتهل، ويصوم نهاره، ويقرأ القرآن، وسار ابنه الصادق من بعده على خطاه، قال فيه مالك بن أنس:ما رأيت الصادق إلا على ثلاث خصال: إما صائما أو مصليا أو قارئا للقرآن، واقتدى الناس بآل البيت، لا سيما الحسن البصري الذي كان يحمل هموم الأمة الإسلامية في تمزقها وتقاتلها، وسلب أهل الحق حقهم، فكان كما جاء في (قوت القلوب)

لأبي طالب المكي: إذا أقبل ، فكأنما أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أسير أمر بضرب عنقه، وكان إذا ذكرت عنده النار فكأنها لم تخلق إلا له، وعن الحسن أخذ الصوفية طريق العلم بالإيمان، سئل مرة: أكثر الناس تعلم الآداب، فما أنفعها عاجلا، وأوصلها أجلا، قال: التفقه في الدين، فإنه يصرف إليه قلوب المتعلمين، والزهد في الدنيا، فإنه يقربك إلى رب العالمين، والمعرفة بما لله عليك يحويها كمال الإيمان.

وكانت مجالسه مجالس الذكر، يخلو فيها مع إخوانه وأتباعه من النساك، أمثال: مالك بن دينار، وثابت البناني، وأيوب السختياني، ومحمد بن واسع، وفرقد السبخي، فإذا ما جالسوه قال لهم:هاتوا انشروا النور، وكان لا يتكلم فيما جري بين الصحابة، بل ترك الحديث عن الدنيا وأهلها، وقد أخذ هذه الشيم والخصال من علي بن الحسين زين العابدين، الذي جعل الطريق إلى الله يتلخص في عبادته تعالى، وهذه العبادة تكون بالتوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء، والرضا بما قسم الله، والتوكل عليه، والمحبة المطلقة، وهي أسس التصوف التي نادى بها تلاميذه رابعة، وابن أبي الحواري، ومالك بن دينار، وانتقلت هذه المدرسة الصوفية إلى بغداد ودمشق والقيروان والأندلس وخراسان وسجستان.

لذا كانت مدرسة آل البيت التي وضع أسسها علي زين العابدين، ونماها ابنه جعفر، ونشرها الحسن البصري أكبر مدرسة فلسفية، عاشت وتعيش إلى الآن، غايتها نشر علم الحقائق والسلوك السليم.

وإذا كان تصوف أهل البيت معتدلا، وساروا فيه على خطى الرسول عليه السلام، وغيره من الأنبياء، فإن بعض المتصوفة قد انحرفوا عن الجادة، وخرجوا من حظيرة الإيمان، وأصبحوا أميل إلى الكفر منهم إلى الإسلام، ونأخذ كمثال على ذلك الحلاج، هذا الذي جعل منه بعض المستشرقين شهيدا في الإسلام، وهو من الإسلام براء، وبما أنه عنصر مقوض وهدام للإسلام الصحيح فقد وقع الاهتمام به من قبل هؤلاء المستشرقين الذين يبحثون في مزبلة التاريخ عن الشواذ من الناس، قصد إبعاد المسلمين وإلهائهم عن تاريخهم وحضارتهم ، وما فيهما من عناصر القوة والتقدم.

أصل الرجل، كما يشير بكير، من فارس، تشبع بالثقافة الهندية، وأقبل على مذاهب كونفوشيوس وماني، والفلسفة الصينية عامة القائلة:إن الله واحد في كل شيء، وأنه المتعدد في مخلوقاته، جاء بغداد، وبما أنه لا يوجد من يعرف هذه الفلسفة فقد عمل على نشرها، وأصحاب العقول الملتوية، والنفوس المعقدة، كما يقول بكير، تميل إلى كل غامض ومعقد، وتظاهر في بغداد بالتقى والصلاح، مع

المبالغة في الصيام، والجلوس على الصخر الحـامي في رمضـاء مكـة، وهو صائم،لا يفطـر إلا على مضـغات من خـبز الشـعير والملح، وشـربة من زمزم، قال فيه من رآه من الصالحين: سوف يبتليه اللـه بـأكثر من هذا، وهـو مخـالف لقولـه تعـالى:" مـا يفعـل اللـه بعـذابكم إن شـكرتم وآمنتم".

أما العامة فقد رأوا فيـه الرجـل الصـالح الزاهـد، ولم يكن الحلاج يبحث عن أنصـاره إلا في وسـط العـوام، لأن الخاصـة لا تنطلي عليهم مثل هذه الترهات والخزعبلات التي يأتي بها، وكان يرغب في مناقشـة العلمـاء ومجـادلتهم، فكـان لـه ذلـك، إلا أن مناظرتـه لهـؤلاء العلمـاء والقضاة لم تكن في صـالحه، فكـان أن حكم عليـه بالإعـدام، وكـان مـا أخذ عليه قوله: يمكن تعويض الفرائض المكتوبة بأشياء رمزية تشـبهها، فمثلا الحج يمكن للمسلم أن يبتني في داره بيتا صـغيرا، يشـبه الكعبـة، فيطوف حوله ويلبي، ويحرم ويسعى في ركن من أركان داره، ويصـوم عشرة أيام، وبتصـدق على الفقـراء، ويكسـو اليتـامى، ويكـون قـد أدى فريضة الحج، وقد قرأت أن في إفريقيا الزنجية بعض القبائل تبتني بيتـا مثل الكعبة، يحجون إليها، كما لو كانوا يحجون إلى بيت الله الحرام.

ولما سئل الحلاج من أين له هـذا ؟ قـال: إنـه قـرأه في كتـاب الحسن البصري، وكتب الحسن البصـري معروفـة لـدى القضـاة الـذين يحاكمونه، فضحكوا منه، وحكموا بزندقتـه وقتلـه، وكـان ذلـك في عهـد المتوكل على الله سنة تسع وثلاثمائة.

قال عنه قاضي قضاة المالكية في بغداد، وكـان رئيس المجلس: إنه سفيه، يدعي العقل، وجاهل يتعالم، في رأسه طموح وكبرياء، وقال عنه فقيه الحنابلة: إن كان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسـلم حقـا وصدقا، فما يقوله الحلاج كفر صراح.

رجل يقول لمرافقه عنـدما سـمعه يقـرأ القـرآن: لـو أردت لقلت مثل هذا، وشوهد يكتب شيئا فقيل له: مـا هـذا؟ فقـال: هـو ذا أعـارض القرآن، وقال القشيري في رسالته: من المشهور أن عمـرو بن عثمـان المكي رأى الحسـين بن منصـور(يعـني الحلاج) يكتب شـيئا، فقـال: مـا هذا؟ فقال: هو ذا أعارض القرآن، فدعا عليه الشيخ، وكـان عمـرو هـذا شيخ القوم في عصره ، وأجمع الصوفية أن ما أصـاب الحلاج إنمـا كـان بدعائـه عليـه، ولم أعـثر في الرسـالة القشـيرية على هـذا القـول في الحلاج.

قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال: أقـام الحلاج على التخليـط مدة طويلة، وانسـلخ من الـدين، وتعلم السـحر والمخـارق، وقتـل على الزندقة بفتاوى العلماء.

اما الجنيد سيد الطائفـة الصـوفية فقـد أفـتى بقتلـه، وتـبرأ منـه علماء الصوفية لقوله بالحلول، وغمـوض كلامـه، ولم يبـق لـه رصـيد إلا

عند العامة وأشباههم، ولم يـترجم لـه القشـيري في رسـالته، رغم أنـه تـرجم للكثـير من أعلام الصـوفية، ولكنـه ذكـر بعض أقوالـه في ثنايـا رسالته، وكيف يترجم له ،وأهل العلم والتصوف يتبرؤون منه.

وكتب عنه ابن النديم، وهو رجـل ثقـة فيمـا يقـول ويـروي:"كـان الحلاج محتالا، يتعاطى مذاهب الصوفية،ويدعي كـل علم، جسـورا على السلاطين، مرتكبا للعظائم، يروم إلى إقلاب الدول، ويقول بالحلول، له كتب غريبة في تسميتها منها: طاسين الأزل، والجوهر الأكبر، والشـجرة النورية، والظـل الممـدود والمـاء المسـكوب، والحيـاة الباقيـة، وقـرآن القرآن، وكتاب الطواسين، والكـبريت الأحمـر، والوجـود الأول، واليقين والتوحيد"

وقـد اعتنـق مذهبـه بعض العـوام، وأنصـاف العلمـاء، كـابن أبي العزافـيري، وحمـل رايـة مذهبـه ابن عـربي، وسـار على خطـاه ابن الفارض، وابن عطاء الله الأسكندري، وكان معروف الرصـافي الشـاعر المعروف على مذهبه ، وكذلك الفيلسـوف عبـد الرحمـان بـدوي الـذي توفي 2002، وكذلك الفرنسي روني قانون الذي اسـلم وأصـبح اسـمه عبد الله كنون.

إن المتصوفة الذين التزموا الاعتدال، وسـاروا على هـدي السـنة يرون أن ما قاله الحلاج عن الله، مثل ما في الجبة إلا اللـه، ومعبـودكم تحت قدمي، هو زيغ وضـلال، لا يليـق بالبـاري عـز وجـل، وقـد اسـتحق القتل، ورأينا الجنيد سيد الصـوفية الحـق في عصـره قـد أفـتى بقتلـه ، وقال: من الناس من يستعمل هذه الشطحات الشـنيعة مـذهبا ويـدونها في التصانيف بأصولها وقواعدها وفروعها، كهذا الرجل وأمثالـه، فهـؤلاء ملحدون في دين الله تعالى، فمن التمس لهم عذرا فقد أخطأ الطريق، وأشبه عليه المعذور بغير المعذور.

ومن أجـود مـا كتب بكـير من الفصـول البحث الـذي نشـره في النشرة العلمية للكلية الزيتونيـة للشـريعة وأصـول الـدين عن الجـنرال حسين الذي كان مع خير الدين والجنرال رستم من أشد الناس إخلاصـا للبلاد وساكنيها، والعمل على إسعادهم والدفاع عن مصـالحهم، ولـو لم يكن حسين رجلا عسكريا وسياسـيا لكـان عالمـا أديبـا من طبقـة بـيرم الخامس أو سـالم بوحـاجب أو محمـود قابـادو، فالرجـل في الصـحافة، وكأنه صحفي ماهر محـترف، لا يعـرف غـير الصـحافة، وقـد نشـر عـدة مقـالات في الرائـد التونسـي تشـهد لـه بقدرتـه على مخاطبـة النـاس، وفهمه لدور الصحافة في المجتمع، ويكتب في الأدب والسياسة، وكأنـه صاحب الأدب الكبير، كما يقول بكير رحمه الله.

حمـــادي الســـاحلي

كـان الفصـل صـيفا وحـرارة شـهر أوت من سـنة 1968 تلفح الوجوه، وكان على بعض طلبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية من قســم العربيـة أن يـترددوا على معهـد بورقيبـة للغـات الحيـة بشـارع الحرية ليتلقـوا دروسـا تتعلـق بتحسـين مسـتواهم في اللغـة الفرنسـية، وممـا أغراهم بالتردد على هذا المعهد تلك المنحة التي خصصها وزيـر التربيـة آنذاك الاستاد أحمد بن صالح لمن يتلقى هذه الدروس.

والشيء بالشيء يذكر كما يقال،فبعد هروب الأسـتاذ ابن صـالح من السجن كنت متوجها إلى مقر عملي بمدينة باجـة على متن سـيارة أجرة، وفي المحطة التي تسمى(كلم44) أوقفتنا الشرطة، وطلبوا منــا أوراق هويتنـا، ولمـا جـاء دوري، ونظـر الشـرطي في بطاقـة تعـريفي أنزلني من السيارة، وأخـذني إلى سـيارة الشـرطة، وأخـذ يسـألني عن علاقتي بالضابط فلان الذي يحمل لقبي،وألقى عليّ الكثير من الأسئلة، وكتب محضرا في الموضوع، ولم أتفطن إلى سبب هذا الإزعاج إلا بعــد أن عرفت أن الضابط المذكور له علاقة بهروب الأستاذ احمد بن صـالح من السجن، وأن لقبه كلقبي.

المهم أن كاتب هذه الأسطر كان من جملة الطلبة الذين يرغبــون في تحسين مستواهم في لغة ديكارت وروسو،ويتداركون ما فـاتهم من هذه اللغة، وإذا برجل طويل القامة، أبيض البشرة، مع ميـل واضـح إلى البدانـة يـدلف من البـاب، ويسـتوي فـوق المكتب المخصـص للأسـتاذ، ويجلس على كرسي من هذه الكراسي التي تطوى، كان وجهـه مفعمـا بالبشر، طلق المحيا، وكان هذا الرجـل هـو الأسـتاذ حمـادي السـاحلي(1928 ـــ 2002) الباحث والمؤرخ فيما بعد، ولم يكن الأستاذ الساحلي من صنف الأساتذة الـذين يعبسـون في وجـوه طلبتهم، ويكشـرون عن

أنيابهم، فيكره الطلبة حضورهم، ويشمئزون من دروسهم، مهما بلغوا من العلم والمعرفة.

بدأ استاذنا حمادي الساحلي يتحدث، والضحك ملء فيه، كنا نظن أنه يضحك مرحبا بنا، ولكن تبين لنا أن هذه الضحكة العريضة تلازمه عندما يتكلم أو يتحدث، وتفارقه، وإن إلى حد، عندما يلازم الصمت، لم يكن درس الفرنسية الذي جئت من أجله يغريني، كما يغريني خروجه عن الدرس، فيحدثنا عن تاريخ تونس البعيد والقريب، ويعرض علينا وقائع التاريخ، كما لو كنا لم نسمع بها من قبل، وخاصة منها تلك الجزئيات التي لا يهتم بها المؤرخون عادة، فيتحول درسه إلى عرض ممتع لوقائع التاريخ، ونقد لمناهج المؤرخين وطرقهم في عرض الأحداث، وكم كان يشدنا أسلوبه(الضاحك) المؤنس، ولا يعني هذا أنه يفرط في تلك النصوص الفرنسية التي يشبعها درسا وتمحيصا، ولكنه اختار هذا التراوح بين الدرس، ومدنا بطرائف من تاريخ تونس كمنهج في التدريس، حتى لا يثقل علينا بقواعد تلك اللغة التي جئنا من اجلها في تلك الصائفة.

ومن حين لآخر كان يمدنا بأخبار تتعلق بمجريات الأحداث السياسية، وبالأعراف الدبلوماسية بين الدول، خاصة فيما يتعلق بتعيين السفراء، من ذلك ما سمعناه منه أن حكومة المرحوم الباهي الأدغم رفضت سفيرا لايطاليا، بعد دراسة الملف الذي قدمته حكومته، لأن النطق باسمه في تونس ينافي الحياء.

ولا أنسى تلك الحادثة المؤسفة التي وقعت لأستاذنا حمادي الساحلي، فقد دخل إلى القسم، وتوجه إلى المكتب المخصص له بتؤدة ورفق كعادته في مشيته، ولما جلس تهشم ذلك الكرسي الذي يطوى، وسقط الأستاذ على الأرض، فنكسنا رؤوسنا إشفاقا عليه، ثم أسرع أحدنا بجلب كرسي آخر، ونحن نلعن هذا النوع من الكراسي المطوية ، ومن ألطاف الله أنه لم يصب بأذى.

وانتهت تلك الدروس، وفارقنا الأستاذ الساحلي والحسرة تملأ القلب، وأصبحنا لا نراه إلا لماما، عندما يكون مارا بقامته المديدة في هذا الشارع أو ذاك، أو في أروقة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عندما تولى خطة كاتب عام بها، وكان لا يبخل علينا بالتحية، فليس هو من ذلك النوع الذي يتكبر على من كان دونه منزلة وسنا، ولعل هذا هو سر حبنا له، وواصلنا نحن دروسنا، وبقيت ذكرى حمادي الساحلي لا تفارقنا.

يبدو من خلال لقائنا به في هذه الصائفة أنه أخذ يستعد، وهو في الأربعين من عمره للدخول في غمار الدراسات التاريخية والحضارية التي تهم تاريخ تونس الحديث والمعاصر، فلم ينشر شيئا يلفت الانتباه

إلا ابتداء من سنة 1970 عندما نشر بحثه القيم عن(استقلال الشعوب بعد الحرب العالمية الثانية) ثم توالت منشوراته بعد ذلك إلى وفاته سنة 2002 وأصبحت ملء الفم والعين، خاصة بعد إصدار المجلة الصادقية، وإشرافه على رئاسة تحريرها، صحبة الأستاذ عبد الوهاب الدخلي، وفتحي اللواتي المشرف على المتابعة والتنسيق، وفي هذه الفترة عنّ لي نشر بعض الدراسات التي تتعلق بجماعة الحاضرة، ومواقفهم من قضايا عصرهم، فوجدت منه ترحيبا وتشجيعا لم أكن أتصوره، فكان يتلقف هذه الفصول، ويسرع بنشرها، وعندما تصل إلى يديه يبادر بمراسلتي، معبرا عن ابتهاجه بتعاوني مع أسرة المجلة، ويعد بنشر البحث الذي أرسلته، ويطلب مني المزيد.

وذات يوم حمل إلي ساعي البريد رسالة طويلة من الأستاذ حمادي الساحلي تقطر ودا وشكرا على قبولي إلقاء محاضرة في افتتاح الموسم الثقافي لجمعية قدماء الصادقية(1997) عن رائد الصحافة التونسية المرحوم علي بوشوشة، بمناسبة مرور ثمانين عاما على وفاته، وقد عمل رحمه الله على أن يكون الحضور كثيفا، وذلك للمنزلة التي يحتلها علي بوشوشة في تاريخ تونس الحديث،وقد كان من بين الحضور الأستاذ أحمد عبد السلام والهادي البكوش الوزير الأول السابق، وثلة من رجال الفكر والأدب غصت بهم القاعة.

وتوطدت صلتي به بعد ذلك في مكتب الأستاذ عبد الوهاب الدخلي مدير إدارة الآداب بوزارة الثقافة آنذاك، وذلك قبل عام من وفاته رحمه الله، وكان في نية الأستاذ الدخلي أن نعد آثار البشير صفر بعد تحقيقها والتعليق عليها، وهي تنقسم إلى قسمين: قسم باللغة الفرنسية، وقسم باللغة العربية، وقد تكفل المرحوم الساحلي بالقسم الفرنسي، وأسرع بانجاز هذا العمل، فقد كان الرجل من الذين لهم صبر على البحث والدراسة قل نظيرهما، إذا استثنينا حسن حسني عبد الوهاب ومحمد العروسي المطوي، لقد كان حمادي الساحلي من هؤلاء الباحثين الكبار الذين يشنون الركب، ويقضون بياض نهارهم وسواد ليلهم في المطالعة والبحث، بدون فتور أو كلل، وكانت نتيجة هذه المرابطة في مدة لا تزيد عن ثلث قرن ثلاثين كتابا وواحدا وستين بحثا وفصلا، كما ذكر صديقه عبد الوهاب الدخلي في المجلة الصادقية إثر وفاته.

كنت أسرع إلى هذه الجلسات في مكتب الأستاذ الدخلي(وكم كان المرحوم حمادي الساحلي دقيقا في مواعيده) حتى التقي به، واستفيد من علمه، وآنس إلى حديثه، فقد كان الرجل عبارة عن خزينة من المعلومات والوثائق التي تهم تاريخ تونس خلال النصف الأول من القرن العشرين، فقد كان الرجل على إطلاع واسع، ومعرفة جيدة بالوثائق التي كتب جلها باللغة الفرنسية، وكان كثيرا ما يسرع إلى

تعريبها ونشرها، لإفادة الباحثين بها في بعض الصحف اليومية، ومنها جريدة (الصباح) التي نشر فيها تعريبا لتقرير المقيم العام الفرنسي(منصورون) إلى وزير الخارجية الفرنسي حول مسألة التجنس، وموقف المذهبين المالكي والحنفي من توبة المتجنس أمام القاضي، ومسألة دفنه في المقابر الإسلامية، وذلك بعد اعتراض الوطنيين على دفنهم بمقابر التونسيين.

وللمرحوم حمادي الساحلي رأي في التاريخ أوضحه في الصفحات الأولى من كتابه (فصول في التاريخ والحضارة) وسماه مدخلا، وكأنه يجيب على سؤال لماذا الاهتمام بالتاريخ؟ وما هي فائدته في هذا العصر، عصر المعلومات والإعلامية والاستشعار عن بعد، وعصر الاقتصاد والتكالب على المال والحصول عليه بأية طريقة كانت؟ وكان جوابه أن التاريخ يكتسي أهمية بالغة بالنسبة إلى الأمم أو الدول السائرة في طريق النمو، فدراسة التاريخ تساعد على فهم المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، حيث إن معطيات العديد من المشاكل كامنة في التراث الذي ورثناه عن الماضي، ولا يعني هذا التشبث بالماضي إلى أبعد حد،فالمؤرخ ليس هو ذلك الإنسان الغارق في أعماق الماضي، بل هو الإنسان المتجدد المتفاعل مع عصره، الساعي إلى إدراك كنه العلاقة بين الماضي من جهة، والحاضر والمستقبل من جهة أخرى، فكثيرا ما تساعد معرفة الماضي على الإحاطة بمشاكل الحاضر، والوصول إلى حلها، وهذه الحلول هي في حد ذاتها خلق جديد، وانجاز متجدد، وهكذا يكون التاريخ، فهما للماضي وانجازا في الحاضر، وتوجها إلى المستقبل لمواصلة العمل والفعل.

ودراسة العصور المتعاقبة تستدعي من المؤرخ حسب حمادي الساحلي الموضوعية والنزاهة العلمية، والاهتمام بالحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي أهملها المؤرخون في السابق، وعدم الاكتفاء بسرد الأحداث، وبالإضافة إلى ذلك يتعين على المؤرخ التونسي أن ينفض الغبار عن بعض الحقبات التي لا تزال مجهولة، كتاريخ تونس في القرن السابع عشر مثلا، وبعض الفترات التي درست يتعين إعادة النظر فيها، بالاعتماد على التطور الذي شهدته العلوم التاريخية في هذا العصر، سعيا إلى إرجاع الأمور إلى حقيقتها التاريخية.

ومن مهام المؤرخ ، كما بري المرحوم الساحلي تعويد الشباب على إعمال الفكر، لفهم الوقائع التاريخية، وتأويلها التأويل الصحيح، بالنظر إلى أسبابها ومسبباتها، ذلك أن التاريخ يتمثل أساسا في ملاحظة الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية من جهة، ومحاولة تفسيرها وتأويلها من جهة أخرى، وذلك بالاعتماد على ما تقدمه العلوم

الأخرى من معلومات للمؤرخ، كالجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والعلوم الاقتصادية.

والهدف من تدريس التاريخ في رأي حمادي الساحلي، بالإضافة على الحرص على غرس الروح الوطنية في النفوس، والاعتزاز بالقومية والملة، أن يسمو بمخاطبيه عن المغالاة والتعصب، ويحبب إليهم روح التفاهم البشري، حتى يدركوا ما للأمم الأخرى من حظ في خدمة الإنسانية، وتقدم الحضارة البشرية.

وهذا الفهم لدور التاريخ والهدف من تدريسه هو الذي عليه المعول لدى كل الشعوب المتقدمة، فليس التاريخ تمجيدا لما قام به السابقون من انجازات حضارية، وتغنيا بالماضي العريق، فالأمة الحق هي التي ترسم أهدافا بعيدة ومثلا سامية، وعند الوصول إليها والعمل على تحقيقها تتجاوزها وترسم أهدافا أخرى وهكذا، والتجاوز لا يتحقق إلا بالعمل والفعل وإرادة التغيير.

إن إضافات الساحلي لتاريخ تونس الحديث والمعاصر جديرة بالثناء والتنويه، ومن تواضعه رحمه الله أنه عندما عرض مؤلفات (المدرسة التاريخية التونسية الحديثة) لم يشر، ولو من بعيد ــــ رغم أنه أحد أعضائها البارزين ــــ إلى كتبه وأبحاثه التي أثرت المكتبة التاريخية بتونس، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر(فصول في التاريخ والحضارة)و(الصحافة الهزلية) بالإضافة إلى عشرات المقالات والأبحاث، وترجمة الكثير من الكتب التي اعتنت بتاريخ تونس القديم والحديث، وكان الرجل أميل إلى تاريخ تونس الحديث والمعاصر، وليس هو من هواة التاريخ، كما يزعم بعضهم، بل هو في طليعة المؤرخين التونسيين في العصر الحديث، إن لم يكن أبرزهم.

وكانت له مشاركات في الملتقيات الفكرية والندوات العلمية، والمساهمة في تنشيط الحياة الثقافية عن طريق إلقاء المحاضرات، وآخر المحاضرات استمعت إليها تلك التي ألقاها عن النقابي أحمد التليلي، ومحمد الخضر حسين العالم التونسي الذي هاجر إلى الشرق، واستقر بمصر، ووصل بذكائه وعلمه إلى رئاسة الجامع الأزهر.

ولحمادي الساحلي جوانب متعددة في شخصيته، فهو مربّ ومدرس ناجح، ومترجم قل أن يوجد من يسد الفراغ الذي تركه في هذه الناحية، وهو مؤرخ وباحث أمد المكتبة التاريخية بنادر الوثائق والمعلومات، وهو محاضر يشد إليه سامعه لما في كلامه من جديد ومفيد، بحكم اطلاعه على وثائق لم تنشر من قبل، والمتعلقة بالموضوع الذي يتحدث عنه، غير أن الخيط الرابط بين هذه الجوانب المتنوعة في شخصيته هو اهتمامه بتاريخ تونس في العصر الحديث، ويعود الفضل في توجيهه نحو الدراسات التاريخية إلى الحكيم محمود الخياري الذي أهدى له كتابه(فصول في التاريخ والحضارة)

ولـو سـألت من عـرف المرحـوم السـاحلي من زملائـه وطلابـه لأسرع إلى القول بأن الرجل كان نسيجا وحده من حيث دماثة الأخلاق، تواضع جم، وطيبة في القلب قل نظيرها، يسـمع أكـثر ممـا يتكلم، وإذا تكلم كانت الفائدة والنفع، لا يعرف عنه أنه يستنقص من شأن الآخرين، ولو كان على علم بأن الآخرين يقللون من شأنه، وإن سمع بهذا يلمـز، والآخر يهمز لا يلتفت إليهما، وإنما يهمه عمله الذي يقبـل عليـه في جـد وصبر، لقد جمع من الخصـال في رأينـا مـا لا يجتمـع في غـيره، وكـان رحمه الله لا يلقي بالا إلى الثناء والمدح، أذكـر أنـني كتبت مقـالا قصـد نشره في المجلة الصادقية، وكان الموضوع يستدعي أن انـوه بالأسـتاذ حمادي الساحلي، لمـا لـه من فضـل وجهـد مشـكور في إثـراء المكتبـة التاريخية بتونس، وما قام به من نشر وتعريب للوثائق المتعلقـة بتـاريخ تونس الحديث والمعاصر، فما كان منـه إلا أن حـذف هـذا الثنـاء، أو مـا اعتبره هو مدحا وإطراء، والعادة أنه من كان في سنه يميل إلى الثنـاء، ويستزيد منه، كان هذا رايي فيه نشرته في المجلة الصادقية بعد مـرور عام على وفاته، وما زلت عند رأيي أعيده هنا لتكتمل صورة هذا الوجـه الذي لا ينسى، ولا يمحى من الذاكرة.

ورأيت أن أختم هذه الخواطر بتعريف المرحوم حمادي الساحلي لكتابي (الحاضرة) الذي يبدو أنـه لقي منـه إعجابـا واستحسـانا، يقـول: صـدر عن كليـة العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة بتـونس كتـاب يحمـل عنوان(الحاضرة)ويقع في 413 صـفحة، بالإضـافة إلى الفهـارس، وثبت المصادر والمراجع، وهو من تأليف الأستاذ علي العريبي، المعروف منـذ عهد بعيد بفصوله ومقالاته القيمة في الصحافة التونسية، وهـذا الكتـاب في الأصل رسالة أعدها صاحبها بإشراف الأسـتاذ علي الشـنوفي لنيـل شـهادة التعمــق في البحث، ويبــدو من المقدمــة المؤرخــة في جــوان 1985 أن الكتاب قد قدم للطبع منذ ذلك التاريخ، ولم يكتب له الظهور إلا في جويلية 1995وتبعا لذلك لم تشتمل قائمة المصادر والمراجـع إلا على البحوث التي صدرت قبل سنة1985 إلا أن ذلك ـــ والحـق يقـال ـــ لم يكن له تأثير كبـير على محتـوى الكتـاب، لأن المؤلـف قـد اعتمـد أساســا على مجموعــة (الحاضــرة) المودعــة في دار الكتب الوطنيــة، وخزانة الدولة، وهي تغطي الفـترة الممتـدة من تـاريخ صـدور الجريـدة في 2 أوت 1888 إلى تـاريخ تعطيلهـا في 7نوفمـبر 1911 إثـر انـدلاع حوادث الزلاج.

وقــد تنــاول صــاحب الكتــاب بالــدرس من خلال مجلــدات هــذه الجريدة مختلـف مظـاهر الحيـاة السياسـية والاجتماعيـة والفكريـة في تونس في أواخر القرن التاسع عشـر إلى آخـر العقـد الأول من القـرن العشرين، متوخيـا في ذلـك منهج التـدقيق والضـبط والتحـري في نقـل المعلومات، وقام على امتداد أبواب الكتاب السبعة بالتعريف بالأعضـاء

المؤسســين، مشــيرا إلى أن عــددهم يبلــغ 17 مثقفــا منهم 12 من خريجي المدرسة الصادقية، ثم تـرجم لثلاثـة من أبـرز المحـررين، وهم البشير صفر رئيس الجماعـة، وعلي بوشوشـة مـدير الجريـدة، ومحمـد ابن الخوجة، واقتصر على ذكر بقية المحررين أمثال محمد السنوســي، ومحمــد القــروي، وعلي الــورداني، ومحمــد الحشائشــي، والشــاذلي درغوث، وكذلك الشعراء الذين نشـروا بعض قصـائدهم في (الحاضـرة) وفي طليعتهم عمر بن أبي بكر(تــ 1898)وهو شاعر مغمور، لم يسـبق ذكره ــ حسب علمنـا ـــ في أي مرجـع من المراجـع المتعلقـة بتـاريخ الأدب التونسي الحديث، إلا أن المؤلف لم يشر ولو إشارة خاطفـة إلى أحد مشاهير محرري الحاضرة ، وهو الشيخ محمد الن خلي(1869 ـــ 1924) الذي يعد من أبرز علماء جـامع الزيتونـة قي عصـره، ومن رواد الحركة الإصلاحية في تونس، فقد ساهم في (الحاضرة) ببحوثه الدينية، ونشرت له الجريدة بالخصـوص القصـيدة الـتي رثى بهـا الشـيخ محمـد عبده، وقصيدته الشهيرة في فضل العلم التي يقول في مطلعها:

هو المجـد في الإسـلام أثلـه العلم إليـه دعـا دين بـه انقشع الوهم

كما سلط صاحب الكتاب الأضواء على مواقـف جماعـة الحاضـرة من أهم القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت تشـغل بـال النخبة عهدئـذ، مثـل الـدفاع عن اللغـة العربيـة، وإصـلاح التعليم بجـامع الزيتونة، وبالمدرسة الصادقية، والدفاع عن الأوقـاف الإسـلامية، وتعليم المرأة المسـلمة الخ...وبين الطـرق الـتي توختهـا الجريـدة للـدفاع عن مصالح الأمة" وإرشاد التونسـيين إلى مـا لهم من الحقـوق، ومـا عليهم من الواجبات، وتنبيه أولي الأمر الى ما اختل من الأحوال العمومية، كل ذلك في لهجة معتدلة، مـع صـدق النيـة، وإخلاص الطويـة" وحـرص من ناحية أخرى على تحليل برنـامج جماعـة الحاضـرة الـرامي إلى الـدعوة إلى إصلاح الدين واللغة والعادات والتقاليد والسعي إلى إنقاذ الأمـة من محاولات المسخ والإدماج، مستشهدا بما كتبه محررو الجريـدة في هـذا الشأن.

ولا يسعنا في الختام إلا التنويه بما بذله الأستاذ علي العريــبي من جهود تذكر فتشكر، لإعداد هذا الكتاب القيم الذي يكتسي أهمية بالغــة، ولا يخلو من فائـدة بالنسـبة إلى كـل المهتمين بتـاريخ تـونس الحـديث، لمزيد البحث والدرس والتمحيص.

رحم الله أستاذي حمادي الساحلي.

محمد بن يونس السويسي

من كان يتصور أن ذلك الفتى الذي ولد في أسرة فقيرة جدا في قرية (عباس) قرب مدينة توزر سيصبح أستاذا جامعيا، بعد أن ينال أكبر شهادة علمية بامتياز، كانت أمه تغزل الصوف، وتبيعه لكي تقتات مع ابنها وبناتها،ثم أصيبت في عينيها، فأصبحت ضريرة،فانقطع عن الأسرة سببا من أسباب الرزق، وكان الوالد ينال جراية شهرية لا تسمن ولا تغني من جوع جراء خدماته تحت العلم الفرنسي الذي جند

به لسنوات عدة،وعاد إلى القرية، بعد أن أنهكت قـواه، وأمضـى شـبابه في حروب فرنسا الاستعمارية.

لم يدخل الابن إلى المدارس الفرنسية العربية الـتي كونتهـا أدارة العلــوم والمعــارف، وذلــك لأن الأب كــان يمقت التعــاليم الفرنســية، لمعاداتها للدين الإسلامي، حسب رأيه، فأدخل ابنه إلى الكتـاب، فأقبـل على حفظ القرآن الكريم ، وتم له ذلك ،وهو طفل.

كان على الصبي أن يساعد أسرته، فخـرج من قريتـه بحثـا عمن يرغب من الأسـر في تحفيـظ أبنـائهم سـورا من القـرآن، وفي مقـام العالمين الشقراطسي، صاحب القصيدة المعروفـة بالشقراطسـية في مدح الرسول، والعالم ابن الشباط، عالم في الحساب، ومصمم طريقة سقي النخيل، وتوزيع الماء في بلاد الجريد،انتصب الفتى مؤدبا للصبيان في هذين المقـامين، ثم انتقـل إلى كتـاب الجـامع الكبـير ببلاد الحضـر، وفي هذه الأثناء فكر في الانخراط في الفرع الزيتوني بتوزر على غـرار لداتـه وأصـدقائه من حفظـة القـرآن، فـاقنع والديـه بضـرورة الالتحـاق بالفرع، خاصة وأن مهنة المـؤدب ظرفيـة، وليسـت قـارة، وأن صـاحبها عليه أن يتنقل في البوادي والقرى، ليجد من يطلبه لتعليم أطفاله، فما كان من أمه أن لبت طلبه، فبـاعت مـا تملـك من مصـوغ،يـذكرها بيـوم زفافهـا وفرحـة العمـر لـديها، واشـترت بثمنـه مـا يلـزم ابنهـا من كتب وأدوات مدرسية، وبقي بهذا الفرع أربـع سـنوات،وتختم السـنة الرابعـة في التعليم الزيتوني بالحصول على شهادة ختم الدروس الابتدائية التي تسمى شهادة الأهلية.

ولكن الفتى لم ينل هذه الشـهادة لعـدم مواظبتـه على الـدروس، لأسباب مادية قاهرة، منهـا قلـة ذات اليـد، وعجـز الأسـرة عن تحصـيل القوت، فقد كان مرتب ولـده ضـئيلا جـدا، ثم أصـيب بكسـر في رجلـه، أقعـده عن المشـي،ومـا لبث أن تـوفي، وأمـه كمـا ذكرنـا أصـيبت في بصرها، وتزوجت ابنتاها، ولم تبق إلا الأخت الصـغيرة، الـتي لا تسـتطيع القيـام بـأي عمـل يـذكر،فكـان عليـه أن ينقطـع عن الدراسـة،ويسـعى للحصول على الرزق لإعالة أسرته، فعمل في جمع التمور، وفي حظائر البناء،وعمل صانعا في التجارة، ثم في الحـدادة، ولكنـه لم يكن يحسـن مثل هذه الأعمال،الشيء الذي يقـدر عليـه هـو تحفيـظ الصـبيان قصـار السور، ولم يجد في قريته أو حتى القريبة منها من يقوم بتكليفـه بهـذه المهنة، لاستغنائها بالمؤدبين ، فأخذ يطوف في قرى الجنوب التونسـي، بحثا عمن يطلب مؤدبا من أهـل البـوادي، وبعـد بحث طويـل وجـد في المزونة رجلا كلفه بتعليم أبنائه وأبنـاء أقاربـه وجيرانـه، وبقي في قريـة المهاذبة ستة أشهر، ثم استقر بعد ذلك في بادية القصـرين قـرب جبـل الشعانبي، وأقام بها قرابة العامين، كان الكتاب عبارة عن كوخ صـغير، مغطى بالأعشاب والقش، لا باب لـه، وهـو نفسـه محـل سـكناه، وفيـه

كابـد الشـاب مـا لا يحصـى من المتـاعب والشـدائد من حـر وبـرد وثلوج،أثرت في صحته، وما زال يعاني منها حـتى الآن، ولكنـه اسـتطاع في هـذه الظـروف الصـعبة أن يراجـع دروسـه ، وان يجمـع القليـل من المال، ثم يتوجـه إلى الفـرع الزيتـوني بتـوزر من جديـد، وينخـرط فيـه، ويقتلع في آخر الأمر شهادة الأهلية.

هـذه الشـهادة تخـول لـه الـدخول إلى الجـامع الأعظم بتـونس لمواصـلة المرحلـة الثانيـة من التعليم الزيتـوني، وفعلا انتقـل إلى العاصمة، وشرع في مواصلة الدراسة، ولكن المشكل الذي واجهه بعـد أشهر قليلة هو نفاد ما جمع من مال من خلال عمله في الكتاب، وفكـر في التخلي عن الدراسة، ولكن أحد أقاربه رتب له مبلغا من المال يأتيه كل شهر، ووجد في مطعم الهدايـة بنهج الحجـامين أكلـة مجانيـة، وهـو مطعم أسسـه شـيوخ الزيتونـة بإشـراف المرحـومين الطيب التليلي ومحمـد الزغـواني، لتمكين ضـعاف الطلبـة الزيتونـيين من مواصـلة الدراسة، وبذلك تسنى له الاجتهـاد في دراسـته الـتي ختمهـا بالحصـول على شهادة التحصيل، وهي شهادة تعادل شهادة البكالوريا، وذلك سـنة 1954

وكانت حكومة الاستقلال سنة 1956 في حاجة أكيدة إلى خريجي جـامع الزيتونـة لانتـدابهم بـالتعليم الابتـدائي،بعـد الفـراغ الحاصـل في المدارس الابتدائية بعد مغادرة الفرنسيين التراب التونسـي،ومن ناحيـة أخرى أرادت هذه الحكومة أن تشبع نهم الأهالي، وتعطشهم إلى التعلم والمعرفة من قبل أبناء الشعب التونسي الذي حـرم من الدراسـة في سـنوات الاحتلال البغيض، وسياسـة انتشـار التعليم هي من حسـنات الزعيم بورقيبة التي تحسب له،فقد ساهم انتشار التعليم إلى حـد كبـير في إنارة العقول، ورفع الأميـة الـتي كـانت متفشـية في صـفوف أبنـاء الشعب التونسي، فمن كان لـه محـل، ولـه مسـتوى تعليمي يخـول لـه تعليم النشء فحكومة الاستقلال تسـند لـه خطـة مـدير، المهم أن يعلم الأطفال، وهكذا انتشر التعليم في القرى والمداشـر، وربمـا في رؤوس الجبال.

دلـف الشـاب إلى التعليم الابتـدائي، وكـان ذلـك بمدينـة نفطـة، فالفحص ، ثم بتونس العاصمة،وبمدرسة نهج المقطـر أصـبح قريبـا من الكليـة الزيتونيـة،فعـزم على مواصـلة الدراسـة العاليـة بهـا، وكـانت المحاضرات والدروس بها مسـائية، وسـبب هـذا التـوقيت أن المرحـوم محمد الفاضل ابن عاشور عميد الكلية الزيتونية لاحـظ عـزوف الطلبـة النـاجحين في شـهادة البكالوريـا عن التسـجيل بهـذه الكليـة، وظـل الدارسون بها قليلي العدد فاستحدث قانونا يسمح للمعلمين الزيتونـيين استكمال دراستهم العالية من جهـة، وإعـداد أسـاتذة التربيـة الإسـلامية في المعاهد الثانوية من جهة أخرى.

وانفتاح الكلية الزيتونية على رجـال التعليم الابتـدائي من خـريجي جـامع الزيتونـة يرجـع الفضـل فيـه إلى ابن عاشـور،فقـد أتيح لهـؤلاء المعلمين مواصـلة المرحلـة الثالثـة من التعليم العـالي، وسـرعان مـا تكونت كوكبة من خريجي هـذه الكليـة أثـرت الفكـر الـديني في تـونس بمؤلفات جديدة، فـانتعش التـأليف في بيـان تعـاليم الإسـلام ومقاصـده بأسـلوب علمي بعيـد عن الثنـاء الفـارغ،والتمجيـد الـذي لا طائـل من ورائه،وأضيفت إلى المكتبة الإسلامية بتونس كتب ما كان لهـا أن توجـد لـولا هـؤلاء الخـريجين، ومن هـؤلاء الخـريجين نـذكر: محسـن عبـد الناظر،وعبد الله الأوصيف، ومحمد الطاهر الجـوابي، وأحمـد البـارودي، ومحمد بن يونس السويسي.

محمد بن يونس السويسي معتدل القامة، أسـمر البشـرة، سـهل المعاشرة، طيب السريرة، كثـيرا مـا يعترضـك، وهـو يبتسـم ملء فيـه، محبوب لدى الكبار والصغار، يقـف مـع سـائله في مسـائل العبـادات أو المعاملات ساعات، دون أن يبدي مللا أو تضجرا، وكثـيرا مـا أهنئـه على سعة صـدره، وصـبره الجميـل ،ولكن إذا مسـت محـارم اللـه، وشـعائر الإسـلام، أو وقـع مخالفـة الإمـام مالـك في مسـألة مـا يغضـب أشـد الغضـب،ويحمـر وجهـه، ويعلـو صـوته، وعنـد ذلـك أقـول بيـني وبين نفسي:ليته يعود إلى هدوئه وسكونه؟

له أكثر من عمل في الفقه الإسلامي، وأكثر هذه الأعمال ما زال مخطوطا، ونشر منهـا أطروحتـه عن الفتـاوى في القـرن الرابـع عشـر الهجري، ولئن كـان هـذا العمـل وثائقيـا إلا أنـه وفـر للطلبـة والبـاحثين الكثير من الجهـد والعنـاء،وأراحهم من الرجـوع إلى الصـحف والمجلات التونسية، وأغلبها يعسر الحصول عليـه، فأصـبحت هـذه الفتـاوى قريبـة إلى الأيدي،وتحمل الشيخ السنوسي عواصف الغبـار،والـروائح الكريهـة التي تنبعث من هذه الصحف التي تقـادمت، وأكـل السـوس الكثـير من أوراقها وسطورها،وأصبح الكثير من أعمدتها يصعب قراءتـه، وأصـبحت في حكم الكتب المخطوطة.

الأطروحة المـذكورة تتـألف من جـزأين، يشـتملان على (1276) صفحة من القطع المتوسط، وتحتوي على قسمين واضحين، قسم قدم فيه الفتاوى(ومجموعها: 474) وعرف بالصـحف والمجلات، كمـا عـرف بأصحاب الفتاوى(أكثر من خمسين مفتيا) ووضع هذه الفتاوى في سياق العصـر،وقـد اسـتغرق ربـع الصـفحات أو دونهـا بقليـل، وخصـص بقيـة الأطروحة لنصوص الفتـاوى، وقـام في هـذا القسـم بتخـريج الأحـاديث، وترجم للأعلام الواردة في تلك الفتـاوى، وأحـال الشـواهد الـتي اسـتند إليها المفتي في فتواه إلى مصادرها، وهو عمـل مضـن،لا يشـعر بـه إلا من يكابده.

ونختار فيما يلي بعض الفتاوى، ومنها معالجة المريض بنقل الـدم إليه، فقد سئل محمد العزيز جعيط،وهو من العلماء الكبـار في تـونس، وأول من سمي مفتيا للديار التونسية في عهد الاستقلال،سئل من قبـل وزارة الصحة العمومية عن حكم المداواة بتلقيح المريض بالـدم، سـواء أكان دم المرض نفسه، أو دم غيره، وسواء أنقل الدم للمريض مباشرة من شـخص، وهـو بـاق على حالتـه الطبيعيـة، أو نقـل لـه بعـد تجفيفـه وتصبيره، ومزجه بعد ذلك بما يصلح معه للمداواة بالتلقيح.

وكـــان جـــواب جعيـــط، أن الـــدم محـــرم أكلـــه وشـــربه بنص القرآن(يشير إلى قوله تعالى:حرمت عليكم الميتـة والـدم) وهـو نجس، فالمداواة به من وادي المداواة بالمحرم النجس، والمـداواة بـذلك غـير مباحة في حالة الاختيار، ويتحقق الاختيار إذا وجد في الأدوية الطـاهرة ما يغني عنـه، ويقـوم مقامـه، أمـا في حالـة الاضـطرار كخـوف الهلاك، وانعدام الأدوية الطاهرة التي تغني عن المداواة بـالنجس، فـالجواز هـو الأقـوى، من حيث القواعـد،وظـواهر الآيـات، ويكفي في حصـول النفـع بنقل الدم، وفي خوف الهلاك بتركه غلبة الظن.

وكان يمكن للمفتي أن يتوقف عنـد هـذا الحـد في فتـواه، فنقـل الـدم في حالـة الاضـطرار، وخـوف الهلاك جـائز،وعـدم وجـود الأدويـة الطاهرة التي تحـل محـل النجس، إلا أنـه كعادتـه في فتاويـه يلم بـرأي المذاهب الأربعة حول هذا الموضوع، يقول: وقـد اختلفت المـذاهب في التداوي بالمحرم، فالراجح في المـذهب المـالكي المنـع، وللإمـام قـول بالجواز على ما نقله أبو الوليد الباجي في (المنتقى) والمـذهب الحنفي على الإباحة، إذا علم الشفاء به، ولم يقم غيره مقامه، كما في حاشـية عابـدين، والمـذهب الشـافعي على جـواز التـداوي بجميـع النجاسـات للضرورة إلا الخمر، ولم يذكر جعيط رأي المذهب الحنبلي،فهـل سـكت الحنابلة عن هذا الموضوع، ولكنه عاد إلى الفتوى من جديـد، وأخـذ في التفصيل والتدقيق، وهذا التدقيق يهم المختصـين في الفقـه والشـريعة أكثر مما يهم القارئ العادي، ولكن جعيـط وأمثالـه من العلمـاء يـدقون الشعرة دقا، ويقسمونها طولا وعرضا.

ولاحظ المرحوم محمد الصالح النيفر تألم النـاس، وتحـرجهم من كثرة ارتفاع السعار خصوصا في المواد الضرورية ارتفاعا تجاوز الحدود المعقولة، وتساءلوا عن حكم الله في ذلك، وبمـا أن المـذهب المـالكي يأذن في التسعير العادل، ويزجر متجـاوزه،رأى أن يـذكر حكم المسـألة على ما قاله الفقهاء.

قال:إن تسـعير أولي الأمـر لبعض مـا يبـاع في السـوق بثمن يمنـع تجـاوزه من المسـائل الخلافيـة لـدى أئمـة الفقـه الإسـلامي، فمنعهـا الإمامان أبو حنيفة وأحمد بن حنبل، ذهابا مع ظاهر الحـديث الـذي رواه الصحاح عن أنس بن مالك أنه قـال:غلا السـعر على عهـد رسـول اللـه

صلى الله عليه وسلم، فقالوا يا رسول الله قد غلا السعر، لو سعرت لنا؟ فقال:" إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق، وإني لأرجو أن ألقى ربي، وليس أحد يطلبني بمظلمة في دم ولا مال"

ولذا قال الإمامان: التسعير حرام، وقال مالك:إنه يجوز للإمام التسعير، وفي وجه للشافعية، جواز التسعير في حالة الغلاء.

وقال ابن العربي المالكي:الحق جواز التسعير، وضبط الأمر على قانون، ليس فيه مظلمة لأحد الطرفين، وما قاله المصطفى صلى الله عليه وسلم، وما فعله حكم، لكن على قوم صحت نيتهم وديانتهم، أما قوم قصدوا أكل مال الناس، والتضييق عليهم، فباب الله واسع، وحكمه أمضى.

وفي كتب الفقه المالكي التي تقول بجواز التسعير: إن للإمام إخراج المتجاوز للسعر المحدود من السوق، وتعزيره، أو بما لا يبلغ به حدا شرعيا.

وكلامهم يفيد أن تجاوز السعر مكروه،والأظهر أنها كراهة تحريم، وهذا بالنسبة للبائع فقط

وسئل مفتي الديار التونسية محمد العزيز جعيط في جويلية 1957 وزعماء الاستقلال وعلى رأسهم بورقيبة لإزالة الحكم الملكي، واستبداله بالنظام الجمهوري، سئل جعيط: ما هو

حكم الشرع في إزالة نظام الحكم الملكي، وإقامة الحكم الجمهوري عوضا عنه؟

وكان جوابه: يصرح مفتي الديار التونسية بأن الحكومة الشرعية في الإسلام عمادا انتخاب الشعب لها في دائرة الاختيار دون الضغط والإكراه.

وبعد هذه المقدمة أو الديباجة انتقل جعيط إلى التحليل والبيان ،فقال: وحيث إن المكره لا يلزمه شرعا ما أكره عليه، وحيث أن الشعوب التي استعمرها الأجنبي، وسلبها حرية الانتخاب والاختيار يفرض عليها أميرا بعينها هو من غير استشارة الشعب واختياره دون تحقق كفاءته لإدارة الدولة، وسياسة الشعب، وربما كان الأغلب تجرده من الصفات التي يتحقق بها حسن الإدارة، وحيث إن سكوت الشعب عن الرضي بإمارة الأمير المعين من قبل الاستعمار لا يعد رضاء، بل التصريح بالرضا به بعد التعيين يعتبر لاغيا، لأنه يعد في حالة ضغط وإكراه، بدليل إن الإعراب عن عدم الرضى يعتبر جريمة، ويعد صاحبه ثائرا باغيا، يسلط عليه أقصى العقوبات.

فالشعب الذي يكون بهذه الصفة، إذا انطلق من وثاق الاستعمار، واسترجع استقلاله وحريته، وحق الإعراب عن اختياره، يكون في حل وسعة إذا أراد إبطال إمارة الأمير المعين من قبل الاستعمار، وتعيين من يسوسه، ويقوم بمصالحه على الشكل الذي يختاره، لأن الإسلام

فوض إلى الشعب اختيار شكل الحكومة، ولم يلزمه شكلا معينا، فمن حقه أن يختار الشكل الذي يراه أقوم لمصالحه

فما سار عليه الشعب التونسي اليوم بواسطة ممثليه المنتخبين انتخابا شرعيا من اختياره لنظام الجمهورية، وإبطاله لنظام الملكية، وتعيين رئيس الجمهورية جار على المنهج الإسلامي، وقد نشرت هذه الفتوى كما أشار الشيخ السويسي في جريدة الصباح ، جويلية 1957 عدد 1723

هذه الفتاوى التي جمعها الشيخ محمد السويسي وقدم لها وعلق عليها، ما هي قيمتها الحضارية والتاريخية؟

يقول الشيخ محمد السويسي:ليس المراد من هذه القيمة أن الفتاوى المجموعة لدينا مصدر إخباري بمفهومه الاصطلاحي، مفعم بمختلف الأحداث التي عاشها الشعب التونسي في القرن الهجري الماضي ناطق بجميع أدوار حياة أبنائه، وما تميزت به من تطورات ومعتقدات وأفكار وعادات، ثم ما اعتور بيئتهم من رخاء وحرب وسلم وكوارث وأزمات، وغير ذلك، يقلب الإنسان صفحاته فيجد بين ثناياها ما يجده في المدونات التاريخية.

فالفتاوى أبعد ما تكون عن ذلك، لأن موضوعها كما نعلم هو بيان أحكام الله تعالى المستفتى عنها، وبما أن بيان هذه الأحكام مرتبط بأسئلة كان مبعث صياغتها وإثارتها الحوادث التي نزلت بإفراد من الأمة أو بمجموعها في كل الشؤون، وأن تلك الأسئلة المتعلقة بأزمنة معينة تدون الأشياء المتصلة بها، وتؤرخ وقت توجهها، ورأي الدين الفاصل فيها.

فالفتاوى بهذا الاعتبار هي لا محالة مصادر تاريخية، ولكنها لا تشتمل إلا على الإشارة إلى بعض الأحداث، دون تحليلها، واستعراض أسبابها ونتائجها، ومن هنا كانت مراجع ثانوية، تتسم بصحة الرواية وصدق المخبرين ونزاهتهم، وبعدهم عن التزوير وقلب الحقائق، قد يستفيد منها دارسو التاريخ لتدعيم أبحاثهم ودراساتهم، وهي في الآن نفسه مرآة للمجتمع التونسي الإسلامي خلال القرن المنصرم، تنعكس عليها بعض الجوانب من مشاغله ومشاكله، وجملة من مظاهر حياته المتنوعة ثقافية وسياسية واقتصادية وحضارية.

وحينئذ فإن قيمة الفتاوى التاريخية تنحصر في ناحيتين: الإشارة إلى عدد من الأحداث والوقائع، ثم التعرف على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة المسؤول عنها، وذكر أمثلة على ذلك منها الفتاوى الخاصة بالتجنس، وفتوى الترخيص للمحاربين مع فرنسا مكرهين، وفتوى دفع الزكاة إلى المجاهدين التونسيين، ونقل مقبرة الفرنسيين من موضعها بأحد شوارع عاصمة تونس الرئيسية وغيرها، وهي فتاوى مرتبطة بالأحداث التي عاشتها تونس، وأما الفتاوى الخاصة بالبدع،

فذكر منها الخـوف من غضـب الأوليـاء الصـالحين، والنـذر لهم بالـذبائح والقــرابين، والاحتفــال بميلاد الســيد المســيح ورأس الســنة الهجريــة، وصلاة الأربعاء الكحلاء، والتحبيس على البنين دون البنات...

وبعد فهذه مسيرة رجل تحدى العراقيـل والصـعاب، واسـتطاع أن يتجاوز الوضع المزري الذي وجد نفسـه فيـه، ويفـك كـل القيـود، ويهـزأ منهــا،فــإذا بــه ينتقــل من طفــل يقــوم بتحفيــظ القــرآن في مقــام الشقراطسـي وابن الشـباط ليتحصـل على قوتـه إلى معلم بالمـدارس الابتدائية، ثم أستاذا بمعهد الوعظ والإرشاد بالقيروان، فأسـتاذ محاضـر بالكلية الزيتونية، فجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، ولا ننسـى اعتلاءه لمنـابر الخطابـة والوعـظ في بعض مسـاجد تـونس العاصــمة، ومنهــا جــامع الإمــام مالــك بن أنس بالورديــة،ومــا زال الرجل،وقد تجاوز الثمانين، مكبا على البحث والتحقيق، وهو في عشرة التسعين (ولد سنة 1928) أطال الله في أنفاسه.

حامـــــد العلويني

يتعلم الإنسان على عشـرات المعلمين والأسـاتذة إن في التعليم الابتـــدائي أو الثـــانوي أو الجـــامعي، ثم لا يبقى منهم في الـــذاكرة إلا القليـل، ولا يعـني هـذا أن البقيـة ليس لهم فضـل عليـه، ولكنهم قـاموا بواجبهم على أحسن الوجوه،ثم ذهبـوا في حـال سـبيلهم ،وهم راضـون مطمئنــون، ولكن المتعلم ، أو الــذي حظي بتلقي العلم عنهم لم يــذكر عنهم حادثـة أو موقفـا وقفـوه منـه، وهـو بصـدد التعليم عنهم، وتلـك الحادثة أو الموقف تبقى عالقـا بالـذهن لا تنسـى،ولا تمحى رغم تـوالي الأعــوام والســنون، وربمــا تكــون ســببا في تغيــير مجــرى حيــاة الإنسان،وتأثير المعلم أو الأستاذ في طلبتـه كتـأثير الآبـاء والأمهـات في أبنائهم، فهم القدوة والمثال الذي يجب أن يتبع.

أذكــر وأنــا في الســنوات الأولى من التعليم الثـانوي أنــني كنت شــغوفا بالمطالعــة، أطــالع كــل مــا يتــوفر لــدي من كتب ومجلات وصحف،وما زلت كـذلك إلى اليـوم، وكنت أنفـق مـا يسـلمه لي الوالـد رحمـة اللـه من مليمـات لفطـور الصـباح بالمعهـد في شـراء مجلـة أو كتاب،وأبقى أتضور جوعا حتى الزوال، وكان أحد الباعة(واسمه عم عبد الله) ينشر الكتب أمام المعهد، فأشتري منه ما أقدر على شرائه، حـتى عـرفت عنـده، فكـان يرفـق بي في الثمن، وفي بعض الأحيـان يـراني معجبا بكتاب ، ولكن لا حيلـة لي في شـرائه، فيسـلمه لي، وأعـده بـأن آتي بثمنه في المرة القادمة.

وذات يــوم ، ونحن بالقســم والأســتاذ يدرســنا مــادة الرياضــيات، أطلعني أحد التلامـذة على كتـاب من كتب الأناجيـل، فاشـتاقت نفسـي لمطالعتـه، ولمـا رأى أنـني معجب بالكتـاب قـال لي: أريـد بيعـه لـك أو لغيرك، فإن أردت شراءه فلك ذلـك، وكـان ثمنـه في ذلـك العهـد مائـة وخمسين مليما، واتفقنا على ذلك، وتفطن لي الأستاذ، والكتاب أمامي،

فجاء إلى مكاني، وأخذ يتصفح الكتـاب ، ثم قـال لي بصـوت لا يسـمعه غيري:

ــ لا تقرأ هذا الكتاب، لم يحن بعد الوقت لتقرأه، عندما تتقدم في دراستك، فلك أن تطالعه، أما الآن فابتعد عن مثـل هـذه الكتب، فهي لا تصلح لك، أو هكذا قال لي.

وبعد أنهى كلامه معي أرجعت الكتـاب إلى الصـديق، وامتنعت عن شرائه منه، وكان يريد التخلص منه، ومن حسن الحظ أنني لم أسلم له المبلغ المطلـوب، لأنـني لا أملكـه في ذلـك اليـوم، وكـان هـذا الصـديق مشاكسا، ومعروفا بالخصام مع زملائه في الفصل.

وعملت بملاحظة الأستاذ، فكنت كلما رأيت كتابا من هـذا النـوع، أو أعثر صدفة على إذاعـة، تقـدم بـرامج دينيـة مسـيحية أتـذكر نصـيحة الأستاذ: لا تقرأ مثل هذا النوع من الكتب، فلم يحن بعـد أوان مطالعتهـا بالنسـبة إليـك، ومـازالت كلماتـه تـرن في آذني، رغم مـرور عشـرات السنين على تلك الملاحظة التي كانت الغاية منها النصح والتوجيـه نحـو الأفضل.

ولم يلاحظ لي أنني لم اهتم بدرسه، ومشتغل بالنظر في كتب لا تناسبني، وأنـا صـغير السـن، فقـد كـان رفيقـا بي، إذ كنت مجتهـدا في دروسي ، وخاصة بالنسبة لدرسه، وكان يعـاملني معاملـة خاصـة، ربمـا لأنني كنت رقيق الحال،وكان يعاملني كما يعامل الأب ابنه، هذا الأسـتاذ هو المرحوم حامد العلوي(1929 ــ 1999)

وبعد عشرات السنين على هذه الحادثـة أصـبحت أطـالع الإنجيـل والتوراة، بل وأنقل الكثير منهـا في مؤلفـاتي،مـع بيـان رأيي فيهـا، ومـا زالت ملاحظة الأستاذ حاضرة في الذهن، كأنه قال لها لي منذ حين.

والأستاذ العلويني معتدل القامة أبيض البشرة، مع حمرة، جميل الخلقة، أنيق في لباسه،ذو مهابـة ووقـار، ومـازلت أذكـر على السـبورة خطه الجميل، فقد كان يتانق في خطه،كتأنقه في لباسه، وكـان لطيـف المعشر حسن الخلق،لا يبخل علينـا بإفهـام مـا لم نفهمـه من الـدرس، وكان غيره من أسـاتذتنا يصـرخ في وجوهنـا، كأنـه يوبخنـا، ويقـول لنـا: لمـاذا لا تفهمـون؟ ولـو كـان هـو يفهم مـا يقـول لنـا لمـا احتجنـا إلى مراجعته.

لقد مرت السنة الدراسية مـع أسـتاذنا المرحـوم حامـد العلويـني كسحابة الصيف، أو كأنها حلم جميـل، وقـع للنـائم في ثـوان، ثم اختفى عنا الأستاذ،ولم نره بعد ذلك، وبقينا نذكر معاملته الحسنة لنـا، وأخلاقـه الحميدة.

ثم سمعنا أنه أسس مكتبـة ودار نشـر تسـمى "مكتبـة سـحنون" بنهج هولانـدة بتـونس(سـنة 1972)ثم أصـبحت "مؤسسـة دار سـحنون للنشـر والتوزيـع" ورأيت من منشـوراتها القيمـة بالاشـتراك مـع إحـدى

المكتبـات في اسـطنبول كتـاب" المعجم المفهـرس لألفـاظ الحـديث النبوي"(في ثمانية أجزاء ذات حجم كبـير، ط سـنة 1987) وهـو معجم بدأ فيه المستشـرق الهولانـدي فنسـنك، وأتمـه بعض العلمـاء من بينهم المرحـوم محمـد فـؤاد عبـد البـاقي صـاحب كتـاب "المعجم المفهـرس لألفاظ القـرآن الكـريم" والكتـاب الأول يسـاعد على تخـريج الأحـاديث بـــالرجوع إلى الكتب التســـعة الـــتي تعتـــبر من أمهـــات الأحـــاديث الشريفة،والتي قامت دار سحنون بطبعهـا، وهي: وهي صـحيح البخـاري وصـحيح مســلم وســنن الترمــذي وابن ماجــة وأبي داود والنســائي والدارمي ومسند ابن حنبل وموطأ الإمام مالك، وقد استفاد الطلبة من هذا الكتاب، فكنت أقدم لكل طالب حـديثا، وأطلب منـه أن يبحث عنـه في هذه الكتاب، ثم في مرحلة ثانية يتوجه إلى كتاب من كتب الحديث المكورة، فيعثر على النص، ويعود الفضل في كل هذا إلى من بادر إلى طبع هذا الكتاب، ووفره بين طلاب العلم، وهو المرحوم حامد العلويني.

يقول رفيقه وصديقه البشير العريبي يوم تأبينه في مدخل مقبرة قريش بالقيروان(الجناح الأخضر) بعد عصر يوم الجمعة شعبان 1420/ ديسمبر 1999 متحدثا عن دار سحنون للنشر التي صارت بفضل جهود المرحوم الأستاذ العلويني الدائبة، وسعيه إلى تطويرها، ورفع مسـتواها إحدى المؤسسات الاقتصادية المرموقة بما عقده لها من صلات ثقافيـة وعلمية وتجاريـة، ومن علاقـات بمؤسسـات عالميـة كـبرى في مشـرق الأرض ومغربها، وما شارك فيـه باسـمها من تظـاهرات ومعـارض، ومـا نشـره باسـمها أيضـا من كتب قيمـة متعـددة الاهتمامـات، ومتنوعـة الاختصاصات.

ولم يكتــف هــذا الرجــل بطبــع الكتب الدينيــة، وإثــراء المكتبــة الإسلامية بتونس، وإنما لجأ إلى الإسهام في تحقيق الـتراث، وطبـع مـا كـان مخطوطـا ومخفيـا عن أعين الكثـير من النـاس، ومن هـذه الكتب نذكر "كتاب الأجوبة" لمحمد بن سحنون المتوفى سنة 256/ 870 وهو من الأعلام البـارزين في مـذهب الإمـام مالـك بـالقيروان في النصـف الأول من القرن الثالث الهجري.

لم نكن نـــدري أن العلويـــني لـــه هـــذا الاهتمـــام بتحقيـــق المخطوطات،وبهذه الطريقة العلميـة الجـادة، وإذا بـه يفاجئنـا بتحقيـق "كتـاب الأجوبـة" وهـو من أهم الكتب الـتي تتنـاول المسـائل الفقهيـة بطريقة هي أقرب إلى الفتـاوى منهـا إلى التـأليف في الفقـه، كرسـالة ابن زيد القيرواني مثلا، لقد وفـر المرحـوم العلويـني عـدة مخطوطـات من هـذا الكتـاب، وشـرع يقـارن بينهـا، ويتـأنى في المقارنـة، إلى أن استوى لديه نص الكتاب، الذي بدا له إنـه أقـرب إلى النص الأصـلي:أي كما كتب في عصر صاحبه،وقد ساعده تعـدد النسـخ المخطوطـة، وهي سبع نسخ على تقويم النص، والترجيح بينها ،وهو عـدد لم أر أنـه تـوفر

لمحقق من محققي كتب التراث، وهذا الجمع لمخطوطات هذا الكتاب يدل على الجهد الذي بذله الأستاذ العلويني في البحث عن مخطوطات هذه الكتاب أولا، ويبرهن على القيمة العلمية والدينية لكتاب"الأجوبة" وهكذا ظهر"كتاب الأجوبة" محققا تحقيقا علميا، يسهل على القارئ متابعة قراءته بكل يسر، كما قال العلويني، ويظهر التحري في المقارنة بين النسخ المتوفرة لديه في هذا الحشد من الإحالات والتعليقات، واختيار ما يرى أنه الأقرب إلى الصواب.

والكتاب عبارة عن مسائل فقهية مختلفة ألقاها على محمد بن سحنون تلميذه محمد بن سالم، وهو كما يقول المحقق من أقرب تلامذة محمد بن سحنون إليه، ولكنه لم يرتق إلى مصاف العلماء والمؤلفين، ويبقى التلميذ الذي اختص بالتدوين، وبمعرفة طريقة بسط الموضوع، وإلقاء الأسئلة لتلقي الأجوبة الشافية الواضحة.

وإزاء اختلاف المصادر القديمة في اسم هذا الرجل الذي كان يلقي الأسئلة على محمد بن سحنون ثم يدونها اختار المحقق كلمة كتبها الطاهر ابن عاشور على النسخة التي كانت في مكتبته، أي كتاب الأجوبة، ونصها:" كتاب جامع لمسائل مختلطة(لعلها مختلفة) وتمام الأجوبة في ص89 وأنه عرض على محمد بن سحنون بعد وفاة مدون الأجوبة محمد بن سالم"

وكالعادة في تحقيق المخطوطات كتب المؤلف مقدمة(ص:1 ـ 62) وفيها تحدث عن اهتمامه بمخطوط "الأجوبة" وجمعه لمخطوطاتها، والاتصال بالعلماء من عرب وأجانب، ومن لهم اهتمام بمحمد بن سحنون وآثاره، وأشار بعد ذلك ــ بعد تمحيص ودراسة ــ إلى صحة أسانيد "كتاب الأجوبة" وسلامة محتوى الأجوبة، فقد اتضح له أن أغلب الأجوبة موافقة لما جاء في المذهب المالكي.

وقبل أن نذكر نماذج من هذه الأسئلة التي يلقيها السائل محمد بن سالم، ويتلقى الإجابة عنها من محمد بن سحنون، نشير إلى أن المحقق لم ير جوابا يخالف المذهب المالكي، كما ظن بعض الفقهاء المتأخرين الذين اطلعوا على هذه المسائل، وظنوا أن الاجتهاد في بعض المسائل، أو عدم التقيد بقول معين، أو التوفيق بين الأقوال، أو الترجيح بينها ، يعتبر خروجا عن مذهب الإمام مالك، وهذا ليس غريبا كما يقول المرحوم حامد العلويني أن نجد ابن سحنون يجتهد في بعض المسائل، وقد بلغ درجة من العلم وسعة الاطلاع على المذاهب، ورجاحة الرأي ما يؤهله إلى تبوؤ هذه المكانة، كيف وقد كانت له اجتهادات عملية، وأتى بأمثلة تدل على مخالفته للإمام مالك في بعض المسائل التي تهم العبادات، وكذلك مخالفته لأبيه الإمام سحنون، وبالتالي مخالفته لبعض شيوخه.

وبعد أن تحقق من صحة أسانيد كتاب الأجوبة،كما أشرنا، وأن السائل والمدون هو محمد بن سالم انتقل إلى الحديث عن عصر المؤلف، وهو العصر ألأغلبي الذي دام من سنة 184 إلى 296 للهجرة، فذكر انجازات الأغالبة في المجال العمراني ، وتنظيم القضاء وغيرهما، وخاصة ازدهار الحركة العلمية، فقد انتشر التعليم انتشارا واسعا، وتعددت خارج المساجد التي يلقن فيها الصبيان مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن وأصول العربية.

كما كانت المساجد مداس تدرس فيها علوم اللغة والدين والحديث،وكذلك العلوم القرآنية من تفسير وقراءات وأصول الدين، واقبل الناس على طلب العلم والمعرفة، وتعاظم دور العلماء وأصبحت لهم مكانة في المجتمع القيرواني لا يستهان بها،ومما يدل على اهتمام الأغالبة بالعلم وأهله تأسيسهم جامعة علمية لدراسة الفلسفة والطب والفلك وتقويم البلدان في مدينة رقادة على غرار بيت الحكمة العباسي في بغداد.

ومن العوامل المؤثرة في ازدهار الحركة العلمية في القيروان تعدد الرحلات العلمية بين المشرق والمغرب، فقد ارتحل الكثير من العلماء إلى المشرق للاتصال بالعلماء وخاصة الأخذ عن الإمام مالك وتلامذته، وممن تتلمذ على الإمام مالك أسد بن الفرات والبهلول بن راشد، يقول المرحوم العلويني:على أن هذه الرحلات لم تنقطع بعد موت الإمام مالك، فقد كان فقهاء القيروان وعلماؤها يشدون الرحال إلى الشرق، ويتصلون بتلاميذ الإمام مالك كابن القاسم وأشهب وابن وهب، ليجمعوا كل ما عندهم من علم مالك، ويؤلفوا للناس الكتب الدينية والعلمية في الفقه والأحكام وعلم الفرائض والجدل وآداب المناظرة، خدمة لمجتمعهم، وحفظا للمذهب الذي اختاروه، أعني مذهب الإمام مالك، وفي مقدمتهم الإمام سحنون صاحب المدونة.

وعندما ذاع صيت الإمام سحنون، وأصبح مشهورا بين الخاص والعام بالعلم والتقوى أراد الأمير ألأغلبي أن يتقرب إلى الناس بتولية الإمام سحنون قاضيا، فرفض في البداية قبول هذه الخطة،كشأن العلماء التقاة، ولما رأى إصرار الأمير ألأغلبي قبل القضاء ، قال سحنون(كما جاء في المدارك للقاضي عياض): لم أكن أري قبول هذا الأمر حتى كان من الأمير معينان، أحدهما: أعطاني كل ما طلبت، وأطلق يدي في كل ما رغبت، حتى أني قلت له: ابدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانك فإن قبلهم ظلامات للناس وأموالا لهم منذ زمن طويل، إذ لم يجترئ عليهم من كان قبلي، فقال لي: نعم، لا تبدأ إلا بهم، وأجر الحق على مفرق رأسي، وفكرت فلم أجد أحدا يستحق هذا الأمر، ولم أجد لنفسي سعة في رده.

وكان مثال القاضي العادل الذي لا يرى في الحق لومة لائم، وجمع بين القضاء والحسبة، يذكر القاضي عياض في مداركه أن سحنونا كان جالسا على باب داره إذ مر به حاتم الجزري(أحد قواد ابن الأغلب) ومعه سبي من سبي تونس، فقال سحنون لأصحابه: قوموا فآتوا بهم، فذهبوا حتى خلصوهم من حاتم،وهرب حاتم على برذونه،ومزق ثيابه، ودخل على الأمير، فشكا أمره، فأرسل الأمير إلى سحنون أن أردد إلى حاتم السبي، فقال سحنون: إنهم أحرار، ولا سبي عليهم، وقد أطلقتهم.

ورغم إصرار الأمير على رد السبي إلى صاحبه إلا أن سحنون رفض رفضا قاطعا أن يرد حرائر النساء، وأمر بسجن هذا القائد الأسود كما سماه سحنون.

وبقي سحنون قاضيا حتى توفاه الله سنة 240 للهجرة، ولم يتقاض فلسا واحدا عن قضائه، ولكنه أمر بأجرة لأعوانه.

لقد عمل طيلة توليه القضاء على إعطاء كل ذي حق حقه، فاقتص للمظلومين، وفرق جموع المبتدعة، وجال بنفسه في الأسواق يلاحق الغشاشين، ويقوم سلوك المشاكسين، وفي أثناء تقلده لخطة القضاء، استحدث كما قال المرحوم العلويني تنظيمات جديدة، فكان أول قاض استحدث خطة صاحب المظالم

كان إذن العصر الذي عاش فيه محمد بن سحنون مزدهرا، وخاصة في المجال العلمي، فقد أخذ الرجل عن شيوخ عصره، وما أكثرهم في عهده، وفي مقدمتهم والده الإمام سحنون، ومن شابه أباه فما ظلم،و وارتحل إلى المشرق فأخذ في مصر عن ابن القاسم، وابن هب، وأخذ في المدينة عن شيوخ العصر، مثل أبي مصعب الزهري،وابن كاسب، وسلمة بن شبيب،وحظي بالاستماع في مدينة رسول الله إلى دروس أحمد بن أبي بكر الزهري، وابن الماجشون، وهكذا ألم إلماما جيدا بعلوم العصر، وفي مرحلة موالية شرع في التأليف إسهاما منه في إثراء الثقافة الإسلامية التي كان للقوم بها شغف وولوع في عهده.

وله فضل السبق في التأليف حول تربية الأطفال في كتابه

" آداب المعلمين والمتعلمين"ومن كتبه التي طبعت أخيرا(1432)"فتاوى ابن سحنون" بتحقيق مصطفى محمود الأزهري، ولم اطلع على هذا الكتاب، ولا يستبعد أن يكون هو نفسه"كتاب الأجوبة" وله تآليف كثيرة كما يشير مترجموه، قال أبو العرب : كان ابن سحنون إماما ثقة، عالما بالفقه عالما بالآثار، لم يكن في عصره أحد أجمع لفنون العلم منه ، ألف في جميع ذلك كتبا كثيرة ، نحو مائتي كتاب ، في العلوم والمغازي والتواريخ وكان أبوه يقول : ما أشبهه إلا بأشهب، وكانت له حلقة غير حلقة أبيه.

وقد نوه غير واحد من العلماء بسعة علمه وفضله، وبلوغـه درجـة الاجتهاد، وقد تعجب محمد بن سالم فقال لـه: مـا أعلمـك برجـال أهـل العلم؟وما أحفظك بالخلاف؟

فقـال ابن سـحنون: تاللـه مـا أظلت الخضـراء، ولا أقلت الغـبراء على أحد من أهل العلم، ممن كان مضـى في عهـد رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم،وفي عهد الخلفاء بعده إلى عصرنا هـذا، من لم أعرفـه وأعرف قوله، ومن خالفه، وكأني أنظر إليهم، وكـأني اسـمع كـل واحـد منهم، وكأنهم كلهم بإزائي حضور و"اختلاف العلماء رحمة"

ولكن لم يصل لنا منها إلا القليل، ومنها كتـاب الأجوبـة الـذي نحن بصدده،والذي يقول عنه محققه المرحوم حامد العلويني:

إن المتأمـل في هـذه الأجوبـة يجـد أنهـا غالبـا مـا تمس العلاقـات الاجتماعي، والمعاملات البشرية، فلم تكن الأجوبة كتاب دراسة للتعليم والتعلم، حسب أبواب معينة، وإنما كان القصد منها إلقاء الضوء على ما يجـد من مشـاكل في المجتمـع القـيرواني ونحـوه، وإيجـاد الحلـول لهـا اعتمــادا على من ســبقه من العلمــاء المجتهــدين من ناحيــة، وتبعــا للمستحدثات والمستجدات في ذلك العصر من ناحية أخرى.

ومما يلفت النظر والانتباه لدى مطالعة هذا الكتاب النفيس للإمـام محمد بن سحنون ذلك الأسلوب المنهجي: أسلوب الحوار، الذي اعتاده كثير من أهل العراق والتفكير في إبداء نظرياتهم، والكشـف عمـا تكنـه ضـــمائرهم من حقـــائق وأســـرار، أو معلومـــات وخـــواطر.

ومحمــد بن ســحنون جمــع في معالجتــه للمســائل المطروحــة بين الصرامة في الذب على المذهب في الأحكـام والمواقـف وبين البرهنـة والاستدلال، فكـان في أجوبتـه منـاظرا كثـير المحاجـة، قـوي البرهـان، منطقي الاستدلال، حريصا على إبداء رأيه، فـإن وافـق موقفـه مـا ذكـر من مواقف مالك وأصحابه، أو مـا وافـق شـيوخه من علمـاء القـيروان، مثل والده الإمام سحنون، واليحصـبي، وغيرهمـا، تبـنى أقـوالهم، وقـال من غـــــــير تـــــــردد: "وبـــــــه أقـــــــول".

وهكذا لم يكتف ابن سحنون بالحفظ والجمع والتحصيل، وإنمـا تجـاوز ذلك إلى النظر والتمحيص والتأويل، وخصوصا بعد التعرف إلى المبـادئ الأساسية لمذهب أهـل العـراق، للاسـتفادة من جهـة أولى، وللـرد على بعض آرائهم المذهبية المخالفة صـراحة لمـذهب الإمـام مالـك بن أنس وأصحابه من جهة أخرى، ولكن بمنهاج العراقيين وأسلوبهم الذي أصـبح لدى محمد بن سحنون من متممات ثقافته الواسعة.

ثم أقبـل المحقـق على تحليـل بعض النصـوص، وذلـك تسـهيلا للقـارئ، فـأتى على بـاب الشـهادة،وفصـل القضـاء ومسـائل الـزواج والطلاق وفصل البيوع والسرقة والحرابة وفصل السؤال عن الأطعمـة،

وفصل السؤال عن الإيمان وفصل الوضوء والصلاة وفصل الصوم وغيرها:

وختم المرحوم العلويني الكتاب بجملة من الفهارس(فهرس الآيات القرآنية، وفهرس الأحاديث النبوية، وفهرس اللغويات، وفهرس الأعلام) والفهرس الأخير طريف ومفيد: إذا ترجم لكل الأعلام الواردة في الكتاب، وذكر المصادر والمراجع التي اعتمدها

وفي الختام أذكر سؤالا وجهه محمد بن سالم لمحمد بن سحنون، وهو سؤال غاية في الطرافة والغرابة، وقد يكون أافتراضيا كما أشار المحقق، ونصه: سؤال(391) قال محمد بن سالم:وسألته عن رجل مسلم، وكان له جار نصراني،وعنده خنزيرة يحلبها، ثم رضعها عجل أوشاة المسلم، ما الحكم في ذلك؟

قال سبيل ذلك سبيل الجلالة من الأنعام التي تأكل النجاسة والجيفة، وقيل يحرم لحمها ولبنها وسمنها وعرقها وبولها وروثها، وهذا القول شاذ.

وقيل: بولها وروثها نجس، وما سواهما طاهر حلال

والقول الثالث(هو عند المحقق الرابع) أن البول والروث واللبن نجس، وما سوى ذلك مكروه غير حرام

والكتاب في مجلد واحد، يتألف من 584 صفحة تتوزع كالتالي

ـ مقدمة المحقق (1ـ 62)

ـ محمد بن سحنون في عيون المؤرخين (63 ـ 92)

ـ نص الأجوبة(93 ـ 460) وعد الأسئلة: 702

ـ الفهارس (461 ـ 584)

ذكرني بأستاذي حامد العلويني رحمه الله شقيقه الأستاذ الصادق العلويني، كان شبيها به إلى درجة أنني لم أفرق بينهما، وقد وقفت حائرا، ولو لم أكن على علم بوفاة أخيه منذ أكثر من عشر سنوات لقلت إنه أستاذي الذي درست عنه منذ عقود، والذي نصحني أن لا أقرأ كتاب الإنجيل، لأني حدث، ولم يحن بعد أوان قراءته، وزاد الأستاذ الصادق بتذكيري بأستاذي المرحوم فأهدى لي نسخة من كتاب الأجوبة التي حققها أخوه، رحم الله أستاذي حامد العلوي، وأسكنه فراديس جنانه...

رشاد الإمام

بعد الانتهاء من توزيع موضوع الامتحان على الطلبة دخل إلى الفصل رجل طويل القامة، يتوهج وجهه حمرة، لم تبق شعرة سوداء برأسه، على عينيه نظارات طبية سميكة، صافحني وجلس، كان في صوته بحة ، لم تصل إلى حشرجة، أو غموض في مخارج الحروف، وبعد لحظات أخذ يحدثني عن نفسه وعن أصدقائه، وعن كل ما يخطر بباله، كأننا نعرف بعضنا منذ سنوات، وغاية ما في الأمر أننا كنا نلتقي في ردهات الكلية، أو كنت أحضر مناقشته للأطاريح في التاريخ الحديث والمعاصر.

كان الرجل متواضعا، حسن الخلق، لين العريكة، سهل الجانب، طلق المحيا، وكان في أثناء الحديث معي كثيرا ما يطلق ضحكات تنبئ عما في قلبه من طيبة وصفاء، ومن أول وهلة يعرف جليسه ما يتمتع به هذا الرجل من دماثة في الأخلاق، وطيب المعشر، هذا الرجل هو رشاد ين محيي الدين الإمام(1932 ــ 2007) أصيل منزل أبي زلفة، من ولاية نابل.

لم ترض نفسه بالشهادة الثانوية التي تحصل عليها من أحد المعاهد الزيتونية قبيل الاستقلال، فارتحل إلى القاهرة لمواصلة التعليم العالي، وفي كلية الآداب عين شمس ألقى عصا الترحال، وبعد أن نال شهادتين من إجازة علم النفس والاجتماع عاد إلى تونس، واشتغل بالتدريس في المعهد الثانوي بقرطاج الرئاسة، ولم تطب نفسه للعمل في التعليم الثانوي، فأراد أن يستكمل دراسته، فطلب من الوزارة مده بمنحة لإكمال تعليمه العالي، فأجابه الوزير بالرفض، وطلب منه البقاء في خطته مع تهديده، كما حدثني رحمه الله، فما كان منه إلا ان قابل الرفض بالتحدي، وحزم حقائبه، وتوجه هذه المرة إلى الجامعة اللبنانية، فنال الإجازة في التاريخ سنة 1961 ثم الماجستير، وبعد عشر سنوات تحصل على دكتوراه الدولة من الجامعة الأمريكية ببيروت عن بحثه" سياسة حمودة باشا في تونس(1782 ــ 1814)" بإشراف المؤرخ اللبناني الكبير قسطنطين زريق1909 ــ 2000)

وحمودة باشا يمثل فترة هي في رأي المرحوم رشاد الإمام من أهم ما احتواه العهد الحسيني وأحفله، بما تميزت به من نشاط ورغبة في التغيير، وبما كان له من تأثير قوي بارز في مجرى تاريخ تونس في ما تلا فترة حمودة باشا من عهود، بما فيها عهد أحمد باي المشهور في هذا المجال.

وبهذا البحث وصل رشاد الإمام إلى ما كان يرغب فيه منذ أيام الشباب،وهو إتمام تعليمه العالي، فتسنى له أن يلتحق بالتدريس في التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية،الموجودة بشارع 9 أفريل

1938 والتي تسمى اليوم بكلية العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، ويصـل في عمله الجامعي إلى أعلى رتبة، وهي خطة أستاذ التعليم العالي.

ولم ينـل هـذه الرتبـة إلا بعـد الرحلـة والطلب والتحـدي، وقضـاء العام تلو العام في بلاد الغرب، وكل شيء يهـون بالنسـبة إليـه، مـا دام سيحقق أمنيته، ويرضي نهمه، ويروي تعطشه، المتمثل في التعمق في البحث، ولا يتم ذلك إلا باقتلاع الشهادات العليا من الجامعات المعـترف بها دوليا.

وفي أثناء الطلب وبعده أقبل رشاد الإمام على البحث والـدرس، وشارك بأبحاثـه في كثـير من المـؤتمرات العلميـة في كثـير من بلـدان العالم، من السـعودية وقطـر والجزائـر ودمشـق وليبيـا وبغـداد والأردن والمغرب ولبنان إلى الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا.

وقام بالتـدريس في الجامعـة الأمريكيـة ببـيروت، ودرّس بوصـفه أستاذا زائرا في جامعة يوتا بأمريكا لمدة ثلاثة أشـهر، وهـذه المـدة هي عبارة عن فصل دراسي كامل، وهو فصل الربيع الدراسي، وألقى ثلاث محاضرات بدعوة من قسم التاريخ في جامعة جورج طاون بواشـنطن، وخصص المحاضرات الثلاث لتاريخ تونس وحضارتها في العهـد الحـديث والمعاصر.

أما آثاره فمتنوعة منها المقالات والأبحـاث، ومنهـا الكتب، وأذكـر أنه رحمه الله سلم لي سيرته الذاتية، وكانت في ثماني صـفحات، دون أن أطلب منه ذلك، وتحتوي هذه السيرة على آثـاره ونشـاطه العلمي، وهي أكثر من عشرين بحثا ودراسة،بالإضافة إلى البحـوث الـتي قـدمها في المـؤتمرات والملتقيـات والنـدوات العلميـة الـتي شـارك فيهـا، ولا يمكن في هذه الخواطر العجلى أن نذكر عناوين مقالاتـه وأبحاثـه الـتي نشرت في الـدوريات والمجلات العلميـة، وكـل مـا نسـتطيع ذكـره هـو كتبه، ونشير إلى أنه تجول في أبحاثه ومقالاته في التاريخ الإسلامي من القـرن الأول الهجـري، أي من عبـد اللـه بن سـبأ، ونسـب عبيـد اللـه المهدي إلى جمال الدين الأفغاني، وجريدة العروة الوثقى.

وفيما يلي نذكر كتبه بالاعتماد على سجل حياتـه الـذي سـلمه لي كما أشرت، وهي: مدينة القدس في العصـر الوسـيط(1976) ثم أتبعـه ببيلوغرافية مدينة القدس باللغات الثلاث العربية والفرنسية والانجليزية في سـبعة أجـزاء، وقـد صـدر عن بيت الحكمـة(1989) وكتـاب تـاريخ الجزيـرة العربيـة (الريـاض 1979) وكتـاب القرصـنة البحريـة في البلاد العربية في خمسة أجزاء(المملكة العربية السعودية1993).

وكتبـه المطبوعـة بتـونس بالإضـافة إلى أطروحتـه عن سياسـة حمودة باشا في تونس نجد سيرة مصطفى بن إسـماعيل،وقـد أهـداني نسـخة منـه، وهـو تحقيـق لنص هـام في تـاريخ تـونس، قبيـل انتصـاب الحماية الفرنسية بتونس، وذلك لأن الوزير مصطفى بن إسماعيل كـان

من الشخصيات الهامة التي كان لها دور سياسي في ظروف تلك الحقبة وحوادثها، وقد هيأ كما هو معروف لدخول الفرنسيين إلى البلاد التونسية، ومؤلف الكتاب، أو مؤلف معظمه كان من أقرب المقربين إلى مصطفى بن إسماعيل، أدرج معلومات ووقائع وأحداثا لم يسبق أن ذكرها أحد، وقد لا يهتم بها المؤرخ المحترف.

ومن كتبه التي لم تنشر ترجمة كتابه(مدينة القدس في العصر الوسيط) إلى الانجليزية، وكتاب حول التفكير الإصلاحي قي تونس في القرن التاسع عشر في مجلدين(وقد بلغني أن عائلته نشرت على نفقتها الجزء الأول من هدا الكتاب ا سنة 2008 في566 ص) وكتاب تونس وحرب القرم.

لقد حقق سيرة مصطفى بن إسماعيل كما أشرت، وعرف بالمخطوط، كما عرف بمصطفى بن إسماعيل، هذا الذي يعتبر خلاصة وإفرازا للوضع الأخلاقي والسياسي والاجتماعي المتردي،الذي عجل باحتلال فرنسا لتونس، ولد حوالي سنة 1850 ولا نعرف عن أصله، كما يقول الامام، الكثير، ويذكر أن أمه يهودية أسلمت وسمت نفسها منانة، لما بلغ عمره سبع سنوات أو ثمان كان على ما يذكر قانياج لا عمل له غير التسكع في شوارع مدينة تونس، ممزق الثياب، يلتقط أعقاب السجائر في المقاهي الأوروبية، ثم عمل خادما بخمارة لأحد الرعايا من جزيرة مالطة بتونس، واستمر في عمله ذاك إلى أن اشتغل مع أحد الحلاقين، يقع دكانه بسوق البلاط ، بعد ذلك التحق بخدمة أحد ضباط حرس القصر، حيث تم تعرف محمد الصادق باي عليه، أول خطة اضطلع بها مصطفى بن إسماعيل من قبل ذلك الباي هي وكالة مشتريات القصر، ثم عين جنرالا على حرس الباي، وبعد ذلك رقاه في الخطط، وولاه قيادة عمل، أو ولاية الوطن القبلي.

ولكي تكتمل صورة مصطفى بن إسماعيل، وتظهر على حقيقتها نذكر ما قاله أحمد بكير في بحثه عن الجنرال حسين، يقول: كان مصطفى بن إسماعيل أحد حظايا الصادق باي، وممن لهم تأثير على سياسة الدولة، وكان جاهلا ، بليدا،وصوليا سافلا، إلا أنه جميل الوجه، مرح الأطراف، فوقع الباي في شراك حبه، وكان هذا الباي ــ الصادق ــ يعرف بالشذوذ.

وقد عرف ابن إسماعيل كيف يغريه، ويتمايل بقده، مع كثرة التعطر، ولباس الخواتم الرفيعة، والقلائد النفيسة، وتصفيف الشعر، والمبالغة في تنقية الوجه، مع السواك وتزجيج الحواجب، والكلام بترقيق الصاد، بإمالتها إلى الزاي والسين، وإمالة الألف إلى الياء، والجيم إلى الزاي، والتصنع في الانتقال من الفتحة إلى السكون بإظهار كل من الحركتين، وبالتالي كان كغانية المومسات، أسعفه حظه،

وأتعس حظ تونس المسكينة الـتي ذهبت ضـحية اللصـوص والمحتـالين من وزرائها، وضحية حماقات باياتها.

حظوته لدى الباي مكنته من تولي عدة وظائف عالية في الدولة ، منهـا وزارة الحربيـة سـنة 1873 ووزارة العمالـة أي الداخليـة سـنة 1877، ثم الوزارة الكبرى من سنة 1878 إلى سنة 1881 السنة التي استولى فيها الفرنسيون على تونس، بعد احتلال فرنسا لتـونس ووفـاة محمد الصادق باي سنة1882 تراجع أمر مصطفى بن إسـماعيل، ذلـك الوزير الذي أعمته مصالحه الخاصة إلى حد خيانة وطنـه، وحـتى يكـون في مأمن على نفسه وأمواله ـــ كما اعتقد هذا الوزير الأكبر ـــ تجنس بالجنسية الفرنسية، وأقام في فرنسا مدة باع فيهـا معظم مـا تبقى لـه من ممتلكات، بعدها انتقل إلى اسطنبول.

ويبدو أن الدولة العثمانية خصصت له جراية، بوصـفه كـان وزيـرا في الإيالة التونسية،وهي من الولايات التي كانت تابعة لهـا، إلا أن بعض التونسيين المقيمين بالدولة العثمانيـة تـدخلوا لـدى السـلطة العثمانيـة، وعبروا عن امتعاضهم ومعارضتهم للمساعدة الـذي لقيهـا مصـطفى بن إسماعيل من قبل الخلافة، فقطعت عنه الجراية، ومـات فقـيرا مشـردا معدما سنة 1887والصواب سنة 1892

ونشير إلى أن مصطفى بن إسماعيل قبل هجرتـه إلى فرنسـا، ثم إلى تركيا، تعرض إلى السب والشتم، وأحيانا إلى الضـرب، في أنهج تونس العاصمة وشـوارعها، فقـد ورد في جريـدة الحاضـرة بتـاريخ 30 أفريل 1889 الخبر التالي: ليس هذه أول مرة تحمل فيها(أي مصطفى بن إسماعيل) شتما عموميا من أحـد الأهـالي، ولمـا كـانت الضـبطية لا تريـد التـداخل في منازعـات الـوزير القـديم والضـابط القـديم، فقـد اقتصرت على تحرير تقرير تظهر نتيجته بعد الحكم، وبتاريخ 4 ديسـمبر 1888حكم بالسـجن لبعض أيـام على جنـدي جـرد سـيفه على السـيد مصطفى بن إسماعيل عندما كان مارا ببطحاء باب البحر.

وفي خصـوص حمـودة باشـا أفـاض المرحـوم رشـاد الإمـام في الحـديث عن مقـدرة هـذا البـاي في الحكم وسياسـة البلاد، والخصـال الحميدة التي كان يتمتـع بهـا من ذلـك اشـتهاره بمحافظتـه على كلمتـه ووفائه بعهوده، وكم كان يغتاظ لعهد أعطاه، ولكنه لا ينقضـه، وقـد بلـغ تمسكه بهذه الصفة إلى حد الصفح عن بعض المخـالفين، من ذلـك مثلا أنه حصـلت حـرب بجربـة بين تسـعة شـقوف(سـفن متوسـطة الحجم) تونسـية والأسـطول الجزائـري سـنة 1811 انهـزم التونسـيون أثناءهـا بسـبب خيانـة الريـاس(مفردهـا رئيس) للقبطـان الـذي استشـهد في الواقعة، طلب أولئك الرياس الأمـان من البـاي، فأعطـاهم إيـاه، لعـدم علمه بالخيانة، يصف صاحب العقد المنضد(تـأليف محمـد بن الطيب بن سلامة، وهو كتاب في تاريخ أحمد باشا باي) شعور الباي لمـا علم بـأمر

الخيانة بقوله: فلما أتوا الرياس حلـق الـوادي سـمع حمـودة باشـا أنهم خانوا، فاغتاظ الغيظ الشديد لأمرين: الأول الخيانة، والثاني كونه أمنهم، ولم يسعه أن ينقض عهده، لأنه هذا أعظم عيب عند الملوك.

وتحدث الإمام عن شغف حمودة باشا بانجازات الثورة الفرنسية، لأن الرجل كان محبا للاطلاع على أخبار أوروبا وشـؤونها، من ذلـك أنـه أعجب بدستور جمهورية فرنسا المبني على الرأي والصواب كما يقول القنصل الفرنسي، وقد اطلع عليه بعد أن ترجم له خصيصا سـنة1794 ولم يكتف حمودة باشا بمطالعاته ودراساته بل كان سـنة1812 يسـتمع ويناقش كل ليلة بعض الفصـول من قـانون نـابليون بونـابرت، ليس من المستغرب بعد ذلك أن نرى حمودة باشا يأمر محمد بيرم بوضع قـانون يعتمـد عليـه في حكمـه، وهـو القـانون الـذي ظهـر في شـكل رسـالة السياسة الشرعية.

أما آثاره الأخرى فتتمثل في دروسـه ومحاضـراته على الطلبـة، وإشرافه على الأطاريح، فمن خلال هذا النشـاط العلمي كـون الأسـتاذ رشـاد الإمـام جيلا من البـاحثين والمـؤرخين، يمكن التعويـل عليهم في إضاءة العديد من جوانب تاريخ بلادنا في الفترتين الحديثة والمعاصـرة، وقد قام المرحوم الإمام أحسن قيام بعملـه بوصـفه باحثـا ومؤرخـا، ثم رحل عنا، وقد ترك آثارا تدل عليه، وتخلد ذكره ما بقي الاهتمام بماضي الإنسان، وما دام هذا الإنسان يصنع التاريخ.

ولئن اهتم الإمـام بتـاريخ تـونس، وبالمنـاهج الحديثـة في أبحاثـه ودراساته، فلم ينس بحكم انتمائه إلى مـنزل بوزلفـة أن يعشـق فلاحـة القوارص، فقد كان لا يدخر جهدا للحصول على إنتاج متميز كمـا وكيفـا بالاعتماد على الأساليب الحديثة في إنتاج هـذا النـوع من الفواكـه الـتي اشتهر بها الوطن القبلي عموما.

ويذكر أنه عمل مع بعض زملائه على شراء أراضي صالحة للبنــاء بجهة المنزه، وبذلك تسنى للكثير من رجال التعليم العالي بنـاء مسـكن لائـق، ويعـود الفضـل في ذلـك إلى المرحـوم رشـاد الإمـام، ويبـدو أن البعض لمـا رأى تـردده على الولايـات المتحـدة الأمريكيـة بقصـد إلقـاء محاضرات في بعض جامعاتها ألصـق بـه بعض التهم ، وهـو منهـا بـراء، براء الذئب من دم يوسف.

وكان آخر العهد به لقائي معه في مقهى الروتنـد بشـارع الحـبيب بورقيبة، كان الحديث يومها ممتعـا، ولم أشـعر بمـرور الـوقت في تلـك الجلسة فقد مر الوقت سريعا، ثم ودعته وانصرفت، ولم أره بعد ذلــك، رحمه الله.

منـــجي الشملي

قصير القامة، مع ميـل إلى البدانـة، خفيـف شـعر الناصـية،وقـد يطيله فيوزعه على مقدم رأسه، أبيض البشرة، له هيبة ووقـار، سـمعنا أنـه سيصـحبنا طيلـة السـنة الأولى من التعليم الجـامعي، يـوم كـانت المسألة تدرس طيلـة السـنة، أمـا اليـوم فإنهـا لا تتجـاوز الشـهرين، ثم تعقبها مسألة أخرى، لا تتعدى نفس المـدة، وبين الأربعـة أشـهر تجـرى الامتحانات،ثم امتحانات أخرى وأخـرى، في حين كنـا نحن ننتظرهـا في آخر السنة الجامعية، ومن لم يوفق يعيد الكرة في شهر سبتمبر.

كان الطلبة ينتظرون قدوم الأستاذ الشملي، لم نكن نعرفه من قبل، كانت تبلغنا عنه أصداء غامضـة، قرأنـا مقالاتـه في الصـحف، وفي مجلته(التجديد) بالخصوص، فازددنا شوقا إلى معرفته اسما ومسـمى، وإذا به يـدخل إلى القسـم، فاشـرأبت الأعنـاق إلى الرجـل، الـذي يبـدو الجـد على محيـاه، والعـزم على سـحنته، والحـدة في نظراتـه من وراء نظاراته الطبية السميكة، ثم ملأ القسم بحضوره، وشدنا إليـه، وإلى مـا سيقوله، أخذ هو يتفرس في الوجوه، كأنه يبحث عن خلان لم يرهم منذ زمن بعيد، كان أنيقا في كل شيء، في هندامه الذي لم يلفت النظر لـو لبسه غيره، ولكن الثياب تتخذ رفعتها من صاحبها إذا مشى، وإذا تكلم.

ساد الهدوء فضـاء القاعـة، وإذا بصـوت الأسـتاذ يبـدد السـكون والصمت، كان قويا حادا بعض الشيء في البداية، أحسسـنا بشـيء من الخوف، ثم هدأ الصوت، وهدأ روعنـا، وسـمعنا أسـتاذنا منجي الشـملي يقول: سنتعرف من خلال هـذه الحصـة على أمهـات المصـادر العربيـة، بدءا بابن إسحاق وابن هشام، مرورا بابن سعد والواقـدي، ثم الطـبري وابن أبي أصـيبعة...لم يتجـاوز التعريـف بهـذه الكتب وغيرهـا الجـذاذة الواحدة، ولكن هذا التعريف كان ملما بحيـاة المؤلـف، ومحتـوى كتابـه، وطريقة البحث في هذه الكتب، ثم قيمتها.

لم يكن االشملي ينوي ملء أدمغتنا بالعلوم والمعارف، كما يحلو لغـيره أن يصـنع، وإنمـا كـان يريـد ان يعلمنـا الطريقـة والمنهج الـذي سنسير عليهما في دراستنا الجامعية، ثم نتحصل على المعلومات الـتي نريد، فتعليم الصيد يسبق اقتناص الفرائس، كان شعاره المثل الصـيني الذي يقول: عوض أن تعطي الطفـل سـمكة علمـه كيـف يصـطاد تلـك السمكة، ولم يكن تعليم الصيد سهلا، لقـد جعـل منـه أسـتاذنا الشـملي (قضية) وكم تكررت هذه الكلمة في دروسه ومحاضـراته، حـتى ليخـال للسامع أنه في محكمة أمام قاض يسمع إلى محتوى القضـية، ويصـغي بانتباه إلى طرفيها المدعي والمدعى عليـه، ثم حكم القاضـي في هـذه القضية المعروضة عليه، كذا كانت دروس منجي الشـملي، وكـذا كـانت معاملته مع القضايا الفكرية والنقدية الني تناولها مع طلبته.

لم نسمع منه طيلـة سـنوات عديـدة أنـه تكلم باللهجـة العاميـة التونسية، فهو إما يتكلم بالعربية الفصحى، أو نـاطق باللغـة الفرنسـية، حتى ذهب بنا الاعتقـاد إلى أنـه لا يتكلم بغيرهمـا إن في الفصـل أو في البيت أو في الشارع، وربما مع أبنائه الصغار آنذاك (1965).

تعلمنا عن الأسـتاذ منجي الشـملي حب النظـام فيمـا نكتب، حـتى الـذي يعـد عنـد البعض لا فائـدة من التـذكير بــه، كتنظيم الفقــرات، والرجوع إلى السطر، عنـد نهايـة كـل فقـرة، وتـرك فـراغ في بـدايتها، وكثيرا ما نسمعه يقول:السيد (يقصد كاتب هذه السطور) لم يرجع إلى السطر، ولو كنت مكانه لرجعت إلى السطر، كان النظام وحب الأناقــة شغله الشاغل، فالجوهر أعني المضمون إذا لم يصـب في قـالب أنيـق، وفي تخطيط أو تصميم دقيق فلا خير فيـه، لأنـه خـال من الأناقـة، ومن لم يكن أنيقـا فليس بجميـل، والجمـال تناسـق بين أجـزاء الشـيء أو لا يكـون، ومن أجـل الوصـول إلى النظـام والتناسـق كـان أسـتاذنا منجي الشملي يقسو على طلبتـه، ثم على البـاحثين الـذين كـانوا يحبـذون أن يكــون هــو أســتاذهم المشــرف، وراجــع إن شـئت قائمــة الاطــاريح والرسائل في مكتبة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعيـة فسـترى أن لـه نصيب الأسد في الإشراف على هذه الأطاريح الـتي طبـع الكثـير منهـا، ويتراءى لك بين سطورها منهج الأستاذ الشـملي الـذي عـرف بـه يحنـو على هذا الكتاب أو تلك الرسالة، كما تحنو الأم على وليدها.

ولد الشملي بقصـر هلال سـنة 1931تعلم بالمدرسـة الابتدائيـة بهـذه المدينــة،وواصـل التعليم الثـانوي بالمدرسـة الصـادقية، والتعليم العالي بفرنسا، وحالما تخرج، ودخل سلك التعليم الثانوي فالعالي، كان هاجسه تجديـد الثقافـة في تـونس، فلننظـر في هـذه الناحيـة من خلال نشـاطه الثقـافي الغزيـر، ثم رأيــه في التعـريب، وأخـيرا الاجتهـاد في الإسلام، وقبل ذلك نشير إلى أنه جمع مقالاته وأبحاثه في كتـابين همـا: (في الثقافة التونسية) و(الأدب والفكر في ضوء التنظير والنقد).

أراد الأستاذ الشملي من خلال دعونه إلى تجديد الثقافة أن تكون لتــونس شخصــيتها الثقافيــة الممــيزة، لا تتنكــر للماضــي، وترنــو إلى المستقبل بفكر واع ، وتعيش عصرها ،وما يزخر فيه من متغـيرات، إن في المجال السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي ، فمـا هي المظـاهر التي رام تجديدها في الثقافة؟

التجديد وخلق قنوات للثقافة، ودفع الثقافة نفسها إلى التقـدم هي شغله الشاغل، وكذا بعث الفكر وإيقاظه من جموده: إذ كيف يمكن التجديد والتقدم بدون حرية الفكر وحرية القول،وهما أمــران متلازمــان إن غاب أحدهما اختل التوازن، وانخرم البناء الثقافي المنشود، ومن هنا انتصب للـدفاع عن التجديـد والمجـددين، ففي مقـال أحسـبه الأول في كتاباته دافع عن التجديد وأنصـاره في ميـدان الأدب وغـيره، وورد لفـظ

التجديد في هذا المقال أكثر من عشر مرات، مما يدل على أن التجديد كان هاجسه الأول، لأن سنة الحياة تقتضي ذلك، ولن تجد لسـنة الحيـاة تبديلا وتحويلا.

لم يجد منجي الشملي بدا من إصدار مجلة تكون منارة للتجديد والاجتهاد والتغيير" كما قامت مجلات أخرى بـدورها الفعـال في فـترات حاسمة من تاريخنا التونسـي " وأوجـد لهـا اسـما معـبرا عن رغبتـه في التغيير هو " التجديد"

وتوجهت همته إلى التجديد في الميـدان الثقـافي،ولكن أيـة ثقافـة كان يريد، فالثقافة تهرب عن التحديد و التقعيد، فقـد بلغت تعـار يفهـا قرابـة المـائتي تعريـف، وكـل يـدافع عن تحديـده للثقافـة، ويـرى أنـه الصـواب، وكـل تعريـف تختفي وراءه أيديولوجيـة معينـة، ينـافح عنهـا الكاتب ويذود، وهذا منجي الشملي،، وهو الباحث المعروف بين طلبتـه بالتدقيق والضبط ، يوضح لنا مفهوم الثقافـة عنـده، والهـدف منهـا في يسر ووضوح.

لم يحدد الثقافة تحديدا عاما بعيدا عن أوضاع تونس الاقتصادية والسياسـية والاجتماعيـة، ولا بمعـزل عن حضـارتها وتاريخهـا، وكـذا مـا حولها من بلدان وثقافات، وإنما الثقافة كمـا يقـول " موقـف اجتمـاعي من الواقع نـابع لتغيـير الواقـع تغيـيرا جـدليا، هي ليسـت نظـرة عقليـة مجـردة، ولا فلسـفة منفصـلة عن الزمـان والمكـان، إنمـا هي شـهادة يؤديها الإنسان، ونداء يترجم عنـه الإنسـان في مرحلـة تاريخيـة للـرقي بالإنسان إلى منزلة أفضل "

والغايـة من التجديـد والتغيـير " الجهـاد في سـبيل مجتمـع أعـدل، وحيـاة أفضـل، حـتى يعيش الشـعب حيـاة تنتفي الفاقـة منهـا، والفقـر والحرمـان فالجهـل " وذلـك مـا يرجـوه الشـعب التونسـي من زعمـاء الاستقلال ورواده، وما يرمي إليه دعاة التجديـد الثقـافي، ومنهم منجي الشملي، الذين يقدمون الازدهار الاقتصـادي على كـل مـا عـداه، ومنـه التقــدم الفكــري الــذي " يكــون دومــا رهين الازدهــار الاقتصــادي والاجتماعي، فلا نهضـة للفكـر إذن ولا إشـعاع للثقافـة في بلاد متخلفـة اقتصاديا واجتماعيا ".

ويستند في خياره للازدهار الاقتصادي وأثره في التقدم الثقافي إلى الواقـع التـاريخي، وإلى تاريخنـا العـربي الإسـلامي بالخصـوص " فالثقافة العربية قد بلغت أوجها في عهد بني العبـاس، وذلـك لمـا نشـأ من ازدهار في الاقتصاد والاجتماع نتيجة للـثروات الفلاحيـة والمعدنيـة، ولاتساع مناطق الري، وبالتالي المناطق الصالحة للزراعة "

وعندما دب الضـعف في هـذه الدولـة، وانقسـمت إلى دويلات، وانخرم فيها الحكم تعطل الاقتصاد، وتبعه جمود الفكر وضموره ، وكأن الاقتصاد هو المحرك للحياة الفكرية والسياسية والاجتماعيـة، في حين

أن سياسة الحكام هي الدافع الأول للازدهار الاقتصادي والاجتماعي " فانخرام جهاز الدولة وإقبال الأمراء على الحياة اللاهية، وإعراضهم عن القضايا الجوهرية " هو السبب في التأخر الثقافي والسياسي.

إن المفكر المجدد، كما يرى منجي لبشملي، عندما يكتب يكون بعيدا عن الإطراء، ومن ناحية أخرى يكون شديدا في محاسبة النفس، والبحث عن العيوب والنقائص " بحث الشدة والتقصي " وبحث المخلص النزيه المحب لوطنه وشعبه، وكان لا بد من الاعتراف بأن الثقافة في تونس آنذاك راكدة ككل ثقافة كانت ترزح تحت إدارة استعمارية مهيمنة على العباد والبلاد، ثم أصبحت هذه الثقافة في ظل دولة مستقلة، لم يمض على استقلالها سوى خمس سنوات، فهل يقال في هذه الثقافة " إنها رفيعة المستوى جدا " كما يقول المقلدون الذين يريدون أن تبقى الثقافة على حالها، أو هي ثقافة ضعيفة كما وكيفا، كما يرى المجددون الذين يرفضون ثقافة النخبة في شعب يتخبط أكثره في الأمية والجهل، ثم أن ثقافة النخبة مرفوضة لأن العصر هو " عصر الشعب، وعصر الثقافة الشعبية، تجاوزنا مرحلة النخبة، وحظوظ النخبة، وثقافة النخبة، وجنة النخبة ".

ودعا الشملي أن يلتزم الكاتب والمثقف عموما بقضايا شعبه و " أن يعتني بتصوير مجتمعنا التونسي خاصة " وأن يلتصق " بحياة العامل الفلاحي في واحات الجنوب، وبأريافنا، وحياة الكادحين في مناجم جريصة والمتلوي والمظيلة وأم العرائس، وحياة النساجين الساحليين في قصر هلال وصيادة ولمطة وبو حجر، وحياة صيادي السمك بالمهدية وطبلبة، وحياة الخزافين بنابل وجربة، وحياة صغار الموظفين، وتفاعل كل واحد منها مع حياة الملاكين العقاريين ومديري الشركات، وكبار التجار وسامي الموظفين، أليس هذا من نوع المواضيع التي ينبغي أن يلتزمها المفكر التونسي اليوم؟

واهتم الشملي بقضية تعريب التعليم لارتباطه بتجديد الثقافة، وعلاقتها بالشخصية الوطنية، فلا ثقافة وطنية عنده إذا كانت لغة التعليم بغير لغة الوطن " فالتعريب هو الحل الأمثل للتخلص من الهيمنة الثقافية الأجنبية "

وقد كشفت أحداث بنزرت (جويلية1961) إرادة الشعب التونسي وتصميمه على جلاء القوات الأجنبية من هذه المدينة لصاحب " التجديد " خطر التبعية الثقافية على البلاد، وتأثيرها في نفوس الأجيال، ففيها " أخطار دفينة تهدد شخصية بلادنا، وكل منا يعلم أن هذه الشخصية لا يكون لها إشعاع جوهري حتى يزدهر التعليم القومي والثقافة القومية على السواعد الوطنية دون سواها ".

أما " التبعية الثقافية ففيها تسميم تدريجي لعقول أبنائنا بناة المستقبل " وإذا أردنا أن نجنب الأجيال سموم التبعية الثقافية، فما

علينا إلا أن نقبل على التعـريب " حسـب قواعـد مضـبوطة، واتجاهـات مرسـومة في جميـع الميـادين (و) الاسـتغناء شـيئا فشـيئا عن اللغـة الفرنسية التي تكبل سير التعليم حتى اليوم في بلادنا "

إن التمسـك بـالتعريب، وتعـريب العلـوم خاصـة، يجنب الثقافـة الوطنية التبعية الثقافية، ويزرع في العقول الثقـة في النفس، والإقبـال على الخلق والابتكار في عزم وحماس

" وهكذا نكون قد وضعنا الحجر الأساسي الحقيقي لهيكـل الثقافـة الوطنيـة المسـتقلة الثابتـة الممتـدة الفـروع، وهكـذا يزدهـر العلم في بلادنا، وتنطلق ثقافتنا انطلاقة جديدة تجديدية "

وكذا كان منجي الشملي داعية إلى التجديد في الثقافة، ومن جهة أخرى كان يحرض على الاجتهاد في أمور الدين التي لهـا ارتبـاط بحيـاة المسلمين، حتى يعيشوا عصرهم، ولا يتخلفوا عن قطار الحضارة الـذي لا يتوقف، وبإمكان المسـلمين أن يتمسـكوا بعقيـدتهم وشـريعتهم، وأن يسايروا التطور الذي يرتضيه الدين، ويدعو إليه.

عاد منجي الشملي إلى أئمة المذاهب الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، ليستشـف من مـذاهبهم الفقهيـة فكـرة التطـور والتجديد، وإعمال العقل في النص الديني، واتضـح لـه أن هـؤلاء الأئمـة أخذ اللاحق منهم عن السابق، ثم تجاوزه إلى إرساء مـذهب في الفقـه عرف به، وكلهم مجتهدون " عمـدوا إلى إعمـال الفكـر مـتى رأوا ذلـك واجبا ، فقاسوا واستحسنوا واستصلحوا، ولا حظوا الناس في حيـاتهم ــ بمختلـف الأمصـار ـــ فعرضـوا إلى المسـائل والجزئيـات والعـادات والعرف، فـأفتوا، وهم في كـل فتـوى يعتـبرون واقـع النـاس، ومصـلحة المسلمين ، يطلبـون اليسـر للنـاس، ولا يقـرون العسـر، إلا إذا لم يكن من إقراره بد "

واقع الناس ومصلحة المسلمين هو الـذي دعـا ألائمـة الأربعـة إلى الاجتهـاد,، وفهمهم للإسـلام على حقيقتـه هـو الـذي أملى عليهم تـوخي اليسر، وتجنب العسر، وعـدم التضـييق على المسـلمين،عملا بالحـديث الشريف: ما خير رسول الله صلى الله عليه وسـلم بين أمـرين قـط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما.

ولكن فقهاء المسلمين الذين أتوا بعد الأئمة الأربعة,، عوض أن يلمـوا بمـا وصـل إليـه ألائمـة الكبـار، ثم يتجـاوزوا فقههم، ويستنبطوا فقها جديدا,، يكون مشتقا من حياة الناس، فإنهم يتمسكون بالفقه السابق، ويتمسحون به، كأنه قرآن مـنزل، بـل أكـثر من القـرآن عند بعض الناس، في حين يدعو الإسلام إلى أن يفقه المسلم " بقلبـه، ويبصر بعينيه,، ويسمع بأذنيه " ولكن بعض العلمـاء والفقهـاء " يفقهـون بقلـوب السـابقين، ويبصـرون بعيـون السـابقين، ويسـمعون بـآذان

السابقين، تنكـرا للحـال، أو خوفـا من النضـال، وكفـرا على كـل حـال، بقوله تعالى: "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ".

ونبه الشملي إلى أن الرسول دعا إلى " الاجتهاد بالرأي، والحث على القياس، حتى لا تعسـر حيـاة المسـلمين، فيكـون أمـرهم يسـرا " وسار على هذا المنوال من أتى بعده من الصحابة والتـابعين، ثم الأئمـة الأربعة، وتوقف الاجتهاد، وسار الناس عالة على فقه مالك وأبي حنيفـة والشـافعي وابن حنبـل، يعملـون باجتهـادهم، وإن لم يوضـع لهم، ولا لعصرهم، بدعوى سد باب الخلاف، والخشية من إسناد الفقـه إلى غـير أهله، فـإذا الاجتهـاد كمـا يقـول ابن خلـدون في المقدمـة "مـردود على عقبه مهجور تقليده ".

ومر منجي الشملي إلى العصر الحديث، ليلم بمظـاهر الاجتهـاد في الإسلام، فصـادفه الأفغـاني صـاحب الفضـل الأول في الـدعوة إلى الاجتهاد في هـذا العصـر، والـذي أعلن أن الفحـول من الأئمـة اجتهـدوا وأحسنوا، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القـرآن، وقـد صرخ في وجه من تمسك برأي بعض العلمـاء، فقـال " مـا معـنى بـاب الاجتهاد مسدود، وبأي نص سد، أو أي إمام قال: لا يصح لمن بعـدي أن يجتهـد ليتفقـه في الـدين، ويهتـدي بهـدي القـرآن، وصـحيح الحـديث، والاسـتنتاج بالقيـاس على مـا ينطبـق على العلـوم العصـرية، وحاجـات الزمان والمكان ".

وتوقف عند الأستاذ الأمام محمد عبده، هذا المصلح الأثير لدى منجي الشملي، فوصفه بالجرأة والرصانة والقدرة على تحليـل الواقـع، وملاءمة الأحكام الشرعية لهذا الواقع، وقرر " أن لا خروج للمسلم من التدهور بدون إعمال العقل في حاله، لأنه من العقل ينبثق الـدليل، وإذا كان ذلك فالاجتهاد من دعائم تغير الحال "

ولئن اعتبر الشملي محمد عبده من رؤوس الحركـة السـلفية لمناداتـه بـالرجوع إلى الإسـلام في صـفائه الأول، قبـل ظهـور الخلاف، فإنه يرى أن هذه السـلفية " منهجيـة أكـثر منهـا غايـة، فهـو يـرغب في تصفية عقلية المسلمين لكي يتسنى لهم بعد ذلك حوار مفيد مع العـالم المتقدم "

ويتضح لمنجي الشملي في آخر الأمر" أن الاجتهاد أساس حياة النـاس في انفـرادهم واجتمـاعهم، وأن المجتهـد غـير مقيـد بقـول من سبق تقيدا، سوى تقيده بالقرآن،، الذي عليه أن يتدبره، وبالسـنة الـتي عليه أن يفقه أن من دعامتها الاجتهاد "

هكذا درس منجي الشملي قضية الاجتهاد بعيدا عن منهج بعض المستشرقين وغيرهم من العرب الذين يثـيرون الشـبهات في نفـوس المسلمين، للتشكيك في عقيدتهم وشريعتهم،وإنكار مـا هـو معلـوم من الدين بالضرورة، ومـا أكـثر مثـيري الشـبهات والجاحـدين لنبـوة محمـد

صلى الله عليه وسلم ونزول الوحي عليه هذه الأيام من الرجال والنساء، وزعيمتهن بدون منازع أبكار السقاف، صاحبة كتاب (الدين في شبه الجزيرة العربية) أما الرجال فعدد ولا حرج، ولكن هذا موضوع آخر كما يردد الأستاذ الشملي في دروسه.

وبعد فإن التجديد في مظاهر الحياة كلها هو السمة البارزة في كتابات منجي الشملي.

عمـــــر الـــقطيـــطي

الشيخ عمر القطيطي(1932 ــ 1999) أصله من مدينة باجة إحدى مدن الشمال بالجمهورية التونسية، التي عرفت بخصبها في الفلاحة، وفي تخريج العلماء والأدباء والشعراء، فقد أنجبت علماء من أمثال عمر القلشاني (توفى سنة 847/1443) القاضي والمفتي والخطيب، من مؤلفاته شرح الطوالع، وفتاوى مهمة، وشرح ابن الحاجب، وأخوه أحمد القلشاني(توفي سنة 863/1458) وعلي القلصادي (توفي سنة 891/1486) الرياضي والفرضي والفقيه، من مؤلفاته رسالة في الجبر، والضروري في علم المواريث، وأشرف المسالك إلى مذهب مالك، ومن أدبائها ومؤرخيها نذكرالعياضي الباجي صاحب كتاب مفاتيح النصر في تراجم شعراء العصر، ومحمد الصغير بن يوسف مؤلف كتاب المشرع الملكي في أخبار علي التركي ترجمه إلى الفرنسية محمد الأصرم، وغيرهم من العلماء والأدباء الذين أنجبتهم مدينة باجة الغراء، وما زالت باجة اليوم لها مشاركة في الحركة الأدبية والفكرية بتونس لا يستهان بها،وسينهض بالتعريف برجالات هذه المدينة ابنها البار الباحث زهير بن يوسف.

ومن علمائها الأجلاء المعاصرين نذكر المرحوم الشيخ الإمام عمر القطيطي الذي تعرفت عليه أيام كان مدرسا بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين،الكائنة بنهج أبي زكريا الحفصي بمنفلوري، وكان أول ما تعرفت عليه في حصص المراقبة في الامتحانات بهذه الكلية أواخر السنة الجامعية، ورغم أن حصص المراقبة التي تدوم أربع ساعات كانت ثقيلة على الأساتذة، إلا أن المرحوم القطيطي بأسلوبه

في الحـديث، وبمـا رزقـه اللـه من موهبـة نـادرة في الإضـحاك يجعـل مرافقيه لا يشعرون بمرور هذه الساعات الأربع، لقـد كـان حديثـه كلـه جد، ولكنه يخرجه في قالب ساخر وفكه، إلى درجـة أنـك لا تنقطـع عن الضحك مادمت معه، كانت الابتسـامة لا تفـارق محيـاه، ومن كـان هـذا شأنه فلا شك أنه يخفي في صدره قلبا طيبا ونفسا رضـية، يحب جميـع الناس، حتى الذين أساءوا إليه، وما أكثر مـا يتعـرض هـؤلاء النـاس في حياتهم إلى الإساءة، وحتى الإهانة، وخاصـة من رئيسـه الـذي ذكـره لي عندما التحق بالعمل معه.

والشيخ عمر القطيطي أبيض البشرة،مع حمـرة، طويـل القامـة، نحيف الجسم، في صوته بحة خفيفة، سهل المعاشرة،عنـدما تلتقي بـه يخيل إليك أنك تعرفه من زمان ، تـولى إمامـة جـامع الشـهداء القـريب من مسكنه بالورديـة ، وكـان من عـادة الشـيخ أن يتخـذ لنفسـه عطلـة سنوية تدوم شهرا لا يذهب فيها إلى الخطابة ،وكـان يعوضـه في هـذا الشهر بعض تلامذته، وقد قال لي: إنـه يريـد أن يـريح النـاس أيضـا من حضوره، فلا يعقل أن أقف أمامهم فوق المنبر طول السنة، وأريهم كل أسـبوع ـــ كمـا يقـول ضـاحكا ـــ وجهي، وإنمـا يجب أن نعـود أبناءنـا بالخطابة، أو هكذا قال لي.

تـرك المرحـوم القطيطي دراسـات وأبحاثـا منشـورة في مجلـة الهداية التي يصـدرها المجلس الأعلى الإسـلامي بتـونس،كمـا صـدر لـه كتاب عن خطب الرسول، وهو بحث جـامعي نـال بـه المرحـوم شـهادة دكتورا المرحلـة الثالثـة من الكليـة الزيتونيـة للشـريعة وأصـول الـدين، وبهذا البحث الذي نشر يتونس، تسنى له أن يصـبح من رجـالات التعليم بالكلية المذكورة.

الخطابة، كمـا بين المرحـوم القطيطي، نصـيرة الـدعوة، فمـا من رسول إلا وكانت له خطابة من يوم أن أرسل الله نوحـا نبيـا، وقـام في قومه قائلا:" يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غـيره إني أخـاف عليكم عـذاب يـوم عظيم" وجـاء من بعـده هـود داعيـا بـدعوة التوحيـد فقـال لقومه:" يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقـون" ولجـأ كـل الرسل الذين جاؤوا بعد نوح وهـود عليهمـا السـلام إلى الخطابـة، لأنهـا هي الوسـيلة الـتي ترفـع الحـق، وتخفض الباطـل، وتقيم العـدل، وتـرد المظـالم، وهي صـوت الهدايـة، تؤيـد الـدعوة، وتشـرح مبادئهـا، وتـبين أهدافها وغاياتها، ولأمر ما طلب موسى من ربه، لما أمره بالـذهاب إلى فرعون، قال " رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقـدة من لساني يفقهوا قولي".

وجاء محمد صلى الله عليه وسلم، فكانت الخطابة عنـده أصـدق جند،وأمضـى سـلاح من يـوم أن صـعد إلى الصـفا، وأنـذر عشـيرته إلى اليوم الذي صعد على المنبر قبيل وفاته، وقال:" إن الله خـير عبـدا بين

الدنيا وما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند اللـه" فكـانت الخطابـة عنـده من السنة الرابعة من البعثة إلى أن توفاه الله وسيلة للدعوة، بهـا كـان يـدعو قومـه، أو يعـرض نفسـه على القبائـل،وفي موسـم الحج، وعنـد مقامه بالمدينة، وفي ساحة القتال، وفي كل مناسبة، وبصفة عامة كان يهرع إلى هذه الوسيلة الناجعة كلما حزبـه أمـر، أو لاحـظ شـيئا يعـتري مسـيرة الـدعوة، وفي كـل وقت بمـا تقتضـيه حاجـة المخـاطبين ومصلحتهم.

وبين المرحـوم القطيطي موضـوعات خطب الرسـول الـذي بعث لإصلاح ما فسد من العقيدة عند الإنسان، وما اعترى سـلوكه من خلـل، فكان أن دعا أولا وقبل كل شيء إلى الإيمـان باللـه الواحـد، وبالرسـل والكتب والملائكة واليوم الآخر، والقيام بمـا يقتضـيه التوحيـد من صـلاة وزكـاة وصـوم وحج، ولم تقتصـر رسـالته صـلى اللـه عليـه وسـلم على العقيدة وقضايا الغيب، بل شملت أيضا المصالح الدنيوية، من ذلك أنهـا دعت إلى كل ما به صـلاح أمـور البشـرية، من تربيـة، وتهـذيب للنفس، وتقويم للأخلاق، واستقامة للسلوك، وتنظيم للمعاملات،وما به تسـتقيم حياة المجتمع من قضاء، ومن سياسة وحدود وترغيب وترهيب، ومعـنى ذلـك أن خطب الرسـول شـملت كـل الميـادين، تحت رايـة الـدين الإسلامي، غرضها إقامة عمود الدين، وبعث حضارة، لم تألفها البشـرية من قبل،لأنها جمعت ووفقت بين متطلبات الدنيا ومتطلبات الآخرة، في حين كانت الملل والأديان السابقة تغلب جانبا على الآخر.

وتبعا للشمول الذي اتسم به دين الإسلام، فإن الرسـول لم يـدع شأنا من شؤون المجتمع إلا وحض عليه، وأعلى من شـأنه، وطلب فيـه من القول ما هو ضـروري في خطب الجمعـة والمناسـبات، يخطب في كل وقت، منبها مخاطبيه إلى ما فيه خيرهم ومصلحتهم، لأنه كان يمثـل الإمـام الـداعي،والمشـرع والحـاكم، والسياسـي والقائـد العسـكري، والمصـلح الاجتمـاعي، على أن جـوهر رسـالته يتمثـل في الـدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، فأول خطبة قالها عندما خرجت الدعوة من طور السر إلى مرحلة الجهر كانت تتعلـق بتوحيـد اللـه، وتـرك مـا عـداه من الأصنام والأوثان وغيرهما، وكان ذلك في السنة الرابعة من البعثة، بعـد خرجه من دار الأرقم، وبعدما أمره الله بقوله"فاصـدع بمـا تـؤمر" فقـد نادى على الصفا" يا معشر قريش، فقالت قـريش: محمـد على الصـفا يهتف،فـأقبلوا عليـه، واجتمعـوا عليـه، فقـالوا: مالـك يـا محمـد؟فقـال: أرأيتكم، لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل، أكنتم تصدقونني؟ قـالوا: نعم، أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليـك كـذبا قـط، قـال:فـإني نـذير لكم بين يدي عذاب شديد"

بدأ الرسول كما قـال القطيطي بالنـداء إلى عامـة قـريش، فلمـا اجتمعـوا لـه ابتـدرهم بالسـؤال، ليسـتوثق منهم، لمـا يعلم أنـه عنـدهم

الصادق الأمين، فقـال:" أرأيتكم لـو أخـبرتكم؟" وكأنـه أراد أن يـذكرهم بما يصفونه به من صدق وأمانة، حتى يلزمهم الحجة بطريقـة منطقيـة، وحتى لا يثار جدل حول ما سيقول.

ثم مر صلى اللـه عليـه وسـلم إلى جلب انتبـاه المجتمعين، وأهم شيء يجلب انتباه العربي في ذلك الوقت إعلامه بغـارة إحـدى القبائـل المجـاورة على قبيلتـه، فاتجـه صـلى اللـه عليـه وسـلم إلى مـا يشـغل نفوسهم باستمرار، فقال:" لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هـذا الجبـل أكنتم تصدقونني؟" وكما هو متوقع أجابه الحاضرون: ما جربنا عليك كذبا قط، وزاد في تشويقهم حين خاطبهم:"إني نذير لكم بين يدي عذاب شـديد" وتركهم في حـيرتهم، لا يـدرون من أين سـيأتي العـذاب الشـديد، أمن السماء هو؟ أم من الخيل التي أشار إليهـا محمـد، وربمـا كـانت بسـفح الجبل؟ وفاجأهم بنداء ثان، ولكن ليس إلى قريش ككل، وإنمـا خصـص بطنا بطنا، وأن في التخصيص لزيادة في التشويق، وزيادة في الـرعب، وحمل كل بطن، بل كل شخص مسؤوليته، حين قال:" إني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيبا" وهنا أشعرهم بأنه غير متضـامن معهم، بالرغم مما ألفوا من تضامن أفـراد القبيلـة في سـاعة العسـرة، ثم يصل بهم إلى الغرض المقصود، والذي أمر بالإصداع به، فقال لهم:" إلا أن تقولوا لا إله إلا الله"

واستنتج المرحوم القطيطي أن الرسـول لجـأ في هـذه الخطبـة إلى التدرج المنطقي، كما استعمل أسـلوب التشـويق، متبعـا المراحـل التالية:

1)اختبار سامعيه عن مدى ثقتهم في أخبـاره، ومعلـوم أن الصـدق والأمانة هو حجر الأساس بالنسبة للرسول، ولهذا كانت الحكمة الإلهيـة أن يعرف بين النـاس بخصـلة الصـدق والأمانـة، لأن اللـه سـيحمله أداء الرسالة.

2) تشويقهم بأهم شيء يشغل بالهم وهو الغارة.

3) شـد انتبـاههم عنـدما أعلمهم بأنـه ليس مسـؤولا، ولا متضـامنا معهم، عما سيجري لهم في الدنيا والآخرة.

4) إشعارهم بأنهم معرضون إلى عذاب، هو أشد من غارة الخيـل، إلا أن يقولوا:"لا إله إلا الله"

وتتابعت خطب الرسول الداعية إلى التوحيـد، بعـد هـذه الخطبـة في أسـواق العـرب ومواسـمهم، فكـان يعـرض نفسـه على القبائـل ويقول:" يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحـوا، تملكـوا بهـا العـرب، وتذل لكم العجم".

ولا يتم الحديث عن التوحيد إلا إذا اتبع بالعبادات، لأنها نتيجـة لـه، فلا إيمان بدون عمـل، فكـان صـلى اللـه عليـه وسـلم يـبين في خطبـه للمسلمين ما فـرض عليهم من صـلاة وزكـاة وصـوم وحج، فقـد خطب

عن صلاة الجماعة، وكيفية أدائها فقـال:"إذا صـليتم فـأقيموا صـفوفكم، ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كبر فكبروا، وإذا قال غـير المغضـوب عليهم ولا الضالين، فقولوا آمين" وأعلمهم بافتراض الجمعـة فقـال:" واعلمـوا أن الله فرض عليكم الجمعة، في مقامي هـذا في شـهري هـذا في عـامي هذا إلى يوم القيامة، فمن تركها في حياني أو بعدي، وله إمام عـادل أو جائر استخفافا بها، أو جحودا لها، فلا جمع الله شمله"

وبين فـرض الصـيام، وفضـل صـيام شـهر رمضـان فقـال:" أيهـا الناس، قد أظلكم شهر عظيم، شـهر مبـارك، شـهر فيـه ليلـة خـير من ألف شهر، جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعا، من تقـرب فيـه بخصـلة من الخـير كـان كمن أدى فريضـة فيمـا سـواه، ومن أدى فيـه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيمن سواه.

وخطب عن فريضة الحج فقال:" أيها الناس قـد فـرض عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يا رسول اللـه، فسـكت حـتى قالهـا ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم".

وخطب في التحريض على الجهاد وقتـال المشـركين، كمـا خطب في السياسة، وفي المسائل الاجتماعية، ومنها قضية الأسـرة باعتبارهـا الحلقة الأولى في تركيبـة المجتمـع، فـبين أن لكـل واحـد من الـزوجين حقا، فقال:"أيها النـاس أن لنسـائكم عليكم حقـا، وأن لكم عليهن حقـا، لكم أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يـدخلن أحـدا تكرهونـه بيـوتكم إلا بـإذنكم" ويـذكّر أصـحابه بـأن اللـه تعـالى سـوى بين الرجـل والمـرأة، فخاطبهم قائلا:(يأيها الناس ، إن الله يقول في كتابه): "إن المسـلمين والمسـلمات والمؤمـنين والمؤمنـات والقـانتين والقانتـات والصـادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحـافظين فـروجهم والحافظـات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد لهم مغفرة وأجرا عظيما"

والحاصـل أن للخطابـة أثـرا كبـيرا في نشـر الـدعوة، وتـبيلغ مضـامينها، وتركـيز مبادئهـا، وبيـان القيم الأخلاقيـة الـتي نـادت بهـا، وباختصار اتخـذ الرسـول الخطابـة أداة لإيضـاح تعـاليم الإسـلام وقيمـه السمحة.

وليس من غايتنـا في هـذه الخـواطر أن نلم بمـا جـاء في كتـاب المرحـوم عمـر القطيطي عن خطب الرسـول، وإنمـا هي تلميحـات وإشارات، من ذلك أنه قارن بين خطب الرسـول، والخطب الـتي قيلت في العصر الجاهلي، ونذكر على سبيل المثـال خطبـة لقس بن سـاعدة الأيـادي ذات الصـلة بالوعـظ، الـتي قالهـا في سـوق عكـاظ ، ويقـول المغرضون من المستشرقين أن الرسـول تـأثر بـه إلى حـد بعيـد، وهـو هراء ولغـط لا يلتفت إليـه، جـاء في خطب قس: أيهـا النـاس، اسـمعوا

وعوا، من عاش مات، ومن مـات فـات، كـل مـا هـو آت آت، ليـل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهـر، وبحـار تزخـر، وجبـال مرسـاة، وأرض مدجاة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخـبرا، وإن في الأرض لعـبرا، مـا بال الناس يذهبون، ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " كأني أنظـر إلى قس بن ساعدة الأيادي وهـو بسـوق عكـاظ على جمـل لـه أحمـر وهـو يخطب الناس"

خطبة قس كما يقول القطيطي تعرضت إلى العناصر الآتية:

1) المظاهر المشاهدة في الكون:أرض وبحار وسماء ذات أبراج

2) يؤكد على أن في السماء خبرا، ولكنه متردد لا يدري ما هو؟

3) يتحدث بخبرة المجرب بأن بعد العيش موتا، ولكنه يقـف حـائرا ماذا يحدث بعد ذلك؟

إذا انتقلنا إلى خطب الرسول نجد أن معـاني الوعـظ قـد انتقلت من شك الجاهلي وخبرته إلى صـدق الإيمـان باللـه واليـوم الآخـر، وقـد عرف الوعظ طريقه وغايته الـتي يهـدف إليهـا، وهي الـرقي بالإنسـان، وتذكيره بأنه لا محالة محاسب على كل ما يفعل من خـير وشـر، يقـول صلى الله عليه وسلم في إحدى خطبه: " أما بعـد فـإن الـدنيا قـد أذنت بصـرم، وولت حـذاء، ولم يبـق منهـا إلا صـبابة، كصـبابة الإنـاء، يتصـابها صـاحبها، وإنكم منقلبـون منهـا إلى دار لا زوال لهـا، فـانتقلوا بخـير مـا بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفة جهنم، فيهوى فيهـا سبعين عاما، لا يدرك لها قعرا(...) وقـد ذكـر لنـا أن مـا بين مصـراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتينها عليها يوم، وهـو كظيـظ من الزحام"

ففي هذه الخطبة تحدث الرسول عن:

1) انقطاع الدنيا وتوليها بسرعة.

2) التأكيد على أن بعد الموت بعثا.

3) الحث على عمـــل الخـــير، لأن بعـــد البعث حســـابا، وينتج عن الحساب الجنة أو النار.

كان آخر لقاء مع المرحوم عمـر القطيطي يـوم أن أوصـلني إلى بيتي في سيارته الصغيرة، ثم ودعني ورجع من حيث أتى، ولم ألبث أن بلغني نعيه رحمه الله.

محمد الحبيب الشاوش

معتدل القامة، أبيض البشـرة، جميـل الخلقـة، تطـرف عينـاه من حين لآخـر، وهـذا الإغمـاض والانفتـاح يزيـده جمـالا وبهـاء،لـه مهابـة ووقـار،متواضـع،لا يتعـالى على النـاس، كمـا يفعـل بعض الأقـزام ممن يدرس معه في نفس المؤسسة الجامعيـة، طيب القلب،وقـد جلبت لـه هـذه الطيبـة محبـة النـاس، وخاصـة طلبتـه، بليـغ الكلام، فصـيح اللسان،دقيق الملاحظة، سريع البديهة، له فراسة لا تخيب، ينهال عليـه الكلام انهيالا، وتسيل العبارات من بين شفتيه، دون تكلف أو إجهـاد،في حين يطلبها غيره فتأبى عليه، أما هو فتنقاد له طائعة خاضعة،ولن نعـثر له عن خطإ في النحو،وكان لنا صديق له بـاع في النحـو، يتتبـع هفـوات المدرسين، فلم يجد للأستاذ الشـاوش هفـوة نحويـة تـذكر، ووجـد لمن يدرسنا النحو أخطاء شنيعة. كأن يرفع المفعول به وينصب الفاعل.

هذا الرجل هو الأستاذ محمد الحبيب الشاوش، المولود بـالمكنين سـنة 1932 ، والـذي عرفنـاه أسـتاذا جامعيـا بكليـة الآداب والعلـوم الإنسانية بشارع 9 أفريل في ستينات القرن الماضي، كان محبوبا لـدى

طلبته إلى درجة أنهم لا يسمحون لأي أحد أن يتكلم في درسه، أذكر أن طالبا مشاكسا، كان يأتي إلى القسم ليقلق زملاءه في أثناء الدرس، وهذا أمر لا تخلو منه أية حصة، وعند كل أستاذ، إن في التعليم الثانوي أو في التعليم العالي،إن كان القسم مكتظا، ولكن الأستاذ الشاوش لا يهتم به، ولا يبالي بما يقول، وكأنه غير موجود، فاتفقنا، ونحن كثر، أن نوقفه عند حده، وذلك بتهديده بالعنف، إن لزم الأمر، خارج الدرس، وفعلا ارتعب ذلك الطالب الجبان، ثم خرج ولم يعد.

ما زلت حتى الآن أذكر جلسته لإلقاء الدرس العام، ووقوفه، وجيئته وذهابه في حصة شرح النصوص، كان صوته جهوريا، يملأ الأسماع،يرتفع وينخفض دون غضب أو تهيج، فتستقبله العقول بدون استئذان، في حين يدخل غيره إلى القسم، وهو عبوس قمطرير، ولا يتورع عن إهانة بعضنا بملاحظاته الباسرة.

ولا أنسي أنه اقترح علينا ذات يوم أن نكتب بعض المقالات لينشرها لنا في مجلة (الشعب) التي كان رئيس تحريرها(1965 ــــ 1970) بوصفه عضوا منتخبا للاتحاد العام التونسي للشغل، مكلفا بالإعلام، وكان الأمين العام للاتحاد العام التونسي للشغل آنذاك المرحوم البشير بلاغة، وأسرعت بكتابة مقال عن أبي حيان التوحيدي وكتابه (الإمتاع والمؤانسة) وسلمته إلى أستاذي الحبيب الشاوش، فما كان منه إلا أن نشره في أول عدد ظهر للمجلة، وكوفئت على كتابة هذا المقال بمبلغ مالي ، وسلمته إلى والدي رحمه الله ، لشراء ما تحتاج إليه العائلة، ولما توجه إلى الدكان الكائن بالحي أضاع ذلك المبلغ، وعاد إلى المنزل بخفي حنين، وقيل لي آنذاك أن من يكتب عن التوحيدي لا بد أن يلحقه شيء من الأذى، كما وقع لعباس محمود العقاد عندما كتب عن ابن الرومي فأدخل السجن.

ونشرت لي المجلة المذكورة العديد من المقالات تشجيعا لي،أذكر منها مقالا عن سعيد أبي بكر، والفلاحة عند ابن خلدون، وقد نوهت جريدة (لابريس) بالمقال الأخير، ثم ضمني الأستاذ الشاوش لأسرة التحرير ، بوصفي مصححا لمجلة (الشعب) وجريدة (الخدام) الأسبوعية، وقد نشرت فيها هي الأخرى بعض كتاباتي، وكنت اطلع الأستاذ الشاوش، وهو في مكتبه بمقر الاتحاد العام التونسي للشغل، على افتتاحية (الشعب) ليوافق على نشرها، ويبدو أنه محرر تلك الافتتاحيات، ذات الطابع السياسي والنقابي، وعنوان تلك الافتتاحية(كلمة الاتحاد) وتولى بعد ذلك عضوية مجلس النواب مرتين الأولى(1974 ــ 1979) والثانية (1979 ــ 1983) .

وكان يتبسط معي في الحديث، من ذلك أنه شكا لي يوما من قلة النوم، لأن ابنته الرضيعة(نحن في سنة 1967 أو 1968) كانت تبكي وتصرخ طيلة الليل،ومن حين لآخر كان يقترح علي كتابة بعض

المواضيع التي تتعلق بقضايا الساعة في تونس، أذكر منها على سبيل المثال مسألة التعاضد التي كانت الشغل الشاغل للناس في ذلك العهد.

وإذا كان الأستاذ الشاوش من مؤسسي الجامعة التونسية التي احتفلت هذه السنة(2010) بخمسينيتها فهو كذلك من المناضلين ضد الحضور الفرنسي بتونس، من ذلك مشاركته في مظاهرة سنة 1952 وهو في العشرين من عمره، التي نادى فيها مع المتظاهرين برحيل الجيش الفرنسي، وبسقوط المقيم العام، فأوقف على إثر المظاهرة بثكنة (فورجمول) بسوسة، حيث وقع التنكيل به وإهانته مع زملائه، كالنوم على كوم من التبن، والقيام بأشغال شاقة مهينة ومذلة، كجمع أوساخ الخيل، وتقديم العلف لها، وطرد من التعليم الثانوي،الذي كان يتابعه في الفرع الصادقي بالمعهد الثانوي للذكور بسوسة (1946 ـــ 1952) وسجل هذا الطرد في دفتره المدرسي، وسيكون ذلك سببا في منعه من الحصول على منحة، حين عزم على مواصلة دراسته بفرنسا.

ولكنه تحدى كل العراقيل التي واجهته لإتمام دراسته، ففي صائفة العام المذكور سافر إلى فرنسا لإجراء امتحان البكالوريا، وفعلا نجح في شعبة العلوم التجريبية بملاحظة حسن، وكان من زملائه الأستاذ فؤاد المبزع، رئيس مجلس النواب حاليا، وعزوز الأصرم من وزراء الرئيس السابق الحبيب بورقيبة وغيرهما، وسمح له حصوله على هذه الشهادة بمواصلة التعليم العالي بجامعة السربون، وعندما تقدم لاجتياز مناظرة التبريز كان الأول في دفعته،وأشيع بين طلبته بكلية الآداب آنذاك أنه نجح في هذه المناظرة بسبعة عشر على عشرين، وهو عدد ممتاز كما لا يخفى.

وعاد إلى تونس بعد هذا النجاح الباهر ليدرس بالمعهد الصادقي، ثم بترشيح الأساتذة المساعدين، وأخيرا بكلية الآداب بشارع 9 أفريل، ثم بمنوبة إلى أن أحيل على التقاعد سنة 2004.

كتب عدة بحوث ودراسات منها:الشريف الرضي والشريف المرتضى نقيبا الطالبيين، وسابور بن أردشير وتأسيسه دار العلم ببغداد، هذا بالإضافة إلى تقديمه للكثير من الكتب مثل(كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) لمسكويه و(مطلع الفوائد ومجمع الفرائد)لابن نباتة و(حلية المحاضرة في صناعة الشعر)للحاتمي و(محمد الخضر حسين حياته وآثاره) لمحمد مواعدة وغيرها.

وسأذكر في هذه الخواطر التي هي إلى الذكريات أميل فقرات التقطتها من دروس الأستاذ الشاوش التي ألقاها علينا، ونحن في سنة التخرج(1969 ـــ 1970) وموضوعها: (النقد الأدبي فيما بين القرن الرابع والسادس للهجرة بالأندلس) مع شرح نصوص من (رسالة

التوابع والزوابع) لابن شهيد،أنقلها من كراسي، الذي مازلت احتفظ به حتى الآن.

إن غرض ابن شهيد من رسالة التوابع والزوابع هو المعارضة والمضارعة، وإبراز الإجازة وإفحام الخصوم، وهي رسالة لها صبغة قصصية أدبية نقدية تهكمية، وقبل أن ننقل ما قال الأستاذ الشاوش عن النقد عند ابن شهيد نعرف به، وإن بإيجاز:

هو أبو عامر احمد بن عبد الملك بن مروان بن احمد بن عبد الملك بن شهيد أصله من قبيلة أشجع العربية (توفي426/1034) بقرطبة حيث ربي ونشأ في حماية هشام بن عبد الرحمان الناصر، وكان الأمر يومئذ للحاجب محمد بن أبي عامر، قال ابن شهيد الشعر وهو في العاشرة من عمره، وتربى تربية الخلفاء، فشب على المجون والملاهي، وتقلب في عدة مناصب ومهام كالوزارة ، وكان من أسرة ثرية ومثقفة، سهر على تربيته والده، ألف (رسالة التوابع والزوابع) ليضارع مشاهير الشعراء والكتاب العرب، ويبرز مكانته في ميدان الإنتاج النثري والشعري على السواء، وذلك بأن يتحصل إجازة كل من هؤلاء الشعراء والكتاب الفحول، من مشاهير الأعلام الذين عرفتهم لغة الضاد.

تحتوي الرسالة على مقدمة وأربعة فصول الأول في توابع الشعراء والثاني خصصه لتوابع الكتاب، والثالث في نقاد الجن، والرابع في حيوان الجن، والرسالة تشبه إلى حد ما رسالة الغفران للمعري، ولئن تجول المعري في العالم الأخر، والتقى بالأدباء والشعراء، فإن ابن شهيد قام برحلة في عالم الجن، وفي هذا العالم التقى بشياطين الشعراء والكتاب، وأجرى ابن شهيد معهم مناظرات أدبية، وأبرز تفوقه على الجميع، إرضاء لطموحه في أن يكون شعره ونثره هو الأجود والأرقى.

يتساءل الاستاذ الشاوش في درسه عن أصول النقد عند ابن شهيد فيقول: كان معظم النقاد العرب في القرن الرابع وقبله يصدرون أحكاما سطحية، وفي أسلوب موجز، وكانت طريقتهم تقوم في النقد على استعمال أفعل التفضيل، متأثرين بمن سبقهم من النقاد، لا سيما في القرنين الثاني والثالث، وقد عني ابن شهيد بما عني به النقاد في عصره، مثل اللغة وأحكامها، والأسلوب وشروط التأليف الفني في ميدان النثر، كما عني بمكانة القريحة في الشعر والسرقات والرواية للغير، ومفهوم الابتكار والإبداع، كما عني بالتجديد والتقليد، هذا فضلا عن انشغاله بالمعنى والمبنى، وعلاقة أحدهما بالآخر، وهنا يظهر أثر أرسطو الذي تناقله العرب منذ نشأة بيت الحكمة في بغداد على يد المأمون عصرا بعد عصر، حتى القرن الرابع وبعده.

وأورد الأستاذ الشاوش نماذج من النقد عند العرب، فهذا القرشي في (جمهرة أشعار العرب) يروي لنا عن أبي عبيدة قوله: أشعر الناس أهل الوبر خاصة، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة، وفي الطبقة الثانية الأعشى ولبيد وطرفة، وذكر ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) أن أبا عمرو بن العلاء قال: سئل الأخطل عن معاصريه الفرزدق وجرير، أيكم أشعر؟ فقال : أنا أمدحهم للملوك، وأنعتهم للخمر، وأما جرير فأنسبنا وأشبهنا، وأما الفرزدق فأفخرنا؟

نلاحظ أن النقد من خلال هذين المثالين يدور على إبراز خصائص كل شاعر المميزة له عن غيره،دون التوغل في درس هذه الخصائص تفصيلا،كما تعبر هذه الأحكام النقدية عن وجهات النظر باستعمال أفعل التفضيل، وهي صيغة تعبيرية عامة، ينقصها التفصيل والتدقيق، وبصفة عامة كان العرب يكتفون بمثل هذه الأحكام النقدية التي يرتجى من ورائها إبراز فضل الشاعر بمقارنته وتفضيله، أو تحديد ميدان اختصاصه بالنسبة إلى غيره، وكان النقاد العرب يستعملون لإصدار أحكامهم على هذا الشاعر أو ذاك طريقة المقارنة، فقد أورد ابن سلام الجمحي النموذج التالي: كان أبو عمرو بن العلاء يقول: نظير الأعشى في الإسلام جرير، ونظير النابغة الأخطل، ونظير زهير الفرزدق، ولا يبدو غريبا إن سلك ابن شهيد في رسالته مسلك المقارنة الذي ذهب إليه غيره، وإن هو ركزها على نفسه، لإبراز قيمته الذاتية، وبذلك ينفرد عن غيره من النقاد العرب.

ومن مقاييس جودة الشعر عند النقاد في القرن الرابع حسن التشبيه، وهو عندهم دليل البلاغة، وكذلك تخير وتفضيل القافية الملائمة للموضوع، وكانت أذواق النقاد تتجه إلى القوافي الخفيفة، بل قد يذهب البعض من النقاد إلى تقييم جودة الشعر اعتمادا على أصالته، أي ندورة أمثاله، فالأصالة أو الندورة عامل من عوامل ضبط القيمة، ذلك أن غير المألوف من الشعر يبوئه مكانة خاصة تجعله نفيس المطلب، عزيز الندورة.

وكثيرا ما كان النقاد يربطون الصلة بين الشعر الجيد ونبل صاحبه، وقد ذهب في هذا المنهج ابن قتيبة أول من ذهب، حيث قال في(الشعر والشعراء): وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى، ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب منها، الإجادة في التشبيه، وقد يحفظ ويختار على خفة الروي، وقد يختار ويحفظ لأن قائله لم يقل غيره، أو لأن شعره قليل عزيز، وقد يختار ويحفظ لنبل صاحبه.

وقد تأثر ابن شهيد بهذا المنهج النقدي، حيث حكم ذوقه، وركز اتجاهه على وجوب الانتقاء للقوافي الملائمة للأغراض، وعلى التشابيه المطابقة للمقام، وكأننا به يشعر بنبل منزلته، فاعتد بنفسه، وحكم لها

بالتفوق والنبوغ في الإنتاج الأدبي محتقـرا ضـحالة الشـعراء من عمـوم الناس، فكانت لابن شـهيد إلى نفسـه والى شـعره وشـعر غـيره نظـرة ارستقراطية.

ثم يقول الأستاذ الشاوش: كان النقاد في القـرن الرابـع يحبـذون الامتثال للمناهج المألوفة، ويستقبحون الابتداع، أي الخروج عن العـادة المألوفة، والإتيان بالغريب من الألفاظ، بل يذهب البعض إلى تحبيذ نوع من التقليـد للقـدامى، والسـير على منـوالهم في لغتهم، وقـد عـبر ابن رشيق عن موقفه من التقليد والابتداع فرأى أن الشاعر النـابغ هـو ذاك الذي ينتهج مسلك القدامى في أسلوبهم وتعبيرهم، ويسـتعمل الألفـاظ المسموعة، والتعابير المألوفة، وهي الـتي عـرفت بالكتابيـة، وهي ضـد الحوشية يقول ابن رشيق: وللشعراء ألفاظ معروفة، وأمثلة مألوفـة، لا ينبغي للشـاعر أن يعـدوها، ولا أن يسـتعمل غيرهـا، كمـا أن الكتّـاب اصـطلحوا على ألفـاظ بأعيانهـا، لا يتجاوزونهـا إلى سـواها، إلا أن يريـد شـاعر أن يتطـرف باسـتعمال لفـظ أعجمي يسـتعمله في النـدرة على سبيل الخطرة، كما فعل الأعشى قديما وأبو نواس حديثا.

وهكذا يميل النقاد إلى السلاسة البعيـدة كـل البعـد عن الابتـذال، وقـد تـأثر ابن شـهيد بهـذه النزعـة فكـان أميـل إلى اسـتعمال الألفـاظ المختارة البعيدة كل البعد عن الحقارة والإسفاف، فجـاء شـعره ونـثره من حيث العبـارة متينـا سلسـا جـزلا، وقـد عـبر عن موقفـه فقـال مـا ملخصه : إن البليغ سواء كـان كاتبـا أو شـاعرا هـو الـذي يتخـير اللفـظ المواتي للمقام، ويؤدي المعنى في غير مغالطـة ولا إبهـام ولا إشـكال، فيكون صاحبه قد تبوأ مكانا من البلاغة قائما على حسن الذوق، وتخـير اللفظة الأنيقة في محل الأناقة مع مراعـاة شـروط البلاغـة من الإيجـاز والدقة في التعبير.

وهي نظرة امتاز بهـا نقـاد القـرن الرابـع عامـة في أحكـامهم في شان الإنتاج الشعري والنثري على السواء، وقـد عـبر عن هـذه النظـرة أبو هلال العسكري في (كتاب الصـناعتين) فقـال: والمنظـوم الجيـد مـا خرج مخرج المنثـور في سلاسـته وسـهولته واسـتوائه وقلّت ضـرورته، ويسـتدل أبـو هلال على صـحة ذوقـه، واسـتقامة أحكامـه بـالرجوع إلى بعض الشواهد، يستمدها من تاريخ العرب القديم، اعتمـادا على فحـول الشعراء وأسيادهم" والسيد من الشعراء أفحلهم"، ويصوغها في قـالب حوار، وقد قال أبو هلال في هذا الشـأن، أي في نبـذ التكلـف والتصـنع، والإشادة باتباع السلاسة في التعبير، واستعمال الألفاظ المألوفـة: قيـل للسيد: ألا تسـتعمل الغـريب في الشـعر، فقـال: ذاك عي في زمـاني، وتكلف مني، لو قلته، وقد رزقت طبعا، واتساعا في الكلام، فـإن أقـول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلى تفسير.

وكان ابن شـهيد قـد اتهم بالسـرقة، لأنـه سـلك مسـلك التقليـد للمتعارف من الأشعار في معانيها ومحاورها،وبقدر مـا أبـاح السـير في منهج القـدامى تعلقت همتـه بالابتكـار دون الابتـداع، كمـا تـأثر بالـذوق العربي في عصـره، والمتمثـل في التلاؤم مـع الأذواق العربيـة الأصـيلة في كتابة القصائد، وسـبك معانيهـا وألفاظهـا حسـب الطـرق المألوفـة، وقد اتهم من أجل ذلك بالتقليـد، على أن هـذه الظـاهرة تقيـد بهـا جـل الشعراء والكتاب، وأكدها جل النقاد.

فما هي الميزة التي تميز بها ابن شهيد في مجال النقد الأدبي؟

نلاحــظ أن ابن شــهيد بــنى نقــده على طريقــة المعارضــة، والمعارضة هي الإتيان بقطعـة نثريـة وشـعرية تطـرق نفس الموضـوع، الذي طرقه الغير مع محاولة التفوق عليه، أو على الأقل التساوي معــه في الفضــل، ومجــال التفــوق او التســاوي يــدور خاصــة على محــور الأسلوب واللغة، ومن هنا نفهم أو ندرك مدى العناية الفائقة والاهتمام البالغ الذي أولاه ابن شهيد في أسلوبه للكتابة، وعنـدما نطـالع (رسـالة التوابـع والزوابـع) نلمس هـذه العنايـة، ومن دوافعهـا الإضـافية الأخـرى يجدر أن نذكر التلاؤم مع البيئة، ذلك أن القرن الرابع وما تلاه هو عصــر العناية باللغة، وإتقان التأليف، والتفنن فيه قدر الإمكـان، وذلـك بعـد أن ظهـرت المؤلفـات العديـدة في اللغـة، وبعـد الخصـومة القديمـة الـتي امتدت في الزمن، وطـالت بين البصـرة والكوفـة، حـتى شـملت بغـداد التي وقفت بينهما، ثم استأثرت بالزعامة، فكانت العناية باللغة وتنسيق اللفظ باستعمال المحسـنات البديعيـة اللغويـة والمعنويـة مـيزة القـرن الرابع، ولا غرو أن ابن شهيد قد تأثر بها.

إن أخص ممـيزات ابن شـهيد النقديـة التعلـق بنـوع من الأصـالة المبنية على الشعور بالشخصية الذاتية، أي القدرة على الإتيان بمــا أتى به الغير من الفحول والنوابـغ، بـل الإتيـان بمـا يفضـلون بـه، وركـز ابن شـهيد اختيـاره على نخبـة من الكتـاب والشـعراء الـذين ضـارعهم في رسالته ، وقد أجمع كافة النقاد على تفوقهم في الأبواب الـتي طرقوهـا باعتبارهم يمثلون أحسن النماذج، بل بوصفهم أعلام إن في عصرهم أو بعده.

وللأسـتاذ الحـبيب ابنـة سـماها بسـمة نهى الشـاوش، هي الآن أستاذة بالتعليم العالي، وتعمل بنفس الكليـة الـتي كـان والـدها يـدرس بها، ولهـا أبحـاث ودراسـات علميـة نشـرت في دوريـات محكمـة، وقـد ناقشت في السنوات القليلة الماضية أطروحة دكتورا دولة حول(وصف الحيوان في الأدب الجاهلي) لقد رعى هذه النبتة الصالحة طفلة وشابة ، وبقي يتعهدها حتى وصلت إلى أعلى درجة، وهـل هنـاك درجـة أخـرى فوق شهادة دكتـورا دولـة، أو أسـتاذة في التعليم العـالي، إن في سـلم الشـهادات أوفي سـلم المهنـة، ومـا زال يحنـو عليهـا، فـتراه يحضـر

مداخلاتها في الندوات العلمية، ولا شك أنه يستمتع بما تقول، ويحمد الله على أن هذه النبتة أثمرت وأينعت، وفاح أريجها علما وتقوى.

أدام الله لها ولنا والدها الحاج الحبيب، و مّعه بالصحة والعافية.

صـــالح القرمـــــــادي

بعد عشر سنوات من التدريس في المعاهد الثانوية خطر لي أن أستزيد من العلم والمعرفة، وتجديد العهد مع أساتذة الأمس، وذات يوم قصدت كلية الآداب والعلوم الإنسانية الكائنة بشارع 9 أفريل، وأصبحت اليوم تسمى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، وقبيل الوصول إليها رأيت أحد الأساتذة يمشي ببطء شديد، وتراءى لي وكأنه يحمل أعباء سنين ثقيلة، والحال أنه لم يتجاوز الخمسين من عمره، كان نحيل الجسم، يرتدي معطفا ذهبت الأعوام والسنون بجدته، أو هكذا بدا لي من بعيد، بدأت اقترب منه أكثر فأكثر، فإذا هو الأستاذ صالح القرمادي(1933 ــ 1982).

صعد الدرجات الثلاث أو الأربع أمام مدخل الكلية بكل تؤدة وفتور، تمايل، وكاد أن يسقط، وهو يصعد تلك الدرجات القليلات. أذكر أنه دخل علينا قبل عشر سنوات إلى القسم، فملأه بقامته المديدة، وجسمه الضخم، كان أميل إلى السمرة،إن لم أقل الزرقة، حتى تخاله زنجيا، وبطلا في الملاكمة، وكان شعره مضطربا، خصلة هنا وخصلة هناك، يذكرك برسوم بعض الفنانين التجريديين.

تسمر الطلبة في مقاعدهم، وبدأ الأستاذ القرمادي درسه، كان صوته كالصواعق المحرقة، والرعد القاصف، بدا لنا هكذا في البداية، ولكن الرجل كان لطيفا، يظهر ذلك من ابتساماته الخفيفة التي تلوح لنا من حين لآخر كالبرق الخاطف، وعرفنا يومها أنه وحيد زمانه في علم الأصوات العربية، وفي الألسنية وعلوم اللغة عامة، تخرجت على يديه أجيال من محبي اللغة العربية وأصواتها، يوم كان الطالب الناجح في البكالوريا يختار الشعبة التي يرغب فيها.

أصبح المتخرجون على يديه في علوم اللغة هم الرواد، والمبرزون في الألسنية وعلم الأصوات، وتنوسيت ريادة القرمادي، هذا الذي ركز هذه العلوم في كليات الآداب، وجعل منها مادة مثيرة للدرس والبحث، وأصبحت على يديه مادة طيعة، تنقاد إليه بسهولة، رغم ما فيها من تعقيد والتواء، فهذا (المفصل) للزمخشري وشرحه لابن يعيش تحول لديه إلى كتاب سهل التناول، رغم صعوبته وغموض ما فيه، بالنسبة لنا نحن الطلبة، يأخذ النص من شرح المفصل، فيتتبعه فقرة فقرة وجملة جملة،فيصبح لدينا واضح الدلالة، سهل العبارة، وفي الأثناء كان يمدنا بقواعد في اللغة مع أمثلتها، لم نرها عند المدرس الذي

اشتغل بدراسة الفعل والجملة في العربية، والذي كان كثيرا ما ينصب الفاعل، ويرفع المفعول به.

لا أذكر أنه جلس على الكرسي، كانت السبورة رفيقته في دروسه، فعلى ظهرها يطل علينا ابن يعيش محاورا ومناقشا، وتتراءى لنا شواهده كالدمى المتحركة في مسرح الأطفال، يشد خيوطها الأستاذ القرمادي، ويوجهها كما يريد، وكما تطمئن إليه لغة العرب.

ثم دخل علينا ونحن في المرحلة الثالثة من التعليم الجامعي، فرأيت أستاذا آخر، خافت الصوت، ضعيف البنية، لا يخلو وجهه من صفرة تدل على أنه مريض أو ما يشبه المريض، قليل الحركة في القسم، لقد ذهب ذلك الرجل الذي كان يصول ويجول، كأنه في خصام مع الزمخشري وابن يعيش، واختفت تلك الإشراقة المتوهجة التي تلوح على وجهه، والتي هي علامة على الصحة والنشاط والحيوية.

وجد أمامي ذات يوم كتابا عنوانه (أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة للدكتور نايف خرما) أو أريته له، لا أذكر، اعتقادا مني أنه اطلع عليه، تصفحه، ثم استعاره مني، وأرجعه لي بعد أسبوع، ولا شك عندي أنه التهم هذا الكتاب، فلما سألته عنه أجاب بأنه كتاب جيد، أو ما شابه ذلك، تعجبت كيف لم يطلع عليه، وهو الذي لا تفوته من قبل هذه الدراسات اللغوية التي تصدر بالشرق أو بالغرب، وبأي لغة كانت، فقد كان الرجل يحسن الكثير من اللغات، ولعله كان يرى أن الألسني لا بد أن يكون حاذقا لأكثر من لغة، ليتمكن من المقارنة بينها.

وكثر حديث الطلبة عن الحالة الصحية المتدهورة التي وصل إليها هذا الرجل، وكثر القيل والقال، واختلفت التأويلات، فهذا يقول يتناول كذا، والآخر يقول كذا، ولم نصل إلى جلية الأمر في خصوص تدهور صحته.

وذات مساء من ربيع سنة 1982 دخلت الكلية، فأحسست أن بها أمرا غير معتاد، الوجوم باد على الوجوه، والسكون المطبق يلف الكلية بطلابها وموظفيها، لم أفهم ماذا جرى، اعترضني صديق، كان هو الآخر حزينا عابسا، صافحني، ولم ينبس ببنت شفة، أردت أن أسأله، فسبقني بالكلام، قال لي: ألم تسمع؟ وجد الأستاذ صالح القرمادي في مكان ما مقتولا، ولم يزد، وقيل إنه وجد ميتا في جب صحبة شاب مقتول هو الآخر، وقال لي صديق والعهدة عليه، بعد ثلاثين سنة من موت الأستاذ القرمادي، لقد وجد رأسه في مكان، وجثته في مكان آخر، والموت واحد وإن تعددت الأسباب.

هكذا بكل بساطة غادر القرمادي زملاءه وطلبته، ورحل إلى الأبد،و في المساء ظهرت صورته على شاشة التلفزة، و معها نعيه، و خسارة الجامعة التونسية في فقدانه، مات – كما قال زميله و رفيقه الأستاذ منجي الشملي –على حين غفلة ، سقوطا في جب مهجور

عميق ، مدفوعا إليـه، و هـو لا يـدري ،فحب الاسـتطلاع فيـه عريـق ، و سواء سـقط في جب أو مـات حتـف أنفـه فالأسـباب تتعـدد، و المـوت واحد.

و لكن القرمــادي لم يمت ،نعم اختفى جثمانــه، و لكن مــا تركــه سيبقى حيا، ما بقي الإنسان يرنو إلى التغيير و الرقي، و ينشـد التحــرر من ربقة القيود، مهما كان نوعها ، لقد كان الرجل يــدعو إلى أن يمتلئ الإنسان كرامـة و تحـررا، و أن يسـود على كـل مـا عـداه، و كـان يعـتز بكفاح الشعب التونسي، و تحريـره للـوطن، ويعمـل جاهـدا على ترقيـة هذا الشعب

وتقدمه بقلمه، و حصاد قلمه كـان متنوعـا، فقـد كـان يتجـول من البحث إلى القصة ثم الشعر

نعم كان القرمادي شـاعرا، و لكن ليس كالشـعراء الآخـرين، فقـد كـان أميــل إلى الرمــز، و إلى اسـتعمال قــوالب معروفــة في اللهجــة العامية، رغم تبحره في العربية، و اطلاعـه الجيـد على الـتراث العـربي أدبا و علما، و ميله إلى الرمز يعطي لشـعره أبعـادا متنوعـة للتأويـل، و كأنه يرفض أن يكون الشـعر مباشـرا، وذا بعـد واحـد للتفسـير،ولـه من الشعر ديوانان أحدهما بالعربية(اللحمة الحية) والآخـر بالفرنسـية، وهـو مـترجم تـرجم عن الفرنسـية دروس في علم الأصـوات العربيـة لجـون كونتينو وسأهبك غزالـة لمالـك حـداد والتطليـق لرشـيد بوجـدرة، ومحـا الحكيم ومحا المعتـوه للطـاهر بن جلـون، بالإضـافة إلى بعض القصـص القصيرة.

و لكن ما يهمنا في هذه الخواطر العجلى هو دروسه على طلبتــه، و في الميدان الذي برع فيه ، و لا أعرف أحدا بلغ في الألسنية و علــوم اللغة مبلغه، و ما يثير الإعجـاب هـو اسـتيعابه أيضـا للدراسـات اللغويـة المعاصرة، وهيمنته على هذين الجدولين، أي علوم اللغـة عنـد العـرب، وعلــوم اللغــة المعاصــرة في أوروبــا و أمريكــا ، ثم الوصــول إلى رأيــه الشخصي في جزئيات هذا العلم.

ســيطرت في فــترة الســتينات وآفــاق الســبعينات من القــرن الماضي موضة الهيكلية، و خاصة في الميدان اللغوي ، و كان القرمادي في دروســه فــارس هــذه النظريــة، يقــدمها لطلبتــه، كمـا يقـدمها في محاضـراته في المراكـز الثقافيـة، و في المجلات على أنهـا نظريـة من بين النظريات التي تحاول أن تفسر الظواهر اللغوية .

اللغة كما يقول القرمادي مرتبطة بالإنسان، و الإنسـان بالطبيعـة و الطبيعـة بـالكون ... و في صـلب كـل عنصـر من العناصـر المـذكورة عنيصرات مترابطة فيما بينهـا داخليـا (مثـل عناصـر اللغـة الصـوتية في علاقاتها فيما بينها ،و في علاقتها بعناصر اللغة الأخرى من صرفية

ولفظيــة و تركيبيــة ...) و خارجيــا (مثــل ارتبــاط عناصــر اللغــة اللفظيــة – أي مــا يســمى بــالمعجم – بعناصــر تطــور المجتمــع في المســتوى الاقتصــادي و العلمي و التقــني...) و بــذلك نفســر حســب القرمادي قولة سيبويه الألسنية فردينان دو سوسير المشـهورة : اللغـة إنما هي هيكل كل شيء فيه مرتبط بغيره .

و هكذا نرى أن فكرة ترابط العناصر داخـل الواقـع عنـد الهيكلـيين موجودة بعد في صلب القانون الأول من التفكير المـادي الجـدلي، هـذا بالنسبة للقانون الأول.

أما الثاني فهو أن كل شيء يتغير و يتغير باسـتمرار، على أن هـذا التغير يحدث بدرجات متفاوتـة في السـرعة، فقـد يبلـغ من البطء حـدا نظن معه غلطا أن الأشياء قارة جامدة لا حراك بها.

و القانون الثالث أن التغير في الكم ينتج عنه حتما تغير في الكيف ، تدخل اللغة اللاتينيـة القديمـة مثلا تغـيرات جزئيـة أولا تتـدرج بهـا إلى لاتينية القرون الأولى من العهد المسيحي ، حتى إذا بلغ تراكم التغيرات في الصـوت و اللفـظ و الـتركيب درجـة قصـوى انقلبت اللغـة اللاتينيـة وآلت إلى اللغة الفرنسية .

و أما القانون الرابع و الأخـير فهـو أن محـرك جميـع التغـيرات هـو تصارع الأضداد داخل المادة ، ذلك أن التنازع بين الأضـداد الـتي تتكـون منها كل مادة ، و كل واقع بشري وطبيعي هو الذي نسـميه في كلامنـا العادي الصراع بين القديم و الجديد، و الآفـل و البـاقي، و هـذا التنـازع إنما هو المحتوى الـداخلي الـذي تتكـون منـه عمليـة التطـور،أي عمليـة انقلاب التغـيرات الكميـة إلى تغـيرات كيفيـة، و كـذلك اللغـة يوجـد في صـلبها تناقضـات ناتجـة عن صـراع الأضـداد، و الأضـداد هنـا هي نزعـة الإنسان إلى الاقتصاد : أي إلى بـذل أقـل مجهـود ممكن مـع الوصـول وجوبا إلى أكبر مردود ممكن : أي بذل أقـل مجهـود ممكن من الطاقـة النطقية، و الوصول إلى أكبر درجة ممكنة من الوضوح في أداء البلاغ الـذي هـو الوظيفة الأساسية في كل لغـة، من ذلـك مثلا بـذل المجهـود في العربيـة للنطـق بحركات الإعراب في قولنا: قتل الصياد الأسد ،

وهو ملفوظ ممكن في العربية، وإسقاط تلك الحركـات في اللغـة الدارجـة في: مثل قتل الصياد الأسد ، و ذلك لأن الدال على وظيفة الألفـاظ هنـا هـو ليس أواخرها المعربة، و إنما موقعها من الملفوظ و مكانها منه .

هذه عينة من تحليل القرمادي للهيكلية، و كذا يصنع في جميع دروسـه مـع طلبتـه، و هـذا العمـق في التحليـل، و الدربـة على التفسـير و التعليـل ناتجـة عن تعلمه المتين في الصادقية وفي الجامعات الفرنسية، من ذلك كله استقام له منهاج ذو مرونة في التفكير، ومزاولة الموضوعات على اختلافها، منهاج هو ذوب إيغاله في الإحاطة بـالتراث العـربي الإسـلامي فلسـفة و أدبـا، كمــا يقــول منجي الشــملي رفيقــه و زميلــه في مجلــة التجديــد و في التدريس .

كنت واقفا أمام قاعة صالح القرمادي بالطابق السفلي بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، وتراءى لي في الرواق المؤدي إلى تلك القاعة رجل قادم نحوي ، لم تكن مشيته غريبة عني، ولكن العصا التي كانت بيده أفقدته مشيته العادية، ولما اقترب مني هتف بعنوان الأطروحة التي كنت قد أعددتها منذ أكثر من ثلث قرن،ثم تقدمت نحوه وعانقته طويلا، كانت فرحتى شديدة بلقياه،إذ لم أره منذ عدة أعوام، وشعرت في نفس الوقت بالأسى والحزن ، فقد عملت السنون فيه ما لذ لها وطاب، لم يدم اللقاء سوى دقيقة أو دقيقتين، ثم صعد الدرج واختفى عن ناظري.

هذا الرجل هو الأستاذ المنصف الشنوفي، أحد مؤسسي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بشارع 9 أفريل 1938، رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، أسمر اللون ، تعلوه مهابة ووقار، لين العريكة ، سهل المعاشرة، كان يعامل طلبته ، كما لو كانوا أصدقاءه، لا نذكر أنه غضب، أو قطب جبينه، كما يصنع بعض زملائه الذين يعاملوننا كأننا تلامذة صغار، بل كانت الابتسامة تلوح دوما على محياه، تمر الساعة والساعات، ولا نمل أو نضجر مما يقول، لأن ما يقوله يصدر عنه بكل عفوية وتلقائية، فلا يتكلف في الكلام ولا يتبجح أو يعلو بأفكاره عن مستمعيه، وبصفة عامة كان مثالا للتواضع، وحسن الخلق.

أذكر أنني كنت سجلت أطروحة في كلية ما، ولما أصبحت أنتمي إلى كلية الآداب أردت تحويلها إلى هذه الكلية، وطلبت من الأستاذ الشنوفي، وكان قاب قوسين أو أدنى من إحالته على التقاعد، فقبل الإشراف دون تردد، في حين تلكأ غيره، وقال هذا الأمر لا يعنيني، وطلب مني الأستاذ المنصف أن أوزع بعض النسخ على بعض الأساتذة للقراءة، وفعلا عملت بنصيحته، وسلمت نسخة من الأطروحة إلى الأستاذ جعفر ماجد الذي قبلها هو الآخر بدون أن يبدي أي اعتراض، وفي الأثناء قدمت طلبا للمجلس العلمي للكلية التي يهمها الأمر، فرفضت الطلب، ولم يبين لي أسباب هذا الرفض، وإن كنت على علم بها، المهم أن الأستاذ الشنوفي رمز للمربي الفاضل، وكل عالم لا يتعالى عن الغير بالضرورة، أما أنصاف الأساتذة فهم الذين يحتقرون عباد الله أو بالأحرى طلبتهم، وهم في العادة قصار القامة، وكل من اقترب إلى الأرض كثر شره، سنة الله في خلقه إلا القليل منهم.

لم تكن للأستاذ الشنوفي مؤلفات كثيرة، ولكنه إذا حقق مخطوطا، أو قدم لكتاب، أو كتب بحثا تشد إليه أنظار الباحثين، وتصبح كتاباته مرجعا يعتمده الباحثون في الحضارة العربية الحديثة، وخاصة مسألة النهضة والإصلاح بتونس، ويكتب غيره الكتاب تلو الآخر، ولا يشتريه إلا القليل، ذكر لي مدير دار نشر كان لها دور بارز في نشر

الكتب التونسية القديم منها والحديث أن أستاذا جامعيا نشرت له كتابا فلم تبع منه الدار سوى ثلاث نسخ طيلة سنة كاملة، وجاء يطالب بحقوق التأليف، بعد نشر الكتاب بمدة قليلة.

اهتم المنصف الشنوفي في أبحاثه بوسيلتين بارزتين ارتكزت عليهما النهضة العربية الحديثة وهما الطباعة والصحافة، وبهذا التخصص تسنى له أن يكون مديرا لمعهد الصحافة وعلوم الأخبار طيلة سنوات، وفي مدة إدارته لهذا المعهد ألقى الرئيس الحبيب بورقيبة محاضراته عن الحركة الوطنية.

ووجه الأستاذ الشنوفي اهتمامه إلى النهضة الحديثة بتونس، وأذكر أنه اختار موضوعا لطلبة المرحلة الثالثة بقسم العربية عنوانه (التفكير التونسي فيما بين الحربين) وقد أمدنا بنصوص ومقالات من بعض المجلات التي صدرت في تلك الفترة مثل البدر والفجر وغيرهما، مع التأكيد على رجالات تلك الفترة مثل إسماعيل الصفائحي وصالح الشريف ومحمد الخضر حسين، وغيرهم من دعاة الاستقلال في مرحلته الأولى.

وكان الأستاذ الشنوفي يعتقد أن النهضة العربية الحديثة لم تبدأ بغزو نابليون لمصر كما يرى المستشرقون، ومن سار على خطاهم من الدارسين العرب، لأن هذه الحملة ـــ كما يقول ـــ لم تترك أثرا يذكر في مصر، ثم في غيرها من البلدان العربية، وعنده أن هذه النهضة بدأت في الحقيقة مع حركة محمد بن عبد الوهاب.

ولئن ساد لدى دارسي النهضة الحديثة أن حركة الإصلاح بتونس قد تأثرت بالحركة الإصلاحية التي تزعمها الأفغاني ومحمد عبده ثم رشيد رضا، فإنه يرى أن بوادر الإصلاح والنهضة بالبلاد التونسية أسبق في التاريخ من الحركة التي تزعمها الأفغاني وعبده في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأعلق بإصابتها الأصيلة من حيث هي تونسية، ذلك أن العصابة الإصلاحية التي تزعمها الجنرال خير الدين والشيخ محمود قابادو عملت، درءا لتطاول الغرب على السيادة التونسية على تركيز التجديد والنهضة على هذه الدعامة، وهو أن لا سبيل للخروج من التأخر والتخلف إلا باسترجاع ما أضاعه الإسلام، وما اقتبسه عنه الغرب ـــ وهو سر عظمته وعزته ـــ أي العلوم الحكمية والرياضية، فلا نهضة للإسلام والمسلمين إلا باستعادة هذه العلوم، ولا سبيل إلى ذلك إلا باقتباسها من الغرب بالنقل والتعلم، فكان تأسيس المدرسة الحربية بباردو سنة 1840 الحلقة الأولى من سلسلة أعمال إصلاحية تدعمت وتأصلت فيما بعد ، فقد كان لخير الدين وقابادو الفضل في بناء اللبنات الأولى في صرح النهضة التونسية، فعلاوة على إنشاء المدرسة الحربية تأسست المكتبة الأحمدية (1840) وتم تحوير التعليم بجامع الزيتونة (1842) وتنظيم المحاكم الشرعية (1856) وصدور عهد الأمان(1857)

وتمكن خير الدين وقابادو من إنشاء المطبعة الرسمية وصحيفة الرائد التونسي(1860) ولما تبوأ خير الدين الوزارة الكبرى(1873 ــ 1877) أنجز جملة من المشاريع أهمها إنشاء المدرسة الصادقية.

هذه الأسبقية لتونس في مجال النهضة والإصلاح اتفقت مع ما كان يدعو إليه المصلح المصري محمد عبده، ولهذا بادر بزيارة تونس مرتين، كانت الأولى سنة(1884) والثانية (1903) وقدومه إلى تونس مرتين يدل على أن الرجل رأى في تونس وفي مصلحيها ما كان يرمي إليه من إصلاح وتقدم، بالاعتماد على التربية والتعليم بعد تجديد المناهج التربوية وإدخال العلوم التي بها نهض الغرب، وتطاول على الشرق، ولاعجب أن يلقي الشيخ محمد عبده درسا عاما في الجمعية الخلدونية على مناصريه في تونس يدعو فيه إلى مراجعة طرق التدريس، ومسايرة هذه الطرق للتطور التربوي، وكأنه يشير إلى الدروس التي تلقى في الأزهر والزيتونة، كما كانت تلقى أيام ابن عرفة وابن خلدون.

ولئن أشرنا أعلاه إلى أسبقية تونس في ميدان النهضة والتجديد إلا أن زيارة عبده إلى تونس، وخاصة الزورة الثانية، كان لها أبعد الأثر في النخبة المثقفة التي رعى نبتها المصلح خير الدين التونسي، فقد تبين لها أوجه الاتفاق والتقارب بين أفكار خير الدين وآراء محمد عبده، ووجدت في هذا الأخير نصيرا ومؤازرا أمام خصومهم من دعاة التمسك بكل ما هو قديم، وزعيمهم محمد النجار، ولسان حالهم مجلة (السعادة العظمى).

ولعل من أبرز النتائج لزيارة عبده الثانية الحملة التي تزعمها علي بوشوشة على صفحات جريدته (الحاضرة) ضد المناهج العقيمة المتبعة في التدريس بجامع الزيتونة، ومن إهمال لكثير من المواد التي تعتبر أساسية في كل تعليم ديني، وخاصة منها تفسير القرآن، فقد كان الاهتمام، كل الاهتمام بعلمين هما النحو والفقه، والرجوع في تدريسهما إلى الشروح والحواشي، وخاصة علم الفقه ألذي يعود فيه المدرس إلى أسفار ومجلدات حبرت في عصر الجمود والتخلف، وتهتم بمسائل تافهة لا علاقة لها بواقع المسلمين ومشاغلهم، وقد نشرنا مقالات بوشوشة حول حالة التعليم بجامع الزيتونة في عصره في كتابنا علي بوشوشة حياته وآثاره.

وعلى كل فإن كفاح الشيخ محمد عبده منذ انفصاله عن الأفغاني التقى في صعيد واحد مع كفاح العصابة الإصلاحية التونسية التي بقي عملها امتدادا لدعوة خير الدين وقابادو، فسعوا جميعا إلى تحقيق الهدف الأسمى، وهو تحرير الفكر الإسلامي من ربقة التقليد، وتمكين الشعوب الإسلامية ــ عن طريق التربية والتعليم وإقحام عناصر قوة الغرب ــ من الحوار الحق مع العصر الحديث.

وبقي أن نشير في هذه الخواطر إلى تحقيق الأستاذ الشنوفي لكتاب خير الدين " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" وخاصة المقدمة التي أرخ فيها لحياة خير الدين والانجازات التي قام بها منذ أن أصبح مسؤولا في الدولة التونسية، ثم تحليله لمقدمة خير الدين لكتابه المذكور.

يعتقد الأستاذ المنصف الشنوفي أن منطلق التفكير الإصلاحي عند خير الدين تونسي، مرجعه وضع البلاد التونسية في منتصف القرن التاسع عشر، إلا أنه يتنزل في محبط عثماني، باعتبار أن تونس جزء لا يتجزأ من الخلافة العثمانية، ولقد ركز إصلاحه على قضية جوهرية، وهي ضرورة الاقتباس من الغرب المتحضر لا المستعمر، وتبرير ذلك شرعيا، فلئن بات عنده من الثابت أن تحدي الغرب الاقتصادي أصبح أمرا مستحيلا فإنه ما زال يعتقد، وهذا هو برنامجه أن العالم العربي الإسلامي غير مستعد لأن يدمج إدماجا، وأن يغزى عقائديا، لذلك سيطرت على تفكيره مشكلة الإصلاح من الباطن، لا من الخارج، وإحياء القيم الإسلامية السرمدية كالشورى والحرية والعدل، ونظام الحكم الذي جاء عن الشريعة الإسلامية، وانقلب إلى حكم استبدادي مطلق أدى إلى الخراب، والتأزم المجحف، فكان نداؤه موجها أولا وبالذات إلى زعماء الشعوب العربية الإسلامية، خاصة منهم رجال الدين الذين تواطؤوا مع رجال السياسة على إقرار نظام الحكم المطلق.

واستنتج الشنوفي من خلال تحليله لرحلات خير الدين إلى أوروبا تعلق صاحب أقوم المسالك... بوصف المؤسسات السياسية والاقتصادية الأوروبية، وحرصه على تقييد دخل ميزانيتها وخرجها، فهو التونسي المبهر بالتوازن الاقتصادي الغربي، والملتاع مما تردت فيه بلاده وغيرها من البلدان العربية الإسلامية من أزمات مالية اقتصادية، وأدت بخير الدين تجربته التونسية البحتة إلى الاقتناع ــ شأنه في ذلك شأن المصلحين التونسيين في منتصف القرن التاسع عشر ـــ بأن رأس الداء كامن لا في عوادي المناخ والأوبئة، وإنما في نظام الحكم المطلق المسلط على البلاد ، ذلك النظام الذي فتح باب البلاء على مصراعيه للتسرب الاقتصادي الأجنبي إرضاء للشهوات، وتشبها بالعظماء، وميلا إلى الإسراف

إن أول ما لفت انتباه الأستاذ الشنوفي في المقدمة التي كتبها خير الدين لكتابه المذكور هو أنها تحليل ذاتي للحضارة الإسلامية، فخير الدين في حديثه عن الحضارة العربية الإسلامية، وفي إحالاته على الحضارة اليونانية والرومانية والأوروبية يعتقد اعتقادا راسخا أن الرابط الذي يربط بين كل هذه الحضارات إنما هو التمدن، وفي هذا المحيط تنزلت لديه قضية إصلاح نظام الحكم بالبلدان العربية الإسلامية،

وقضـية الاقتبـاس من الغـرب في القـرن التاسـع عشـر، بالنسـبة إلى مجتمع أقرّ أهله وغير أهله بما هيمن عليه من تراجع وانحطاط وجمود.

ومنذ الصفحات الأولى من المقدمة، كما يذكر الشنوفي يبسط خير الدين هذين المشكلتين:

" إن الباعث الأصلي على ذلك ــ يعني تأليف كتابه ــ أمران آيلان إلى مقصد واحد: أحدهما إغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية، وتنمية أسباب تمدنها بمثـل توسـيع دوائـر العلـوم والعرفـان وتمهيد طرق الثروة من الزراعـة والتجـارة وتـرويج الصـناعات ، ونفي أسباب البطالة، وأساس جميع ذلك حسن الإمارة، المتولـد منـه الأمن ، المتولد منه الأمـل، المتولـد منـه إتقـان العمـل المشـاهد في الممالـك الأوروبية بالعيان، وليس بعده بيان"

" ثانيهما تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين من تماديهم في الإعـراض عمـا يحمـد من سـيرة الغـير الموافقـة لشـرعنا ، بمجـرد مـا انتقش في عقـولهم من أن جميـع مـا عليـه غـير المسـلم من السـير والـتراتيب ينبغي أن يهجـر، وتـآليفهم في ذلـك يجب أن تنبـذ ولا تـذكر، حتى أنهم يشـددون الإنكـار على من يستحسـن شـيئا منهـا، وهـذا على إطلاقه خطأ محض"

حدد خـير الـدين منـذ البدايـة برنامجـه الإصـلاحي ، وهـو حسـن الإمارة، وضرورة الاقتباس من الغـرب في حـدود الشـريعة الإسـلامية، كما نص بداية على من سيضطلع بانجاز هـذا البرنـامج من المسـلمين، وهما رجال السياسة وأهل العلم، داعيـا في الآن نفسـه الأوروبـيين إلى الكف عن تشككهم في حسن استعداد المسلمين للنهضة والإصلاح.

ونتيجة لتجربة خير الدين التونسية،كما يقول المنصف الشنوفي ولإيمانــه الراسـخ بضـرورة الارتبـاط بالخلافــة العثمانيــة، ولرحلاتــه ومشاهداته بالبلدان الغربية المختلفة انتهى صاحب أقوم المســالك في معرفة أحوال الممالك إلى التساؤل عن أسباب تأخر المسلمين وتقـدم الغربيين، فعالج في مقدمة كتابه مشاكل ثلاثا حاول أن يجد لهـا حلـولا، وهي ضرورة الاقتباس عن الغرب المتحضر، مدعما ذلك بالحجج النقلية والعقليــة ، ووجــوب تغيــير نظــام الحكم المطلــق الســائد في بلاد المسلمين على أساس إحياء القيم الإسـلامية الخالـدة، وجعلهـا ملائمـة للعصـر، مـع الإلحـاح على أن هـذين الاصـطلاحين يرميـان إلى غـرض أسـمى وأهم، وهـو ضـرورة الخـروج بـالمجتمع العـربي الإسـلامي من مجتمع تقليدي متقادم مهدد بالانهيار والابتلاع من قبل الغرب المستعمر إلى مجتمع رأسمالي عصري أصيل.

ورغم ما كتب عن خير الدين، وعن مقدمة كتابه بالخصوص يبقى مـا كتبـه الأسـتاذ المنصـف الشـنوفي عن الـوزير المصـلح في المحـل

الأرفع، وليس من خطتنا في هذه الخواطر أن نقيم أبحاث رجل أمضى سني حياته في التدريس والبحث،واهتم بتاريخ تونس وحضارتها، وإنما أردنا أن نقول كلمة طيبة في رجل أحببناه وتعلمنا على يديه الكثير، مد الله في أنفاسه.

محمد الهادي المطوي

معتدل القامة ،مع ميل إلى البدانة ، أبيض البشرة ، وسيم يضع نظارة على عينيه لا تفارقه ، في صوته بحة ، لم تمنعه من أن يكون فصيحا بليغا، يعتد برأيه، و يتمسك به،ولا يتراجع عنه، صاحب أنفة و مهابة، عزيز النفس، أصله من المطوية بالجنوب التونسي ، وبها ولد سنة 1936 ،ثم انخرط في التعليم الزيتوني بتونس، و إثر حصوله على التحصيل (الشعبة العصرية) توجه إلى دمشق أولا، ثم أكمل تعليمه العالي في الجامعة اللبنانية،

وتخرج منها حاملا للإجازة في اللغة العربية و آدابها .

التقينا على معاهد الدراسة بالمرحلة الثالثة من التعليم العالي، وعرفت فيه أول ما عرفت فيه الجد و المثابرة و الاجتهاد إلى درجة الإجهاد، وكنا لا نفترق إلا لماما، نلتقي إما بالمكتبة الوطنية، أو بأحد المقاهي للمراجعة و تجاذب أطراف الحديث حول الأدب

والثقافة، وكنا مولعين بالملاحق الثقافية الأسبوعية لبعض الجرائد الصادرة بتونس أو بالمشرق العربي، ولا تفوتنا مجلة تظهر هنا وهناك، ولا ننسى الكتب الشهرية التي كنا ننتظرها، و نبحث عنها من كشك إلى آخر، و خاصة سلسة (عالم المعرفة) التي تصدرها دولة الكويت .

وكان مما يجمعنا و لا يفرقنا التوجه المشترك إلى دراسة القضايا الحضارية، و خاصة منها الحديثة و المعاصرة، ففي حين انغمس هو إلى الأذقان في دراسة أحمد فارس الشدياق وآثاره ، توجهت أنا إلى دراسة بعض القضايا الحضارية في تونس أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وللأستاذ محمد الهادي المطوي ولع غريب بالبحث و التنقيب، ومتابعة ما يجد من أبحاث، إن في مجال بحثه أو في غيره، وله مكتبة زاخرة بالوثائق النادرة، إن في تاريخ تونس أو في غيره، و كثيرا ما يبذل المال الوفير من أجل الحصول على كتاب أو وثيقة، وقد ربط صلات مع بعض الباحثين في المشرق العربي، و استفاد منهم في إعداد أطروحته عن الشدياق، فقد كانوا يمدونه بالكتب والوثائق التي يصعب الحصول عليها في تونس.

إذا عنّ له أن يبحث في موضوع ما، حشد له كل الوثائق والمراجع المتوفرة لديه، ويطلع على أحدث ما كتب حوله، ويلجأ في بعض

الأحيـان إلى الكتب الفرنسـية والانجليزيـة، مثـل الهيكليـة أو الهيكلانيـة والبنيويـة، وهـو اتجـاه في النقـد جديـد، عرفتـه كليـة الآداب والعلـوم الإنسانية، خلال سبعينات القرن الماضي، بفضـل دروس الأسـتاذ صـالح القرمادي، ومحاضراته خارج رحاب الكلية.

هذا الاتجاه في النقد يريد الأستاذ المطوي التعرف إليه، فيـدرس ما كتبه الهيكليون أنفسهم، وإذا كتب بحثا او دراسة تنهال عليـه الأفكـار انهيالا غريبا، فالرجل يحيط بموضوعه من جميـع جوانبـه، وقـد يقـال إن هـذا الإسـهال في الكتابـة، وتحريـر العشـرات من الأوراق والصـفحات مظنة الوقوع في بعض الأخطـاء أو السـطحية، ولكن الأسـتاذ المطـوي دقيق فيما يكتب، ثبت فيما ينشر، عميق فيما يحبر.

وليس الأمـر خاصـا بالمواضـيع الـتي يكتب، فحـتى رسـائله الـتي يكتبها إلى أصـدقائه وزملائـه طويلـة، وسـنثبت في آخـر هـذه الخـواطر إحدى رسائله.

والأستاذ المطوي من أعـز أصـدقائي، ومن أقـربهم إلى نفسـي، فقد تعرفت إليه سنة 1978، وبقينا على اتصال لا ينقطع إلا للضــرورة، ولكن الرجل أصبح كثير الهواجس والظنون وما زال، وهي حالة نفسـية لم أعرفهـا عنـه من قبـل، وبعـد أكـثر من عشـر سـنوات انقطـع حبـل الاتصال بيني وبينه، وسبب هذا الانقطاع هو كثرة هواجسه وشكوكه، إذ أصبح يشك ويظن أنني أنقل أخباره إلى الغـير، وأذكـر أنـني سـألته عن زميل لي يعمـل معـه في نفس المؤسسـة، فانـدفع يقـول، وقـد احمـر وجهه من شدة الغضب: لماذا تسأل عنه، تريـد أن تخـبره بـأحوالي، ثم قـال:لقـد عـرفت أنـك تبلـغ أخبـاري أولا بـأول إلى زملائي في كليـة القيروان، وأنت الذي تقول لهم: إنني اشتريت الكتاب الفلاني والكتـاب الفلاني من معرض تونس للكتاب.

كنت اسـتمع إليـه ولم انبس ببنت شـفة، وأنـا أقـول بيـني وبين نفسي: هذا الهادي الذي أعرفه، ثم رأيت الرجـل ينفجـر بالبكـاء، ونحن نمشي في نهج المنجي سليم المكتظ بالمارة، فأشـرت عليـه بالـدخول إلى عمارة، ريثما يهدأ قليلا، ويعود إلى حالته الطبيعية، ثم واصلنا سيرنا فجلسنا في مقهى قرب حديقة ثامر، ولمـا انتهيت من احتسـاء القهـوة التي شربتها على عجل، قمت وودعته وانصرفت.

في الطريق إلى المنزل كنت أحدث نفسي، هل يعقـل أن أقـول للناس إن الهادي المطوي اشـترى كتبـا، والكتب الـتي اشـتراها يعرفهـا كل أساتذة العربية في التعليم العالي وفي غيره، والحق أنني لم اتصل بأحد ممن أعرف يعمل معـه في نفس الكليـة، ثم أنـه ليس من عـادتي أن أذيع أسرار الناس، ولو أن الحديث عن مثل هـذه الكتب ليس سـرا، ثم لا يخطر ببال الإنسان أن يقـول : فلان اشـترى العمـدة لابن رشـيق

وديــوان المتنــبي... وقــررت بيــني وبين نفســي أن أتجنب لقــاءه في المستقبل، وكم حزنت على فراقه.

كان كثير الظن بالناس، من ذلك أنه حدثني أن بعض أصــدقائه ممن له شهرة في عالم الثقافة والتأليف رآه، ولم يكلمــه، أو لم يحيــه، قلت له : أنت رأيته، أما هو فلم يرك، ولو رآك لحياك، فماذا بينك وبينه حتى لا يحييك، وكيف يراك، وهو في الرصيف المقابـل، وتفصـل بينكمـا الأشجار والسيارات، اتق الله يا رجل.

ووقع بينه وبين مديرة المعهد الثانوي الذي كان يدرّس به قبل إن ينتــدب بــالتعليم العــالي خلاف، فأغلــظ لهــا القــول، وهي المــرأة اللطيفة، وقال لها لفظة يحسن بي أن لا أذكرها هنا في هـذه الأسـطر، ووصل الأمر إلى سلطة الإشراف، وتردد كثيرا على الإدارة المعنية، ولا أدري ماذا وقع في آخر الأمر.

ووصلت به الشـكوك والظنـون أنـه عنـدما لا يجـد الكتـاب في مكانه في مكتبته يتهم أبنـاءه وزوجتـه بإخفائـه، فيثـور ويغضـب، وتنـال زوجته من هـذا الغضـب والثـورة الشـيء الكثـير، ثم عنـدما يعـثر عليـه يقول: لقد أرجعوه بعد أن أخفوه.

ولم أجد بدا من أن أقول له: السبب في هذه الهواجس والظنون التي تنتابك، والشكوك التي عكرت صفو حياتك، هـو هـذا الـذي يسـمى أحمد فارس الشدياق، وفعلا فقد أمضـى الصـديق العزيـز بيـاض نهـاره وسواد ليله، وهو معتكـف يجمـع كـل مـا كتب عن الشـدياق، فلم يـترك وثيقة أو مرجعا أشار من بعيد أو من قريب إلى الشدياق إلا ورجع إليه، وكــذلك المراجــع المســاعدة إن في اللغــة، أو في المنــاهج النقديــة المعاصرة، أو في غيرها.

ووجدته منذ سنتين في مكتبة كلية العلوم الإنسـانية والاجتماعيـة يبحث ويدرس كعادتـه، فـأردت أن تعـود الميـاه إلى مجاريهـا، وتحادثنـا طويلا، وأخيرا أخذت رقم هاتفه الجوال، وبعـد يـومين أو أكـثر أردت أن أن أسـأل عن حالتـه الصـحية، فانـدفع يقـول لي، ويكـاد صـوته تخنقـه العـبرات: أوصـلت الحـديث الـذي دار بيننـا في مكتبـة الكليـة إلى فلان وفلان، ولا أدري ما هـو الحـديث الـذي أوصـلته إلى من ذكـر، وكـل مـا أتذكره الآن أنه كان حديثا عاما لا علاقة له بأي شخص كـان، وقلت لـه: أما زالت تلك الظنـون والشـكوك تهيمن على نفسـك، وأنهيت الحـديث عند هذا الحد، ولكن محبتي له، والسؤال عن صحته من الغير لم تنقطع حتى هذه اللحظة.

ومنذ شـهرين ـــ ونحن الآن في أكتـوبر2010 ـــ رن الهـاتف فـرفعت السـماعة، فسـمعت صـوته يشـتمني ويسـمعني مـا أكـره من الكلام، لماذا؟ لأنني حرمته من جائزة كان يمكن أن يتحصل عليهـا لـولا معارضتي أنا له، ولم يتركني أقول له:عن أي جائزة تتحدث؟ وما دخلي

أنا في توزيع الجوائز، وكنت أظنـه أخطـأ رقم الهـاتف، ولكنـه تـبين انـه يخاطبني بالفعل، ثم أرجع السماعة إلى مكانها.

كان هاجس البحث يلازمه في يقظته و منامـه ، فقـد حـدثني أنـه عندما يستيقظ ليلا تنثال عليه الأفكار، و هو بين يقظـة و غفـوة، و كـان يتمنى لو استطاع أن يسـجل هـذه النوبـات الفكريـة الـتي لم يصـادفها عندما يجلس إلى مكتبـه لتحريـر مـا يريـد من أبحـاث و دراسـات، ومـا أكثرها بالنسبة إليه .

وللأستاذ محمد الهادي المطوي مؤلفات كثيرة نذكر منها محمد الحليوي ناقدا و أديبا ،

والرؤية النقدية عند محمد العروسي المطوي، و الخطاب الـروائي في البحر ينشر ألواحه ،

وأحمد فارس الشدياق حياته و آثـاره و آراؤه في النهضـة العربيـة الحديثة ، هذا بالإضافة إلى عشرات المقالات و الدراسات التي نشــرت في المجلات، أو ألقيت في الندوات العلمية.

بحثه عن الشدياق فريد في بابه ، فلا أتصور أن لبنانيا أو شــرقيا كتب أو سيكتب مثلـه ،فالكتـاب في مجلـدين يبلغـان معـا حـوالي ألـف صـفحة، وليســت العـبرة بـالكم، وإنمـا العـبرة بـالمحتوى ،فقـد تتبـع المطوي خطوات الشدياق الإنسان و الكـاتب و المفكـر، و اقتفى أثـره في البيئــات الشــرقية و الغربيــة، إلى أن ألقى عصــا الترحــال في الآستانة، و هو في كل ذلك يصلح أخطاء من كتبوا عن الشدياق، و ذلك بعد التمحيص و المقارنة بين الوثائق

والمراجع المتوفرة لديه، و يمكن أن نقول : إن الأسـتاذ المطـوي قد سد الباب أمام كل من يروم البحث في شخصية الشدياق و آثـاره ، و المعلوم أن الباحث يثير مشاكل، و يفتح آفاقا جديدة، و ينرك المجـال لمن يأتي بعده.

و ليس من هــدفنا في هــذه الأســطر أن نلم بمــا جــاء في هــذا الكتاب ، فذلك دونه خرط القتاد، كما يقول العرب، كل ما نسـتطيع أن نفعله هو اختيار جانب من حياة الشدياق في بيئة معينـة، ولتكن إقامتـه بتــونس،وحــتى هــذا الجــانب خصــص لــه المطــوي أكــثر من عشــرين صفحة. .

يذكر الأستاذ المطوي أن الشدياق زار تونس ثلاث مرات، الأولى في صائفة 1841

وكان سائحا، و قد نصحه أحـد التونسـيين بمـدح أحمـد باشـا بـاي الأول لأنه (أكرم و أنعم ،

وأكثر الناس إلى الجود و المعروف)

و لما عاد إلى مالطة نظم قصيدة طويلة في مدح البـاي المـذكور، و مما جاء فيها :

طابت بتونس لي في الدهر أوقـات للحـظ عهـــــد و للأفراح ميقات
وفزت فيهـا بمـــــا قـد كنت أزعمـه وهمـا من الخـط حتى الخط إثبات
وراق لي كل شيء كان لي كدرا إذ راق دهري بهــا و الدهر مرآة
لم أعلم الجهل إلا بعــــد غبطتها ورب ضـــــــر أبانته الملذات
ظننت أن من جراهــا الــدهر ســالمني ولكن لــه لم تــزل للحرب ثورات

وعندما سمع أحمد باشا باي الأول هذه القصيدة أعجب بها ، و بعث للشدياق،و هو بمالطـة هديـة من المـاس تضـن بهـا الملـوك على ندمائهم، و معها رسالة من الوزير مصطفى خزندار.

وهكذا يسرت له هذه الزيارة السياحية التعرف إلى أمراء تونس و رجالاتها و أهلها .

أما الإقامة الثانية فقد كانت عقب عودة أحمد باشا باي الأول من فرنسا، فقد سمع الشدياق بأخبار الزيارة، و ما قـام بـه هـذا البـاي من مبرات و توزيع أموال على فقراء باريس

ومرسيليا، فطمع هو الآخر في كرمـه، فنظم قصـيدة على منـوال قصيدة البردة لكعب بن زهير في مدح الرسول صلى الله عليه و سلم، و لما وصلت هـذه القصـيدة إلى البـاي غضـب هـذا الأخـير لمـا علم أن القصـيدة هي معارضـة لقصـيدة كعب بن زهـير المعروفـة ، وطلب من ابن أبي الضياف تمزيقها ، فقال له بعد قراءتهـا نمزقهـا، فحلـف البـاي بالله لا نسمعها و لا يسمعها أحد من خاصتي، وبقي كمـا يقـول ابن أبي الضياف يستعيذ بالله أن يعـارض مـدح المصـطفى بمدحـه، مـع أنـه لا محظور في ذلك.

ومع ذلك فقد أكرمه الباي غاية الإكرام، إذ استقدمه هو وعائلته في بارجة حربية معززا مكرما، في أبهة تليق بالملوك، وكبار الساسة لا بالشعراء، وكافأه بعشرة آلاف فرنك، وأنزله ضـيفا في دار أمـير البحـر بحلق الوادي، وأغدق عليه رزقا عميما، ثم انتقل إلى العاصـمة، وهنـاك حظي بتقبيـل يـد البـاي، ونـال منـه الصـلات الـوافرة، والتقى برجـالات العلم والفضل في تونس، واستعمله الوزير الأكبر مصطفى خزندار عينا له، ليطلعه على كل ما يقال عن تونس، إن من بعض الأشخاص، أو من الصحف في مالطة، على أن يتقاضى عن ذلك أجرة يجريها عليه الوزير المذكور.

أمـا الاقامـة الثالثـة(1857 ـــ 1859) فكـانت بإيعـاز من خـير الدين الذي التقى به الشدياق في باريس ، ودعاه إلى الإقامـة بتـونس، وذلك بعد أن سمع منه قصيدة في مدحه، يقول فيها:

ليس النسيب وإن خلا من ديني إن جئت أمـــــدح خير خير الدين

فخر الورى والدين والدنيا معا وثناء كل مصور مـــــــن طين

لو كان في العصر الخوالي مثله ما استأنفوا في الوصف مدح العين

تلقى به غـــــر الشمائل نورها يلقي عليك بلاغـــــــــة التبيين

وافى ودهري داهـــــري عابس يعيا علي ولات حيـــــــن معين

فرأيت مــــن لألاء غرته سنا بشـــر وبشرى للشجي المحزون

ويبدو ان الشدياق كان في نيته أن يشرف على صحيفة (الرائد التونسي) وكانت المطبعة قد أعدت لهذا الغرض، إلا أنـه لمـا قـدم إلى تـونس كلـف بوظيـف في حلـق الـوادي في ديـوان الإنشـاء بـوزارة الخارجية، وهو العمل الذي كان يقوم به لمـا كـان يراسـل خزنـدار بمـا يكتب عن تونس في الخارج، ولعلـه العمـل الـذي اتفـق فيـه مـع خـير الدين وحسين، وقد اسـتبعد الأسـتاذ المطـوي أن يكـون خـير الـدين أو غيره وعد الشدياق بالعمل في جريدة (الرائد التونسي) وحتى إن وعــد بذلك فلم يتحقق من ذلك للشدياق شيء، لقـد كـان الرجـل يؤمـل في وظيفة سامية في الدولـة، وإذا بـه يحظى بخطـة ضئيلة بحلـق الـوادي التي كان أغلب سكانها من اليهود في ذلك العهـد، فرضـي في البدايـة، ريثما تجود عليه الأيام بوظيف آخر، ولكنه ترك وشأنه، فـأحس بالضـجر والغبن، لأن الخطة الـتي أنيطت بعهدتـه كـانت دون مواهبـه وأطماعـه، فما كان منه أن غادر تونس، وهو يردد واليأس يغمره:

ماذا جنيت وما جمت أجدادي حتى غدا حبسي بحلق الوادي

لقد كره الإقامة بحلق الوادي، خاصة بينما يجد نفسه جارا لليهود:

مجاورة اليهود غدت نصيبي بحلق الواد والسكنى اضطرار

وقالوا هـــــل ترى فينا خيارا فقلت خيـــــــــاركم فيه الخيار

وبعد أن كان يمدح تونس ورجالاتها أصبح يهجوها هجاء صارخا كشف به عن المرارة التي كان يتجرعها، والهموم التي كان يغص بها، فنظم قصيدة مطولة جاء فيها:

يا عيشـــــــــة مستنكره　　　　في بلـــدة مستقـــــــــذره
ما لأذأن ترى من روضة　　　　فيها ولا من شجـــــــره
إلا غبـــــــــــــارا ثائرا　　　　في الصيف بئس الغبره
وفي الشتـــــــــاء وحل　　　　تغوص فيه البقـــــــره
من حيـــــــــوان ميت　　　　وبئـــــــــــــر للعذره
وكل دار عنـــــــــدها　　　　مزبـــــــــلة مجمهره
تجمـــــــــع لحما منتنا　　　　على عظـــــــام نخره
أدار حي هـــــــــي أم　　　　للمالكيـــــــــن مقبره

الى أن يقول:

لو كان منــــكم زلـة　　　　كـانت لكم مغتفـــــره
لكنها تـــــــواردت　　　　مـــــن غيكم مكرره
فما لكم مـــن بعدها　　　　معـــــذرة أو مغفره

وقد كان لهذه القصيدة الهجائية التي انتشرت خاصة عند الأجانب، وأخذوا يتندرون بها استهزاء بأهالي تونس، وكان لها تأثير في نفوس التونسيين الذين كبر عليهم أن يقول الشدياق في بلادهم مثل ذلك القول، وقد أكرموه وقت الشدة، واحتضنوه وقت الضياع، ورد على هذه القصيدة الكثير من التونسيين، ومن هؤلاء محمود قابادو الذي قال في الشدياق:

أضحوكة للسخره　　　　جاءت من ارض الكفره
قرد يسمى فارسا　　　　يهوى ركوب الكمـــره

وشارك قابادو في هجو الشدياق الجنرال حسين وسالم بوحاجب وحميدة ابن الخوجة، ومهما يكن من أمر فإن الشدياق غادر

تونس ملبيا دعـوة السـلطان العثمـاني الـذي ألحقـه بـديوان الترجمـة، وتولى تصحيح بعض المطبوعات.

أما اعتناقه للإسلام في تونس فقد أرجعه المطـوي إلى توسـعه في دراسة الإسلام، وتضلعه في أمور هـذا الـدين إلى درجـة أنـه أصـبح من كبار العلماء، يحضر مجالسهم، ويدلي برأيه في المسـائل العقديـة، ولعل إسلامه كان نتيجـة للجـدل الـديني مـع شـيخ الإسـلام بتـونس، ثم استعداده للدخول في الإسلام قبل حلوله بتـونس، ولعـل إسـلامه كمـا يقول عبد الغني حسن كان نتيجة لتبحـره في علـوم الأديـان، ودراسـته اللاهوت المسـيحي، واطلاعـه على عقائـد الإسـلام، ومعايشـته لأحـوال الأمم الإسـلامية والمسـيحية في الشـرق والغـرب على حـد سـواء، وتسمى باسم احمد فارس الشدياق، بل أضيف إلى إسمه لقب(الشيخ) الذي اشتهر به في العالم العربي الإسلامي، وتكنى بأبي العباس.

ولئن أرجع المطوي إسلام الشدياق إلى سنة 1857 فإن السـائد أن الشدياق ربما أسلم في عهد أحمد باي، وتسمى باسـمه، وذلـك إثـر مدحه بالقصيدة التي نظمت على منوال (بانت سـعاد) لكعب بن زهـير، كما ذكرنا أعلاه، ولكن المطوي لم يتعرض إلى هذه المسألة، ربما لأنـه لم يجد سندا يؤيدها.

بيد أن صلة الشدياق بتونس لم تتوقف، فقـد أعـانوه ماديـا، وهـو بالآستانة على طبع رحلتيه(الواسطة في أخبار مالطـة)و(كشـف المخبـأ عن فنون أوروبا) فقد تم طبعهمـا بتـونس1283/1867 وكـذلك الجـزء الأول من(سر الليال في القلب والإبدال).

وكان أن غفر له التونسيون زلتـه بهجـوه لهم، فمـدحوه وأشـادوا بنبوغه، وفضله على الأدب واللغـة العربيـة، ويتجلى ذلـك في التقاريـظ التي كتبها محمد الباجي المسـعودي وسـالم بوحـاجب، كمـا وقفـوا إلى جانبه في معركته مع جريدة (برجيس باريس)وظاهروه على ابن بلدهم سليمان الحرايري.

وفيما يلي الرسالة الموعود بها أعلاه

تونس 10 ــ 3 ــ 1985

الأخ الفاضل علي

تحية وسلاما

لعلك تستغرب من هذه الرسالة التي توجه إليك، والحال أنه لم يمض على افتراقنا سوى يوم واحد، أو أقل، إذا حسبنا عـدد السـاعات، فأنا أود يا أخي أن تجلب لي معك في لقائنا القادم يوم الجمعـة صـباحا بقاعـة الـدوريات المجلـة الـتي حـدثتني عنهـا، أقصـد(الفكـر العـربي المعاصر)وسأعيدها إليك في أقرب وقت، أما إذا وجدت لي منهـا عـددا فانك تسـدي إلي معروفـا لا يقـدر، كمـا أرجـو إن كـان لـديك العـدد25 مارس أفريل 1983 أن توافيني به أيضا، لأنه خاص بعلم الدلالـة، وقـد

أرسل إلي هذه الأيام الأخ محمد كرزون السوري فهرسه، والغريب أنني لم أقرأه قراءة متأنية إلا أمس، وقد وجدت عنوانا هكذا: نصوص من التراث العربي، من أجل علم دلالة عربي،ولكم فوجئت بالعنوان، وأنا قد وضعت عنوانا بدراستي مثله،وهو نحو علم دلالة عربي، ومع أنني لم أكن راضيا عنه، وأود تغييره لأضعه في قسم المعجمية، كما حدثتك، فإنني سأتركه لو وجدته يتصل بنفس المنهج الذي سلكته.

أما إذا كان الشدياق أحد الذين اختيرت لهم نصوص دلالية فإن فرحي سيكون أبلغ، لأنه سيريحني من عناء تغيير منهجي في البحث... إنني أقول لك هذا، لأنني أخشى أن لا أجد هذا العدد الذي لا أملك إلا صورته من الأخ السوري، ووقتها سأضطر إلى طلب صورته كاملا من حلب...

والواقع أن هذا الأخ قد مدني بكتب أخرى، كما قلت لك سابقا،فله ألف شكر، وإن حضر إلى تونس في قابل الأيام فسأعرفك به، لأنه يقوم ببحث مع الأستاذ الشملي حول (القصة الإسلامية عند باكثير) وبعد هذا فعمّ تريد أن أحدثك، ونحن لم نفترق إلا لأقل من يوم.

لقد رأيتك أمس في حيرة شديدة، وحيرتك هي دليل وعيك، لأن الإنسان الواعي لا يقنع بما دون النجوم، إذا استعملنا تعبير سيد شعراء العرب وإمامهم أبو الطيب، ولولا طموحه ووعيه ما سمي بالمتنبي.

إذن خاطب جمعة شيخة واتفق معه، أعانك الله عليهم وعلى أمثالهم، ولا بد أن تنفرج الأمور يوما، نرجو أن يكون انفراجا في صالحك.

وإني لا أريد أن أثقل عليك بهمومي حتى لا أكون مثل صديقنا الشكاء، وكل همي الآن أن أنهي هذه الدراسة اللعينة التي أرهقتني إرهاقا أفسد علاقتي البشرية والمهنية، وحتى العائلية، إذ جعلني لا اهتم بالأبناء، وهم مصدر تعاستي الآن، لأن تأخرهم سيعرضهم إلى مصائر وخيمة، ولست أدري فأغلب الأساتذة يشتكون من أوضاع أبنائهم، فما السر يا ترى؟ هل انكباب آبائهم على الكتب جعلهم ينفرون منها، أو في الأمر سر آخر، نرجو حسن العاقبة.

أعيد لا تنس موعد الجمعة، وعول على أن تكون صلاة الجمعة بتونس، أقول هذا حتى لا تتعلل بها، فتحرمني من زيارتك الشائقة، وحكاياتك الطريفة، خاصة أنك ستنعم بصديقك الحمار، وأرجو أن لا يكون ذكري له دافعا للتأخر.

وعلى أمل اللقاء بك إليك تحياتي وسلامي.

من أخيك محمد الهادي المطوي

الطيب العشـــاش

طويل القامة، ضخم الجثة، أبيض اللون، وكان أسمر البشرة ــ كما قـال لي ـــ وذكـر أن إقبالـه على صـاحبة أبي نـواس هي السبب في تغيير بشرته، يـترفق في مشـيته،كأنـه أسـد المتنـبي، على عينيــه نظــارات، وعلى أذنيــه آلــة للســمع، مشــدودة إلى نظاراته، أجرى عملية جراحية على أذنيه فزاره زميـل لـه، وسـأله عن مدى نجاح العملية، فأجابه :

ـــ أه(بسـكون الهـاء) أي لم يسـمع مـا قـال لـه، فقـال لـه الزميل:

ــ نعم نعم، أي لم تكن العملية ناجحة.

يــذكر ذلــك، فينفجــر ســامعوه ضــحكا، وللرجــل حكايــات مضحكة، وله طريقة في تقديمها مما يجعل المستمع يضحك ملء

فيه، ولو رواها غيره لما أضحك أحدا،وهو رجل ضحوك، يشيع النكتة بين جلسائه، ويمكن أن يضحك المريض، وهو في النزع الأخير، إذا رافقته تأنس إليه، وتود أن تبقى معه أكثر ما يمكن من الوقت، وهو محدث بارع، يتحدث بصوت عال ، كأنه في الريف، وفي الريف يتحدث الرجل مع الرجل، أو حتى المرأة مع المرأة، وكل منهما في جهة بعيدة، قد تبلغ مئات الأمتار،وإذا كان من أهل الريف فإنه لا يعرف المجاملة، فكثيرا ما يغلظ القول لمحدثه، وربما يسمعه ما يكره، ولولا هذه الحدة والغلظة التي تعتريه في بعض الأحيان، فيثور ويغضب، لعد من ظرفاء العصر.

يعيش فريدا وحيدا في مسكن فخم كان يكتريه من قبل، أي منذ أكثر من عشر سنوات، بخمسمائة دينار، فلم يتزوج، كأنه معري زمانه، يغسل ثيابه وأواني الطبخ بيده، وفي بعض الأحيان تأتيه امرأة فتقوم بشؤون المنزل، وأشياء أخرى،فلو مات كما قال لي المرحوم جعفر ماجد لم يتفطن إليه أحد إلا بعد أيام،والزوجة عادة تبعد الرجل عن الوحدة والوحشة، وطالما نصحته بأن يتخذ لنفسه زوجة، وما أكثر الزوجات، لتكون رفيقة عمره، وإن لم يبق من هذا العمر إلا القليل، والأعمار بيد الله، فكان يعدني بأن يعمل بنصيحتي، ثم يشيع بين زملائه أنه تزوج، ولكنه لم يقع من ذلك شيء.

وسمعت الأستاذ محمد اليعلاوي ــ أطال الله في عمره ــ يقول لي مازحا، ونحن على أهبة الخروج من عشاء بأحد النزل، أقيم للأساتذة في آخر السنة الجامعية:

ــ لا تصاحب هذا (الفاسد)

ولم استطع أن أقول له:

ــ ولماذا أنت تصاحبه، وتزوره في بيته؟

وقد جعل من منزله مجلسا للمطارحات الأدبية،فإن أردت أن تعرف بيتا من الشعر من هو قائله، فالجواب تجده عند الطيب العشاش، ولا يبخل على زائريه بتقديم بعض المشروبات الفاخرة،ومن مسكنه يتابع أخبار زملائه في الكليات، وله مكتبة زاخرة بالكتب الأدبية، مثل كتب الجاحظ والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وغيرهما.

كنت أمشي معه في رواق الكلية فاعترضتنا طالبة، فاستوقفها، وقال لها: ما أجملك،فخجلت ومررت، وتركته يتحدث معها، وكان دائب الحديث عن عائشة بنت طلحة، ابنة الصحابي طلحة بن عبيد الله، أحد المبشرين العشرة بالجنة، وتعتبر لديه كأنها طالبة في الكلية،وقد كانت هذه المرأة غاية في الجمال، وقد تزوجت ثلاثة رجال أمهرها أحدهم ألف ألف دينار،وفي هذا

المهـر المشـط يقـول أحـد الشـعراء، كمـا ورد في أعلام النبلاء للذهبي:

بضـع الفتـاة بـألف ألـف كامـل وتـبيت سـادات الجيوش جياعا

وكانت لا تعرف الحجاب، تقابل الرجال، وتتحادث معهم،تقرأ الشعر وتتذوقـه وترويـه، ولهـا مجلس أدبي يـدعى إليـه الشـعراء والأدباء وأعيان القوم، أيقظها أحد أزواجهـا من نومهـا ليهـدي لهـا جواهر نفيسة ، فصـرخت في وجهـه، وقـالت لـه بـان النـوم أعـز عليها من هذه الجواهر التي ألقاها في حجرها.

وروى رجال الحديث عنها أقوالا تنسـب إلى الرسـول صـلى الله عليه وسلم.

وكثيرا ما يتفكه ويتحكـك على الـدين، فقلت لـه لمـاذا هـذا التحكك فقال: ولماذا أنت تسمعني؟

ويقول(كما جـاء في الأخبـار) سـاخرا أن حسـان بن ثـابت، وهو شاعر الرسـول، ذهب إلى النـبي وقـال لـه:كيـف يقـول اللـه تعالى:" والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلـون" فقـال لـه الرسـول على الفـور:" إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعـد ما ظلموا"

سألني العشاش عدة مرات، إن مباشرة أو عن طريـق الهاتف:ما زلت تصلي؟ فأقسم لـه أنـني انقطعت عن الصـلاة(أي بالناس)فيقول لي ضاحكا: لقد صليت كثيرا، فيكفي من الصلاة.

تولى رئاسة قسم العربية في دورتين، وكانت الدورة تـدوم ثلاث سـنوات، فكـان مثـال الرجـل الحـازم والمنضـبط، وكيـف لا يكون كذلك والرجل متفرغ لهذا العمل، فلا تشغله زوجة ولا أولاد، ولا هم يحزنون، وكان يعامل النساء، معاملة خاصة أقصد زميلاتـه في العمل، ، لغاية في نفسه، ولكنـه لم يتحصـل على شـيء ممـا يريـد، وكثـيرا مـا يسـاعد أصـدقاءه وصـديقاته في ترجمـة بعض النصوص، لأن الرجل بـارع في هـذه المـادة،وقـد رأيت لـه تعريبـا لقصيدة(حرية) للشاعر الفرنسي بول أيلوار، وقد ربط صلات مـع بعض المستشرقين فأولوه عنايتهم، ونشروا له بعض الفصول في (دائـرة المعـارف الإسـلامية)ونـاقش أطروحـة في أواخـر القـرن الماضي تحت عنوان" شعر التشيع حتى القـرن الثـالث الهجـري" تحت إشراف المستشرق الفرنسي شارل بلا، وهي آخر أطروحـة أشرف عليها هذا المستشرق ـــ الذي اشتهر بعنايتـه بالجاحـظ ـــ قبل مماته.

ونريد أن نعرّف ولو بإيجاز بجمعه لأشعار التشيع إلى القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي، وقد انطلق كعادة الباحثين مما توصل إليه غيره من باحثين عرب ومستشرقين، في جمعهم لأشعار التشيع من المصادر القديمة،وأشار إلى أن جمعه لا يعد كاملا، لأن المصادر ذات الأجزاء المتعددة طبعت بدون فهارس، والفهارس من شأنها أن تسهل عمل الباحثين، ومع ذلك فإن عمله إذا قورن بعمل من سبقوه إلى دراسة شعر التشيع قد حقق إضافة جديدة.

رجع العشاش إلى تسع وستين مصدرا، وهي معاجم لغوية، وكتب فرق، وكتب جغرافية، وكتب طبقات، وكتب أدبية، وكتب تاريخية، منها ما هو في التاريخ العام، ومنها ما هو في التاريخ الخاص، لا سيما ما يتعلق بتاريخ الشيعة، وأحصى دواوين الشيعة فكانت خمسا وأربعين ديوانا، وتوصل إلى جمع 229 مجموعة شعرية، منها المنسوب إلى شعراء معروفين، ومنه المنسوب إلى جماعة اشتهروا بمعاداة علي ومنه المنسوب إلى الهواتف والجن، ومنه المنحول، وقد وصل عدد الشعراء المتشيعين إلى مائتي شاعر من الرجال والنساء.

وأتى الأستاذ العشاش على ذكر الفحول من شعراء الشيعة، وهم كعب بن زهير، وحسان بن ثابت، وكثير عزة، والفرزدق، والكميت، وابو الاسود الدؤلي، وبشار بن برد، والسيد الحميري، ومن كبار اللغويين الخليل بن احمد، ومن اصحاب المذاهب الإمام الشافعي.

وبعد سرده لهذه الأسماء أبدى ملاحظتين أولاهما أن أغلب من نسبت إليهم أشعار في التشيع كثروا في المرحلة الأولى(114 شاعر) وكانوا في الأغلب ممن ناصروا عليا، وشاركوا إلى جانبه في حروبه، وخاصة في وقعتي الجمل وصفين، وهم بالتالي قد نظموا ما نظموا بالمناسبة وأثناء القتال، والملاحظة الثانية تهم درجة تشيع هؤلاء الشعراء، أو مدى ولائهم لعلي وذريته، وثباتهم على مبادئهم.

وتبين له بعد الفحص والدراسة والاطلاع على أخبار شعراء الشيعة أن الكثيرين ممن ثبتوا على المبدأ، هم من الشعراء المقلين المحاربين الذين ماتوا أثناء القتال، وأبرز هؤلاء الشعراء حجر بن عدي الكندي، أما بقية الشعراء، وهم من الفحول فقد عاشوا في عهد بني أمية وبني العباس، وكانوا موزعين في ولائهم لعلي وذريته وللأمويين والعباسيين، وفسر العشاش هذا الولاء المزدوج بما يعرف بالتقية، يتقي الشعراء المتشيعون شر بني أمية وولائهم وبني العباس وولائهم فيمدحونهم، رغم حبهم لعلي

وذريته، ومناصرتهم لهم،ولو بمجرد أشعارهم، ومن هنا سمى هـذا المجموع بشعر التشيع لا شعراء التشيع.

وتطرق بعد ذلك إلى أغراض هذا الشعر فوجد فيه أغــراض الشـعر العـربي الأساسـية، وهي الفخـر والهجـاء والرثـاء، ولكنهـا اصطبغت بالطابع الشيعي: حب آل البيت وشكوى حـالهم، وهجـاء بعض خصومهم، فهو شعر مذهبي، قد تكون لـه قيمـة وثائقيـة، إذ فيه الإلماح إلى حروب الشيعة، وقد تكون له قيمة إنسانية خاصـة في غـرض الرثـاء، وحكايـة آلام الحسـين بن علي بن أبي طـالب بالخصوص، وقد نجد في هذا الشعر بعض مبادئ الشـيعة العامـة، واعتقادات بعض فرقهم مثل مفهـومي الوصـاية والغيبـة والإيمـان برجوع المهدي المنتظر، ليملأ الأرض خـيرا أو عـدلا بعـد أن ملئت شرا.

ونقدم فيما يلي نمـاذج من شـعر الشـيعة، وخاصـة في طوره الأول، فهذا عدي بن حجر المحارب، ثم القتيـل في حـروب علي بن أبي طالب مع خصومه يقول:

أتاني رسول القوم مــــن آل مسكن   يقـول إمام الحق أضحى مسالما
فراجعت نفسي ثم قلت لها اصـبري   فـإن إمـامي كـــــــان بالله عالما
فبلغــــــــــه عـني أنـني كنت ناصـرا   لــه وعلى أعـــــــدائه كنت ناقما
أطاعنهم بالرمـــح في وهج الوغى   وأعلو بســيفي هامهم والجماجما
ونحن لمن سـالمت سـلم ومــــن يكن   عــــدوك نورده الغداة المراغما

ومن مقطوعاته التي كان يرتجزها منوها بالإمام علي:

يــــا ربنــــــا سلــــــــــــم لنــــا عليــــا   سلــــــــــــم لنا المهذب التقيا
المؤمــــــــــن المسترشــد الرضــيا   واجعلــه هــــــــــادي أمة مهديا
واحفظـــــــــــه رب حفظـــــك النبيـــــا   لا خطــــــــــل الرأي ولا غبيا
فإنــــــــــــه كـــــــان لنـا وليـا   ثم ارتضـاه بعـــــــــده وصيا

حجر بن عدي كان يقاتل من أجل ما رأى أنه الحق، وكــان الشيعة في طليعة المناوئين لظلم الحكام وجبروتهم إن في عهــد الدولة الأموية أو في عهد الدولة العباسية،وكانوا يقفون في صـف

المظلومين، واليوم يقف الشيعة إلى جانب طغاة العالم، يتخـذون منهم أصدقاء وأعوانا على تشريد شعب العراق وتقتيلـه وتجويعـه من أجـل الحكم، حكم بلـد قـد أرجعـه عـدو العـرب والعـراق إلى عصـور الظلام، وحـتى علمـاء الشـيعة رحبـوا بـالمحتلين، وفي مقـدمتهم المـدعو السيسـتاني، هـذا الـذي اسـتقبل بريمـر حـاكم العـراق الأمـريكي اليهـودي مرحبـا وقـال لـه متنـدرا، وهـو تنـدر سخيف: كلانـا لسـنا من العـراق،ورفض هـذا السيسـتاني أن يعلن الجهاد، رغم توسل حاكم عربي، بدعوى أن لا قـدرة للعـراق على مواجهة العدو.

خسئ هذا المدعي للعلم، فالمقاومة العراقية الباسلة تـذيق أسياده المحتلين كؤوس المنايا، وجنوده على وشـك الرحيـل من بلاد الرافدين، ويبقى الإثم على المدعو السيستاني، ونسـأل مـاذا يقول لرب العـالمين، يـوم لا ينفـع الأمريكـان والانجلـيز، وسـيرى بحول اللـه حجـر بن عـدي، كيـف سـيلقى هـذا المتعـالم مصـيره، فـيرمى في قعـر جهنم، وتلـك عاقبـة الخـائنين لـدينهم ووطنهم، ولكن هذا موضوع آخر.

حجـر بن عـدي هـذا المحـارب البطـل رثتـه هنـد بنت زيـد الأنصارية فقالت:

ترفع أيها القمـــــــر المنير ترفع هل ترى حجــرا يسير

يسير الى معاوية بن حـرب ليقتلـه كمـا زعـــــــم الخبيـر

ويصلبـــه على بابي دمشـق وتأكـل من محاسنه الطيــور

ألا يـا ليت حجـرا مـات نومـا ولم ينحـر كمــا نحــر البعير

تجبرت الجبابر بعـــد حجـر وطـاب لهـا الخورنق والسدير

وأصبحت البلاد له محولا كأن لم يحييها مـــــزن مطير

ألا يــا حجــر حجــر بــني عــدي تلقتــك السلامـــــة والسرور

أخاف عليك مت ـردى عليـا وشـيخا في دمشـــق له زئير

يـرى قتـل الخيـار عليـه حتمـا لــه من شـــــــر أمنه وزير

فإن تهلك فكل عميــــــــد قــوم إلى هلـك مــن الدنيا يصيـــر

وقال عبد الله بن هاشم مخاطبا معاوية لما أمره عمرو بن العاص بقتله:

معاوي إن المـــرء عمرا أبت له ضغينة صدر ودها غيـــــــر سالم

يرى لك قتلي يا ابن حــرب وإنما يرى مـا يـرى عمرو ملوك الأعاجم

على أنهم لا يقتلـــــون أسيـــــــرهم إذا كـانت منهم منعــــــــــة للمسالم

وقد كان منا يوم صفيــن نفــــــرة عليك جناهـا هاشـــــــم وابن هاشم

قضى الله فيها ما قضى ثمت انقضى رمادا مضى إلا كأضغاث حـــالم

هي الوقعة العظمى الـتي تعرفونهـا وكـل على ما قد مضى غيــر نادم

فإن تعف عني تعف عن ذي قرابـة وإن تــــــــر قتلي تستحل محارمي

جـاء في مـروج الـذهب للمسـعودي(ج3 ص3 ـــ 4 ط دار الأندلس بيروت 1416/1996) ما يلي:

وفي سـنة ثلاث وخمســين قتــل معاويــة حجــر بن عــدي الكنـدي، وهـو أول من قتـل صـبرا في الإسـلام، وحملـه زيـاد من الكوفة، ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفــة،وأربعــة من غيرها، فلما صار على أميال من الكوفـة يـراد بـه دمشـق أنشـأت ابنته تقول، ولا عقب له من غيرها(وأورد القصيدة أعلاه المنسوبة لهند بنت زيد) ولما صار إلى مرج عذراء على اثني عشــر ميلا من دمشق تقدم البريد بأخبارهم إلى معاوية، فبعث برجل اعور، فلما أشرف على حجر وأصحابه قال رجل منهم: إن صدق الزجـر فإنـه سيقتل منا النصف، وينجو الباقون، فقيل له : وكيـف ذلـك؟ قـال: أما ترون الرجل المقبل مصابا بإحدى عينيه، فلما وصل إليهم قال لحجر: إن أمير المؤمنين قد أمرني بقتلك يا رأس الضلال ومعـدن الكفر والطغيـان والمتـولي لأبي تـراب(يعـني الإمـام علي) وقتـل أصحابك، إلا أن ترجعـوا عن كفـركم، وتلعنـوا صـاحبكم، وتتـبرؤوا منـه، فقـال حجـر وجماعـة ممن كـان معـه: إن الصـبر على حـد السيف لأيسر علينا مما تـدعونا إليـه، ثم القـدوم على اللـه ونبيـه وعلى وصيه أحب إلينا من دخول النار، وأجاب من كـان معـه إلى الـبراءة من علي، فلمـا قـدم حجـر ليقتـل قـال: دعـوني أصـلي

ركعتين، فجعل يطول في صلاته، فقيل له: أجزعا من الموت؟ فقال: لا،ولكني ما تطهرت للصلاة قط إلا صليت، وما صليت قط أخف من هذه، وكيف لا أجزع، وإني لأرى قبرا محفورا، وسيفا مشهورا، وكفنا منشورا، ثم تقدم فنحر، وألحق به من وافقه على قوله من أصحابه، وقيل إن قتلهم كان في سنة خمسين.

وللعشاش ولع بجمع أشعار القدماء وتخريجها وتحقيقها ، مثل الأقيشر الأسدي أخباره وأشعاره، وأيمن بن خريم الأسدي: أخباره وأشعاره، وحمزة بن بيض أخباره وأشعاره، وأبو الطفيل عامر بن وائلة الكناني أخباره وأشعاره، وشعر النجاشي الحارثي(بالاشتراك) وشعر منصور النمري، وهي مساهمة تونسية في التعريف بالشعراء المنسيين،ونفض الغبار عنهم، وتقريبهم إلى قراء الأدب العربي ودارسيه.

وفي رأى العشاش أن جمع هذه الأشعار سواء كانت لشيعة أو لغيرهم من الفرق يساهم في بلورة الفكر السياسي الديني الثقافي العام للمسلمين عبر العصور، ويعتبر أنه حاول القيام بهذه المساهمة على ما فيه من نقص كما يقول، ودعا إلى تلافي هذا النقص من قبل الباحثين الذين سيأتون بعده.

محمـــد بن عبد الجليل

معتدل القامة، أبيض البشرة، مع ميل إلى الحمرة، كان قبل بلوغه السبعين، يبدو وكأنه في الأربعين أو الخمسين من عمره، فكان سريع الحركة، يرتاد المكتبة الوطنية، وقد تجده في

مكتبة بعض الكليات، ومنهما إلى سوق الغلال والخضر، فيعود محملا بما لذ وطاب،

بالإضافة إلى رفيقته في حله وترحاله، أعني محفظته المملوءة بالكتب،فكنت أشفق عليه من كثرة ما يحمل، وفي ظرف سنوات قليلة تعكرت صحته، وأصبح غير قادر على المشي، بسبب آلام في

الظهر، وقلت تنقلاته بسبب هذه الآلام، فلم أعـد التقي بـه في المقهى التي تعودنا الجلوس فيها إلا لماما.

ولكل إنسان عادات وسلوك معين في حياتـه، ومن عـادة محمـد بن عبد الجليل أنه لا يشرب الماء في الصـيف من الثلاجـة، رأيتـه يومـا اشترى جرة صغيرة(قلة)فسألته لماذا هذه القلة، والحـال أن الثلاجـات تجعل الماء في الصيف سائغا باردا للشاربين؟ فقال لي إنه لا يذكر أنـه شرب الماء البارد صيفا من الثلاجة، وإنما يكتفي بالشرب من (البرادة)

لا يرى الحاج محمد بن عبد الجليل ــ كمـا اشـتهر بين زملائـه ــ إلا والمحفظــة أو الكتــاب بيــده، يلتهم كــل الكتب الــتي تصــل إلى يديه،وخاصة المؤلفات والصـحف الفرنسـية، فلا يمكن للإنسـان حسـب رأيه أن يركب في الحافلة ـــ وكثـيرا مـا يتخـذ الأسـتاذ محمـد بن عبـد الجليل الحـافلات الخاصـة الـتي تكـاثرت في السـنوات الأخـيرة ـــ ثم يجلس فـوق كرسـي، وينظـر إلى الفـراغ، فلا بـد من كتـاب أو مجلـة يطالعها.

ولعه بالمطالعة جعله ينفـق الكثـير من المـال على شـراء الكتب، وعندما لا يعثر على الكتـاب الـذي يريـد مطبوعـا، يقبـل على تصـويره، مهما كان حجمه، ويبدو أنه إذا عثر عليه يشتريه، فتتجمع لديـه النسـخة المصورة والنسخة المطبوعة،ثم يرى أن يهدي المصورة لي أو لغـيري، وإن أشرت إلى كتاب عرضا في أثناء الحديث يسـتوقفك، ويطلب منـك أن تصوره له، وتأتي به إليه عاجلا.

ولد بمساكن في أفريـل 1939وبهـا تلقى تعليمـه الابتـدائي، أمـا الثانوي فكـان بين مسـاكن وسوسـة،وانتسـب إلى دار المعلمين العليـا بتونس، ومنها تخرج حـاملا للإجـازة في اللغـة والآداب العربيـة،وواصـل دراسته بفرنسـا، ومنهـا تحصـل على شـهادة التـبريز، وقبـل أن يلتحـق بالتعليم العالي درس في التعليم الثانوي في كل من بنزرت والمنسـتير وتونس، وبقي مدرسا بالتعليم العالي قرابة الثلاثين عاما، إلى أن أحيـل على التقاعد سنة 2003

اختار بحثا يتعلق بشعر الخوارج ليدرسه، وينال به شهادة دكتــورا دولة في الأدب القـديم، فلم يكملـه إلا عنـدما اقـترب من الإحالـة على سن التقاعد، وعندما ارتقى إلى خطة أستاذ محاضـر وقـع تعيينـه بكليـة الآداب بالقيروان، فكان يقوم بعملـه، ثم يعـود إلى منزلـه بالمنـار،وذاق طيلة ثلاث سنوات من وسائل النقـل الأمـرين ، فلم يكن الرجـل يملـك سيارة، تخفف عنه عنـاء السـفر في وسـائل النقـل العموميـة،ولا أدري لماذا لم تراع لجنـة التعيينـات سـنّه وأقدميتـه في العمـل، أم أن هنـاك سببا آخر لهذه النقلة التي تكاد تكون تعسفية؟وإن لم يبد هـو أي ضـيق أو شكوى من عمل بمدينة الأغالبة والحق يقال.

وما زلت لم أفهم لماذا لم تطبع الكلية التي أمضى فيها سني حياته المهنية بحثه عن شعر الخوارج، وقد تحصل على شهادة الدكتوراه بملاحظة مشرف جدا،وقد حضرت مناقشة أطروحته، والحال أن بقية زملائه قد نشرت أبحاثهم في تلك الكلية بعد مناقشتها مباشرة؟

وأشير إلى أنني اطلعت على هذا البحث من أوله إلى آخره،واستفدت منه استفادة جمة، فقد كلفني صاحبه بتصحيحه ومراجعته، ورأيت أنه مساهمة وإضافة جديدة في دراسة شعر الخوارج لا يستهان بها، وتعتبر الكلية التي كان يدرس بها مقصرة، لأنها حرمت الدارسين من الإطلاع على هذا البحث القيم.

ومن أبحاثه الجديرة بالتقدير دراسته عن (منهج ابن قتيبة في الرد على خصومه من خلال كتابه تأويل مختلف الحديث)ونقدم فيما يلي عرضا سريعا لهدا العمل الجيد.

بداية يشير الأستاذ محمد بن عبد الجليل إلى اشتهار ا بن قتيبة (توفي276/889) لدى علماء افريقية بالأدب، حتى إن ابن خلدون اعتبر(أدب الكاتب) لابن قتيبة من أركان الأدب الأربعة، ولكن الدارس لا ينكر أن الرجل عرف أيضا بأنه خطيب أهل السنة، والمتكلم باسمهم، والمدافع عنهم، كما عرف الجاحظ بأنه خطيب المعتزلة، والمتكلم باسمهم، والمدافع عنهم، ورغم أن كتب ابن قتيبة عرفت في الأندلس إلا أن العلماء لم يهتموا إلا بكتبه الأدبية.

ويعلل ابن عبد الجليل عدم التفات علماء الأندلس وافريقية إلى كتبه التي يدافع فيها ابن قتيبة عن أهل السنة إلى أن كثيرا من الأشاعرة متحاملون عليه، أو معادون له، ومعروف أن المذهب الأشعري انتشر في افريقية، فليس بعيدا أن الأشاعرة من علماء افريقية اقتدوا في ابن قتيبة بإخوانهم المشارقة، فأعرضوا عما يتصل بالدين من كتبه،هذا زيادة على أن جل اشتغال علماء الدين في افريقية كان بالفقه المالكي، ولم يغفل الأستاذ محمد بن عبد الجليل أن يذكر أن العلماء الذين ترجموا لهذا الرجل اختلفوا فيه، فمنهم من عدله وأثنى عليه، وعلى صحة عقيدته، ونوه بفضله وبلائه في الدفاع عن أهل السنة، ومنهم من رماه بالتشبيه، ومنهم من نسبه إلى قلة العلم، واتهمه بأنه من أجرإ الناس على القول فيما لا يحسن من العلم.

ومن أشهر ما ألف في الدفاع عن أهل السنة، ويسميهم أهل الحديث، لأن مصطلح أهل السنة والجماعة لم يظهر بعد، كتابه المشهور (تأويل مختلف الحديث) الذي ألفه في آخر حياته،بعد أن بلغ من النضج منتهاه، ومن ناحية أخرى فإن الكتاب ألف في فترة ضعفت فيها المعتزلة، وظهر عليها أهل الحديث، فهو يصور لنا الصراع الدائر بين القوى الإسلامية على اختلاف فرقها من سنة ومعتزلة وخوارج

وشيعة، كما يصور الصراع الدائر بين المسلمين وغير المسلمين، ويصور لنا السلاح المستعمل في هذا الصراع، والميدان الذي عليه يتصارعون.

وعبارة (مختلف الحديث)تعني أنه رويت عن الرسول أحاديث عديدة، ظاهرها مختلف المعنى اختلافا، ربما يصل إلى التناقض، وقد سأله الصحابة سؤال المسترشد الذي يريد من السؤال والمراجعة أن يتعلم ما لم يعلم، ويفهم ما أشكل عليه، أما المنافقون والمشركون وأهل الكتاب فكانوا يسألونه سؤال من يريد إعناته، وإظهار اختلاف أقواله بل تناقضها.

وقد شغلت هذه الأحاديث المختلفة فيما بينها وبين بعض الآيات المسلمين، وكانت من أسباب الاختلاف بين المدارس الفقهية، كما كانت الآيات المتشابهة والأحاديث المختلفة من أهم أسباب نشأة الفرق الكلامية والسياسية، وأدت إلى خصومات عديدة، والاختلاف بين الأحاديث وبين الأحاديث والقرآن ألف حوله بعض العلماء، منها على سبيل المثال (مختلف الحديث) للإمام الشافعي.

ويرى ابن عبد الجليل أن اختلاف المسلمين من فقهاء ومحدّثين ومتكلمين وغيرهم في هذه الأحاديث يدور على مذاهب شتى، وكل فرقة تذهب فيها المذهب الذي يوافق ما هي عليه من أقوال في الفقه أو الكلام أو غيرهما، فمنهم الراد لكثير من هذه الأحاديث، فهو يقبل الحديث، ويرد ما يناقضه، ومنهم القابل لها على ظاهرها، ومنهم القابل لها مع تأويلها تأويلا يرى أنه يبطل به ما يظهر من اختلاف بينها، وهذا هو المذهب الذي ألف ابن قتيبة كتابه (تأويل مختلف الحديث) لإثبات أن لا اختلاف ولا تناقض بين الأحاديث في الحقيقة، وإن ظهر أن بينها اختلافا وتناقضا، وهو كذلك مذهب أهل الحديث الذين ألف لأجله ابن قتيبة هذا الكتاب للدفاع عنهم، إذ هم يعتقدون أن لا تناقض ولا اختلاف بين القرآن والسنة، كما أنه لا تناقض ولا اختلاف بين آية وآية، ولا بين حديث وحديث،وقد نهى الرسول عن ضرب القرآن بعضه ببعض، فأمسك الصحابة عن ذلك، فلم يروا في القرآن اختلافا ولا تناقضا، كما أمسكوا عن ضرب الحديث بعضه ببعض، فرأوا أن لا تناقض ولا اختلاف بين الأحاديث، لأن السنة في مرتبة تلي مرتبة القرآن، ولأن منها ومن القرآن تؤخذ العقائد والتشريعات والآداب وغيرها، كما منعهم من ضرب القرآن والأحاديث بعضها ببعض،بيد أن أعداء الرسول من مشركين وأهل الكتاب وغيرهم، كانوا يضربون النصوص بعضها ببعض، ليحاجوا الرسول ويخاصموه، ويشككوا المسلمين في دينهم،كما يفعل الكثير من العرب الذين حلوا محل المستشرقين الغلاة هذه الأيام، ويسمون بالمفكرين، فهذا يراجع السيرة النبوية، كأنه عثر في خزانة أبيه الفقيه والأصولي على مخطوطات جديدة، هذا المفكر(؟) يتهم

الرسول بأنه كلما أحس بضائقة مالية يهجم على اليهود، ويسلبهم أموالهم، مساكين، وهلم جرا من هذه الترهات التي تدل على حقده وبغضه لدين الإسلام ولنبيه، إن لم نقل تدل على جنونه وخرفه.

وإزاء انقسام المسلمين وحيرتهم في هذه الأحاديث، وتفرقهم أحزابا وشيعا، وصلت إلى درجة الاقتتال ألف ابن قتيبة الكتاب المشار إليه، ومما زاد في حيرة بعض المسلمين أن أهل الكلام استغلوا هذه الاختلافات في الحديث، فأخذوا ينشرون معايب أهل الحديث، ويثلبونهم، ويؤلفون في ذاك الكتب، وقد أشار ابن قتيبة إلى ذلك عندما قال في المقدمة إن أهل الكلام يثلبون أهل الحديث ويتهمونهم ويسهبون" في الكتب بذمهم، ورميهم بحمل الكذب، ورواية المتناقض، حتى وقع الاختلاف، وكثرت النحل، وتقطعت العصم، وتعادى المسلمون وأكفر بعضهم بعضا، وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث"

وأشار ابن عبد الجليل إلى أن ابن قتيبة أراد أن يشهر بالمتكلمين،ويلقي في النفوس البغض لهم، والنفور منهم،ويبعثها على مخالفة أقوالهم، والزراية عليهم،يفعل ذلك في أسلوب مشرق سلس عذب،وهذا الأسلوب من شأنه أن يؤثر في القارئ، فيزدري أهل السنة خصوم ابن قتيبة، أو بالأحرى خصوم أهل السنة الذين هم من المتكلمين والمتفلسفة، فأما المتفلسفة فيعيبهم في شخص أحد أعلامهم، وهو محمد بن الجهم البرمكي، ويشنع عليه بأنه استبدل بالمصحف كتب أرسطو في الكون والفساد والمنطق، وعمل بما فيها من قياس ونحوه، فقال بما يخالف قول الرسول مخالفة صريحة، كما يعيبه بترك صيام رمضان، ولا يقبل عذره، وأما أهل الكلام فيذكر منهم بعض الفرق مثل المرجئة والرافضة، ويعيب على هؤلاء بتفسير القرآن تفسيرا غريبا، وادعائهم علم باطنه، وكان ابن قتيبة شديدا في ردوده على المعتزلة الذين يسميهم بالقدرية، أي منكري القدر، أو الذين ينسبونه إلى أنفسهم، ويقولون نحن نفعل ما لا يريد الله تعالى، ونقدر على ما لا يقدر، فيجعلون لأنفسهم مع الله نصيبا، والقدرية تشير إلى الحديث المشهور:" القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم،وإن ماتوا فلا تشهدوا جنائزهم" فهو من هذه الناحية يقارعهم بالحديث، كما يقارعهم به غيرهم من رافضة ومرجئة وخوارج.

ويبدو كما يقول الأستاذ ابن عبد الجليل أن ابن قتيبة يتوجه إلى المعتزلة، ويشتد في رده عليهم، لأنهم كانوا ألد الخصوم لأهل السنة، أيام فتنة خلق القرآن مع المأمون والمعتصم والواثق، فقد تعرضوا للتنكيل والقتل، يذكر ابن الجوزي في كتابه صفة الصفوة(الجزء الأول ط دار الحديث القاهرة 1421/2000 ص491) أن الإمام الكبير أحمد بن نصر الخزاعي امتحنه الواثق بالقرآن، فأبى أن يقول إنه مخلوق، فقتله في يوم السبت غرة رمضان سنة إحدى وثلاثين ومائتين بسر من

رأى، فصلب جسده هناك، وأنفذ رأسه إلى بغداد، فنصبه، فلم يزل كذاك ست سنين، ثم حط، وجمع بين رأسه وبدنه، ودفن بالجانب الشرقي من بغداد في المقبرة المعروفة بالمالكية في يوم الثلاثاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وثلاثين ومائتين، هذا بالإضافة إلى سجن أحمد بن حنبل وضربه ضربا مبرحا، لأنه لم يقل بخلق القرآن، وغير هذين العالمين الذين امتحنوا كثر.

ومن هنا أراد ابن قتيبة أن يسقط رؤوس المعتزلة من عليائهم ، وخاصة كبارهم، ومن له شهرة وتأثير في الناس، وذلك بذكر معايبهم والتشنيع بهم،كالنظام والجاحظ، فالنظام(توفي 231/845) الذي عرف بشدة جرأته على القول بما يخالف ما يذهب إليه الناس حتى أصحابه، وعلى الطعن على الصحابة، ولذلك جرد ابن قتيبة قلمه للوقيعة فيه، والتشهير به،فينسب إليه من القول والفعل ما يسخط عليه كل مسلم، ويقول إنه يروح على سكر، ويغدو على سكر، ويورد مطاعنه على الصحابة، وعلى كبارهم بالخصوص كابن مسعود وأبي هريرة وعمر بن الخطاب،وأبي بكر الصديق، ويرد ابن قتيبة على هذه المطاعن ويبطلها الواحدة تلو الأخرى.

ولاحظ الأستاذ ابن عبد الجليل أنه كلما كان الرجل من المعتزلة أشهر والناس به أعرف، وتأثيره فيهم أقوى كان ابن قتيبة اشد له عيبا، فلذلك جاء الجاحظ تاليا للنظام، وفاز بحظ وافر من ذم ابن قتيبة، لأنه" أحسنهم(رجال المعتزلة) للحجة استثارة، وأشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار أن يعمل الشيء وضده" وبهذه المواهب وبكثرة التأليف،وبحسن الأسلوب استطاع الجاحظ أن يؤثر في الناس، ويحبب إليهم الاعتزال، وبه استحق أن يسخط عليه ابن قتيبة أكثر من سخطه على سواه من رجال القدرية.

ونريد أن نختم هذه الخاطرة بأمثلة من الأحاديث المختلف فيها وردود ابن قتيبة على خصومه وبالتالي خصوم أهل السنة،أحدها يتعلق بحديث ينقضه القرآن، وهو قوله صلى الله عليه وسلم :" صلة الرحم تزيد في العمر" وقوله تعالى:" فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" فكيف تزيد صلة الرحم في أجل لا يتأخر عنه ولا يتقدم؟

قال ابن قتيبة: ونحن نقول إن الزيادة في العمر تكون بمعنيين:

أحدهما السعة والزيادة في الرزق، وعافية البدن، وقد قيل الفقر هو الموت الأكبر، وجاء في بعض الحديث:" إن الله تعالى أعلم موسى صلى الله عليه وسلم أنه يميت عدوه، ثم رآه يسف الخوص" (ويسف الخوص أي ينسج ورق النخيل) فقال : يارب وعدتني أن تميته، قال: قد فعلت، قد أفقرته.

فلما جاز أن يسمي الفقر موتا، ويجعل نقصا من الحياة جاز أن يسمي الغناء حياة، ويجعل زيادة في العمر.

والمعنى الآخر:أن الله تعالى يكتب أجل عبده عنده مائة سنة، ويجعل بنيته وتركيبه وهيئته لتعمير ثمانين سنة، فإذا وصل رحمه زاد الله في ذلك التركيب، وفي تلك البنية، ووصل ذلك النقص، فعاش عشرين أخرى حتى يبلغ المائة، وهو الأجل الذي لا مستأخر عنه ولا متقدم.

والحديث الثاني هو قوله صلى الله عليه وسلم:" إكلفوا من العمل ما تطيقون،فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا"

قال المعارضون:فجعلتم الله تعالى يمل إذا ملوا، والله تعالى لا يمل على كل حال ولا يكل.

قال ابن قتيبة: ونحن نقول: إن التأويل، لو كان على ما ذهبوا إليه كان عظيما من الخطإ فاحشا.

ولكنه أراد فإن الله سبحانه لا يمل إذا مللتم.

ومثال هذا في الكلام: هذا الفرس لا يفتر حتى تفتر الخيل، لا نريد بذلك أنه يفتر إذا فترت، ولو كان هذا هو المراد ما كان له فضل عليها، لأته يفتر معها، فأية فضيلة له؟ وإنما نريد أنه لا يفتر إذا فترت.

وكذلك تقول في الرجل البليغ في كلامه، والمكثار الغزير: فلان لا ينقطع، حتى تنقطع خصومه، تريد أنه لا ينقطع إذا انقطعوا، ولو أردت أنه ينقطع إذا انقطعوا، لم يكن له في هذا القول فضل على غيره، ولا وجبت له به مدحة.

وقد جاء مثل هذا بعينه في الشعر المنسوب إلى ابن أخت تأبط شرا، ويقال إنه لخلف الأحمر:

صليت مني هذيل بخرق | لا يمل الشر حتى يملوا

لم يرد أنه يمل الشر إذا ملوه.

ولو أراد ذلك ما كان فيه مدح له، لأنه بمنزلتهم، وإنما أراد أنهم يملون الشر، وهو لا يمله.

والثالث حديث يبطله القرآن والإجماع، فقد روى أهل الحديث عن الرسول أن الصدقة تدفع القضاء المبرم، والله عز وجل يقول:" إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون" وأجمع الناس على أنه لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه"

وكان رد ابن قتيبة: ونحن نقول في تأويل ذلك: إن المرء قد يستحق بالذنوب قضاء من العقوبة، فإذا هو تصدق دفع عن نفسه ما قد استحق من ذلك، يدل عليه قوله" صدقة السر تطفئ غضب الرب" أفلا ترى أن من غضب الله عز وجل عليه تعرض عقابه، فإذا أزال ذلك الغضب بصدقته أزال العقاب.

وفي الختام يقول الأستاذ محمد بن عبد الجليل في هذا الفصل الطويل، معلقا على ابن قتيبة في كتابه(تأويل مختلف الحديث): إن الرجل أديب ذواقة للأدب العربي، ومن جهابذة نقاده، وقد مكنه طول تمرسه بلغة الضاد من الغوص على خفاياها، وإدراك أسرارها، وهذا ما يقر له به جميع أهل الأدب، فقد استعان بهذه الملكة ليرد على خصومه، فهو يرى أن ما يظن اختلافا أو تناقضا بين الأحاديث يزول إذا وضعنا كلا منهما موضعه، وأجريناه على ما اعتادت العرب استعماله

من فنون الكلام، وما عرف عنها من صرف في وجوهه، وذلــك أن كلام العــرب إيمــاء وإشــارة وتشــبيه، ومنــه الحقيقــة والمجــاز،وإنابــة بعض الألفاظ عن بعض، ولا يفوته أن يدعم ما يذهب إليه بأمثلة من جيد كلام العرب منظومه ومنثوره.

أطال الله أنفاس صديقنا العزيــز محمــد بن عبــد الجليــل، ومتعــه بالصحة والعافية.

علي يـــــــوسف

عرفت تونس المعاصرة رجالا أكفاء في مختلــف الميــادين، قاموا بدور فعال في تقدم تونس ورقيها، وجعلوا من هذه الرقعــة الصغيرة من الأرض منارة مشعة، ويبرز هذا الإشــعاع خاصــة في الحقل التربوي والاجتماعي، ومن هؤلاء الرجال نذكر الأستاذ علي يوسف(1941 ـــ 2001) الذي خــدم أطفــال تــونس من فاقــدي السند العائلي خدمة جليلــة أكــثر من ثلاثين عامــا، بوصــفه مربيــا، وعالم نفس قديرا، ثم إداريا بعد ذلك.

ولــد المرحــوم علي يوســف بمدينــة المهديــة، وبهــا تعلم، وتحصل على شهادة البكالوريا من معهد خزنــدار(التــابع للمدرســة الصادقية)سنة 1962 ثم التحق بالتعليم العالي، فاختار شعبة علم النفس بكليــة الآداب والعلــوم الإنســانية الكائنــة بشــارع 9 أفريل 1938 وتخرج منها حاملا للإجازة في علم النفس، ورأى أن يعمــل في مجال تخصصه، وهــو ميــدان التربيــة وعلم النفس، فاختــار أن يعيش مــع الأطفــال فاقــدي الرعايــة والســند العــائلي، ووجــد في وزارة الشباب والرياضة، كما كــانت تســمى بغيتــه، فقــد كــان لهــا اهتمــام خــاص بالأطفــال الــذين حرمــوا من العيش في محيطهم العائلي، فكلف علي يوسف بالعنايــة بهم، فأســندت إليــه مصــلحة رعاية الطفولة بهذه الوزارة، فأمضــى بــاكورة حياتــه المهنيــة بين هؤلاء الأطفال يفكر في الوسائل الكفيلة التي تســاعدهم على ان يكونوا أطفالا أسوياء مثلهم كأي طفل عادي.

ويحسن بنا بداية أن نعرف بالأطفال فاقدي الســند العــائلي الذين أمضى معهم الأستاذ علي يوسف حياته، وكرس كــل أوقاتــه لخــدمتهم، وانتشــالهم من الحرمــان، والإشــراف على تــربيتهم وتعليمهم حـــتى أوان تخـــرجهم، وحصـــولهم على الوظـــائف، ومتابعتهم بعد ذلك، فعن أي أطفال نتحدث؟

خلال شتاء 1956 البارد عثر على أطفال موتى على قارعة الطريق، فتأثر الشعب التونسي لهذه الحالة، فما كان من حكومة الاســتقلال إلا أن حــزمت أمرهــا، وقــامت بواجبهــا نحــو هــؤلاء الأطفال، فكــان أن جمــع ألــف طفــل، ووقــع إيــواؤهم في ثكنــات

ومحلات متروكة في مختلف جهات البلاد، وتم إسعافهم بالمأكل والملبس الذي وفرته التبرعات المتدفقة من كل مكان، وشاركت المنظمات الوطنية آنذاك في إحاطة هؤلاء الأطفال بالعناية الضرورية، وأطلق على الأماكن التي أوت هؤلاء الأطفال (قرى أطفال بورقيبة).

وكان لا بد من التفكير في إطار تربوي يهتم بشؤون هؤلاء الأطفال تربية وتعليما، وبما أن البلاد مازالت حديثة عهد بالاستقلال فقد انتدبت إطارات لم يقع تكوينها لهذا الغرض، ووفرت لهذا الإطار ملتقيات وتربصات، ودروسا تكوينية، وبمرور الزمن وتطور الأساليب التربوية تبين أنه لا يكفي توفير المسكن والمأكل والتعليم لهؤلاء الأطفال، بل لا بد من الاعتناء بهم تربويا، حتى يتم إدماجهم بصفة طبيعية في الحياة الاجتماعية، وهذا لا يتم إلا إذا رجع الطفل إلى طفولته ، وذلك بإعادة جو الطمأنينة إلى نفسه، ولا يمكن توفير هذه الطمأنينة النفسية في قرى مكتظة بالأطفال، يذوب الطفل بين هذه المخلوقات الصغيرة الني كثيرا ما يختلف بعضها عن الآخر سنة الله في خلق عباده، وهو ما يحرم الطفل من القيام بنشاطه بصورة تلقائية وطبيعية، وأن الأخطار المحدقة بالطفل لم تتغير إلا في جانبها المادي، وهذا لا يكفي مادام الطفل بعيدا عن الجو النفسي والاجتماعي، ولهذا فإن الطفل المحروم من الوسط العائلي يجب أن يوضع في ظروف ملائمة تساعده على النمو، ومن هنا يجب أن يطابق هيكل المجموعة التي ينتمي إليها الطفل هيكل العائلة الطبيعية أكثر ما يمكن، وهو ما يتمثل في وحدات الحياة، وهكذا انتقل الطفل من العيش في القرية إلى العيش في(وحدة الحياة) أو ما نسميه بالعائلة.

وإزاء إقبال الأطفال على هذه القرى واكتظاظها، وأمام ارتفاع تكاليف النفقات بالنسبة للطفل المقيم، وتطور مستوى العائلة نسبيا، وسعيا لتوطيد الصلة بين القرى(أو ما أصبح يسمى بمجموعات الأطفال) والعائلات لفائدة إحكام العمل التربوي فقد اتجهت النية إلى التفكير في حل يسمح بالتوفيق بين كثافة العدد وارتفاع النفقات، وزيادة النفاذ الى العائلة، وتمتين الصلة معها، وإيجاد الحلول للمشاكل التي كانت سببا في دخول الطفل إلى المجموعة، ونظرا لما تبين من اقتلاع الطفل من وسطه العائلي، وحشره في مجموعة توفر له المستلزمات المادية، وتحرمه من حنان الأبوين، وعطف أهله وذويه، والعيش في وسطه الطبيعي، وما ينتج عن هذا الإيواء من استقالة العائلة، وتذبذب الطفل، وعسر إدماجه في المستقبل، واعتبارا لما حدث من تطور في

المجتمع التونسي يقضي بأن يتطور هذا المشروع حتى يواكب العصر، فقد أحدث المسؤولون عن هذا القطاع، ومنهم الأستاذ علي يوسف تجربة الوسط الطبيعي، وهكذا تطور مشروع أطفال بورقيبة منذ انبعاثه تطورا يتلاءم مع تطور العائلة التونسية تربويا واجتماعيا واقتصاديا.

ويختفي وراء هذا النشاط العلمي والتربوي جنود يسهرون ليلا، ويعملون نهارا لإنجاح هذا العمل الاجتماعي المتميز الذي عرفت به تونس بعد الاستقلال، ومن هؤلاء الجنود نذكرعلي يوسف الذي جمع حوله فريقا من العمل نذكر من بينهم على سبيل المثال الأساتذة والمربين حسين الخالدي، وعبد المجيد بن مبروك، ومحمد التواتي، ويوسف القرقوري

كان علي يوسف رجلا رحالة، وجواب آفاق، فمرة تجده بعين دراهم، وأخرى تعثر عليه في مدينة صفاقس، بعد مروره بالقصرين وسيدي بوزيد، ورجوعه إلى تونس العاصمة عن طريق مدينة سوسة، ثم المرور بحمام الأنف ورادس، يتتبع عن كثب ما يحتاجه هؤلاء الأطفال من ملبس، هذا الذي لا يرتديه الطفل إلا بعد أن يتفرس فيه المرحوم علي يوسف ويمسه بيديه، ثم يوافق على شرائه أو يرفضه، وقس على ذلك ما يحتاجه الطفل من طعام ومواد مدرسية وغيرها، حتى ليخيل إليك أن الرجل يعتني بهؤلاء الأطفال أكثر من اعتنائه بأولاده، لقد كان هاجسه حياة هؤلاء الأطفال وتربيتهم تربية سليمة، ثم الوصول بهم إلى الإدماج في المجتمع، وإزالة العوائق التي تعترضهم في هذا الإدماج، وكثيرا ما تحول هؤلاء الأطفال إلى أصدقاء له، بل كانوا يشعرون أنه في مقام والدهم، ووصل حرصه على مستقبلهم إلى الإشراف على تزويج البنات ممن يعشن في هذه المجموعات، بعد اختيار الزوج المناسب لهن.

ولم يصل المربي علي يوسف.إلى هذه النتائج الباهرة إلا بعد أن ضبط الخطة لهذا المشروع الاجتماعي الذي استفاد منه الآلاف من أبناء تونس، فتعلموا ونجحوا، وأصبح الكثير منهم من خيرة الموظفين سواء في الحقل الإداري أو في الحقل التربوي، وتتمثل الخطة المرسومة في أربعة محاور:

1) العمل الاجتماعي

ويعني به مقاييس القبول بهذه القرى أو المجموعات بالنظر إلى الحالة الاجتماعية(اليتم من الأبوين، أو أحدهما، أحد الأبوين في حالة مرض مزمن، إهمال الطفل بصفة عامة)والسن(ما بين الستة أعوام، وأربعة عشر عاما) ويقع القيام ببحث اجتماعي عن وضعية الطفل على عين المكان من قبل

مرشـــدة اجتماعيـــة، وتعتـــبر الفـــترة الـــتي يقضـــيها الطفـــل في المؤسسة هي مرحلة إعداد للإدماج في المجتمع، ويكـون الهـدف من العمل التربوي كله منصبا على تهيئة الطفل لهذه الغاية، فيقع تهيئته نفسيا واجتماعيا وتكوينيـا، ويبـدأ عمـل المـربي في البدايـة بغـــرس العـــادات الحســـنة في الطفـــل، وتشـــريكه في تحمـــل المسؤوليات داخل المجموعـات وخارجهـا، والعمـل على إكسـاب الطفل الثقة بالنفس، وتدعيم صـلته بأسـرته وأقاربـه عن طريـق الزيارات في العطل، وكذلك عن طريق المراسـلة، وربـط الصـلة بين القرية والمدرسة، لإشعار الطفل بأنه محل اهتمام من طرف المشرفين عليه، أما خارج محيـط القريـة فيقـع ترسـيم الأطفـال بمختلف المدارس الموجودة بالجهة، حتى لا يشعروا بأنهم أطفال من نـــوع خـــاص، وتشـــجيعهم على تعـــاطي الأنشـــطة في نـــوادي الاطفـــال ودور الشـــباب والثقافـــة، وتمكينهم من الانخـــراط في الجمعيات الرياضـية، والسـماح لغـير أطفـال المجموعـة لتعـاطي الأنشطة داخل القرية.

وبالنسبة للأطفال الذين لم يسـعفهم النجـاح في الدراسـة الابتدائيـة وحـتى الثانويـة تكـونت مراكـز لتكـوينهم صـناعيا، قصـد تمكينهم في مرحلـــة مواليـــة من الانـــدماج في المجتمـــع، وهم متسلحون بصـناعة تسـمح لهم بالاسـتقلال عن المجموعـة ماديـا، وبالاستقرار في وسطهم العائلي.

والهدف من العمل التربوي كلـه هـو الوصـول بالطفـل، ثم الشـــاب إلى الانـــدماج في المجتمـــع ســـواء عن طريـــق الشـــغل بالنسبة إلى الشاب، والـزواج والشـغل بالنسـبة إلى الفتـاة، ويتم زواج الخريجات من هذه المجموعات بعد التحري التام في اختيار الزوج من الناحية الأخلاقية والاجتماعية والمادية، وموافقة المعنية بالأمر، لتوفير أكثر ما يمكن من حظوظ النجاح.

ويقع تتبع المدمجين بواسطة زيارات تتباعد شيئا فشـيئا إلى مكان العمل، وإلى مقر السكنى للتأكـد من اسـتقرار الشـاب في عمله، ولإعانته عند الحاجة على مواجهة بعض الصعوبات التي قـد تعترض سبيله، وكان علي يوسف يرى أنه من المفيـد أن تكتسـي هذه المساعدات صبغة علاقة شخصية بين الشاب والمربي الـذي يقـــوم بزيارتـــه، حـــتى لا يشـــعر الشـــاب أنـــه في حمايـــة المؤسسة،ويمكنـه الاتكـال عليهـا مهمـا كـان سـلوكه وجديتـه في العمـل، كمـا يقـع تتبـع الفتيـات اللائي يقـع إدمـاجهن بـالزواج أو بالتشغيل.

<u>2) العمل الداخلي</u>

توصل الأستاذ علي يوسف مع مجموعة من مساعديه، بعد أن كان العمل الداخلي في هذه القرى عبارة عن مبيتات يختلط فيها الكبير بالصغير، إلى اعتماد نظام وحدات الحياة، كما أشرنا سابقا، باعتباره يوفر للطفل أكثر ما يمكن من الاقتراب من ظروف العائلة المتوازنة، حيث يكون توزيع الأطفال عموديا ومختلطا، حتى تتكامل الحياة الاجتماعية بين الأطفال، ويباشرون بعض الأنشطة اليومية بأنفسهم، لغرس روح الاعتماد على النفس، والتعاون في العمل الدراسي، والقيام بالشؤون الخاصة لكل فرد من أفراد المجموعة، وذلك بمساعدة الكبير للصغير واقتدائه به، وزرع روح التعاون والتضامن والإيناس.

ويقتضي نظام وحدات الحياة، أن يعيش الطفل بهذه الوحدة التي هي مقر السكنى العائلي الذي تتوفر فيه ظروف تساعد على الاقتراب أكثر ما يمكن من الحياة العائلية المتوسطة، ويقع اختيار زوج وزوجة ليكونا بمثابة الأب والأم لهذه العائلة، ويختلط أطفالهما مع أطفال الوحدة أو الخلية العائلية، ويتوفر في هذه الخلية الأثاث الذي يتوفر عند بقية العائلات المتوسعة الدخل.

3) العمل الخارجي

ويقصد به وجود الطفل خارج العائلة والمدرسة، وقد أطلق عليه في تونس البيئة الثالثة، وله تأثير في تكوين الطفل وتنشئته، ويشمل الشارع والجمعيات الرياضية، ودور الشباب والثقافة والمكتبات العمومية، ويسهر على هذا العمل منشطون من المختصين في تكوين الطفل جسميا وأخلاقيا وعقليا واجتماعيا، وذلك بمراعاة الأهداف التالية: تمرين الجسم على الاتزان والاكتمال والانسجام، وتدريب الطفل على التفكير السليم والنقد البناء، واحترام رأي الغير، وكذلك تعويد الطفل على التعاون والعمل الجماعي، وتنمية مواهبه وصقلها، لتسهيل إدماجه في المجتمع الذي ينتمي إليه.

هذا بالإضافة إلى النشاط الحر الذي يترك فيه للطفل حرية اللعب والمرح، ويتعاطى ألعابه المحببة إلى نفسه التي تبرز فيها شخصيته على حقيقتها، ولكن لا بد من مراقبة الطفل عندما يقوم بنشاطه الحر، وكثيرا ما كان يذكر المرحوم علي يوسف بأن الغاية من الرقابة هي أن نعرف أين يلعب الطفل؟ ومع من يلعب؟ وماذا يلعب؟

4) الوسط الطبيعي

تبين للمربي علي يوسف ومساعديه أن اقتلاع الطفل من وسطه الطبيعي أي عائلته يعني حرمانه من عطف أهله وذويه،

وهـذا الحرمـان لـه انعكاسـات سـيئة على نفسـه، رغم مـا يبـذل لفائدته في القرية من توجيهـه إلى مـدارس مـع أطفـال من غـير المقيمين، وتشريكه في مختلف الأنشطة خـارج القريـة، وتمكينـه من العودة إلى عائلته في جميـع المناسـبات، والعطـل المدرسـية اعتقـادا منـه أن العائلـة هي الوسـط الطـبيعي الـذي تنمـو فيـه شخصية الطفل بصورة طبيعية، ولا شـيء يمكن أن يعـوض حنـان الأم وعطف الأب ومحبـة الإخـوة والأخـوات، ثم أن قـرى أطفـال بورقيبــة اكتظت، وأصــبحت غــير قــادرة على اســتيعاب جميــع الأطفال الذين هم في حاجة إلى العناية والرعايـة، ومن هنـا وقـع التفكير في عدم إيواء بعض الأطفال بالمؤسســة إلا بعـد اسـتنفاد جميع الوسائل الممكنة لإقراره بعائلته، والعمـل على إحاطتـه مـع عائلتــه بأكملهــا بحمايــة تربويــة شــاملة، باعتبــار أن المشــكل الاجتماعي الـذي يعيشـه الطفـل يكمن في العائلـة برمتهـا، ونـاتج عنها،، ويكون التدخل بمحاولـة الإصـلاح الاجتمـاعي للعائلـة، حـتى ينتفي السبب الذي من أجله وقع قبول الطفل بـدون اقتلاعــه من وسـطه الطـبيعي الـذي هـو العائلـة، وبـذلك يحافـظ الطفـل على الروابـط العائليـة، وتحسيسـها لتقـوم بمسـؤوليتها تجـاه أبنائهـا، والكف عن الوقوف موقف المتفـرج أوالمسـتقيل، هـذا بالإضـافة إلى تقديم الخدمات الممكنة إلى العائلة، كتوفـير الشـغل للأب أو للأم، أو لأكبر الإخوة.

تلك هي فلسفة التربية الخاصة بفاقدي السند العائلي الـتي يعود الفضل في ارسائها بتونس إلى المرحوم علي يوسـف، وثلـة من رفاقه ومساعديه، وقد أصبح هذا المشروع المتمـيز موضـوعا لبعض الأطـاريح والرسـائل الجامعيـة، نـذكر على سـبيل المثـال دراسة الدكتور عبد الحميد الزائـر(أسـباب الاضـطراب السـلوكية بقرى أطفال بورقيبة) ولا يمكن لدارس تاريخ التربية والتعليم في النصف الثاني من القرن العشرين بتونس أن يغفل هذا المشروع أو يتناساه.

لقد كان الأستاذ علي يوسف مثـال المـربي الـذي يعمـل ليلا نهارا لإسعاد هذه الشريحة من الأطفال، وكـان منـاط سـعادته أن ينجحوا في دراساتهم، ويتخرج منهم الأســتاذ والمعلم والموظــف، وكــان لا يتخلــف عن حضــور أفــراحهم، وخاصــة البنــات اللاتي يـتزوجن، فكـان دائم الحضـور في مثـل هـذه المناسـبات مباركـا ومهنئا.

ولم يشغله الاهتمام بالأطفال فاقدي الرعاية الاجتماعية عن البحث والدراسة، فقد ترك دراسة هامة بالفرنسية عن وضــع الطفولة في البلدان المغاربية(تونس والمغرب وموريتانيـا) وأبـرز

ما لتـونس من اهتمـام بالطفولـة عامـة، وفاقـدي السـند العـائلي منهم خاصة.

كان المرحـوم علي يوسـف طويـل القامـة، نحيـف الجسـم، أسمر اللون ، لا تفـارق الابتسـامة محيـاه، ذا مهابـة ووقـار، يضـع نظـارات طبيـة سـميكة، محبوبـا من قبـل زملائـه وعارفيـه، كثـير التدخين، وكانت آفة التدخين هي التي عجلت بوفاته، فقـد أصـيب بمرض خبيث أودى بحياته، وهو في أوج نشاطه التربوي والإداري.

رحم الله الصديق الكريم الأستاذ علي يوسف، وجازاه اللــه خير الجزاء على ما قدمه لأبناء تونس وشبابها من خدمات جليلة.

عبــــد الـــــــوهاب الدخلي

ذات يوم كنت واقفا بنهج أسبانيا لشراء بضاعة من أحد الباعة ، لا أذكـر الآن مـا هي، وبينمـا أنـا كـذلك سـمعت صـوتا ينـاديني، التفت فوجدت رجلا يبتسم ابتسامة عريضة، كـان معتـدل القامـة، يبـدو وكأنـه في الأربعين من عمـره أو دون ذلـك، في حين تـبين لي فيمـا بعـد أنـه تجاوز الخمسين أو أكثر، أسمر اللون،جميل الصورة، تبدو الــبراءة على محياه كالطفـل،قليـل الكلام، وإذا تكلم يـزن كلماتـه، كأنـه مـدرس في القسم يترك لتلامذته فسحة من الوقت ليستوعبوا ما يقول،هذا الرجـل هو الأستاذ عبد الوهاب الدخلي.

أخبار الثقافة والمثقفين والأدبـاء والشـعراء ملم بهـا أيمـا إلمـام، يذكرهم جميعا دون أن يقدح في هذا أو ذاك، وكيـف لا يكـون على بينـة من هؤلاء الذين أدركتهم حرفـة الأدب، والرجـل أمضـى أكـثر من ثلاثين عاما في وزارة الثقافـة من المكتبـة الوطنيـة إلى بيت الحكمـة فـإدارة الآداب، وهو يعـرف هـؤلاء الكتـاب وهم لا يعرفونـه،وممـا دعم معرفتـه بهـذا الرهـط من النـاس إصـداره لكتـابين مدرسـيين بالاشـتراك مـع

الأستاذين محمد العش والمرحوم الهادي عبد الملك، فقد عرف تلامـذة التعليم الثـانوي بـالأدب العـربي قديمـه وحديثـه، وخاصـة منـه الأدب التونسـي الحـديث، فـترجم لأعلامـه، ونشـر صـورا ووثـائق هامـة، بعـد تقديمه للنصوص، وشرح ما غمض منها، فوفر للأساتذة رصيدا جيدا من المعلومات التي تخص الأدب والأدباء يصعب الحصول عليهـا، ولا أغـالي إذا قلت أن القطوف الذهنية لتلامذة السنة السابعة عربية أصبح مرجعا للبـاحثين والدارسـين لطرافـة مـا قـدم فيـه من تـراجم ومن دراسـات معمقة.

ولعل اشتغاله بالكتب المدرسـية وبـتراجم أعلام الأدب التونسـي وفّرت له خبرة جيدة عندما أقبل على التعريف بالأدباء التونسيين الـتي ترجمت بعض آثارهم إلى اللغات الأخرى، كما ساعده على التعرف إلى الإسـهام التونسـي في تحقيـق الـتراث، وأن يصـبح هـو الآخـر محققـا لكتاب" شفاء القلب الجريح بشرح بـردة المـديح" صـحبة جمـال الـدين دراويل، وهو من تأليف الشيخ محمد الطـاهر ابن عاشـور الجـد بشـرح محمد الطاهر ابن عاشـور الحفيـد، وقـد صـدر في مجلـد جميـل يغـري القارئ بالاطلاع عليه وقراءته.

ولو تسـنى لعبـد الوهـاب الـدخلي أن يكتب مذكراتـه لأفـاد تـاريخ الأدب في تونس في النصف الثاني من القرن العشـرين، ولكـانت هـذه المذكرات مصـدرا ثريـا يعـز وجـوده عنـد غـيره، وكيـف لا تكـون هـذه المـذكرات كـذلك والرجـل يحتفـظ بأسـرار وأخبـار هـذه الشـريحة من الناس، ومطلع على خفاياهم، وربما على أمزجتهم وسـلوكهم، والنـاس أميل إلى معرفة هذه الأسرار والخفايا، لا لشيء إلا لأنها تضيء جـوانب الأدب الذي يكتبون والمؤلفات التي يحبرون.

وولوع الرجل بالأدب الحديث والمعاصر دعاه إلى اقتراح مشروع ثقافي هام والإشراف عليه هو سلسلة"ذاكرة وإبداع"عرفت بالكثير من الأدباء والشعراء التونسيين الـذين عـاش أغلبهم في القـرن العشـرين، وأصبحت هذه السلسلة التي صدر منها حتى الآن أكثر من ثلاثين عنوانا مرجعا للباحثين والدارسـين،فقـد كـان من مهامهـا التعريـف بـالأديب أو الكـاتب، ثم تقـديم نمـاذج جيـدة من آثـاره،يلـوح من خلالهـا الإبـداع والابتكار.

ولخبرته بالأدب التونسي عمومـا كلفتـه وزارة الثقافـة بالإشـراف المباشر على سلسلة أمهات الكتب التونسية من حيث اختيـار العنـاوين والمتابعة العلمية والإداريـة، وفي هـذا السـياق حقـق الأعمـال الكاملـة للطاهر الحداد(في ثلاثة أجزاء) بالاشتراك مع أحمد خالـد ومحمـد أنـور بوسـنينة، وأتم تعـريب قصـة الطـاهر بن جلـون "محـا الحكيم محـا المعتوه"صحبة محمـد كمـال قحـة، وظهـرت هـذه القصـة في سلسـلة

"عودة النص" التي تصدرها دار سيراس للنشر، وكان صالح القرمادي قد شرع في تعريبها، وحال الموت دون إتمامها.

كما كلفته الوزارة بترؤس بعض اللجان الفنية مثل لجنة الجوائز التقديرية، ولجنة دعم الورق وغيرهما، ووقع اختياره لإدارة معرض تونس الدولي للكتاب لدى تولي الوزارة تنظيمه، كما ساهم في الدورات الأخرى بصفته رئيس هيئة المعرض أو عضوا فيها.

وبالإضافة إلى عمله الإداري بالوزارة ساهم مع ثلة من خريجي المدرسة الصادقية في إصدار "المجلة الصادقية " بداية من سنة 1995 مع صدور السلسلة الجديدة، وعين رئيسا لتحريرها، كما أنه مستشار تحرير بمجلة "مواقع وآثار" مند إحداثها، وكان في أثناء عمله ببيت الحكمة أمينا لتحرير دائرة المعارف التونسية التي صدر كراسها الأول سنة 1990

أما تدرجه في الوظيف بوصفه ملحقا بوزارة الثقافة،فقد تقلد خطة رئيس مصلحة، ثم كاتب عام بالمكتبة الوطنية، فرئيس مصلحة التوزيع بإدارة الآداب، ثم مدير إدارة الآداب، فكاتب عام مؤسسة بيت الحكمة، وتولى بعد ذلك خطة مدير المركز الوطني للاتصال الثقافي، فمدير عام الكتاب والمطالعة حتى بلوغه سن التقاعد(2001) وفي الأثناء تولى خطة رئيس تحرير فمدير تحرير مجلة "الحياة الثقافية" في وزارة الأستاذ محمد اليعلاوي.

ولعبد الوهاب الدخلي مشاركة في الحياة الأدبية والفكرية بتونس، فبمناسبة الاحتفال بسنة ابن خلدون في تونس(2006) أصدر الخريطة المرقمنة لرحلات ابن خلدون، وقد أنجزت هذه الخريطة في شكل قرص مدمج بالتنسيق بين وزارة الثقافة وبين ديوان الخرائط وقيس الأراضي، وقد تم ضبط عشرة مسالك تتضمن تنقلات ابن خلدون مغربا ومشرقا أمكن بواسطة الوسائل الإعلامية الحديثة تجسيدها على خرائط جغرافية، وبإمكان المشاهد متابعتها بكل دقة على الحاسوب. ويثبت هذا العمل بما لا يدع مجالا للشك أن العلامة ابن خلدون وظف مشاهداته ورحلاته توظيفا إيجابيا واضحا، سواء في بسطه لنظرياته حول العمران البشري، أو في أحكامه وسرده لوقائع التاريخ، كما يمثل هذا المجهود خير رد على من روج للانتقادات حول انتحال ابن خلدون نظريات إخوان الصفاء في كتاب العبر، ومن المعلوم أن محمود إسماعيل نشر كتابا سنة 1997عنوانه:" نهاية أسطورة نظريات ابن خلدون مقتبسة من رسائل إخوان الصفاء" وكتابه الثاني(1998)" هل انتهت أسطورة ابن خلدون" وقد أثار الكتابان جدلا ساخنا بين الأكاديميين والمفكرين العرب.

ونريد أن نقف قليلا عند الكتابين المذكورين أعلاه وهما " دليل الأدب التونسي المترجم" نشر بيت الحكمة(تونس 1990) وقد توصل

إلى ترجمة(645) أثرا إلى لغات العالم(13 لغة) كالانجليزية والفرنسية والاسبانية والروسية والبولونية واليوغسلافية وغيرها، والآثار المترجمة هي الشعر والقصة والرواية والمقال والمسرح ،ومن جهة أخرى فإن هذا الكتاب يضم " معلومات بيبلوغرافية تهم مائة وسبعة وثلاثين أديبا أو كاتبا تونسيا، نقلت أعمالهم من النص العربي أو الفرنسي إلى إحدى اللغات الأجنبية، ونشرت على حدة، في شكل مؤلف مستقل، أو ضمن إحدى الانطولوجيات أو في إحدى المجلات المتخصصة أو حتى المجلات الجامعة أحيانا"

ولاحظ الأستاذ الدخلي أن اهتمام المترجمين انصب حسب اللغة المنقول إليها على نوع أو أنواع أخرى، ولعله من المفيد البحث ــ كما يقول ــ في الأسباب التي تجعل المترجمات إلى الروسية مثلا يغلب عليها النوع القصصي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الاختيارات في اللغة الفرنسية،وتساءل هل أن الفيصل في الاختيار هو قابلية النص للترجمة في اللغة الثانية، أم هو يسر الترجمة، والشائع عند المهتمين بالترجمة هو صعوبة ترجمة الشعر؟

ولعل اهتمام الروس بترجمة النصوص القصصية يعود إلى أن هذا الجنس الأدبي يعالج شريحة اجتماعية تنتمي إلى الفقراء والكادحين والعملة، وفي هذه الأيام(فيفري 2010) وقّعت دار نشر روسية عقدا مع اتحاد الكتاب العرب بدمشق لترجمة مائة رواية عربية.

أما الكتاب الثاني وعنوانه " الإسهام التونسي في تحقيق التراث المخطوط"فقد تناول فيه المنشورات المحققة في تونس بين سنتي 1860 و 1988وهو عمل جليل، يفيد المقبلين على تحقيق بعض المخطوطات، وينبههم إلى ما بقي منه مخطوطا أو ظهر منه مطبوعا، حتى لا يحقق الكتاب أكثر من مرة. فقد عثر الأستاذ الدخلي أثناء قيامه بهذا العمل على الكثير من " النشرات المتعددة للعنوان الواحد، نتيجة لبعثرة الجهود، وقلة التنسيق بين الباحثين، فقد أحصى خمسة عشر عنوانا، نشر كل واحد منها نشرتين مختلفتين، إحداهما في تونس، والثانية في أحد الأقطار العربية في فترات متقاربة أحيانا، ومتباعدة أحيانا أخرى، ولا يخفى أن اشتغال باحثين من بلدان مختلفة بتحقيق نفس العناوين، وأحيانا بالاعتماد على نفس الوثائق المخطوطة ضياع للجهد والوقت، في حين تقبع آلاف من المخطوطات العربية الثمينة في جميع مكتبات العالم"

وقد نوه الأستاذ الدخلي في مقدمة كتابه بعمل الدكتور صلاح الدين المنجد"معجم المخطوطات المطبوعة الذي أصدره في خمسة أجزاء خلال خمسة وعشرين عاما(1954 ــ 1980) فأدى كما يقول الأستاذ الدخلي بعمله خدمات جلى للباحثين، إلا أن ما يعثر عليه الباحث من معلومات عن مساهمة تونس في هذا المجهود العربي

الكبير لا يعكس تماما حقيقة ما يبذل في بلادنا من عناية بإحياء الـتراث المخطوط"

ومن العوامـــل الـــتي دعت الأســـتاذ الـــدخلي إلى الاهتمـــام بالمخطوطـات المنشـورة توقـف مشـروع المنجـد عنـد سـنة 1980 وتشتت المعلومات المتعلقـة بنشـر المخطوطـات التونسـية ، وإحـداث المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيـق والدراسـات(بيت الحكمـة) هـذه العوامل كما يقول تجعلنا في هذه المرحلة من تاريخنا في حاجة أكيـدة إلى ضبط خطة محكمة لنشر تراثنا في تـونس، وهـو مـا يقتضـي بدايـة حصر ما نشر من هذا التراث منذ منتصف القرن التاسع عشر، ولأهمية نشـــر المخطوطـــات في مســـار الثقافـــة العربيـــة الإســـلامية أولتهـــا المؤسسات العلمية أو الحكومية كل الدعم والتشجيع.

وقد قـام بتحقيـق المخطوطـات في تـونس أفـراد أو مؤسسـات علمية أو دوائر حكومية، ورتب الأستاذ الدخلي ما نشر من مخطوطـات تونسـية (376) في الفـترة المشـار إليهـا ترتيبـا أبجـديا حسـب أسـماء المؤلفين، وذلك في قسمين كبيرين، ففي القسـم الأول أحصـى الكتب التراثية التي نشرت في تونس سواء أكان مؤلفوها ومحققوها تونسيين أو غــير تونســيين، ثم الكتب التراثيــة الــتي حققهــا تونســيون أو غــير تونسيين ونشرت خـارج تـونس، وهي نوعـان: مؤلفـات حققت اعتمـادا على مخطوطات تونسية، أو مخطوطة في تونس، أو مؤلفـات صـدرت لها نشرة علمية محققة في تونس.

أمــا القســم الثــاني فيضــم معلومــات بيبلوغرافيــةعن الفصــول والقطع والرسائل المخطوطة التي وقع نشرها في الدوريات التونســية خلال نفس الفترة.

وقد بدا للأستاذ الدخلي أن ما حقــق في تـونس من مخطوطـات قليـل بـالنظر إلى مـا يحويـه قسـم المخطوطـات بـدار الكتب الوطنيـة والمكتبات الخاصة من أعداد هائلة من المخطوطات، وأن الإقبـال على تحقيــق الــتراث التونســي زهيــد، ففي الفــترة(1860 ـــ 1988) وقــع تحقيــق أقــل من 380كتب أو رســالة أي ثلاثــة كتب في الســنة، إلا أن الحصيلة الحقيقية يمكن أن ترتفع إذا نظرنا إلى مــا حقــق في الكليــات ذات الاهتمام بالعلوم الإنسانية.

قــد يقــال إن مثــل هــذه الأعمــال توثيقيــة وفهرســة للمصــادر والمراجـع، وتـراجم للكتـاب والمـؤلفين، ولكن هـذه الأعمـال التوثيقيـة مطلوبة الآن ، فهي تسهل للدارسين أعمالهم في البحث والدراسة، ثم أن المجهود الذي بذل فيها لا يقل عناء عن التأليف والكتابة،فلا شك أن الأستاذ الدخلي عاد إلى مئـات المصـادر والمراجـع إن لم نقـل الآلاف ، وبالإضافة إلى تردده على المكتبات وتصفحه إلى هذا العـدد الهائـل من

الكتب ، اتصل بالكثير ممن له صلة بموضوع كتابه إن في تـونس أو في خارجها، ولا يعرف المعاناة التي تواجه الباحث إلا من يكابدها.

ومن ناحية أخـرى فالمعـاجم والفهـارس أصـبحت الآن ضـرورية في مجال البحث العلمي، ولا يتسنى القيام بدراسة موضوع ما له صـلة بالثقافــة العربيــة الإســلامية مثلا دون الرجــوع إلى أعلام الــزركلي أو معجم المـؤلفين لكحالـة أو المعجم المفهـرس لألفـاظ القـرآن الكـريم لمحمد فؤاد عبد الباقي، أو المعجم المفهـرس لألفـاظ الحـديث النبـوي وغيرها

قد يقـال إن عملـه يقتضـي منـه أن يقـوم بمثـل مـا قـام بـه من أعمال علمية، ولكن الكثير ممن كان مثله من الإداريين لم نـر لهم هـذا الفيض الغزيــر من النشــاط العلمي والأدبي، فهــو يعمــل في المكتب، وحتى في الشارع، ألم يكن لقائي به الأول في نهج اسبانيا، فقد حيـاني الرجـل وفهمت أنـه يعـد بيبلوغرافيـاعن الأدب التونسـي المـترجم إلى اللغات الأخرى، وذكر أن لي قصة ترجمت إلى اللغة الروســية، فطلب مني ترجمة ذاتية، ومد لي اسـتمارة، فشـكرت الرجـل على عنايتـه، ثم انصرف، وبقيت أنظر إليه حتى اختفى في الزحام

وجمعتني الأقدار بالأسـتاذ الـدخلي عـدة مـرات، فوجدتـه إنسـانا طيب المعشر،حلو الحديث، تأنس إليه سريعا، وكيـف لا يكـون مؤانسـا والرجل قد م من (حي المؤانسة) بجرجيس والمولود بها سنة 1941.

وعاش في بيئات مختلفة في أثناء قيامـه بالتـدريس، فمن تـونس إلى المنستير وتوزر ثم صـفاقس والمرسـى، وتلقى تعليمـه بالمدرسـة الصادقية ثم بالمعهد الثانوي للذكور بمدينة سوسة،وتحصل على شهادة البكالوريا سـنة 1962 وهـو في العشـرين من عمـره، فوقـع تسـخيره للتــدريس بمدرســة دار الجلــد الابتدائيــة لمــدة شــهرين، لتعــويض أحــد المدرسين الفرنسيين الذي غادر تونس إثـر حـوادث بـنزرت، ولمـا نجح في منــاظرة الــدخول إلى دار المعلمين العليــا أعفي من التــدريس ، لمواصلة تعلمه العالي بشعبة اللغة العربية، وتخرج منها سنة 1965

هذه البيئات المختلفة أكسبته خبرة في التعامل مع الناس بلطف ورفق، كما علمته أن يستمع إلى الرأي المخالف بكل هـدوء ولين، وقـد يتحول هـذا الـرأي المخـالف إلى ظلم من بعض المرؤوسـين في بعض الأحيان، فيواجه بالصمت ثم الانفعـال الشـديد الـذي لـه تـأثير بليـغ في الصحة، كما لا يخفى.

ولدماثة أخلاق الرجـل وكفاءتـه اختـير كاتبـا عامـا لنقابـة التعليم الثانوي، فكان المناضل والمدافع عن حقوق رجال التعليم، وإثر إضراب عـام قـامت بـه النقابـة المـذكورة وقـع رفتـه من الوظيفـة العموميـة(1975) ثم وقع إلحاقه بوزارة الثقافة، فتولى عدة وظـائف، كمـا رأينـا،

إلى أن سمي مستشـارا لـوزير الثقافـة، وبقي بهـذه الخطـة بعـد سـن التقاعد، وما زال بها حتى الآن. أ

محمـــد العيـــاري

محمد العياري(1941 ـ 2008) كاتب المقالة الأدبية والنقدية، ومؤلف الكتب المدرسية للأقسام النهائيـة من التعليم الثـانوي، محـدث بارع، قوي الحجة،ومدافع عما يراه هو الصواب إلى درجة الخصام، وقد جلب لـه هـذا العنـاد، كمـا يقـول عنـه خصـومه، الكثـير من العـداوات، وخاصة في رحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بشارع 9 أفريـل، ممـا أدى إلى حرمانه من إتمام المرحلة الثالثـة من التعليم العـالي، بعـد أن نـال شـهادة الكفـاءة في البحث، الـتي تخـول لـه المشـاركة في تلـك المرحلة، وكان موضوع تلـك الشـهادة (محمـد الشـاذلي خزنـدار أمـير شعراء الخضراء) وقد نشر هذا البحث بتونس سنة 1975.

محمـد العيـاري متوسـط القامـة أبيض البشـرة، كـثيف شـعر الحاجبين، مفرط البدانـة، أصـيب في الأعـوام الأخـيرة من حياتـه بـداء الأعصاب، فاصفّ وجهـه، وخبت تلـك الشـعلة الوقـادة الـتي تنبعث من عينيه، ورق صوته، وانقشعت تلـك الحمـرة الوهاجـة الـتي كـانت تغمـر وجهه، ويبدو كطائر البرني إذا أخذ، أو اصطيد، يستسـلم لقانصـه، وكـذا محمد العياري الـذي كـان الكلام يتطـاير من فيـه كجلمـود صـخر حطـه السيل من عل: كما قال امرؤ القيس.

عادة ما يمر محمد العياري بنهج إسبانيا، وهذا هو المكان الـذي يتواجـد فيـه غالبـا، فقـد كـان يجلس بإحـدى المقـاهي المجـاورة للنهج المذكور، وبعد أن يتناول القهوة والحديث مـع بعض معارفـه يتوجـه إلى سوق الغلال والخضر، فيتزود منـه مـا كتب اللـه لـه، ثم يعـود إلى مقـر سكناه بحي محمد علي أو الوردية، فلم أسأله في أيهمـا يسـكن، خوفـا من أن يلقمني بحجر من أحجار امرئ القيس فمن يدري ؟

اعترضني ذات يوم بالنهج المذكور، فمد يده يصافحني كعادتـه، فكانت يده ترتعش بقوة، إلى درجة أنني لم استطع الإمساك بها، ولعل هذا المرض الذي أصيب بـه في أخريـات حياتـه، بالإضـافة إلى أمـراض أخرى هي التي عجلت بوفاته رحمه الله.

تخرج العياري من جامع الزيتونة، فنـال شـهادة التحصـيل سـنة 1959 وهي مايعــادل شــهادة البكالوريــا، وانخــرط في ســلك التعليم الابتدائي سنة 1960 وبقي معلما حتى سـنة 1968 فقـد تحصـل إثرهـا على الإجازة فى اللغة والآداب العربيـة، وبهـذه الشـهادة تسـنى لـه أن يصـبح أسـتاذا بالمعاهـد الثانويـة، وبقي بهـذه الخطـة يـدرس الأقسـام النهائية حتى سن التقاعد.

وعندما جاء من مسقط رأسه اللواتة بمكثر إلى تـونس للالتحـاق بجــامع الزيتونــة، لمواصــلة الدراســة، بعــد أن زاول تعليمــه الابتــدائي باللواتة، أقام في بعض المدارس المخصصـة لتلاميـذ جـامع الزيتونـة، و هي مدارس قديمة يعـود بعضـها إلى العهـد الحفصـي، و من المـدارس الـتي سـكن بهـا مدرسـة سـيدي الفهـام، الـتي كـانت ملاصـقة لـوزارة

الـدفاع وتعيش بهذه المدرسة في ذلك العهد أنواع ضخمة من الفئران، فحالما تطفـأ الأضـواء تهب هـذه الفـئران، فتبث الـرعب في النفـوس، وذات ليلة خرج أحد الطلبة لقضاء الحاجة، فأرتمى عليـه جربـوع كبـير، وعضه في سـاقه،وقـد تعـالى صـراخ هـذا الطـالب وتوجعـه، فهب إليـه زملاؤه من سـكان هـذه المدرسـة، فوجـدوا دمـه يسـيل على الأرض، فأسعفوه، وهكـذا زرعت هـذه الفـئران العملاقـة الـرعب والخـوف في نفوس هؤلاء التلامذة، ومنهم محمد العياري.

وعندما قدم محمد العياري إلى تونس العاصمة كانت منقسمة، ككل بلدان المملكة، إلى يوسفية وبورقيبية، وفي هـذه الفـترة نشـطت لجـان الرعايـة التابعـة للحـزب،فكـانت تبحث عن الطلبـة المنتمين، أو المناصرين لصالح بن يوسف، وتذيقهم ألوانا من العذاب، فكـانت تـزور مدرسة سيدي الفهام في ساعة متأخرة من الليل، وتأخذ بعض الطلبـة الذين تشك في وقوفهم في صف ابن يوسـف، فتأخـذهم إلى الشـعب، وتحاول بطرق غير شرعية أن تلجئهم إلى الإقرار بانتمائهم إلى الحركة اليوسفية، أو يدلون على أسماء زملائهم اليوسفيين، فكانت هذه اللجان تبث هى الأخرى، بالإضافة إلى سباع الفئران، الرعب في نفوس هـؤلاء الطلبـة الـذين لا تتجـاوز أعمـارهم العشـرين من العمـر، والـذين قصـد أغلبهم العاصمة للانضمام إلى الجامع الأعظم للتعلم لا غير .

وهـذا اللفيـف من التلامـذة هم الـذي اعتمـدت عليهم وزارة المعـارف في عهـد الاسـتقلال، فكـانوا النـواة الأولى للتعليم الابتـدائي، وبهم أنطلـق التعليم بتـونس في مسـاره الصـحيح، وكـانت حكومـة الاستقلال تغري هـؤلاء التلامـذة بـالانخراط في سـلك التعليم المـذكور، حتى أنها كانت تشجع بعض المعلمين من الذين يملكـون محلا فتسـميه مديرا، حتى تستوعب هذه الأعداد الهائلة من التلامذة الذين غصـت بهم المدارس الحكومية

ولمحمد العياري رأى في الأدب ووظائفه مفـاده أن الأدب شـعرا ونثرا يفتح للإنسان أفاقـا رحبـة على الأبديـة، فيشـعر أن الأبـواب الـتي كانت موصدة، عادت تتفتح، وأن الشجن الذي داهمه بدأ ينقشع، وتلـوح في النفس التي أفناها الألم إشراقات ما كان لها أن تظفـر بهـا، لـو لم تحضنها قصيدة رائقة، أو عمل أدبي يكشـف الحجب، ويصـحح المسـار، ويـدل على الطريـق الصـحيح، وأسـتند العيـاري إلى رأي أنشـتاين في وظيفـة الأدب الـذي يقـول فيـه: المفـر الوحيـد للإنسـان، هـو الشـعر والأدب، لأنهما هما اللذان يستطيعان أن يكسـبا الحيـاة معـنى، ويصـلحا بين الإنسان ونفسه، المهم هو تصالح الإنسان مع نفسه.

وهنـاك وظيفـة ثانيـة للأدب، وهي أنـه أداة من أدوات النضـال، يستخدمه الإنسان في مواجهة الظلم والاستبداد، وهو أمر نفهمه عندما نتذكر أن الأدب رافق المناضلين في كل زمان و مكان، و كـان أداة من

الأدوات التي تعبئ الجماهير، وتعدها للمواجهة الحاسمة، واستشهد العياري ببيت الشابي :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر

وبقول الشاعر الروسي ماياكوفسكي : أيتها البندقية، يا رفيقتي، الكلمة الآن لك. ومن هذين المثالين يدرك بجلاء أن الأدب حافز نفساني جليل الخطر ،وقادح رائع لإرادة الجماهير.

هذا بالنسبة لوظائف الأدب أما مفهومه حسب العياري، فهو تعبير عن حاجة يحس بها الفنان، ولا يجد مناصا من التعبير عنها، فهناك إذن إحساس بضرورة التعبير عن هاجس باطني، هو انعكاس للواقع الخارجي، وتفاعل معه، لا يحد الأديب مفرا من أن يطرحه، كرؤية فكرية تمثل موقفا من الحدث، أو من الظاهرة التي لاحظها، ويمثل التحدي خاصية أساسية في معالجة القضايا التي تواجه الأديب الفنان، ويقصد بالتحدي نظرة جديدة للحدث، أو الظاهرة تتجاوز العادي والمألوف، ولا تأخذ من المعطيات سوى الإخلاص للفن وحده دون سواه .

والتحدي، كما يقول، هو موقف يتخذه الأديب من الماضي، أو المجتمع، لفائدة الحاضر، أو لفائدة المستقبل، ذلك أن الكاتب يرى في المجتمع اعوجاجا، لابد من تقويمه، أو وضعا مترديا يتحتم إصلاحه أو تغييره، وتأخذ عملية التحدي شكلا هادئا حينا، عنيفا حينا أخر، وهى في كلتا الحالتين اعتداء مشروع على ما اهترأ في صلب المجتمع، ولم يعد متجاوبا مع الطموحات، والتطلعات الجديدة،.

ومن سمات التحدي, حسب المرحوم محمد العياري، أنه قد يفضي إلى تصادم عنيف مع مجتمع، يرى الإبقاء على النماذج التى ابتدعها أو ألفها ضروريا، باعتبارها جزء لا يتجزأ من كيانه، ويحتاج الفنان في هذه المواجهة إلى شجاعة تعزز خطاه ليرسي تقاليد جديدة، أو ليدل على الطريق المؤدي إليها، فيضطر الفنان إلى أن يكسر قيما قديمة، ويرسي مكانها قيما أخرى جديدة، وفي هذه العملية من المخاطرة والمجازفة الشيء الكثير .

ويواصل الكلام عن تحدي الفنان للأدب السائد في عصره، وتحديه للكتاب الذين تشبثوا بأساليب ومواضيع يكررونها فيقول : ولعل التحدي يتجلى في محورين بارزين: محور الأسلوب، ومحور الغرض، فيكون التحدي إذن تجاوزا للقوالب الأسلوبية الجاهزة والمدارس التي أعلنت عن نفسه أواعتبرت الانضواء تحت لوائها غاية الإبداع الفني، لقد ولى زمن هذه المدارس كالكلاسيكية والرومانسية وغيرهما، ولم تستقر مدرسة واحدة منها، ليبقى لها سلطان أبدي على الأدب، يبقى إذن شيء واحد هو مبدأ التجاوز والتجديد على أساس أن الذوق عملية تحول دائمة، وتطور مستمر.

وما يقال عن الأسلوب يقـال أيضـا عن الغـرض الـذي يتسـم هـو الآخر بمفهوم التطور والتجديد، فالأديب الحق لا يكرر مـا قيـل بـالأمس ويجتره، وهو مطالب بمواكبة هموم عصره، وما يطرح فيه من مشـاكل ومشاغل، وبذلك يرغب بصورة تلقائية عن أغراض مضى زمانها، ونالت حظها لدى أدباء عصرها .

وماعاق الأدب التونسي في نظر محمد العياري هو ازدراء الناس، وإعراضهم عن قراءة الآثار الأدبية التونسية، على أسـاس أنـه أدب فج، وقـد غـذى الاسـتعمار نزعـة الازدراء هـذه، وزادت من حـدتها دوامـة الانشطار بين حضارتني متباينتين هما حضارة الشـرق والغـرب، اللـتين تتنازعـان الإنسـان التونسـي، وتشوشـان فكـره،' وتعـرقلان صـحوته الصحيحة.

ومن خلال قراءته لمجلة المباحث واستقرائه لها تبين له الشـرق والغرب ماثلين معا على صفحاتها، وفق الصورة الحضارية الـتي ارتأتهـا أسـرة المجلـة، سـواء في ذلـك الرؤيـة الأدبيـة أو الرؤيـة العلميـة، باعتبارهمـا وجهين متلازمين في المسـتوى الحضـاري، ورافـدين وقـع عليهما الاختيار لتغذية المجلة، منذ أن ظهرت إلى أن احتجبت.

واعتبر الأستاذ العياري أن هذا الاتجاه كان اختيارا مقصودا، توخاه جماعـة المبـاحث، انطلاقـا من الإيمـان بتوسـيع الثقافـة وتعميقهـا وترسيخها، وإدراكـا منهم لمسـؤولية تاريخيـة، تتمثـل في أن المبـاحث ورثت مجلة العالم الأدبي لزين العابدين السنوسـي الـتي صـدرت سـنة 1930 وتوقفت سنة 1936فكان من الضروري أن تملأ المجلة الجديدة فراغا تركته المجلة المحتجبة، وأن تكسب في الآن نفسـه جمهـورا من المثقفين، يتعـاطف معهـا ، ويعـزز مسـيرتها، ولـذلك كـانت افتتاحيـات المجلة وعنوانها يشيران الى الشمول والموسوعية، فهي المبـاحث في الأدب والفن والتاريخ والفلسفة، وهو مـا يؤهلهـا لأن تسـتوعب معـارف العصر، إرضاء للأذواق المختلفة، والاتجاهات المتباينة، ومن ثم الـتزمت منهجيا بحرية الفكر، ورفضت أن تنحاز لمذهب دون مذهب، وإنمـا وطنت العزم على أن تخدم الأدب، وتبلغ صوت الفكر، كائنـة مـا كـانت منابعه.

وجاء في افتتاحيـة عـددها الأول: هـذا أول عـدد من المبـاحث بين يديك، وقد أسسنا هاته المجلة لتساهم في تبليـغ رسـالة الأدب، وهي لا تعنى بخدمة مذهب محدود، ولكنها تخدم كل مذهب حي هـو للفن يمت بصلة الرحم والقربى.

ورفضها كمـا قـال المرحـوم العيـاري للانحيـاز يعـني تحررهـا من التعصب،والتقيد بأفكار جاهزة لا ينبغي تجاوزها، ومن ثم التزمت بخدمة الفكر شرقيه وغربيه، على أساس أنهما أكثر المنـابع ثـراء واتسـاعا، إذ تأثرا ببعضهما منذ القدم، وظل تواصلهما الحضاري قائمـا، رغم العـداء،

وصراع البقاء، وبذلك كـانت المبـاحث همـزة وصـل بين ثقافـة الشـرق وثقافة الغـرب في مسـتويين مختلفين همـا: العقـل والوجـدان، ونعـني بذلك الناحية العلمية والأدبية.

ثم انتقــل العيــاري الى الحـــديث عن المحـــورين البـــارزين في المباحث، وهما ثقافة الشرق وثقافة الغرب، فـأبرزت مسـاهمة العـرب في إرساء العلوم،وأفسحت المجلة صـفحاتها للحـديث عن الحسـن بن الهيثم وجابر بن حيان وإخـوان الصـفاء، وهـؤلاء يمثلـون التيـار العلمي، وقد كتب محمد الميلي فصلا نـوه فيـه بمـا بذلـه العـرب من جهـود في نشر العلوم الرياضـية بعـد اسـتيعابها وتمثلهـا، قـال: للعـرب فضـل في درس العلوم الهندسية اليونانية، وفي نشر أصول إقليدس بربوع أوروبـا في القـرون الوسـطى، هـذه النمـاذج من الفكـر العلمي عنـد العـرب طرحت، كما يرى العياري،بغية التعريف بنصيب العرب الحضـاري، ودرء للتهمة التي أذاعها غلاة الاستشراق، والقائلة بأن العقـل العـربي عقـل نقل وليس خلق وإبداع.

وقد استعرض جماعة المباحث جهود العرب في العلـوم، وكـانت مقاربـاتهم نقديـة تحليليـة، ولم تقتصـر على جـانب التمجيـد والتنويـه فحسب، ووصل الأمر ببعضهم إلى نقد إخوان الصفاء في ادعائهم بـدور الأحاسيس والمشاعر في التفكير الرياضي،إذ اعتبر هذا المجال خاضـعا للعقل وحده دون سواه، وهو موقـف، حسـب العيـاري، يرشـح الـتراث العلمي العربي إلى أن يكون معاصرا، شرط أن نتمسـك بالحـذر إزاءه، ولا ننخدع بالعواطف والأساطير الـتي اكتنفتـه، حـتى قللت من أهميتـه، وحدت من إشعاعه، على أن هـذا الفكـر العلمي الـذي اسـتأثر باهتمـام جماعة المباحث كان في حاجة إلى رصيد حضاري جديد، يغذيه وينميــه، ولن يتسنى ذلك إلا بتقـريب العلـوم العصـرية من الأذهـان عن طريـق اللغة العربية، وهو ما وقع بالفعل إذ ظهرت في هذا العهد مؤلفـات في الهندسة والجبر باللغة العربية.

والى جــانب العلــوم اهتمت المبــاحث بــالأدب العــربي قديمــه وحديثه،واهتمت خاصة بالأدب المشـرقي الـذي كـان مزدهـرا في ذلـك العصر، ودعت التونسيين إلى خلق أدب تونسي جديـد، يـواكب الحيـاة، كما هو الحال في المشرق العـربي،ومـا كتب عن الأدب المشـرقي في مجلــة المبــاحث يقــول عنــه المرحــوم العيــاري مــا يلي: كـان الأدب المشـرقي قديمـه وحديثـه رافـدا من روافـد المجلـة، تقدمـه لقرائهـا بطريقة نقدية، تبرز دور الكـاتب التونسـي في سـعيه لبلـورة شخصـيته ومفاهيمه في إطار الحركة الفكرية للأدب العـربي، خلال النصـف الأول من القرن العشرين، وتعكس هـذه الطريقـة شـيئا من جدليـة الاتصـال والانفصال بين أسرة المبـاحث والكّـاب العـرب في مصـر خاصـة، كمـا تبقى المواقف الفكرية المتباينة الـتي عـبر عنهـا جماعـة المبـاحث دليلا

على أن الحركة الفكرية في تـونس انتعشـت على صـفحات المبـاحث، وشهدت انطلاقة مرموقة بفضل جماعة من الكتاب التونسيين تسـلحوا بالحماس، وبمنطق ديكارتي في علاج شؤون الفكر والأدب.

ثم انتقل العياري إلى ثقافة الغرب في مجلة المبـاحث، فأكـد أن أسرة المجلـة كـانت واعيـة بـالتطور الـذي سـجله الغـرب في مختلـف حقول المعرفة الإنسانية، وبما أن أسرة المباحث ينتسـبون عمومـا إلى الجيل الذي اطلع على ثقافة الغرب عن كثب، فإنهم كـانوا مـدركين أن تطور الغرب كان نتيجة مباشرة لما بلغه العلم من ازدهـار ورقي، ومن ثم انصب اهتمام الجماعة على عديد المجـالات العلميـة في مسـتويات مختلفة، لتقدم ذلك كله لجمهور المثقفين التونسيين الـذي كـان بحاجـة إلى هذا الركن، ليسد به فراغا ظل يشكو منه زمنا طويلا.

ومن المواضيع العلمية العلمية الـتي قـدمها كتّـاب مجلـة المبـاحث نـذكر تاريخ الكهرباء، والتطور الذي عرفته في العصر الحديث، وطبقات الجو من حيث مفهومها ومظاهرها وتأثيرها في الطبيعة، واكتشاف البنسـلين ودوره في مقاومـة الأوبئـة، والمراحـل الـتي اتبعهـا العـالم الانجلـيزي فليمينغ لاكتشاف هذا المضاد الحيـوي الفعـال، وتمـيزت هـذه الفصـول العلمية بالتبسيط والتوضيح، حتى يفهمها القراء ويعـوا أبعادهـا، وتتمكن المجلة بالتالي من أن تجمع حولها طبقة من ذوي الاهتمامـات العلميـة، تقدم لهم على صفحاتها نماذج من حضارة الغرب، لاحتذائها، والاقتباس منها، والعمل على إخراج الوطن العربي من الركود العلمي الذي تردى فيه منذ قرون بعيدة، وهذه الغاية تفسر الركن العلمي القار الذي دأبت عليـه المجلـة طيلـة السـنوات الثلاث الـتي ظهـرت فيهـا بصـورة شـبه منتظمة.

أمـا الأدب الغـربي فقـد تـرجمت منـه المبـاحث الكثـير، واهتمت خاصـة بترجمـة بعض من عيـون الشـعر الفرنسـي، وأبـرز من تـولى الترجمـة في هـذا المجـال الصـادق مـازيغ، والهـادي العبيـدي، ومحمـد البشروش، وعربوا من الشعر ما كان ذا طابع رومانسي، يتلاءم والذوق العربي عموما، علما بأن هذا الذوق يطرب للنغم الوجداني الحائر، يعيد ذكرى شجية، أو ينـاجي كوكبـا سـاهرا في السـماء، أو يتوسـل لحـبيب صرم الحبل وهجر.

وأورد العيـاري مقطوعـة شـعرية لبـول فـارلان ترجمهـا محمـد البشروش صاحب المجلة وعنوانها، إلى غير بعث:

أيتها الذكرى ماذا تريدين مني
إن الخريف، أطار الشحرور في الفضاء الواجم
كنا نمشي وحيدين، نمشي مع الأحلام
هي وأنا، الشعر والأفكار مع الهواء
ودارت لي بعينيها المتقدتين

ورن صوتها الذهبي العذب
الملائكي النبرات قائلة:
أيها أجمل أيامك
ابتسامة خفيفة أجابتها، وقبلت يدها البيضاء بنهم
وهكذا راوحت المباحث بين الشرق والغرب فكرا ووجدانا، فجعلت من الثقافة الغربية والثقافة العربية محورا رئيسيا لأبحاثهـا، لأن الثقافة العربيـة على الأخص لم تكن عقيمـا، وأن العقـل العـربي الـذي أنتجها لا يعاني في حاضره قصورا فطريا نابعا من ذاته، وإنما هو ضحية للخمول الذي كان قدره، نتيجة للظـروف السياسـية والاجتماعيـة الـتي حفت به، ويقظـة العـرب تبقى رهينـة بيقظـة الفكـر، واسـترجاع الثقـة بالنفس.

كان محمد العياري وطنيا مدافعا عن حضارة تـونس ومقوماتهـا الثقافية، وحريصا على بعدها العـربي الإسـلامي، دون أن ينسـى بعـدها الإنساني رحم الله المربي والأستاذ محمد العياري .،

فـــــــرج جـــــويـــــــــــرو

طويل القامة، ضعيف البنية، ضيق العينين، ولكن هـذا الضـيق لا يمنعـه من الإبصـار على أحسـن مـا يـرام، بشـرته أميـل إلى السـمرة، ضحكه قهقهة، كأنه يسخر من شيء ما، وكثيرا ما يغطي فمـه بيـده إذا ضحك أو قهقه، كأنه لا يريد أن يكشف عن عيب ما بفمه.

عرفت فـرج جـويرو على مقاعـد الدراسـة بكليـة الآداب والعلـوم الإنسانية،بشارع 9 أفريل 1938ـــ قسم اللغة والآداب العربيـة ـــ بعـد مجيئه من الشرق، فقد كان يواصل دراسته العاليـة هنـاك، إلا أن تعكـر العلاقات السياسية بين هذا البلد وتونس جعله يعود، بعد أن كـاد يكمـل المرحلة الأولى من التعليم العالي، ولكنه لم يواصل الدراسة معنا فقـد قضى سنة ثم اختفى.

وصـادف ذات يـوم أن ذهبت إلى إدارة مجلـة (الهدايـة) بـالوزارة الأولى بالقصبة، لإيداع مقـال قصـد نشـره بهـذه الدوريـة فوجـدت الأخ فرج جويرو مشرفا على متابعة الطبع والتصحيح بهـذه المجلـة، فـرحب بي ترحيبا زائدا.

وكان صاحب نوادر طريفـة من ذلـك أنـه دخـل ذات يـوم لقضـاء بعض الشؤون في مؤسسة ما، طرق الباب ودخل، فوجـد رجلا وامـرأة في موضع مريب، فأغلق الباب وفر هاربا، وكان مما سـمعه قـول ذلـك الرجل للمرأة التي بين أحضانه:(يلعن بو زينك)ولم يعد لتلك المؤسسة، رغم حاجته إليها، فقد كان الرجل يغضب وينفعل كلما رأى محـارم اللـه تنتهك.

ومر الكثير من رؤساء التحرير على المجلة المذكورة، ومن بينهم رجل ظهر له إصدار ملحق خاص للأطفال، ويبدو أنـه تعاقـد مـع الإدارة المعنية على هذا الملحق، كما حدثني رئيس التحرير نفسه، وبعد صدور العـدد الأول من هـذا الملحـق أخـذ يـرحب برسـائل الأطفـال الصـغار، وإعجابهم بهذا الملحق، وقد أقسم الأسـتاذ فـرج أنـه لم تصـله رسـالة من أي طفل كان، والسيد جويرو هو الذي يتلقى بريد هذه المجلة.

وفي هذه الفترة أي في السـنوات الأخـيرة من القـرن العشـرين بدأ جويرو في قرض الشعر، فكان يسمعني قصـائده،كلمـا جلسـت إلى مكتبه، كأنه يجد متنفسا له إذا ألقيت سمعي لما يقول.

كـان شـعره أقـرب إلى النظم،ولكنـه يضـفي عليـه من روحـه وأحاسيسـه الجياشـة وعواطفـه الملتهبـة،وتغـير قسـمات وجهـه، ممـا يجعلك تنتبه إليه، ويشدك إلى ما يقول.

وكان في كل مرة أزوره يسمعني ما تجـود بـه قريحتـه، ويحشـد في هـذه القـراءة كـل مـا أوتي من قـوة، فكنت أحسـب أن الحـروف والألفاظ يقذفها من أعماق قلبه، كأنها الصخور التي تقـذف من أعلى، وكانت سحنته تتبدل كلما تبـدل المعـنى، وصـوته الشـجي يـدمع العين، وآهاته كأنها شهقات مريض أشرف على الموت، وقوافي شعره تقعقـع كالرعـد القاصـف، وكأنـه يشـعر بشـيء من الارتيـاح كلمـا أخـرج هـذه الألفاظ من مكنون صدره، تماما كمـا يقـذف المصـدور كميـة من الـدم ليستريح، ولو لفـترة قصـيرة،وعـرفت أن الشـعر يسـمع ولا يقـرأ، وأن صاحبي مسكون بالشعر، هذا الفن الـذي وجـد فيـه وسـيلة للتعبـير عن الحنين والشوق إلى الأماكن المقدسة،وإلى ساكن طيبة ومرابـع نـزول الوحي.

والأستاذ فرج رجل عميق الإيمان، يغـار على دينـه، كلمـا خدشـه مفتر، أو مسّه بسوء ماس من بعيد أو من قريب، ورأيت أنه كلمـا ذكـر الرسول لا يصلي عليه فقط وإنما ترتعد فرائصه، ويهتز كيانه كأنه سمع اسمه لأول مـرة، وقـد توسـع في فهمـه للإسـلام ولمقاصـده من خلال المقالات والبحوث والدراسات التي تنشـر في مجلـة الهدايـة، فالرجـل يطلع ــ بحكم عمله ــــ على العـدد الـذي سيصـدر من ألفـه إلى يائـه، إطلاع القـارئ أو الـدارس الـذي لا تفوتـه شـاردة أو واردة،ولهـذا تقـل الأخطاء المطبعية في هذه المجلة، وقد بقي مصححا ومتابعا لطبع هـذه المجلة حتى بلوغه سن التقاعد.

متابعة سير المجلة من الدراسة أو المقال الذي خطه صـاحبه ثم الإصلاح في المرة الأولى فالثانية جعل الأستاذ فرج مطلعا اطلاعا جيـدا على الثقافة العربية الإسلامية، بل ولـه رأي في تصـحيح بعض الأفكـار، وتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

واضح أن المنحى الشعري الذي اختاره جويرو هو مـدح الرسـول عليـه الصلاة والسـلام، وهـو ضـرب من الشـعر لا نجـده مطروقـا في الشعر التونسي المعاصر،نعم نجده في فرق المدائح والأذكار،وهو شعر لـه ملحنـوه ومنشـدوه، ولـه ارتبـاط بالموسـيقى وثيـق، تمامـا كالغنـاء العـادي، ولـه في الشـرق العـربي مكانـة متمـيزة، ولـه مختصـوه في التلحين والتوزيع الموسيقي، وأغلب الملحنين والمنشـدين من حـاملي الشهادات العليا من الجامعات كالطبيب والمهندس والقاضـي والأسـتاذ الجامعي وغيرهم.

يستمد جويرو قصائده من المناسـبات الدينيـة،ويسـتلهم أشـعاره من السيرة النبوية،ومن القرآن، وقد جمع هذه القصائد في ديون صغير الحجم(32ص)كلــه شــوق وحــنين إلى الحضــرة النبويــة، ومن هــذه القصائد،وأغلبها سمعتها منه:(رمضان) و(عـبرت الـدنى) وهي في رثـاء الكاتب محمد الحبيب عبـاس و(حجيج الـبيت)و(ولـد المصـطفى) و(إلى عرفات الله) و(قاب قوسـين)، و(سـراقة والجـائزة)و(من وحي المولـد النبوي) وغيرها.

وفي هذه العجالة نذكر بعض النمـاذج من شـعره، لـيرى القـارئ الاتجاه الصوفي الذي اختاره هذا الرجل لنفسه، وقلنا الاتجـاه الصـوفي على مـا فيـه من مبالغـة،وإلا فهـو ثنـاء ومـدح للرسـول عليـه الصـلاة والسـلام،وكيـف بلـغ الرسـالة وأدى الأمانـة، وأخـرج النـاس من ظلام الشرك إلى نور التوحيد، يقول في إحدى قصائده:

طـرقت بـاب رسـول اللـه ملتمسـا منـه الـدخول ونـار الشـــوق تدفعني
وبين أمن وخوف كنت منتظـرا والطـرق في البـاب مشـتد وفي بدني
إذاك قلبي يكـــــاد يقفز فرحـا قلـبي يكـاد ورب الـبيت يتـــــركني
ومــــاء عيـني منسـاب ومنهمـر مـع نشيـــــــــج أليم كـاد يخنقني
عيناي كالعين إبان انحدارهما قد كـاد دمـــعي وآي الــذكر يغمرني

وقال في حجيج البيت:

حجيج الـبيت هـا أني لفـرط الشـوق في موقد
نهاري دونمــا ليل وجسمي دونما مرقـد
وكوني متعب مجهد
حجيج البيت أشواقي إلى تاج الهدى أحمــــد
إلى صديقـــه السامي إلى فاروقه المنجــــــد

إلى من كان في الموعد

حجيج البيت يا ويحي على مـــــن ذاب تحنانا

إلى أم القــــــرى حقا إلى بيت بها كـــــــانا

يسمى بيت مـــــــولانا

وفي الإسراء والمعـراج، يقـول في قصـيدة بعنـوان قـاب قوسـين إشارة إلى الآية (فكان قاب قوسين أو أدنى):

الركب يا صاحبي يدنو ويقترب الركب ها هو ذا بالباب يرتقب

وأحمد المصطفى للروح مستمع والـروح يبلـغ عن مـولاه مـا يجب

يـا سيـــــد المرسـلين لا تكن وجلا من كنت ثانيـه فـالأمن يصطحب

ومن يكــــن في سبيل الله منطلقا فهو السعيد ولـو حـاقت به الكرب

قم يـا محمــــــد يـاخير الـورى خلقـا إن الـبراق أمــــام البيت منتصب

وبعد سير حثيث كما يقول صحبة الروح أي حبريل وصـل إلى بيت المقدس وصلى بالأنبياء،ثم عرج به إلى السماء:

ثم اسـتقل الأمين سلمـــــا عجبـا إلى مجاهيـل فيهـا الغيب والعجب

فأبصـر المصـطفى مـا قص بعدئـذ قـد أبصـرت مقلتـاه النــــار تلتهب

وشـاهد مـــــن غيـوب اللـه طائفـة إن رام تقييدهــــا فاللفظ ينسحب

إلى أن يقول:

كم من مجاهيــل بــالعينين أبصـــرها والمنتهى منهمـــا ينآى ويقترب

وقاب قوسيـــــــــن ساقاه توقفتا من خالق لا يني من خيره يهب

هنـاك خاطبـه الرحمـــــــــن متئـدا فأنصـت المصطفى والمصطفى يعب

فكانت الخمس إكــــراما ومفخـرة ومـــــــن سواه بها لـــلأهل ينقلب

لكم تمـــنيت أن لــــــو كنت قربهمـــا ودون قربهما الإجهــــاد والنصب

صلوا على المصطفى المختار ما بز غت في الجـــو بازغة أو كان ما يجب

صلوا على من عليه صلى خالقنا بعـد مــــن لتراب الأرض ينتسب
صـلوا عليـه بعـد القطـــــر منهمـرا مـذ كـان قطرا من الأجواء ينسكب

وفي ذكرى المولد النبوي يستعرض حياة الرسول منذ ولد بمكة، وكيف نشر الإسلام بفضل القواد والعلمـاء الـذين تخرجـوا من مدرسـة النبـوة،والفتوحـات الـتي قـاموا بهـا، وكـانت خـيرا وبركـة على البلاد المفتوحـة،ثم تكاسـل المسـلمون، ودخلـوا في طـور الـوهن والاختلال، فطمع فيهم العدو، واحتل أراضيهم، يقـول متحـدثا عن مسـقط رسـول الله مكة:

هنالـك بيـــــن الـربى والتلال بــــواد عقيـــم كسته الرمــال
بعيدا عن البحر عن خيره وعن تمــر باسقـــــة لا تـزال
هنالــــك مكــــــة أم القـــــــــرى جثت جلســـة العبــد للابتهــال
تسبــــــــــــح للــه في جهـرة وتصـدقه الحمـد في كل حــــال

ثم لما تقاعسـوا، وانتشـر التواكـل، أصـبحوا لقمـة سـائغة للعـدو الدي يتربص بهم ، فانقض عليهم وأنشب فيهم أظفاره :

وبعد انتصار بعيد المدى على الكفر والفقر والانعزال
دعتــــهم بلهف أرائكهم فناموا قرونا وذا النوم طال
قرونــا بهــا كــان عشــق النســا وحب اللذائـــــــــذ والاتكال
ومن نومهم ذاك قد أنهضوا على هجمة الكفر والاحتلال
فعاشـــوا عبيـــدا على أرضـــهم إلى أن أتى من تحـــدى المحال
شباب بأحمـــــــد قـد آمنـوا فثـاروا ففـر الدخيـــــــل وزال

وكعادته في أكثر قصائده يبرز شوقه وحنينه لزيارة قبر الرسول:

ســلام على سيـــــــدي المصـطفى بعـد النجـــــوم وعـد الرجـــــــال
ســـــــــلام على القرشـــي الـــذي بـــه أدرك الـــدين أوج الكمـــــــال
ســــلام على سيـــــــد الأنبيا و مهوى النفـوس و مسرى الهلال

سـلام على سيدي كلمـا تنفس صبـح و خـر زلال

ونختم هـذه النمـاذج من شـعر فـرج جـويرو بقصـيدة (سـراقة والجـائزة) وهي مسـتوحاة من السـيرة النبويـة، وملخص الواقعـة أن الرسول لما هاجر من مكة إلى المدينة خفية،وأرادت قريش أن تمسك به لتقتله رصدت جائزة كبرى لمن يعثر عليه أو يدل على مكانه، فسمع سراقة بن مالك بالجائزة، وهو فارس لا يشق له غبار، فقـرر أن يقتفي أثر الرسول وصاحبيه، لتكون جائزة قريش من نصيبه، ولما اقـترب من ركب الرسـول أخـذت فرسـه تتعـثر وتسـقط وتغـوص في الأرض، واسـتحال على سـراقة أن يلحـق بالرسـول ومن معـه،وعـرف أن في الأمر سرا ربانيا، فنادى بالأمان، فوقف ركب الرسـول ،وأخـبر سـراقة النبي أن قومه جعلوا فيه الديـة،وأن النـاس يريـدون بـه شـرا، وعـرض على الرسول الزاد والمتاع، فامتنع عن أخذ أي شيء منه، ولكنـه طلب منه أن يخفي عنه، وذلـك بـأن يـدلهم على طريـق غـير الطريـق الـذي سلكه الرسول وأبو بكر ومن معهما،وطلب سـراقة أن يكتب لـه كتـاب أمان ، فكان له ذلك، فكيف استغل الأستاذ فرج جويرو هذه الحادثة؟

يقول في تقديم هذه الواقعة:

كأني بالأميـن وصـاحبيه يغـذون المسـير تجـاه طيبـه

وقـد تركـوا ببكـة من عـرفتم تعضـهم الندامـة والرغيبه

ثم يشـرع مباشـرة في الحـديث عن سـراقة،وأملـه في الحصـول على الجائزة:

وخلفـهم سـراقة مستقل قطار الموت طلبته عصيبه

وما أن شاف أحمد وسـط قفـر تيقن أن فيـه له نصيبه

ولكن الفرس لم تستطع اللحاق بركب الرسـول، رغم أنهـا كـانت منذ وقت قريب تطوي الأرض طيا:

ولكن الجـواد بعيـد سـبح تسـمر ،إن وقفتـه مريبـه

فخاشنه بأعنف مـا لديـه فـزاد حـرونة أرخى نحيبه

وعاد إلى الـورا يبغي فـرارا فعـاود ضربـه بقوى غريبه

فزاد لهاثـه فازداد شـدا فصـب جبيـن راكبه صبيبه

ثم ينتقل إلى وصف الحالة النفسية التي أصبح عليها سـراقة بعـد أن حرن فرسه:

فجن جنونه ضاقت عليـــــه قفـار هي أوسـع مــن رحيبه
وغـامت مقلتـاه بلا غيــــوم وطـار قـراره فرأى المصيبه
وأبصـر جـده في غـير سـعد كنـوق تنشـــد الأرض الجديبه
أيمضـــي في المهامـــه دون عـــود إلى الـــزوج المحبة والحبيبه
أيركب نحسـه وبلا ونـاء إلى أرض تسـتّره غريبـــــه

وحاول استنهاض الجواد من جديد، وعاوده الأمل بالحصـول على الجائزة، وكيف سيطير ذكره في الآفاق، ولكن دون جدوى، فالجواد قـد ألقاه أرضا هذه المرة:

وبعد دقائق في طـــول عـــام تهاوى كالقضـاء فـوق ركيبه
يريـــــــد محمـــــدا حيـا وحيـا ليحيـا ماجـــدا ويـرى قريبه
وينبه ذكره في كـــــــل قطـــر لفعلـه مـــــا تجنبـه الكتيبه
وخر على الرمـال سـقوط قصـر تنـاثر طــــوبه كسـفا كئيبه
كـذا تهـوي المطـامع دون ريب خضـم الرمـــل يبتلـع كثيبه
وتبتلـع المفـــــــــاوز كـل شـلو وتمتحن العضـنفر أو ربيبه

ولم يدر سراقة أن الله يرعى عبده ورسـوله ويكلـؤه بعنايتـه،وأنـه ناصره لا محالة:

تجاهل ذا السـراقة بـل تناسـى مكائـد ربنـا فوق الرهيبـــه
محال أن يكون لك اقتـــدار على من كـان خالقه رقيبه

ثم يعود فيصف حال سراقة بعد أن فشل هو وفرسـه في اللحـاق بركب النبي:

ومن بعـــــــــد الســــــــــقوط على رمــــــــــال تحامـــــــــل فاستقام بدون ريبه

فألفى سيفه من غير غمـــد وعريه في العـــراء يبدي مشيبه
وشام جـــواده ساخت يداه فما استطاع الوقوف ولا ضريبه
فأيقـــن أن مــا يــأتي اعتــداء يزيــل رجـــولة المرء المهيبه
وأن مســيره هـــذا عضـــال أليم مـــوجع يلقى دبيبه
وأن محمـــدا هـــذا رســـول تؤيــده السماء ولا ركوبه

وفي أحد الأيام كنت مارا بالقصبة، فتذكرت الصديق فرج جويرو، فدخلت إلى مقر مجلة الهداية،وكان من العـادة أن انعطـف إلى اليمين في الطـابق الأرضـي ، ولكن عـون الاسـتقبال أشـار علي هـذه المـرة بالصـعود إلى الطـابق الأول، أين يوجـد مكتب السـيد فـرج ، طـرقت الباب، ودخلت فوجدت رجلا منتصبا في مكتب أنيق، وأمامـه رزمـة من الأوراق ينظر فيها، والقلم بيده وحوله بعض الكتب والمعاجم، استقبلني السـيد فـرج بكـل بـرودة، هـذا الـذي كـان يشـدني إليـه في مكتبـه في الطـابق الأرضـي لأكـثر من سـاعتين، ليسـمعني أشـعاره، لم أجـد مـا أقول،فحييته وخرجت، وتذكرت إحدى نوادر الجاحظ في كتــاب البخلاء، وذلك أن رجلا من أهل مرو كان يحج ويتجر،وينزل على رجـل من أهـل العراق، فيكرمه ويكفيه مؤونته، ثم كان كثيرا ما يقول لـذلك العـراقي: ليت أني قد رأيتك بمرو، حتى أكافئك لقديم إحسـانك، فعرضـت لـذلك العراقي حاجة في تلك الناحيـة، فتـذكر صـديقه المـروزي، وتوجـه نحـو مكانه، وهو في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسوته، فلما وجده قاعـدا في أصحابه أكب عليه وعانقه، فلم يره أثبتـه، ولا سـأل بـه سـؤال من رآه قط، قال في نفسه: لعل إنكاره إياي لمكان القناع، فرمى بقناعه، وابتدأ مسألته، فكان له أنكر، فقال لعله أن يكـون إنمـا أوتي من قبـل العمامة فنزعها، ثم انتسب وجدد مسألته، فوجده أشد ما يكون إنكـارا، قال لعله إنما أوتي من قبل القلنسوة، وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل، فقال: لو خرجت من جلادك لم أعرفك.

والشعراء عادة متقلبو المزاج، والأخ جويرو منهم ، ومن كان هذا دأبه لا يثبت على حالة واحدة، غفر الله له.

أحمـــد الطويـــلي

في زحمة نهج الجزيرة بتونس العاصمة المملوء بمختلف البضائع والسلع في طريق المارة، كنت أمشي مع ابنتي بصـعوبة، إن من كـثرة المــارة، أو من هــذه البضــائع ذات الألــوان البراقــة، وذات الأحجــام والأشكال المختلفة،التي تجلب الأنظار، والتي تكدسـت على الرصـيف، أما السيارات فكانت تتحـرك في الطريـق المخصـص لهـا ببطء شـديد، تـراءى في هـذا الزحـام، أو في هـذه الفوضـى السـلعية الـتي يتهـافت الناس على شرائها رجل مفرط الطـول(ولقبـه يـدل على ذلـك) ضـخم الجثة، وكثيرا ما يتبين لنا الشخص الذي نعرفـه، ولـو كـان بين مئـات أو آلاف الأشـخاص، اقــترب مــني، واســتوقفني محييــا، لم أره منــذ زمن بعيد،كان شابا يتقد حيوية ونشاطا، يذرع شوارع تونس العاصمة بقامتـه المديدة، ووجهه الذي يتوهج حمرة، وشارب غـدافي اللـون، لا تسـتطيع أن تلحق به إلا إذا ركضت وراءه أو ناديته بصوت عال، كان هاجسه في تلك الأيام النشر في المجلات والصحف، فإذا تصفحت جريـدة أو مجلـة يطالعك أحمد الطـويلي بمقـال أو بدراسـة، وبجانبـه صـورته، وتتسـاءل متى كتب كل هذا الزخم من المقالات، والحال أن معظم أوقاته يقضيها بين طلبته في كلية الآداب بتونس،

نظـرت إلى الرجـل فوجدتـه تغـير فيـه كـل شـيء، أبيض شـعره وشاربه، وكان أسود فاحما، وتحولت تلك الحمرة المتوهجة إلى صفرة، الـزمن لا يـترك شـيئا لا يتـدخل فيـه، يغـير ويبـدل كـل شـيء:الإنسـان والحيــوان والنبــات وحــتى الجمــاد، ولكن الإنســان لم يستســلم لهــذا الوحش الضـاري، فبـنى الحصـون والقلاع والأبـراج والأهرامـات، وتـرك لمسات لا يمحوها هذا الوحش، وتتمثل في أثاره العلمية والأدبيــة الــتي نعود إليها في اليوم والليلة، ألا نتغنى بشعر المتنبي والمعري وغيرهمــا، رغم أن الزمن قد غيبهما، ولكنهما على كل حال قد تغلبا على الــزمن ، وإن إلى حد.

ولكن أحمد الطويلي ــ وهو الآن في السبعين من عمـره ـــ مـا زال سريع الحركة، كعهدي بـه منـذ ثلث قـرن، لقـد تحـدى المسـافات، وتحدى الزمن كذلك، فزار خمسين دولة في العالم،زار أمريكـا وأوروبـا وإفريقيا وآسيا، والقلم بيده يسجل ما رأى، ويقيد ما يسـمع، وقـد يعـود إلى كتاب ليتثبت مـا رأتـه عينـاه، وسـمعته أذنـاه،كشـأن أي رحالـة من رحالين القدامى.

بيد أن هـذه البلـدان الموغلـة في البعـد، وهـذه السـنوات الـتي قضاها في بلاد الغربة لم تنسه بلده تونس، ومسـقط رأسـه القـيروان،

يقول:كـان يحملـني طـائر الخيـال إلى بلادي الخضـراء ، تـونس النخلـة السامقة المحملة بأطيب العراجين، والطائر الجميل الذي يسعد بالغناء والنشيد، تـونس أشـجار البرتقـال والأجـاص والتفـاح والرمـان وسـنابل القمح والشـعير الذهبيـة، فتجـدني في دنيـا جميلـة من حقـول الحمص والفول والجلبان، وفي عالم من الأفكار والأحاسيس والمشاعر، تـونس هدية الله لنا، براعم ورد وأقحوان، نجوم في الليلة الظلماء.

وقفت معه طويلا في باب الجزيرة، كما يسميه عامة الناس ، أو نهج الجزيـرة، رغم نـداء الباعـة، لشـراء بضـائعهم، ورغم الشـمس المحرقـة، وأزيـز محركـات هـذه السـيارات الـتي تتوقـف في طـابور طويل،حدثني عن آخر ما صـدر لـه ، ومـا ينـوي صـدوره، وشـروعه في تحقيق مخطوط عن (آل النبي) ووعدني بتسليم كتاب سماه(مع كتـبي) وهـو بـأقلام نخبـة من أهـل الثقافـة والفكـر والأدب،تسـتعرض كتبـه ، وتعرف بها، وقد أنجز حر ما وعد.

أحمد الطويلي ينشر كتبه على نفقته الخاصة، ويبدو أنـه أصـبحت له خبرة في توزيع منشوراته على المكتبات، ربما في كامل الجمهورية.

وإذا كان أحمد الطويلي هاجسه في الحياة هو الكتابة والتأليف فحسب فإن مبغضيه مهتمون بأشياء أخرى ، ويبدو أن الأستاذ الطويلي لا يلتفت إلى هذا اللغط حـول مسـيرته الثقافيـة، ولا يلقي بـالا للألسـن الأكالة، والتـاريخ الثقـافي سينصـف المجـدين وخدمـة الثقافـة العربيـة، ويلعن المتخاذلين والمثبطين.

وصبر أحمد الطويلي على الأذى، وكان يردد بينه وبين نفسه الآية الكريمة:"واصبر وما صبرك إلا بالله" وكانت نتيجة هذا الصـبر أن أصـبح الطويلي دكتور دولـة في الآداب والحضـارة العربيـة، ومـبرزا في اللغـة والآداب العربيـة، وأسـتاذ التعليم العـالي بالجامعـة التونسـية، درس بجامعة هونكغ بسيول جامعة كوريـا الجنوبيـة، وجامعـة قطـر بالدوحـة، وأستاذ زائـر بجامعـة هارفـارد بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة والجامعـة العثمانية بحيدر آباد بالهند.

ولا شك أنـه عنـدما اعتلى المنصـة ليلقي محاضـراته عن الأدب القـديم بجامعـة هارفـارد بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة تـذكر القيروان،ومدرسة الأسوار بها، وهو تلميذ صغير يلعب مع زملائـه ، كمـا تـذكر دروس والـده ، وهـو يلقي الـدروس على المصـلين في الفقـه والسـيرة النبويـة في إحـدى جوامـع القـيروان، ولم ينس زملاءه في المدرسة الصادقية، وأساتذته بها.

ويشاء القدر أن يكـون هـذا الطفـل أسـتاذا جامعيـا وباحثـا متألقـا، وأديبـا مبـدعا، فقـد صـدر لـه حـتى الآن حـوالي مائـة كتـاب في مجـال التحقيـق، والتعريـف بالأدبـاء والعلمـاء القـدامى منهم والمحـدثون، بالإضافة إلى كتب الأبحاث والدراسات وكتب القصة والرواية والرحلـة،

ولم ينس الصغار فأصدر لهم بعض القصص، منها الخاصة بالنبيين إبراهيم ويوسف عليهما السلام،وأمثال لقمان الحكيم في ست قصص.

والناظر في عناوين كتبه يتبين له أنه غطى ـ كما يقال في لغة الصحافة، والطويلي درس عدة سنوات في معهد الصحافة وعلوم الأخبار ـ الحياة الأدبية والحضارية منذ العصر الجاهلي حتى اليوم، وكذا فعل فيما يخص الأدب والحضارة الإسلامية في تونس منذ البعثة المحمدية حتى الآن، أي منذ فاطمة الزهراء حتى شهيرات القيروان، ومنذ مالك بن أنس حتى عبد العزيز الثعالبي.

وقد أشرنا أعلاه أن الطويلي زار أكثر من دولة ومدينة في القارات الربع، وعاش في كوريا الجنوبية، ولاشك أن المغترب يشعر بالولاء للوطن والحنين إليه أكثر من المقيم به، وهذا الطويلي يحدثنا عن تجربته، وتجربة التونسي عموما عندما يهاجر أو يعيش فترة بعيدا عن تونس الخضراء ، يقول في آخر كتاب صدر له وهو(تونس بلد الحضارات) مع عنوان فرعي وهو (فصول من دفتر العمر):عندما يهاجر الإنسان من وطنه، يحمله في قلبه، ألزم له من ظله، لا ينفك يتشوق إليه، ويحن إلى أهله وأقاربه وأحبائه، يحن إلى الأرض التي أنجبته، وعاش منعما على ثراها، يتنفس هواءها، ويتمتع بخيراتها، هنالك قضى سنوات من عمره، وفيها قضى طفولته وصباه وشبابه، وتربى على المبادئ السامية التي كونت شخصيته.

هنالك الأم التي أرضعته وحضنته، وكسته بثوب من الحنان والحب، والأب الذي حماه، وأنشأه على حب الخير والفضيلة.

هنالك الحبيبة التي فتحت عينيه على دنيا الحب فكيف لا يكون المهاجر عليلا، وهو بعيد عن وطنه، وما دواؤه إلا هذا الحب الذي يعتلج في قلبه إزاءه، وهذا الحب أقوى من كل حب، بدونه يكون الانسلاخ والانبتات والضياع، ومن لا وطن له يحبه ويعشقه ويحن إليه غريبا يكون مسلوب الكرامة والعزة والأمان والإنسانية،فحب الوطن عنوان الوفاء والإخلاص والنبل وشيم الأخلاق، وهو من أركان الإيمان، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم:" حب الأوطان من الإيمان" فحب الوطن والحنين إليه، والتعلق به، واشتعال القلب شوقا إليه وصبابة، كل ذلك شفاء وخلاص ومتعة مثل المطر الذي يروي الأرض العطشى، وما أصدق أحمد شوقي حين قال، وهو غريب عن وطنه، منفي في اسبانيا:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

وقال حين عاد إلى وطنه:

ويا وطني لقيتك بعد يأس كأني قد لقيت بك الشبابا

كنت ، وأنا في بلاد الغربة مضطرم القلب بالأشواق إلى تونس، وكنت، ومازلت إلى مماتي اعتز ببلادي وافتخر، وأرى تونس أم البلدان، وبلاد الحضارات، وبلاد الحب والفضيلة والأصالة، والناس الطيبين، فمنها مجدي، وهي هويتي وذاتي، وهي النسيم الغليل تستروح به نفسي، والمسك الذي يعطر كياني، وكم كنت عليلا أتقلب على جمر الغضى، وأنا تفصلني عنه البحار والقارات، سواء كنت في كوريا أو أمريكا أو الهند، حبها واجب ودين علي، وكم كتبت وحاضرت، لإعلاء مجدها، والتعريف بمعالمها وأعلامها.

وبمناسبة ثورة شعبي المجيدة، ثورة الحرية والكرامة، ثورة 14 جانفي 2011 الخالدة، رأيت أن أجمع هذه المقالات التي دبجتها حبا لبلادي، وأقدمها هدية لشباب الثورة، وإلى شعب تونس المفدى.

والرجل بدأ في التأليف منذ أكثر من أربعين عاما(ولد سنة 1942بالقيروان) وأذكر أنه شرع في التحقيق برسالة المناعي إلى أحمد باي في الشكوى من ابن أبي الضياف وجماعته،وقد اقتنيت هذا الكتاب ، ورأيت أن أعرف به قراء بعض الصحف آنذاك، فنشر هذا العرض مع صورة أحمد الطويلي ، وهو في عز شبابه، ورأيت أن أسجل هنا هذا التعريف،مع حذف طفيف رأيت أن لا فائدة من إيراده هنا، والملاحظ أن الأخ الطويلي نشره في مؤلفه:(مع كتبي) قلت:

عرفت المكتبة التونسية منذ بداية السبعينات لونا جديدا لم تألفه من قبل، وهو نشر البحوث العلمية التي اشرف عليها أساتذة الجامعة التونسية، وخاصة أساتذة كلية الآداب والعلوم الإنسانية(قسم العربية) ومن هذه الأبحاث تحقيق رسالة المناعي لأحمد الطويلي التي هي موضوع هذا العرض.

رسالة المناعي إلى أحمد باي في الشكوى من ابن أبي الضياف، وسائر أعدائه، هذه الرسالة حققها أحمد الطويلي، وقدمها لنيل شهادة علمية(شهادة الكفاءة في البحث) ثم نشرها مؤخرا(الدار التونسية للنشر 1977)

والكتاب يتكون من قسمين هامين:

1) مقدمة المحقق(من ص 15 إلى ص 73) وفيها تعرض إلى عصر المناعي وحياته وآثاره، ثم تخلص للحديث عن أعداء المناعي، وهو موضوع الرسالة، ففيما يخص الحديث عن عصره يعتبر الطويلي أن "دور المشير الأول في تاريخ تونس يذكرنا بدور معاصره والي مصر محمد علي" وهذا الرأي لا يستند إلى معطيات تاريخية مقنعة: إذ هو من وضع كتاب الغرب الذين يهللون لكل مناوئ للأتراك والسلطنة العثمانية، ويرون أن النهضة العربية كان سببها الغرب بأساتذته، وهو حق أريد به باطل، ونابليون بونابرت بحملته على مصر التي أصبحت عند بعضهم نقطة البداية للنهضة العربية الحديثة.

ثم ألا يكفينا نحن المغاربة من البحث عن نظير المتنبي والبحتري ومحمد علي في مغربنا، كنا نعتقد أن المسالة انتهت وحسمت بظهور الذخيرة في محاسن الجزيرة لابن بسام.

ويرجع ألأستاذ الطويلي اهتمام الكتاب التونسيين بالتاريخ في القرن التاسع عشر إلى أن أحمد باي الأول "كان ولوعا خاصة بفن التاريخ، وبالأخص بمقدمة ابن خلدون"

ونعتقد أن المسألة أعمق من ذلك: إذ أن الاهتمام بالتاريخ من قبل التونسيين أقدم من ذلك، فنجد ابن أبي دينار في القرن السابع عشر، وحمودة بن عبد العزيز في القرن الثامن عشر، وقبل ذلك ابن خلدون وغيره من المؤرخين التونسيين، وعلى الجملة هناك مدرسة تاريخية قائمة الذات.

ويرى الطويلي أن رسالة المناعي صدى لهذا العصر، فهي مرآة لما كانت تتخبط فيه الدولة والبلاد من ضيق مالي، وتدهور اقتصادي، وتأزم في الميزانية.

ثم ينتقل المحقق إلى الحدث عن المناعي المتوفى سنة 1857 مبينا ثقافته والخطط التي تقلدها، وما عاناه في أواخر حياته من عوز وإفلاس، نتيجة الإسراف الذي كان شعار هذه المرحلة من تاريخ تونس الحديث.

وقد أبرز الطويلي منزلة الفرد في هذا المجتمع، فهو يعيش في رعب وخوف على حياته، ومصادرة أمواله، وفصله عن عمله لأسباب واهية، وهو آمر طبيعي في النظم الاستبداية.

والمناعي كان مثالا حيا لهذا الوضع المتعفن، فعبر عن سخطه في رسالته عن هذا المجتمع الذي فقدت فيه الفرص المتكافئة بين أفراده.

وبما أن الرسالة في هجاء ابن أبي الضياف والشكوى منه فقد وقف المحقق إلى جانب ابن أبي الضياف صاحب كتاب (إتحاف أهل الزمان بملوك تونس وعهد الأمان) وحاول تبرير موقفه من صهره المناعي، كأن صاحب الإتحاف معصوم من الخطأ، في حين أنه كسائر البشر يتأثر بما نسميه اليوم بالعلاقات البشرية، وربما كان ابن أبي الضياف يستحق هذه النعوت والأوصاف الشنيعة التي أغدقها عليه المناعي، ألم يكن ابن أبي الضياف مواليا لليهود وصديقا لنسيم شمامة الذي هرب بأموال الدولة إلى إيطاليا؟ ألم يكن ابن أبي الضياف من أشد أنصار مصطفى خزندار والموالين له،وقد اعتبر المرحوم أحمد بكير ابن أبي الضياف مغفلا ومغرورا؟

لكن كل هذا لا يستطيع أن يغض في نظرنا من قدر أحمد ابن الضياف، ولا من شأنه بوصفه مؤرخا وإنسانا.

2) نص الرسالة(من ص 74 حتى ص160) اعتمد الطويلي على خمس نسخ مخطوطة لتحقيق نص الرسالة، ولا شك أن اعتماد هذا العدد الوافر من النسخ يجعل هذا النص ممحصا، وصورة طبق الأصل لما كتبه المناعي، إلا أن اهتمام المحقق شغله عن التعليق عليه ، ما عدا القليل، في حين أن رسالة المناعي هي أدبية قبل كل شيء، وذات أسلوب أدبي تونسي، ثم أن كثيرا من الجمل والتراكيب أخذها المناعي من اللهجة الدارجة التونسية، مع تحوير طفيف، وهذا ما جعل هذه الرسالة طريفة من حيث الشكل خاصة، على أن بعض التعاليق في حاجة إلى المناقشة، وسأكتفي بمثالين: ففي التعليق(رقم:29) والخاص بسالم الخاسر يقول المحقق: كذا في كل النسخ، والظاهر أنه مثل شعبي، والصواب أنه شاعر عباسي،واسمه الكامل سلم أو سالم بن عمر بن حماد، وهو شاعر خليع وماجن،عاش في القرن الثاني للهجرة(توفي سنة186/802) وسمي بالخاسر كما في الأعلام للزركلي لأنه باع مصحفا، واشترى بثمنه طنبورا

أما التعليق (رقم215) الذي يخص الحاج يونس المستاوي، فقد ذكر الأستاذ الطويلي أنه من السماسرة التونسيين المقربين إلى النصارى، مستنتجا ذلك من سياق النص، ولو رجع إلى ذيل الخلاصة النقية في أمراء إفريقية للشاعر المؤرخ الباجي المسعودي لوجد أن الحاج يونس المستاوي من الكتبة الذين وقع الاستغناء عنهم في عهد محمد باي، بالإضافة إلى مؤلف الرسالة محمد المناعي.

وبقطع النظر عن قيمة هذه الرسالة، والتعاليق عليها فإن تحقيق النص كان جيدا، ولا شك أن الأستاذ الطويلي سيستفيد من تجربة تحقيق رسالة المناعي، وخاصة أنه يستعد لإصدار الجزء الثالث والرابع من إتحاف أهل الزمان مراجعة وتحقيقا، وقد صدرا بالفعل.

الدكتور الطويلي أستاذ التعليم العالي، وهي أرقى خطة في السلم الوظيفي بسلك التعليم الجامعي، لم يبق في برجه العاجي، كما فعل غيره من الذين يتشدقون بمعرفتهم لمناهج النقد عند الغرب، وإنما نزل إلى مخاطبة القراء على اختلاف أصنافهم ومستوياتهم، ليقدم لهم غذاء فكريا، وذلك في كتب مغرية الشكل، سهلة العبارة، وهذا هو الدور الحقيقي للمثقف الحق، ينزل إلى الشعب، ويأخذ بيده، ويرفعه إلى مستوى أرقى، وما عداه من الكتبة والباحثين هم رجال بلا قضية، ولا رسالة، يكتبون للارتقاء في خططهم الوظيفية، وحالما يتحصلون على الرتبة الأخيرة، يكسرون أقلامهم،ويستسلمون إلى الراحة، وبعضهم يعود إليه رشده،فيتذكر انه مسلم، فيكتب شيئا عن الإسلام والقرآن.

وهنا تطرح قضية هامـة، وهي: لمن يكتب الأديب أو الكـاتب؟هـل يكتب لصنف معين من القراء؟وهل يتعالى على القراء كـل القـراء؟ أم ينزل إليهم من عليائه، ويساعدهم على الصعود إلى مستواه الثقافي؟

وبالتالي ما هي وظيفة الكتاب في عصرنا، وفي مجتمعنا التونسـي بالخصوص؟وما هي المواطن التي يهتم بها في كتبـه؟ يقـول الطـويلي: الكتاب هو أول شيء، وقبـل كـل شـيء... هـو محـور التقـدم والتطـوّر بدون قراءة وحبّها الذي يحب أن نغرسها في عقول وقلوب أطفالنا منذ الروضة فلا يكون هناك مستقبل وطني لبلدنا.

وفي رأيه أن الآفاق مظلمـة حقـا إذا لم يكن هنـاك اعتنـاء ودعم للكتاب، وإيلاء كل حرية للكتاب والأدباء والفنـانين بصـورة عامـة، وكـل من هو ضد حرية الكتاب ودعمه فهو ضد الحضارة والتقدم.

وفي اعتقاده أن الكـاتب يتعين عليـه التعريـف بتراثنـا التونسـي، وبتاريخنا القـريب والبعيـد، وخاصـة تسـليط الضـوء على حضـارتنا عـبر العصور، فقـد كـانت بلادنـا تشـعّ في العلـوم والآداب والسياسـة أيضـا، وذلك لغرس الافتخار والاعـتزاز في قلـوب وعقـول شـبابنا بمـا قدمتـه بلادنا للحضارة الإسلامية بصورة عامة،يقول: وقد خصصت كتبـا عديـدة لأعلام كثيرين قـديما وحـديثا، وخصصـت كتبـا للتعريـف بشخصـيات في صورة معاجم مثل كتاب شخصيات تونسية وتراجم تونسـية. ومن جهـة أخـرى نفضـت الغبـار عن تراثنـا المخطـوط، ونشـرت دواوين، وكتبـا حققتها، مثل ديوان ابن أبي الضياف، وديوان الصيد القـيرواني، وديـوان ابن خلدون، والقائمة طويلة.

وعجبي من هذه الأطـاريح الـتي تصـدرها الكليـات في الجامعـة التونسـية، ونتسـاءل عن هـذه الأطـاريح الـتي تنشـرها أقسـام اللغـة الفرنسية، والمكتوبة باللغة الفرنسية بـالطبع، من يسـتفيد منهـا؟ حـتى زملاؤهم يأخذونها مجانا، ولا يقرؤونها أبدا، في مصر على سبيل المثـال تنشـر هنـا الاطـاريح باللغـة العربيـة فيقبـل عليهـا القـراء من كـل لـون وصنف عن: بودلير وروسو وفولتير وغـيرهم، فيسـتفيد الجميـع، وهكـذا يكون التلاقح بين الثقافات.

أطاريحنـا إن باللغـة العربيـة أو بالفرنسـية لا يشـتريها أحـد في معرض الكتاب، نعم ترسل إلى الجامعات في العالم في نطاق التبـادل الثقافي، وكفى.

ومن ناحية أخرى ألا تكفينـا هـذه الأبحـاث والأطـاريح عن الأدب المشرقي منذ الجاهليـة حـتى اليـوم؟ ألا يسـتحق الأدب التونسـي منـذ الفتح الإسلامي حتى اليوم التفاتة منا؟

ونعـود إلى الكتب العربيـة الـتي يحبرهـا بعض أسـاتذة الكليـات، ونذكر مثالا لكتاب صدر في كم ألف من النسخ، وذكر لي ناشر الكتـاب

أنه بيع منه في سنة كاملة نسخة أو نسختين،وجاء المؤلف غاضبا يطالب بحقوق التاليف.

وبعد إذا عن للقيروان في يوم من الأيام أن تفتخر بأبنائها من أصحاب القلم ، فلا شك أنها ستنوه بالشاعر المرحوم جعفر ماجد ، والباحث الكبير أحمد ألطويلي،مؤلف مائة كتاب، وهل هناك من يدانيه فيما كتب وحبر عن القيروان، ومن أجل القيروان، وكل الشعراء والكتاب من أصل قيرواني قد غطى عليهم ماجد والطويلي، كما غطى المتنبي بروائع شعره خمسمائة شاعر، ومحا ذكرهم، كما يقول النقاد القدامى، وعلى كل فالبقاء للأصلح، والزمان غربال منصف، وهو الحكم الذي لا يقول إلا الحق، ولا ترد له كلمة، حكمه ناجز والسلام.

الصـــادق الوكيـــل

الصادق الوكيل(1944 ــ 1994) كاتب وقصاص مبدع، عرفه النقاد والشعراء في المقاهي الأدبية بشارع الحبيب بورقيبة في أواخر القرن الماضي، رجلا سمحا كريما، يدخل الابتسامة والمرح على

جلسـائه، ونـذكر من هـؤلاء الأدبـاء والشـعراء المرحـوم الهـادي نعمـان وغيره ممن أدركتهم حرفة الأدب والصحافة.

كان المرحـوم الصـادق الوكيـل إنسـانا لطيـف المعشـر، سـهل المعاشرة، محبوبا من كل عارفيه وأصدقائه، سخيا على ذوي الحاجات، كان بهي الطلعة، قصـير القامـة، مـع ميـل إلى البدانـة، أبيض البشـرة، مشربة بحمرة، أنيقا في ملبسه، لا تفارق محياه الابتسامة التي تتحـول إلى قهقهة خفيفة، وكان رحمه الله محدثا لبقا، وذا خيال فسيح، حدثني ذات مـرة أنـه كـان منـذ صـغره يخـترع قصصـا لأسـرته، ويحـدثهم عن تفاصيلها باعتبارها وقعت بالفعل، فيصـدقونه، ويسـتمعون إليـه بانتبـاه، ويجدون في هذه القصص متعة، ثم سرعان ما يتفطنـون إلى أنـه يريـد إمتاعهم، ومؤانستهم لا غير.

لم يعرف عنه أنه سيصبح كاتبا و أديبا إلا في الفـترة الأخـيرة من حياته، وولج باب الأدب بالكتابة للطفـل، فـأثرى مكتبـة الأطفـال بعديـد المؤلفات و القصص التي تشهد له بالقدرة والإبداع في هذا المجال، ثم تدرج بعد ذلك إلى كتابة القصة القصيرة و الرواية.

والمرحوم الصادق الوكيل من مواليـد مدينـة صـفاقس يـوم 25 جانفي 1944 وبها زاول تعليمه الابتدائي، ثم انتقلت أسرته إلى تـونس العاصمة، وهو في العاشرة من عمـره، فأكمـل تعليمـه بتـونس إلى أن أحرز على شـهادة التحصـيل(الشـعبة العصـرية) بمعهـد ابن رشـد سـنة 1965 ثم واصل دراسته بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس(الكائنة بشارع 9 أفريل) وعـرف بين أسـاتذته بالجـد والاجتهـاد، كـان لا يفـارق مكتبة الكلية أو دار الكتب الوطنية بسـوق العطـارين إلا عنـدما تغلقـان أبوابهما، وكـان زعيم المـرابطين بـدار الكتب في هـذه الفـترة الأسـتاذ جمعة شـيخة الـذي يـدخل وراء بـواب دار الكتب الوطنيـة في السـاعة الثامنـة والنصـف، ولا يخـرج منهـا في المسـاء عنـد إغلاقهـا إلا بشـق الأنفس، ويشاء الله أن يصبح الأستاذ شيخة فيما بعد مـديرا عامـا لـدار الكتب الوطنية لعدة سنوات.

تخـرج الوكيـل من الكليـة المـذكورة حـاملا للإجـازة في اللغـة والآداب العربية سنة 1970 وعين أستاذا بالمعهد الثانوي بمدينة قابس، فمدينة مساكن، ثم تونس العاصمة(المعهد الثانوي بالمنزه السادس).

وكنـا قبـل التخـرج نقصـد معـا الشـاطئ للاسـتحمام، ورأيت في أسفل كتفه شيئا كعرق نبـات النجم لماعـا، وسـألته عنـه، فلم يقـل لي شيئا، وعرفت أنه ذلك المرض الخبيث الذي أخذ يفعل في جسمه شيئا فشـيئا، وكـانت البدايـة أن أصـبح غـير قـادر على الكتابـة في السـبورة لإيضاح الدرس(كان يحب تدريس النحو والصرف للسـنوات الأولى من التعليم الثانوي) وسافر إلى فرنسـا للعلاج، ولكن دون جـدوى، وتحصـل

بعد جهد جهيد على التقاعد المبكر، وأصبح كثير الإقامة في معهد صالح عزيز.

كان رحمه الله ، وهو يقاوم المرض الخبيث، يكتب ويحلم بالكتابة، وهو في فراش المرض، وفي المقهى، وفي الطريق، وكان ينتظر الموت بين لحظة وأخرى، وكان يقول لي: لم يبق من العمر إلا القليل، وكنت أشجعه على تحدي المرض، وأقول له:إن الأعمار بيد الله، وانهالت عليه في هذه الأثناء مشاريع الكتابة، والقصص التي ينوي صياغتها للأطفال، كان يصارع المرض من جهة، وفي سباق مع الزمن من جهة أخرى، وكان أهم ما يشغله قضية النشر، وله مع دور النشر قصص وطرائف، وكثيرا ما كنت أصحبه في إيداع ما ينوي طبعه لدى بعض الناشرين، وأذكر أنني وجدت ذات يوم في مركز عملي بالمدرسة الوطنية لإطارات الطفولة بقرطاج درمش دعوة من مركز الأمن بالمكان، فتساءلت بيني وبين نفسي عن سبب هذه الدعوة، وأذا بالعون برحب بي ،ويطلب مني شهادة للإدلاء بها لدى المحكمة في خصوص شكوى تقدم بها المرحوم الصادق الوكيل ضد بعض الناشرين، لأنه أضاع المخطوط الذي سلمه له بنية نشره وكنت أنا معه، وقد اعتبر المرحوم هذا الصنيع تهاونا بشان الكتابة والكتاب، وإهدارا لكرامتهم، واستهانة بمنزلة الكتّاب والأدباء، كما قال لي.

وإزاء ما لاقاه من دور النشر العامة والخاصة من معاناة ومماطلة أسس دار نشر خاصة به سماها(منشورات العصر) وشرع يصدر كتبه ومؤلفاته في القصة والرواية على نفقته، وكان مقصده من النشر أن يرى إنتاجه النور، وتصل قصصه إلى أيدي القراء الصغار لا غير،أما عائداته المالية من هذه المؤلفات فلا تغطي تكاليف النشر ووقود السيارة، ثم تخلى عن النشر على نفقته، وتوجه إلى دار تشر بمدينة سوسة، وأذكر أنه صدر له بعض القصص، وتم نشر قصتين اشتركت معه في تأليفهما، وهما(الغزالة زينب)و(جلنار الساحرة) وقد سلم لي القصة الأولى، أما الثانية فلم أرها حتى اليوم، فقد وعدني رحمه الله بتقديمها إلي، ولكن المنية عاجلته، ولا أنسى أنه سلم لي مبلغا من المال مقابل اشتراكنا في تأليف القصتين المذكورتين بعد حذف تكاليف الرسوم التي قام بها تلميذي المنجي الخروبي،ومن ناحية أخرى فالقصتان عبارة عن خرافتين قدمهما لي بعض التلامذة، عندما كنت أعمل بالمدرسة الوطنية لإطارات الطفولة بقرطاج درمش.

وإذا صح ما رواه لي احد الأساتذة الذي يدرس بالمدرسة التي كان يعمل بها المرحوم الوكيل عن نهايته الفاجعة فعلى العلاقة الزوجية، وإنجاب الأبناء العفاء، فقد غادرت زوجته وولداه المنزل للاصطياف، وترك وحده يقاوم المرض، ووجد رحمه الله ملقى على

الأرض،وقد تعفنت جثته، وقد صارع الموت وحيدا، لا مؤنس له في لحظاته الأخيرة بهذه الدنيا الفانية.

ولكن موته ورحيله بتلك الطريقة لا ينسينا ما كان يتمتع به من طيبة القلب، ونقاء السريرة، وما تركه من آثار أدبية، لا يمكن لدارس أدب الطفل في تونس أن يمر عليها، دون أن يقف عندها، ليبرز دور هذا الكاتب في تطوير هذا النوع من الأدب الذي صاغه الوكيل بالاعتماد غلى الواقع الاجتماعي، بعد أن مر كل ذلك عبر أحاسيسه المرهفة، وعلى مصفاة نفسه الرقيقة.

مصادر قصصه الموجهة إلى الطفل مستمدة من القصص الشعبي والحكايات والخرافات المتداولة، ومن واقع الكاتب، ثم تاريخ تونس القديم والحديث، وتوظيف هذه المصادر للوصول بالطفل إلى قيم نبيلة، يريد غرسها في نفس الطفل، وهي حب العمل، والاعتماد على النفس، وطاعة الوالدين، والبر بهما، والتعاون والعمل التطوعي، وخدمة الآخرين، وغيرها من القيم والمبادئ التي لا يستقيم أمر المجتمع بدونها، والتي ظل المرحوم الصادق الوكيل ينادي بها في قصصه الموجهة إلى الطفل طيلة أربعة عشر عاما.

نذكّر فيما يلي بأسماء هذا الكتب والمؤلفات، وهي: المدفع العجيب(قصة مستمدة من تاريخ تونس) والقط الكسول،والشبح الطيب، وفي عيدك يا أمي، ولعبة الفئران، وقصة الفيل بابي روس، وفي البادية، والخبز للجميع، وعزام مهندس صغير، وارحلوا إلى تونس(قصة تاريخية للأطفال) وأحزاب السماء(رواية تتناول ثورة صاحب الحمار في عهد الدولة الفاطمية لم تنشر حسب علمي) هذا بالإضافة إلى قصص أخرى، بعضها نشر، والبعض الآخر ما زال مخطوطا.

ويمكن لدارس أدب الطفل في تونس أن يلاحظ أطوارا ثلاثة مر بها هذا الأدب، وهي مرحلة التأسيس والنشأة على أيدي كتاب أمثال محمد العروسي المطوي وعبد المجيد عطية وغيرهما، ثم مرحلة الازدهار، وأخيرا مرحلة الركود التي عرفها في الآونة الأخيرة، ويمكن القول إن الصادق الوكيل واكب طور الازدهار الذي عرفه ادب الطفل، ونقصد بالازدهار كثرة الكتب الموجهة إلى الطفل من شعر وقصة ومسرح، وإقبال كل من هب ودب للكتابة في هذا النوع من الأدب، لما فيه من مردود مادي، مقارنة بالأدب العادي، وكثرة القصص الطفلية المترجمة عن الآداب الأخرى، وبصفة عامة وجد في هذا الأدب الغث والسمين، أما الغث فنعني به أن يكتب المؤلف القصة، كما لو كان يكتب للكبار، بدون مراعاة مدى استيعاب الطفل للغة ومفرداتها، وقد كان المرحوم الصادق الوكيل يعتبر أن اللغة هي أساس الكتابة للطفل، ونجاح الكتابة للأطفال يتمثل في إيصال الفكرة إلى القارئ الصغير في

لغة سليمة ملائمة لسنه، ويعمل الكاتب على اختيارها حتى يقبلها الطفل، وتكون مأنوسة لديه، وترسخ في حافظته، ومن أهداف الكتابة للطفل كما يرى الوكيل تنمية الزاد اللغوي لدى القراء الصغار، ولهذا كان المرحوم الوكيل يحرص أشد الحرص على الجانب اللغوي في قصصه الموجهة إلى الطفل، اعتقادا منه أنه إذا سلمت اللغة وكانت ألفاظها مناسبة لمدارك الطفل، سلمت بقية الجوانب الأخرى في القصة وغيرها من أجناس الكتابة التي يشملها أدب الطفل.

أما في ميدان القصة القصيرة فقد نشرت له قصة بعنوان(وانتهى الحساب) بمجلة الحياة الثقافية(ع14 سنة 1986) ونشرت له مجلة قصص قصة بعنوان " الزيتون"(عدد99 مارس 1993) وفي جريدة الصباح قصة بعنوان"أخي المرهوج"(13 سبتمبر 1994) أي بعد وفاته بأيام، ويبلغ المنشور منها والمخطوط حوالي أربعين قصة، وأغلب قصصه، كما أشرت، منطلقها واقع الكاتب نفسه، أقصد تجاربه وذكرياته، وكل ما يتعلق بحياته الخاصة، وحتى ما يتحدث به مع الناس، ولكنه يضفي عليه طابعا شموليا حتى تصبح قصصا إنسانية، فقصة(أخي المرهوج) تعرض جانبا من الحياة المدرسية قبيل الاستقلال، وما يلاقيه التلميذ من عنت وإرهاق من قبل معلميه، فمنذ دخول التلميذ إلى المدرسة يواجه بالعقاب، وخاصة إذا دخل إلى المدرسة متأخرا، فإذا سمح له البواب بالدخول يتسلل إلى القسم والرعب يملأ نفسه من المدير الذي يتربص بكل متأخر:

" يا للويل، ها هو منتصب أمامنا، مفرج ساقيه ببدلته الرمادية الجديدة، ها هو يشير إلينا بالاقتراب، تعالوا تعالوا، لماذا تأتون متأخرين، ودون تردد وتلعثم ورحمة رفع عصاه السوداء، تسمرت في مكاني وارتعشت، كان المدير يضرب إخوتي الواحد تلو الآخر على أناملهم، فيكشرون عن أنيابهم، ثم يوحوحون، وينفخون في أيديهم، ثم يخفونها في جيوبهم أو تحت إبطهم، لتسري الحرارة فيها وتمتص الألم"

وفي القسم يعاقب المعلم كل من لم يقم بالحفظ " الحفظ لا يتركنا يوما، صعد صديقي فوق المصطبة يسرد، فتلعثم وتردد، صرخ فيه المعلم لماذا لم تحفظ المحفوظات يا كسول؟ هات يدك، ساد الفصل سكون رهيب، ما زلت استحضره حتى الساعة، انهال المعلم يضرب الصديق بالتناوب مرة على يده اليمنى، ومرة على يده اليسرى، فكنا لا نسمع غير صرخته القوية، أو صوت العصا النازلة، كما صوت الصفعة، كانت الوجوه باهتة حزينة، بقيت أنظر في حزن زائد، وأتحمل آلام الضربات معه"

كان هم التلامذة أن تنتهي حصة الدراسة، وكانوا في انتظار صفارة المدير" فطرنا إلى الشارع لا نلوي على شيء غير الحرية والانعتاق والهواء الطلق، وحركة الشارع الجميلة التي تنسيك الماضي،

وتجدد فيك الأمل، والقصة، كما ترى تؤرخ للعلاقة المتوترة بين التلميذ ومعلميه، ولا نقول مربيه.

أما قصة (وانتهى الحساب) فتقع أحداثها على شاطئ البحر، رجل وابنته ذهبا معا للاستحمام، ورأى في هذا اليوم فقط أن ابنته تشبه أمها الفقيدة في قوامها واعتدالها وجمالها، وبعد السباحة، وبعد أن شعر بالتعب استلقى على رمال الشاطئ ونام،بين جموع المصطافين رجالا ونساء،ورأى شبحا أفزعه، والعجيب في هذه القصة هو اللغة التي تأنق فيها الوكيل، ونحب أن نورد فقرة منها لنرى مدى اهتمامه باللغة يقول هذا الشبح الغريب يخاطب هذا الرجل النائم وجموع المصطافين: " يا أيها الناس اسمعوا وعوا، وإلي انتبهوا، جئت إليكم أنفخ في البوق، لأعلمكم، فأين تذهبون؟ وأماكنكم لا تغادرون، تحسبون أن لن يقدر عليكم أحد، فبإمكاننا قيدكم إلى الأبد، فكيف تفرون، وقد كنتم لأنفسكم تحسبون، إن لم يخلق مثلها في البلاد، ولا حتى بين العباد، وجوهكم راضية ناعمة، مستبشرة، ضاحكة،كانت أجسادكم ممدودة مطروحة، والأفخذة مرفوعة، والنهود منفوخة، والأرداف مهزوزة، والأعناق ممدودة، والعيون ساحرة ومسحورة، والشعور مسدولة، مناضدكم منصوبة، وأكوابكم موضوعة، بعضكم مستلقون على القفا يصطلون، يحلمون، وبعضكم يمشون ويجيئون، يتنزهون، يثرثرون، وإذا مروا بالنساء الكواعب ينظرون، ويبتسمون، وإلى بعضهم يتغامزون، أو يتوقفون فيتحدثون، وبعضكم يدخلون الماء يتبردون ويسبحون، ثم ينقلبون إلى مظلاتهم، وهم يتفكهون، فيرتمون على الأرائك يستريحون، ويطوف عليهم غلمان بيض، وإذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا، يحملون أواني من فضة، عليها طعام شهي، وأكواب وقوارير، فيأكلون هنيئا، ويشربون مريئا، وفي ذلك يتنافس المتنافسون، ويتظاهر المراؤون..." والقصة تسير على هذا المنوال إلى النهاية، وبما أنه شبح آت من السماء كان لا بد أن يتكلم كما يتكلم القرآن.

وبعد فإن الصادق الوكيل يعتبر من الوجوه الأدبية التي لا تنسى، فقد ساهم في إنشاء أدب الطفل، وأرسى مع ثلة من الكتاب ملامح هذا الأدب، بحيث أصبح أدبا مستقلا عن أدب الكبار أو الكهول، له مميزاته وخصوصياته، وقد كان من قبل ضمن دروس القراءة بالتعليم الابتدائي في شكل قصص متسلسلة، أما الآن فقد أصبح أدبا قائم الذات يشمل كأدب الكبار، وإن إلى حد، أجناسا أدبية مختلفة من قصة ومسرح وشعر، ووجد بعض الاهتمام من قبل بعض الباحثين والدارسين، ومن يدري فلعله سيكون من المحاور التي تدرس بقسم اللغة والآداب العربية في كلياتنا في مستقبل قريب، على غرار ما هو سائد في الجامعات والكليات، إن في البلاد العربية، أو في غيرها.

رحم الله صديقي العزيز الصادق الوكيل.

هنـــــد شلبي

في خريـف سـنة 1964كنت مـترددا بين الانضـمام إلى كليـة الشريعة وأصول الدين، كما كانت تسمى في ذلك العهد، بحكم تكويـني الديني، وبين التسجيل في كلية الآداب بشـارع 9 أفريـل حبـا في الأدب والأدباء قدماء ومحدثين، وكان مقر كلية الشـريعة بصـفة وقتيـة بـإدارة الأوقـاف بنهج جـامع الزيتونـة (وكـان في عهـد الحمايـة يسـمى نهج الكنيسة) دخلت إلى إدارة الأوقاف فوجدت الطلبة منكبين على قـراءة المعلقات، والنظر في جداول الأوقات، والمواد التي سيدرسـونها طيلـة العام الجامعي، وكانت تلك البرامج تسمى كلهـا مـداخل مثـل المـدخل التـاريخي، والمـدخل العقـدي وهكـذا. ثم دخلنـا إلى قاعـة فسـيحة في انتظار مجيء العلامة البحر محمد الفاضل ابن عاشور، وفي هذه الأثناء لفت نظري وجود شابة ترتدي لباسا أبيض يغطيها من أعلى رأسـها إلى أخمص قـدميها، بحيث لا يـرى منهـا إلا وجههـا وكفاهـا، ولم يكن هـذا اللباس معروفا في ذلـك الـوقت، كنـا نـرى المـرأة في الشـارع ترتـدي السفساري، وكانت النساء يظهرن من بعيد كأنهن بقـع بيضـاء يتحـركن في زحام الشارع، أما هذا الثوب الذي تلبسـه تلـك الفتـاة فكـان غريبـا وعجيبا، ولم أكن وحدي أنظر إلى تلك الفتاة، فقد كان الطلبـة يسـرقن النظر إليها من حين لآخر، والشيخ الفاضل يلقي درسـه، وصـوته يـدوي في القاعة، والحـال أن هـذا الصـوت المجلجـل كالصـدى بين جبلين لم يكن يستعين بمكبر الصوت لإسماع صوته.

وانتصـر الأدب على العلـوم الإسـلامية، فقـد قيـدت اسـمي في مناظرة شارك فيها ثلاثون شابا، وقبـل منهم سـبعة طلبـة فقـط،وكـان ترتيـبي الثـالث في قائمـة المقبـولين، وبقي لبـاس تلـك الفتـاة أمـامي أتذكره من وقت لآخر، ثم شاءت الصدف أن التقي بها في رحاب كليـة الشريعة وأصول الدين بنهج أبي زكريا الحفصي بمونفلوري، ثم بجامعة الزيتونة، بساحة معقل الزعيم.

هذه الفتـاة هي الأسـتاذة هنـد شـلبي، ابنـة الشـيخ شـلبي أحـد أساتذة الزيتونـة المشـهورين، قصـيرة القامـة بيضـاء البشـرة، ضـعيفة البنيـة، خجولـة، فصـيحة اللسـان، تـذكرك بأشـهر العالمـات في تـاريخ الإسلام، يوم كانت المرأة فقيهـة وأديبـة وشـاعرة،يقـول عنهـا الـدكتور قيس بن محمد آل شيخ مبارك:"هي من فضليات نسـاء العصـر، وهبهـا اللـه عِلمـاً غزيـراً، وديناً متيناً، وسـلوكاً يحكي هـدي الصـحابيات, ولهـا موقف رسمت به لوحةً مُشَرِّفةً على تاريخ تونس الحديث"

وكان من عادة الرئيس الحبيب بورقيبة أن تلقى أمامه في ليلة القدر من كل سنة محاضرة دينية في جامع الزيتونة،واختيرت الـدكتورة

هند شلبي لتلقي محاضرة عن رأي الإسلام في المرأة على ما أذكر، وبعد أن أسمعت الحاضرين محاضرتها القيمة انسلت على ما يشاع، وخرجت، ولم تنتظر مصافحة الرئيس وشكره لها، واختيارها لإلقاء محاضرة بهذه المناسبة يدل على ما بلغته المرأة في تونس من مكانة علمية ممتازة، ومن المعلوم أنه يقع اختيار المحاضر على أساس المنزلة العلمية والفكرية، ومن بين الذين القوا محاضرات في ليلة القدر العلامة البحر الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، والأستاذ البشير العريبي والأديب محمد العروسي المطوي،وغيرهم من مشاهير الكتاب .

اختارت الأستاذة هند شلبي أن تتخصص في الدراسات القرآنية، وكان لها ذلك، فانكبت بصورة منقطعة النظير على البحث، إن في دار الكتب الوطنية بسوق العطارين، أو في مكتبة الكلية الزيتونية،وتوجت عملها البحثي المضني بنيل أعلى الشهادات العلمية، وكنت أستشيرها في بعض المسائل الخاصة برسم المصحف، وكانت تجيبني كتابيا،وتطلعني على ما يجد من جديد، وأذكر أنه في تلك الفترة طفا نجم رشاد خليفة الذي زعم أن أعظم معجزات القرآن الكريم هي المعجزة العددية التي بنيت على الرقم 19.

ثم ظهرله بعد ذلك أن المسلم لا يحتاج إلا إلى كتاب الله وحده لكي يعبد الله، وأن ما عدا كتاب الله من (حديث وسنة وأحاديث قدسيه) ليست إلا افتراءات ألصقها أعداء الله بالدين الإسلامي، وأصدر كتابا في هذا الشأن، وهو الذي أطلعتني عليه الدكتورة هند شلبي،وقد ادّعى بعد ذلك أنه رسول، وتم اغتياله سنة 1990 في مسجده بمدينة توسان من ولاية أريزونا بالولايات المتحدة الأمريكية، بسبب آرائه القائلة بنبذ السنة النبوية، وادعائه النبوة.

وكانت تمدني ببعض كتبها، ومنها تحقيقها لكتاب(عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل) لأبي العباس أحمد بن البناء المراكشي، وهو كتاب يعالج تعليل رسم المصحف، أي الرسم ألتوقيفي، أو الرسم العثماني، وصدر لها بعد ذلك تفسير يحي بن سلام القيرواني، المتوفى سنة200 للهجرة بمصر،بعد قيامه بفريضة الحج، وهو من أقدم تفاسير القرآن، وقد قام أحدهم قبل طبعه بسرقته، وتقديمه لنيل شهادة علمية، ثم تفطن إليه، وأوقف عند حده.

عدّ هذا التفسير، كما جاء في التعريف به، من التفاسير الهامة، إذ اتبع مؤلفه منهجا دقيقا في تفسير الآيات، وإبراز معانيها، ويعد هذا الكتاب أساسا للتفسير النقدي، الذي سار عليه من بعد ابن سلام ابن جرير الطبري، وقد بلغ من اهتمام المفسرين والعلماء أن اعتمدوا عليه في تأليف كتبهم، وحفظ بعض العلماء هذا التفسير، كما يحفظ القرآن الكريم.

ومن الكتب التي أمدتني بنسخة منها(التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق) وكنت قد عرفت بـه حـال صـدوره في مجلة الهداية، وقد جاء في التعريف ما يلي:

ارتبطت اتجاهات التفسير بما يعتمل في المجتمع الإسـلامي من تيارات ثقافية ومشاغل فكرية، فإن اشتغل علمـاء العصـر باللغـة فسـر القـرآن تفسـيرا لغويـا، وإن توجـه بعض العلمـاء إلى التصـوف أقبـل المفسرون على تفسـير القـرآن تفسـيرا صـوفيا، ورأى زعمـاء النهضـة العربية الحديثة أن الإصلاح يبـدأ بـالمجتمع، ومـا ينخـر كيانـه من فاسـد العادات وبائد التقاليد ، ففسر القرآن تفسيرا اجتماعيا، وأخيراــ وليس آخراـــ أقبـل بعض العلمـاء على تفسـير القـرآن تفسـيرا علميـا، بعـد الاكتشافات والاختراعات التي عرفهاّ العصر الحديث.

ظاهرة العلم في القرآن ألـف حولهـا الكثـير من الدراسـات والبحوث خلال القرن الرابع عشر الهجـري، واختلفت اتجاهـات الكتّـاب نحوها بين رافض لوجود العلم في القرآن، ومؤيد لوجوده فيه.

هذه البحوث والدراسات تناولتها الدكتورة هنـد شـلبي بالضـبط والدراسة والتقييم في كتاب صدر في الآونة الأخـيرة بتـونس، فمـا هي المسائل التي تعرضت إليها؟ وما هي النتائج التي توصلت إليها؟

تحدد الباحثـة في المقدمـة دواعي الكتابـة في هـذا الموضـوع، فتحصرها في سعة التأليف في هـذا الميـدان كمـا وكيفـا، وكـذلك تعـدد محير لمواقف العلماء والبـاحثين حـول مسـألة قبـول التفسـير العلمي للقرآن الكريم أو رفضه، وعدم وقوفها على دراسة علميـة مركـزة في هـذا الموضـوع تحـاول فـرز الآراء وتنظيمهـا، ومناقشـة مـا جـاء فيهـا للترجيح بينهـا، والسـبب الأخـير الـذي دعاهـا إلى التـأليف" هـو الحريـة الواسعة التي لاحظتها لدى عدد من الباحثين، وكذلك من لم يبلغوا بعد درجة البحث في تعاملهم مع المعاني القرآنية".

وقد حرصت الباحثة على أمرين هما:

الإلمام بمواقف العلماء من التفسير العلمي للقرآن، سواء أكانوا من القدماء أم من المحـدثين والمعاصـرين، وهـو القسـم الـذي سـمته بالنظري.

والأمر الثاني، وهو القسم التطبيقي عرضت فيه بعض المواضيع العلمية، وقارنت بينها وبين ما ورد في القرآن.

حاولت الكاتبة في القسم النظري تصـنيف الاتجاهـات السـائدة في موضوع التفسير العلمي للقرآن قديما وحديثا، فوجدت فئتين:

إحداهما تعارض اشتمال القرآن على العلم.

وثانيهما تؤيد وجود الظواهر العلمية في القرآن.

وعثرت في هذين الفئتين على أصناف أخرى معارضة، مع عدم التحيز للعلم، وطائفة مؤيدة مطلقا، والأخرى مؤيدة مع الاحتراز.

ومن العلماء الذين عارضوا اشـتمال القـرآن على العلـوم، وليس على العلم ، نـذكر من القـدماء الشـاطبي صـاحب كتـاب(الموافقـات) الذي يبدو أنه يرفض أن يكون القرآن كتاب علم، لأنـه ليس موجهـا إلى العلماء فقط، وإنما هو كتاب دعوة تسع الأميين كما تسع غيرهم.

وذكرت الباحثة من المعاصرين محمد كامل حسين الـذي رفض مبدأ وجود العلم في القرآن لأسباب، منها اختلاف الموضوع بين العلم والقرآن، واختلاف المنهجية في تبيلغ حقائقهما، وتخصيص الدين بمهمـة يعجز العلم عن القيام بمثلها.

ولعل محمد كامل حسين أراد التنقيص من غلواء الإقبـال على التفسـير العلمي وكبح جماحـه، إذ هـو يعتـبر كمـا ذكـرت المؤلفـة" أن للقرآن استقلالية في موضـوعه ومنهجيتـه وأهدافـه تمـيزه عن العلـوم، دون أن ينال خلوه منها من مكانته، بل ربمـا كـان ذلـك عـاملا قويـا في الــدعوة إلى التشــبث بــالقرآن، ومــا يــدعو إليــه من مبــادئ إنســانية ضرورية، ليس في استطاعة العلوم أن توفرها"

ومن المعارضين مع التحيز إلى العلم ذكرت الكاتبة محمد أركون وعـاطف أحمـد، ومنطلـق الكـاتبين بـالنظر إلى اشـتمال القـرآن على حقائق علمية دعوى باطلة، وفي حين ينعت أركون هذا الاتجاه بأنه تيـار ذو أهميـة نفسـية فائقـة يعين على تأصـيل الإيمـان والاعـتزاز بالتعـاليم الإسلامية، إزاء الغزو الفكري الغربي منـذ القـرن التاسـع عشـر خاصـة يرى الثاني أن هذا التيـار محاولـة لتطويـع النص الـديني للعلم الحـديث بــالتوفيق بينهمــا، ووصــفها بأنهــا قضــية خاســرة بحكم التــاريخ وحكم المنطق وحكم الواقع.

ولئن تعذر علينا الرجوع إلى رأي أركون لأنه غـير منشـور، فـإن رأي أحمد عاطف واضح، وهو أن الإسلام يحارب العلم ويناقضه، حسب ادعائه، وقصده من هذا الرأي إقامة مجتمع علماني، يترك الدين جانبــا، فقد تحسر مثلا على فقدان العلمانية لكـاتب علمـاني(يقصـد مصـطفى محمود) كان متطلعا لتجاوز الفكر التقليدي بمكوناته الغيبية، وكاتب هذا شأنه لا يعترف بـالقرآن بأنـه نص مـوحى، وإنمـا هـو من وضـع (محمـد صلى الله عليه وسلم) حسب زعمه، وإذا كان كذلك فلا بـد أن يتنـاقض هـذا النص مـع العلم الحـديث، لأنـه من وضـع بشـر(؟) وجـد في زمـان ومكان معينين.

أما رفض أركون للعلم في القرآن، فهو يعني كما تقول الباحثـة، رفض قدسية القرآن، فكيف يعتقد بهـذه القدسـية والقـرآن عنـده ليس بنص موحى، بينما يـرى روجي قـارودي أن العلم في القـرآن هـو الـذي فجر ينابيع العلوم لدى المسلمين، وأعطاها وجهتها التي ينبغي أن تسير عليها، فشتان بين مشرق ومغرب.

وتوجد طائفة من العلماء المعاصرين احترزت في اشتمال القرآن على جميع العلوم، ولكنهم يرون أنه توجد آيات في موضوعات علمية متفرقة، وأن هذه الآيات لا تعارض بينها وبين الحقائق العلمية، وقد وردت هذه الحقائق في القرآن على سبيل الإجمال والعموم.

وأبرزت الكاتبة رأي المثبتين مطلقا للتفسير العلمي في القرآن، وهم من القدماء الغزالي والسيوطي، ومن المحدثين طنطاوي جوهري وعلي فهمي الأسكندراني، وإن كان طنطاوي جوهري يعتبر اتجاهه هو وأضرابه صوب التفسير العلمي للقرآن" وليد ظروف قاسية عاشتها المجتمعات الإسلامية، بعد أن فقدت سيادتها على المستويات الفكرية والسياسية والاقتصادية(...) فنادت بأن ما تفاخر به أوروبا اليوم هو في الواقع ملك لنا من أربعة عشر قرنا، تخلينا عنه ولا بد من العودة إليه" فماذا نقول عن الغزالي أيضا؟ ألا يعود ذلك، كما أشارت الكاتبة إلى " دخول العلوم الحكمية اليونانية في الفكر الإسلامي، وعرفت بقضية التوفيق بين الحكمة والشريعة في بحوث فلاسفة الإسلام".

وأخذت هند شلبي على هذا الاتجاه تحميله للآيات أكثر مما تتحمله، فجاءت التفاسير متكلفة، وهذا يتنافى مع الإعجاز، وابتعدت بالقرآن عن الهداية التي لا تكون إلا مع البساطة والوضوح.

وأشارت الباحثة إلى هذا النوع من التفسير للآيات القرآنية، وقد جر إليها جرا من الخارج، حتى أنه لا تتبين له(أي للقارئ) العلاقة في كثير من الأحيان بين الآية والمعنى التي ذكر في شرحها، وذلك لأن القائلين بهذا النوع من التفسير يسيرون وفق منهجية" مسلطة على القرآن من خارج النص".

أما المعتدلون القائلون بالتفسير العلمي للقرآن فإن منهجهم ينطلق من النص القرآني، ثم يربط بينه وبين الحقائق العلمية،لإثبات معجزة القرآن الذي تحدى بلفظه ونظمه العرب البلغاء، ويتحدى اليوم العلماء بالحقائق العلمية الواردة فيه، ومن القائلين بالإعجاز العلمي ذكرت المؤلفة محمد عبده، والطاهر ابن عاشور،ومتولي شعراوي، والرافعي، والبشير التركي، ونضيف إليهم هند شلبي في هذا الكتاب.

وخصصت هند شلبي الفصل الثالث من هذا الباب لتقييم الاتجاهات السابقة في التفسير العلمي للقرآن الكريم، فقسمتها إلى موقفين:

موقف المؤمنين بالقرآن الذين يعتقدون"أن كل ما جاء في القرآن لا يمكن أن يكون إلا حقا، فكل الآيات الكونية سمتها الأولى الحق، يعني الإتقان والإحكام، وهذا يؤدي إلى كونها تصور ما تم بالفعل في خلق السماوات والأرض وما بينهما".

والموقف الثـاني هـو موقـف العلمـانيين الـذين يـذهبون إلى أن القــرآن هــو أثــر تــاريخي مقيــد بزمــان ومكــان معيــنين، ولا يمكن أن يتجاوزهما، وبعبارة أوضح لا يمكن مقارنته بما وصل إليه العلم الحـديث من اكتشافات واختراعات علميـة حسـب زعمهم، وهـو رأي العلمـانيين العرب الذين يرفضون أن يكون القـرآن وحيـا من اللـه أوحـاه اللـه إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

وأبرزت الكاتبة في خاتمة القسم الأول خاصية القرآن وميزته عن غيره من كتب الديانات الأخرى، فقد ضم بين جنبيه العقيدة التي تؤدي إلى الإيمــان باللــه واحــدا لا شــريك لــه وبين العلم الــذي يــؤدي إلى المعرفة، وجعل رباطا وثيقا صار به أحدهما لا ينفك عن الآخر.

وهنا كان يمكن التوسع في مفهوم العلم في الإسلام الذي يعرف به الإنسان ربـه ومخلوقاتـه ونفسـه، فيصـح إيمانـه، ويسـتقيم سـلوكه، ويسخر علمه لفائدة الإنسان، ويتجنب العلوم غير النافعـة الـتي لا تعـود منفعتها عليه بالخير، إن في دنياه أو في آخرته.

وبعد أن استقامت للباحثـة آراء العلمـاء حـول التفسـير العلمي للقرآن، وأعطت لكل ذي حـق حقـه انتقلت إلى القسـم التطـبيقي من كتابهــا، وقــد اختــارت أن تــدرس ثلاث مســائل علميــة، وردت في القرآن،وقارنت بينهـا وبين حقـائق العلم الحـديث، وهـذه المسـائل هي كروية الأرض، ودور الجبال في تثبيتها، والبنان والبصمات.

ومسـائل هـذا القسـم تحـل الإشـكال القـائم، وهـو هـل ينبغي الاشتغال بالتفسير العلمي للقرآن، أم هل يجب الإمسـاك عن الاهتمـام بهذا الجانب في القرآن؟

رأت الدكتورة شلبي أن الإجابة عن هـذه الإشـكالية هي "التوجـه المباشر إلى القرآن الكـريم، لتـدبر المعـاني الـواردة فيـه، انطلاقـا من الألفاظ التي تم اختيارها لتأدية تلك المعاني"

وهذه المنهجية التي ستتبع تطرح سـؤالا هامـا وهـو" هـل أن في اسـتطاعة رجـل القـرن العشـرين أن يجـد عقليتـه في نص من القـرن السابع الميلادي ؟"

وبالتــالي هلي بقي هــذا النص محصــورا في إطــاره المكــاني والزماني، ولا يتجاوب معه الإنسان في عصر العلوم والتقنية؟

وهل تجاوز العصـر هـذا النص الـديني" أم أن الحقـائق القرآنيـة المطروحة ثابتة في مقرراته ثبوت الحقيقة الإلهية التي وضعتها؟"

إن الإجابـة الـتي تقـدمها الباحثـة هي " إن الإعجـاز في القـرآن يتمثل في عدم خضوع نصه: إي حقائقه إلى سلطان الزمن، إنها حقائق مطلقة حاضرة كاملة لا يد للزمان في تكوينها وتنقيحها لتخرج كاملة"

ولتدعيم هذه الإجابة درست الكاتبة المسائل المذكورة أعلاه" انطلاقا من العبارة القرآنية في أقرب معانيها، مع اجتناب ما اعتبره بعضهم تأويلا للنصوص، بغية تقريب الشقة بين القرآن والعلم".

وقد اعتمدت في تحليلها لتلك المسائل الثلاث في المقام الأول على الدلالة اللغوية للكلمات، وشرح الآيات القرآنية بعضها لبعض، ودحضت الرأي القائل بعدم اشتمال القرآن على الحقائق العلمية، وتوصلت بهدوء في آخر الأمر إلى ظاهرة الإعجاز العلمي في القرآن، فأبرزت أسبقيته الزمنية في تصوير حقائق الأشياء، وأسبقيته الزمنية في معجزات الأنبياء، وكون الأسبقية هي سر الإعجاز العلمي في القرآن.

وعللت القول بالتفسير العلمي للقرآن بإبراز صفة الإعجاز فيه باعتباره صادرا عن الله تعالى، وبالتالي شاهدا على صدق الرسالة المحمدية، إذ لا يمكن أن يكون صادرا عن أعلم علماء ذلك الزمان، فما بالك بالنبي الأمي؟ وهذه الأسبقية الزمنية لوجود حقائق علمية في القرآن توصل إليها العلم الحديث هي التي دعت طبيبا ومفكرا لاعتناق الإسلام، وهو موريس بوكاي.

إذن فالحقائق العلمية التي احتوى عليها القرآن لا يمكن أن تصدر عن شخص ظهر في بيئة لم تنضج علميا بعد،بل أن نصيب العلوم فيها متدن بالمقارنة على ما هي عليه الآن، وأن اهتمام المفسرين بظاهرة العلم في القرآن ليست وقفا على الزمن الحاضر الذي ازدهرت فيه العلوم" وإنما يعود التقريب بين القرآن والعلم إلى الاشتراك الواضح بينهما في تقديم الواقع على صورته التي هو عليها بالفعل".

وكان يمكن الإشارة هنا إلى الفرق بين الحقائق العلمية الواردة في القرآن وبين النظريات العلمية التي توصل إليها البشر، فالأولى محملة بمعاني الهداية والإيمان والخير، وتقدم بصورة قاطعة لا مجال للبحث والتجربة فيها ، بينما الثانية جامدة جافة، تبدأ أولا نتيجة الملاحظة، ثم إخضاعها للتجربة المخبرية أو الزمانية، وترفض بعد ذلك أو تقبل، وشتان بين حقائق أبدية، وبين نظريات علمية نصيب الحقيقة فيها ضئيل، إن لم يكن منعدما.

والحق أنه لم يبق مجال بعد قراءة هذا الكتاب" للتساؤل عن مشروعية التفسير العلمي للقرآن أو عدم مشروعيته، لأن علاقة العلم بالقرآن علاقة المفسر(بتشديد السين وكسرها) بالمفسر(بتشديد السين وفتحها)"

وتخلص المؤلفة من دراستها لظاهرة العلم في القرآن إلى النتيجة التالية:

" إن الأسبقية الزمنية التي تعتبر مركز الدائرة في كل معجزة هي الــتي جعلت القــرآن معجــزة في الماضــي وفي الحاضــر، وهي الــتي ستجعله معجزة في المستقبل، باعتبار الاستمرارية الزمنية التي أرادها الله لخاتمة أديانه" قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبـل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا"(الكهف:104).

يتبين لقارئ هذا الكتاب أن مؤلفته تحرت التثبت في النقـل عن الكتّاب على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم، فلم تتعسف في النقل، كـأن تخضعه إلى وجهتها في البحث، وعـاملت الجميـع على قـدم المسـاواة، حتى أن بعض الكتاب ممن يستحق" الإعلان بالتوبيخ" رفعت من شـأنه، وناقشــت آراءه بكـل اتــزان وموضــوعية، بعيــدا عن الهــوى والغــرض، وقدمت آراءها في لغة علمية واضحة، مما جعل هذا الكتــاب يصــل إلى أهدافــه، وهــو الجمــع بين نظريــات مختلفــة ومتضــاربة في نظرتهــا إلى التفسير العلمي في القرآن، والتأليف بينها، ثم الفوز بنتائج هامــة، وهي المعلن عنها في آخر هذا الكتاب، هذا أولا.

وثانيا آداب البحث التي تتراءى للقارئ في صفحات هذا الكتاب ، والمجادلة الحسنة التي توختهــا الباحثــة في كامــل فصــول هــذا الكتــاب الستة، ولا شك ان الجمع بين هــذه الأمــور صــعب، وطويــل الســلم في أيامنا هذه.

فـــرحات الجعبيـــــــــري

قصير القامة، أبيض البشرة،كثيف شعر الحاجبين، طويل اللحيــة، إلى درجة أنهـا تتـدلى إلى مسـتوى صـدره،أو دون ذلـك بقليـل، بيضـاء بخلاف شعر رأسه، فقد انتشرت فيه شـعرات بيضـاء هنـا وهنـاك، وهـو الآن في الرابعة والستين من العمر إذ ولد بجزيرة جربة سنة 1945

سئل من قبل شرطي، وقد أوقف سيارته، لماذا هذه اللحية الطويلة؟ فقال له الشيخ فرحات: متى ولدت أنت يا ولدي؟ فقال سنة كذا، فقال له: إن هذه اللحية أكبر من سنك بكثير، أو هكذا قال له.

عرفت الشيخ فرحات منذ ثلاثين عاما أو أكثر، فقد كنا نتابع الدراسة في المرحلة الثالثة معا، وكنا نراجع ما تلقيناه من دروس صحبة الأستاذ محمد الهادي المطوي في أحد المساكن التابعة لبعض أصدقائه من الإباضية، وأغلبهم من الجزائريين المنتمين لجهة وادي مزاب بالجزائر، هذه الصحبة التي دامت ،وستدوم بحول الله، ثلث قرن جعلتني أعرف الرجل عن قرب، دماثة في الأخلاق، وطيب المعشر، يستقبلك والبشر يعلو محياه، والابتسامة تغمر وجهه، إذا تحدث أو حاضر يتحول صوته إلى زئير كالأسد الذي يدافع عن فريسته، يحترمه زملاؤه في العمل، ويعامل هو جميعهم، ولو كانوا من المخالفين معه في الرأي، وهو محبوب من طلبته، يشعر وكأنه واحد منهم، يتبسط معهم في الحديث، ولا يتأخر عن مدهم بهاتفه الخاص، ويدعوهم إلى الاتصال به، إذا لم يفهموا جانبا من الدرس، أو غمضت عليهم مسألة في إحدى المسائل، أما أعوان الإدارة والعملة فيعرفهم بأسمائهم، ويعاملهم معاملة الند للند، فتواضع الأستاذ فرحات جعله محبوبا من الجميع.

يتردد على سلطنة عمان أكثر من مرة في السنة، للاتصال بالسادة الإباضية وعلمائها هناك،ولإلقاء محاضرات، والمشاركات في الندوات العلمية، وصادف في إحدى سفراته أن اصطحب معه أستاذا، وقد توفي رحمه الله، قصد إلقاء محاضرة، وفعلا سهل له كل الصعوبات التي يلاقيها المسافر إلى بلد بعيد، لا يعرفه من قبل، وبعد أن ألقى المحاضرة الموعودة على مسامع مثقفي مسقط قدمت له هدايا بمناسبة زيارته لهذا البلد، وإلى هذا الحد فالأمر عادي، ولكن هذا الأستاذ المحاضر ألصق للأستاذ الجعبيري تهما،ما أنزل الله بها من سلطان، كانت سببا في إعفائه من الإمامة بالمسجد الجامع التابع للإخوة الإباضيين، والموجود قرب البركة، واسمه جامع الهنتاتي، وقد بقي به إماما خطيبا من سنة 1967 حتى 1994وقد عاد إلى الخطابة بالجامع المذكور، بعد أن تبين أن تلك التهم كانت باطلة، ولا أساس لها من الصحة.

ورغم أن الرجل ينتمي إلى مذهب الإباضية، فلم نر أنه يختلف عنا في قليل أو في كثير، وإذا كان هذا المذهب يعتبر في كتب التاريخ الإسلامي من جماعة الخوارج، فإن هذا المذهب لم يعد كذلك، ويبدو أن هذا الأمر قد تجاوزته الأحداث، فالسادة الإباضية هم من خيرة المسلمين عقيدة وسلوكا، ولم أر فرقا إلا في بعض الأمور الثانوية، وما أعرفه من الشيخ فرحات مثلا في الصلاة أن الإخوة من أصحاب عبد

اللــه بن أبــاض لا يرفعــون أيــديهم في تكبـيرة الإحــرام، ولا يحركــون السبابة عند التشـهد،ولا يـأتون بـدعاء القنـوت في صلاة الصـبح، وهـذا الأمــر ليس خاصــا بهم وحــدهم فبعض المــذاهب الأخــرى كالحنابلــة يصنعون مثل هذا الصنيع،وحتى بعض علماء المالكية، ولا ضير في تــرك هذا الدعاء الذي ثبت أن الرسول لم يواظب عليه.

وقـــد رأيت أن الشـــيخ فرحـــات يـــنزعج من هـــذه اللفظـــة التاريخية(الخوارج) والحق أننا معشر المالكيـة في تـونس لا نـرى هـذه الفرقة كذلك، فهم إخوتنا في الدين والـوطن، ونحن كمـا يقـول الإمـام الشافعي نتعـاون فيمـا اتفقنـا عليـه، ونعـذر بعضـنا بعضـا فيمـا اختلفنـا فيه،وأذكر أنني صليت في الجامع التابع للسادة الاباضية أكثر من مــرة، ولم أر غضاضــة في ذلــك، فمــادامت العقيــدة واحــدة، فــالاختلاف في الأمور الثانويـة لا معـنى لـه، والشـيخ فرحـات يصـلي أيضـا في جوامـع المالكية، ولا حرج عنده في دلك، ولكنني لم أره يصلي في غير الجــامع الخاص بفرقته، أما أنا فقد صليت الجمعة في جامع الهنتاتي، وكذا بقيـة الصلوات الأخرى.

يقيم في بعض الأحيــان الــولائم لزملائــه في بيتــه،تكريمــا لهم، وكثيرا ما يحضر هذه المآدب خارج منزله، وإذا حضـرها يغيب عنهـا كـل مشروب غير جائز، وإذا أراد أحدهم الشراب يقبل عليه خفية، وقد منـع الشيخ فرحات على نفسه الجلـوس في المقـاهي والأمـاكن العموميـة، وكثيرا ما ألح عليه في الجلوس بأحد المقاهي فيرفض طلــبي ويقــول : إما أن نجلس ببيتك أو ببيتي.

لمــا تحصــل على الإجــازة في اللغــة والآداب العربيــة (1970)، انخــرط في ســلك التعليم الثــانوي، واتجــه في دراســته بعــد ذلــك إلى الاهتمــام بالمــذهب الإباضــي الــذي هــو أحــد أبنائــه المخلصــين، ولهــذا المذهب كتب ومخطوطات هائلة، احتفظ بالكثير منها في مدينة جربــة، وفي المشــرق العــربي، ولعــل أكثرهــا كــان في جبــل نفوســة بــالقطر الليبي، ولكي يطلـع الشـيخ فرحـات على هـذه الكنـوز الموجـودة بهـذه الجبال حزم حقائبه وتوجه إليها، ويبدو أنه جمع الكثـير منهـا، ولمـا قـرر العــودة بهــذا الصــيد الثمين، ومــر على الحــدود بين القطــرين الليــبي والتونسي خضع للتفتيش من قبـل الديوانـة الليبيـة، فـافتكت منـه تلـك الغنيمة.

ولكن فقدان هذه الوثائق لم يثنــه عن مواصـلة البحث، والــدرس فكانت باكورة أعماله في هذا المجال "نظـام العزابـة" الـتي تقـدم بهـا لنيل شهادة الكفاءة في البحث،وقد نشـرها المعهـد الوطـني للآثـار، ثم أردف هـــذا البحث ببحث ضــخم عنوانـــه" البعـــد الحضـــاري للعقيـــدة الإباضية" ونال به شهادة التعمق في البحث، وتـوالت أبحاثـه ودراسـاته حـول المـذهب الإباضـي من حيث توجهـه العقـدي والفقهي، والتعريـف

بعلمـاء هـذا المـذهب والـدور الـذي قـاموا بـه في مجـال الثقافـة الإسلامية،إن في مجـال الحـديث(مسـند الربيـع) أو في تفسـير القـرآن أوفي الفقه والتشريع، وبصفة عامة ألفوا في فـروع الثقافـة الإسـلامية منذ بدأ عند المسلمين، ويكفي أن نذكر أن إمـامهم جـابر بن زيـد(وقـد أهداني الأستاذ فرحات نسخة من آخر كتبه عن الإمـام زيـد) ألـف كتابـا ضخما جمع فيه روايته وآراءه على ما تقـول كتب التـاريخ، ولكنـه ضـاع في العهـد العباسـي، وللأسـتاذ الجعبـيري حصـة أسـبوعية في إذاعـة الزيتونة يعرف فيها بأعلام الاباضية ودورهم في إثراء الثقافة الإسـلامية بتونس.

بيد أن هذا التراث الضخم الذي خلفه السـادة الإباضـية رغم قلـة أتباع هذا المـذهب قـد ضـاع الكثـير منـه للملاحقـة السياسـية الـتي لم تتوقف في أي زمان عن مطاردتهم ومضايقتهم بشتى الأسـاليب، تصـل أحيانـا إلى حـرق الكتب والمكتبـات، وفي أحيـان كثـيرة تكـون أصـابع الفقهـاء المتعصـبين وراء أجهـزة السـلطة تحركهـا لإلحـاق الأذى بمخالفيهم، وإلى الآن لا تزال أكثر كتب الاباضية، وأهمهـا مجهولـة عنـد الاباضية أنفسهم، فضلا عن غيرهم، كما أشار علي يحي عمر في كتيب له بعنوان (الاباضية).

ونلجأ كعادتنا في هذه الخواطر أو التراجم عرض مسألة أو أكـثر من المسائل التي درسها الشيخ فرحات في كتبه،وخاصة من أطروحتـه إلى(البعد الحضاري للعقيدة الاباضية) ونأخذ كمثال لـذلك مسـألة رؤيـة الله تعالى يوم القيامة.

مسـألة الرؤيـة من المتشـابه، وهـو الكلام الـذي يتفـق لفظـه ويختلـف معنـاه،والنص واحـد والمعـاني متعـددة، وقـد ورد في الجـامع الصحيح للربيع بن حبيب قول رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم:" مـا من كلمة إلا ولها وجهان، فاحملوا الكلام على أحسن وجوهه" وقيـل لن يتفقه الرجل حتى يرى للقـرآن وجوهـا، فقولـه تعـالى:" الرحمـان على العرش استوى"وكذلك" وجاء ربك والملك صـفا صـفا" وكـذا" بـل يـداه مبسوطتان" فهذه الآيات وغيرها يلجأ في تفسيرها على التأويل اعتمادا على المجاز.

وموقف علماء الإباضية يعتمد على مـا قالـه عبـد اللـه بن إبـاض، وما جاء في الجامع الصحيح للربيع بن حبيب من نفي الرؤيـة في الـدنيا والآخـرة، وكـل علمـاء هـذا المـذهب مجمعـون على اسـتحالة الرؤيـة بالانطلاق من فهمهم للقرآن وحديث الرسول.

ويفهمون الآية:" وجوه يومئـذ ناضـرة إلى ربهـا نـاظرة" على غـير معناها الظاهر، فالنظر هنـا بمعـنى الانتظـار، لا النظـر، لأن النظـر إليـه يحتـاج إلى حـيز ومكـان وجهـة حـتى يـرى، واللـه ليس كـذلك، ويتفـق المعتزلة والاباضية في فهم هذه الآية ،يرى المعتزلة أن آية الرؤية عنـد

أهل السنة هي أقوى دليل على أن الله تعالى يرى في الآخرة، وجـواب المعتزلة أن من يقول بأن الله تعالى جسم، فإننا لا ننازعه في أنه يرى، بل في أنه يصافح ويلمس ويعانق تعالى الله عن ذلك، وإنما نكلمــه في أنه ليس بجسـم، وإن كـان ممن ينفي الشـبيه على اللـه فلا بـد من أن يعترف بأن النظر إلى الله تعـالى لا يصـح، لأن النظـر هـو تقليب العين الصـحيحة نحـو الشـيء طلبـا لرؤيتـه، ودلـك لا يصـح إلا في الأجسـام، فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه، وهو الثـواب، كقولـه تعـالى:" واسأل القرية"فإنا تأولناه على أهل القرية، لصحة المسألة منهم، وبيان ذلك أن الله ذكر دلك ترغيبا في الثواب، كما ذكر قوله:" ووجـوه يومئـذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة" زجـرا للعقـاب، فيجب حملـه على مـا ذكرناه".

وعند الاباضية كما يذكر الأسـتاذ فرحـات بالاعتمـاد على الجبـائي المعتزلي أن "إلى" في الآية المـذكورة بمعـنى النعمـة، ومفردهـا الآلاء مضافا لمـا بعـده لا حـرف جـر، والمعـنى : منتظـرة نعم ربهـا و"إلى " مفعول لناظرة

ويشير الشـيخ الجعبـيري إلى ورود أحـاديث صـحيحة تثبت الرؤيـة للمؤمــنين في الآخــرة ، وقــد اقتصــر علىحــديث واحــد وذكــر جــزءا منه ،وهو :" وهل تضامون في رؤية القمر ليلة البدر؟"

والحديث كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال:" هـل تمـارون في القمـر ليلة البدر، ليس دونه سحاب؟" قـالوا: لا يـا رسـول اللـه، قـال :" فهـل تمارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟" قـالوا: لا،قـال:" فـإنكم ترونه كذلك، والحـديث أورده بالإضـافة إلى البخـاري مسـلم وأبـو داود والترمذي.

ويـرى عمـرو التلاتي معنـاه(أي الحـديث)إن كـان صـحيحا،أنكم تعلمون ربكم،كما لا تشكون في القمر ليلة البدر، وليس معناه تبصرونه بأعينكم، كما توهم ذلك الزاعم(أي أهل السنة)، ويصل الأمر بعالم آخـر من علمـاء الإباضـية إلى تضـعيف الحـديث،وإن كـان لا بـد من قبولـه، فيجب أن تؤول الرؤية بـالعلم، وواضـح أن تـأويلهم للرؤيـة لا يخلـو من تعسف، والغريب أنهم يحكمون على القائلين بوقوع الرؤيـة في الآخـرة بكفـر النعمــة، لأنهم تـأولوا الكتـاب والسـنة، ولم يوفقـوا إلى الحـل، ومعلوم كما جاء في الأثر أن من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن أخطــأ فله أجر واحد، فكيف نحكم عليه بكفر النعمة؟

ومعلوم أن كل ما يهم الآخرة هـو غيب، والغيب لا يعلمـه إلا اللـه، ومنها مسألة الرؤية، فـإذا كـان إخواننـا من الإباضـية يعتقـدون أن بصـر الإنسان في الآخرة هو نفس بصـره في الـدنيا ،فرؤيـة اللـه مسـتحيلة،

وإذا كـان بصـر الإنسـان مختلفـا عمـا كـان في الـدنيا فالرؤيـة ممكنة ، وجائزة، وآية الرؤية عندئذ لا تحتاج إلى تأويل.

أما الطرف المقابل، ونعني بـه أهـل السـنة، فقـد اتفقـوا على أن رؤية الله تعالى لا تكون في الدنيا، أما في الآخرة فهي جـائزة، ودليلهم أن وقوع الرؤيـة ثـابت بـالقرآن والسـنة والإجمـاع، أمـا القـرآن فقولـه تعالى:" وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة" وفعل النظر إذا عدي بإلي كان بمعنى الرؤية، وهو في الآيـة معـدى بـإلى، فيكـون بمعـنى الرؤيـة، وفي قولـه تعـالى:"كلا إنهم عن ربهم يومئـذ لمحجوبـون" قـال الإمـام مالك: لما حجب أعداؤه فلم يروه، تجلى لأوليائه حتى يروه، ولـو لم يـر المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الكـافرون بالحجـاب، وقـال الإمـام الشافعي حول الآية الأخيرة: لما حجب قوم بالسخط دل على أن قومـا يرونـه بالرضـا، ثم قـال:أمـا واللـه لـو لم يـوقن محمـد بن إدريس(أي الشـافعي نفسـه) بأنـه يـرى ربـه في الميعـاد لمـا عبـده في الـدنيا، والشافعي يعد من أفصـح العـرب، ومن فطاحـل اللغـة، ومـاذا يسـاوي الزمخشري أمام محمد بن إدريس الشـافعي في فهمـه للعربيـة، وفهم القرآن بالذات، بل وحتى زعماء المعتزلة قبله، ومن يدور في فلكهم

وقد رأينا أعلاه حديثا يثبت الرؤية، أما الإجماع فقد كان الصـحابة مجمعين على وقـوع الرؤيـة في الآخـرة، ورؤيـة اللـه تعـالى تعـد من الغيب، ولا يمكن في هذه الحالة أن نقيس الغـائب على الشـاهد، وكـل مـا نجـزم بـه أن رؤيـة اللـه تعـالى في الآخـرة معلومـة من الـدين بالضرورة، أما كيف، فتلك مسألة لا يعلمها إلا علام الغيوب.

والخلاف بين أهـل السـنة وأتبـاع المـذهب الإباضـي حـول هـذه المسألة لا يفسد الود، ولا يعكر صفو العلاقة المتينة والحميمة بين أتباع هذا المذهب أو ذاك، فقد طويت الصـفحة الـتي ينعت هـذا بالمـارق، أو المبتـدع، والآخـر بالخـارجي، وأصـبحت في مطـاوي التـاريخ، فالفرقـة الإباضية الآن تعـد من أقـرب الفـرق إلى أهـل السـنة والجماعـة، لأنهـا فرقة معتدلة، ولولا هذا الاعتدال لما كان لها ذكر اليوم بيننـا، وقـد نـوه الطاهر ابن عاشور بهذه الفرقة، واعتبرها من الفـرق الإسـلامية شـأنها شأن أهل السنة، وليس له عليها أي مأخذ، أو كما قال.

ولعلماء الإباضية مساهمة فعالة في النهضة العربية الحديثة، فقـد عملوا بحرص وإخلاص إلى جانب المذاهب الأخرى على ترشيد الصحة، وتوجيههـا الوجهـة السـليمة الـتي ترضـي رب العـالمين، لتتمكن من مجابهة الأعداء ــ وما أكثرهم هـذه الأيـام ـــ الـذين يكيـدون لـه كيـدا فظيعا، ولكن هذا الترشيد، كما يقـول الأسـتاذ الجعبـيري، لا يتسـنى لـه النجاح إلا بالعمل على التقريب بين المـذاهب الفقهيـة، على أن تعامـل هذه المذاهب على قدم المساواة في ما بينهـا، مـا دامت كلهـا تسـتقي من نفس المعين.

ولا جدال في أن علماء الإباضية قد أثـروا الفكـر الإسـلامي بفيض من الكتب والبحوث، ولعلـه لـو قـام بـاحث بإحصـاء جميـع الكتب الـتي ألفها الإباضية، واستخرج نسـبتها المائويـة إلى عـددهم ، ثم فعـل ذلـك في بقية المذاهب، ثم قارن بين نسب الجميع لوجد نسـبة الإباضـية من أعلى النسب، إذا لم تكن أعلاها، رغم ضياع الكثير من تراثهم بسبب ما عانوه من مطاردة ومضـايقة، كمـا أشـار إلى ذلـك المرحـوم علي يحي عمر.

وما زال الأستاذ فرحات يمد المكتبـة الإباضـية والتونسـية عمومـا بوافر كتبه ومحاضراته إن في الندوات العلمية أو على شاشـة التلفـزة، أو على أمــواج الأثــير، ولا ننســى ان الأســتاذ الجعبــيري يعــد من المتخصصـين على المسـتوى العـالمي في هـذا المـذهب الـذي هـو من أنجب وأخلص أتباعه، أمد الله في أنفاسه.

محمد الهادي بن صالح

قصير القامة، أسمر البشرة،يحول الحديث عن ماضيه إلى قصة، ذات مشاهد وأشخاص يكون هو بطلها، وكثيرا ما يتحول هذا البطل إلى ملاكم يلطم كــل من يمس كرامتــه من قــريب أو من بعيــد، أو يريــد الاعتداء عليه، ولا يهم أن يكون هذا المضروب معلما أو أسـتاذا، ولا يهم أن يطـرد من المدرسـة أو من المعهـد، عنيـد، صـاحب شخصـية قويـة، وكثيرا مـا يتحـول هـذا الرجـل القصـير القامـة إلى عملاق، فيلكم هـذا، ويطيح بالآخر،وقد مارس الملاكمة بالفعل، هذا الرجل هو محمد الهادي بن صالح القصاص والروائي المعروف.

لا أذكر متى وأين تعرفت على محمد الهـادي، كـل مـا أعرفـه أننـا نلتقي من حين لآخر في مقهى بنهج مصطفى مبارك، وكثيرا ما يصحب معه بعض رواياته الجديدة فيهديني بعض النسخ منها،وقد أقدم له بعض ما أنشره، ويبدو أنه التزم مع نفسه أن يكتب ويطبع رواية كل سنة،فقد أنشأ دارا للنشر، لا ينشر بها إلا إنتاجه الخاص، سماها دار نشر أبـو زيـد على اسم جده،وكتبه بعضها يباع، والآخر يهدى لهذا الصديق أو ذاك.

أما لماذا كـانت لـه دار نشـر خاصـة ؟ يعـود ذلـك كمـا يقـول ابن صالح:لعـدم وجـود المسـتثمر في قطـاع الثقافـة، فعـدم وجـود الناشـر المحترف من الأسباب التي دفعتني إلى أن أنشر كتاباتي على حســابي الخاص،وإن أسعفني الحظ، ففي كل مـرة أحـاول فيهـا نشـر كتـاب إلا ووجدت له هدا الناشر، لكن المدة التي ينجز فيها هـذا الكتـاب أعتبرهـا دائمـا مـدة طويلـة، فالتجـأت إلى النشـر محاولـة لكسـر هـذا النسـق البطي، فهل يعقل أن نكتب رواية سنة 1970 ولا تنشر إلا سنة 1980، فعشـرية كاملـة في الـزمن تنقلب فيهـا أوضـاع، وتحـدث فيهـا أوضـاع أخرى، وهذا واقعنا، والأثر الأدبي لا يتقيد بزمان، ولكن الوقـع التـاريخي للحدث ضروري.

كنت أمضي جلستي معـه في المقهى في الاسـتماع إلى قصـص تهمّ حياتـه وتـاريخ عائلتـه في نفطـة، وكـان يعيـد على مسـامعي نفس القصص تقريبا، كان هاجسه القصة، وذلـك منـذ أن كـان صـغيرا يقـول: لما كنت طفلا غالبا ما كنت أروي الحـديث الواحـد عـدة روايـات، تتّحـد

في جوهرها، وتختلف في شكلها، وقد أروي الحادثة التي تدفعني إلى الحديث عن حادثة أخرى، تجرني بدورها إلى رواية حادثة أخرى وأخرى وأخرى، هذا الاستطراد وهذه المفارقات غالبا ما تدخل الاضطراب على السامع، فأكون ثرثارا عند بعضهم، وأكون كذابا عند الآخرين.

وكان حديثه معي لا يتعدّى هذا الوصف، ولكنني أنزّهه عن الكذب والثرثرة، فتلك طبيعته في القص، وذلك فنه في السرد، ولا يمكن ان تتدخل الأخلاق في الفن.

ولد محمد الهادي بن صالح بنفطة سنة 1945 وتخرج من المعهد القومي للتعاضد في التقنية الاقتصادية والتصرف، وعمل حتى بلوغه سن التقاعد في المركز القومي للجلود والأحذية.

ألف سبع عشرة رواية،وله مجموعتان في القصة القصيرة، كما أنه أعدّللنشر تقديما وتحقيقا للقصص التالية: (الرماد) و(المهاجر) و(بنت قصر ألجم) الأولى لمحمد العريبي، والثانية والثالثة لزين العابدين السنوسي، وآخر رواياته (ورقات من كتاب العزلة).

من طبعه أنه لا يجامل ولا يداري، يقول رأيه مهما كانت عواقبه، صريح إلى درجة أنه يغضب مخاطبه، لا يحب الظهور،كان من رواد نادي القصة، ثم غادره بدون رجعة، ويرتاد هو ومجموعة من كتاب القصة كل يوم أحد إحدى المقاهي في شارع الحبيب بورقيبة، ثم وقع بينه وبين أحد الحاضرين خلاف، فأغلظ له القول، وغادر الجماعة نهائيا، كما انسلخ من قبل من اتحاد الكتاب التونسيين وغيره من النوادي،يقول عن سبب مغادرته لهذه النوادي: انسلخت من النوادي لأنها لا تستجيب لطموحاتي المشروعة والمتواضعة في الآن ذاته، فأنا أطالب بحركية المناصب، وتداول المسؤولية، لأنني أكره الجمود، وأرفض المقاعد المحجوزة مدى الحياة، وأرفض كل ألوان الهيمنات، وكل أساليب الاحتكار مهما كان نوعها، فأنا أرى فيها عملا يسيء إلى الأخلاق الحضارية الفاضلة، وأتساءل دائما كيف تسمح جمعية ثقافية لنفسها أن يجلس على كرسي رئاستها شخص هو باق ما بقي نفوذه الأدبي أو السياسي أو ما طابت نفسه لذلك؟ لا بد من إيجاد صيغ تمنع مثل هؤلاء من أن يكونوا ضحية حكرهم،واتحاد الكتاب من بين هذه النوادي التي سمحت لنفسها بإقرار صيغ أرفضها، وعجبي شديد عندما نتهم الرجل السياسي بالتخلف، وهو يتشبث بكرسي الحكم، نتهم مثل هؤلاء،بل أنهم لا يرون وجها للمقارنة، فهذا الكاتب الواعي عجز عن فرض وجه من أوجه الديمقراطية في دائرة ضيقة من المفروض فيها أن تكون دائرة مستنيرة، لهذه الأسباب رفضت الاتحاد، فرفضني بكل تجرد، وكان بإمكاني أن أتمتع بعضوية هذه المؤسسة منذ تأسيسها، ولكن لطبيعتي المتزمتة والمتصلبة أيضا،بدعوى الثبوت على المبدأ دور

في امتناعي، فقررت أن لا أندمج في هـذه المنظمـة، وأكـون بمفـردي هيكلا ثقافيا قائما بذاته، وها أنا ذا على عهدي.

قلت إن رواياته كثيرة، وأمامي منها: بيت لا يعرف الـدفء، وبـاب الرحمة، وراحة المجنون، والحركة وانتكـاس الشـمس، والغربـان تـأتي من الغــرب، وفي بيت العنكبــوت، وتــراب على أعتــاب الليــل، وكلب السبخة، والأبنية الهشة، وألق التوبة، ومن حقه أن يحلم.

(من حقه أن يحلم) هي الرواية السـابعة لهـذا الكـاتب الـذي آل على نفسه أن تكون حياته إنتاجا متواصلا، وأن يبرز إنتاجه للضوء، مهما كلفه ذلك من عناء وإرهـاق مـادي، ولعلـه أراد أن يتحـدى أزمـة النشـر الــتي يعــاني منهــا الكــاتب التونســي، فيثبت للملأ أن إرادة المؤلــف وعزيمتـه فـوق كـل الأزمـات، ولكن أزمـة النشـر ليس موضـوع هـذه الأسطر، وإنما أردنا أن نسوق ما عنّ لنا من ملاحظات في أثناء قراءتنا لهذه الرواية، ونقول ملاحظات، وليس هي بدراسة للفن الـروائي عنـد محمد الهادي بن صالح، انطلاقا من روايته (من حقه أن يحلم) فصاحب هـذه الروايــة(من حقــه) أن يقتحم بــرامج كليــات الآداب ببلادنــا، وأن تخصص لفنه الروائي الدراسات المعمقة، خاصة بعد أن تكوّن لـه هـذا الرصيد من الإنتاج القصصي والروائي، ولا شـك أنـه امتلـك آليـات هـذا الفن الأدبي من جهة، واكتسب تجارب فنية لا تخلو من نضج وتطور من جهة ثانية، وللرجل مطالعات في الأدب العالمي لا حد لها.

(من حقه أن يحلم) تتكون من عشرة فصول، أشـار إليهـا الكـاتب بالأرقام في مائة وسبع وسبعين صفحة من الحجم المتوسـط، وتنقسـم الروايـة حسـب المكـان إلى قسـمين: قسـم تـدور وقائعـه في تـونس، والقسـم الثـاني تقـع أحداثـه في بـاريس، وأبطـال الروايـة هم الكـاتب والصحفي الـذي لم يـذكر اسـمه ثم الشـاعر والسـلطان وزينب خليلـة الكاتب ، هذا في تونس، أما في باريس فنجد المثقف العربي المغترب، ثم الطالب التونسي، وراشيل اليهوديـة، ثم مـار آنج، وأم الكـاتب الـتي تطارده، وهو في باريس، ويعثر على جثتها هناك، فيوافـق على حرقهـا، لأنه لم يجد لها قبرا يواريها فيه.

اكتســب بطــل الروايــة من خلال عملــه في الصــحف والمجلات خبرة أهّلته لأن يصبح صحفيا وأديبا يشـرف على ركن الثقافـة، وتقـديم الكتب في إحدى الصحف، وتسمح له هذه الوظيفـة بالاتصـال بـالوزراء والكتاب والشعراء، ويحاول أن يداعب بعض الشعراء المداحين، فيرفق بعض مقالاته برسم سـاخر، يبـدو فيـه الشـاعر ينقـر على دف،فاغتـاظ الشـاعر فـدفع إلى الجريـدة بقصـيدة عصـماء أثـارت قرفـه وغضـبه، فطلب من رسـام الصـحيفة أن يصـور لـه " الشـاعر في هيئـة جـرذ قذر(...) جرذ مسعور، بذيله الطويل"

ولم يجد الشـاعر بـدا من أن يرفـع أمـره إلى السـلطان، يشـكوه سخرية الكاتب به، وتعييره بأنه مداح السلطان، وبعد لأي وحوار طويـل بين الشاعر والسلطان، يفهم هذا الأخير مقصد الشكوى، ويـأمر بـرفت الكاتب من وظيفه.

ويقرّ الكاتب إزاء هذه البطالـة والغربـة الـتي أحس بهـا وهـو في بلاده إتمام ما كان يفكر فيه من قبـل، وهـو السـفر إلى بـاريس لإتمـام دراسته، والاتصال بعباقرة الفن والأدب في هذه المدينة.

ويستعد للرحيل بعد أن يترك خليلته زينب في منزله، تلك الفتــاة الـتي غـرر بهـا، وأصـبحت تعاشـره معاشـرة الأزواج، ولكنـه رفض أن يرتبط بها، أو يتقيد بشيء اسمه الزواج وإنجاب الأبناء، كأنـه يسـير في حياته على غرار الكاتب الوجودي جان بول سارتر في علاقتـه بسـيمون دو بوفـوار، وقـد كـانت هـذه الفتـاة حسـنة السـلوك والسـيرة ومحبـة للشعر، ونصحها أن تعيش تجاربها الأدبية، قال لها:

ـــ "أنت تكتبين عن الحب فهل عشت تجربة حب؟"

وأقنعها بأسلوبه المغري بـأن تحب، وأن تمـارس هـذا الحب، ولم تجد مفرا من ممارسة الحب بعيدا عن ترهات العذريين، ولم يكن ذلك في البداية معه كما كان يؤمل.

سافر إلى باريس، وعاش فيها غريبا جائعـا مقـرورا، مطـاردا من البوليس، وتعرض للإهانة والسب والشتم، وعمل في محضـنة للأطفـال عنـد امـرأة يهوديـة، حـتى يسـتطيع الحصـول على الطعـام والمـبيت والـدفء، إلى جـانب كتابـة مذكراتـه في مجلـة عربيـة تصـدر ببـاريس، وصف فيها غربته ووحشته بعيدا عن بلاده.

وعوض إن يتصل بالكتّاب والرسامين والمفكرين، أو يتابع دراسته في إحدى الكليات انغمس في حياة اللهو والمجون، وأخذ يمضي بيـاض نهاره مع امـرأة شـاذة جوابـة آفـاق، بحثـا عن ممارسـة الجنس، وبيـع المخدرات في البلدان الأسيوية، انتقامـا لماضـيها المـزري، إنهـا صـورة للغرب الذي يسعى إلى تـدمير القيم، ونشـر الرذيلـة في البلـدان الـتي استولى عليها، ثم يتفـق مـع هـذه المـرأة المغـامرة على الـزواج، وهي التي تحتقر الزنوج والعرب، ومنهم هـذا الكـاتب عنـدما رأتـه لأول مـرة في المقهى الـذي تعمـل بـه، وقـد تطـورت العلاقـة بينهمـا إلى درجـة المعاشرة، فقد كان كل منهما في حاجـة إلى الآخـر، أمـا هـو فيكن لهـا الاحترام والمعاملة الحسنة، وأما هي فتضمر له العداوة والحقـد، المهم أن يصل إلى مبتغاه " وقد نسي في أوج شهوته كل القيم وكـل علمـه، وما قرأه في نص مدرسي، وحكاية ذلك الشاب الهندي الذي سـمع من أحسن إليه يشتم جنسه، فرد إليه إحسانه قائلا أن لا ثمن للكرامة حتى تهدر بكلمات نابية".

لقد أحرق جثة أمه، والأم هنا رمز للحضارة التي ينتمي إليها هــذا الكاتب، إن كان له انتماء، وبعبارة أخرى أحرقهـا الغـرب بعـد موافقتـه، لأنها لم تجـد في هـذه البلاد مكانـا للبقـاء، عـبر عنـه محمـد الهـادي بن صالح بالقبر، ولما لم يجد الغرب هـذا المكـان للـدفن أحرقهـا " التفت فجأة ليرى جثة أمه في آنية القمامة في نار متأججة".

والكـاتب بطــل هــذه الروايــة وجــودي يهمــه اللحظــة الــتي هــو فيها،يـؤمن بـأن" عـدم إحساسـنا بـالزمن من أسـباب تخلفنـا عن ركب الحضارة" وينعت غيره بالتفاهة والسخف، ويرى أن الأدب ينحصــر في الحديث عن الجنس والسياسة والـدين، ويعتقـد على غـرار نيتشـه بـأن الإنسان هو صانع ربه، لا الـرب خـالق عبـده، وأن الإثـارة الجنسـية هي محور أدبه، أما السياسـة فيتجنب الصـدام مـع ولي أمـره، وكـاتب هـذا شأنه من حقه إن يحلم بالأشياء التي تهمه، ولا تهم غـيره، من حقـه أن يكـون أنانيـا، وأن تكـون هـذه الأنانيـة هي قضـيته، ومن حقـه أن يشـبع بطنه، ويرضي غرائزه الجنسية، ومن حقـه أن يتهـاون باللغـة، فيتحـدى لغته الوطنية، ومن حقه أن لا يراعي قواعد هذه اللغة، ومن حقه كذلك أن يتفوه بالكلام البذيء الذي تأباه المروءة والأخلاق، كـل ذلـك وغـيره من حقه هو، أما نحن فنقول عنه إنه كاتب يتهرب من مســؤوليته، ومن واجبه نحو مجتمعه، وأن الكاتب محمد الهادي بن صالح أراد أن يبين أن الكاتب حر فيما يقول ويكتب، ولكن هذه الحرية إذا لم توظف في إنارة الرأي العام وترشيده فلا قيمة لهذه الحرية، ولا معنى لهـذا الحلم، كـان يمكن أن يحلم بأشياء كبيرة، ولكن ما أتفه هـذا الحلم، لقـد تحـول إلى هذيان متدافع وسخيف، وقد تعودنا أن يحلم الإنسان أو الكاتب بالعدالة الاجتماعية وبالحرية والتقدم وحب الآخرين،حتى يسود التعاون والإخـاء بين البشر، جميع البشر، كان يمكن أن يحلم بمدينة خالية من الأضــغان والأحقاد، ومن مطاردة الإنسان لأخيه الإنسان، ولكن من أين تأتي هـذه الأحلام الكبـيرة، وهـو ينطلـق من واقـع نتن، يسـوده العـار والفضـيحة والدمار، إنه ينهل مما هو موجود، ولا يتجاوزه،ألم يعترف الكـاتب بطـل الرواية بأنه كتب قصة طويلـة، كلهـا مركبـة من مقتطفـات وقصاصـات الجرائـد والمجلات، أي أنـه لم يـأت بحـرف واحـد من جعبتـه، او فكـرة واحدة من بنات أفكاره، أو من أولا أفكاره كما يقول محمـد الهـادي بن صالح.

ولا يبعد أن تكون هذه الرواية سـيرة لكـاتب تونسـي معـروف، لا فائـدة في ذكـر اسـمه، ولكن محمـد الهـادي بن صـالح يبعـدنا عن هـذا الظن، قبل البدء في فصول الرواية قائلا: الروايـة وهم، والـوهم شـيء من الواقـع، وكـل اتفـاق مـع هـذا الواقـع في بنيـة الشـخوص أو سـير الأحداث مجرد صدفة.

وبالإضافة إلى ذلك فالرواية تعج بأسماء لكتّاب وشعراء قدامى ومحدثين، وكتّاب من الغرب مشهورين، ويهمنا أن نشير إلى أنه يمكن استخراج قائمة من الأعلام لشعراء وكتاب تونسيين، ومن الكتاب التونسيين نذكر على سبيل المثال محمد العروسي المطوي والشابي وبيرم التونسي وغيرهم.

وبعد فإن هذه الرواية تندرج ضمن الروايات العربية التي تتعرض إلى علاقة المثقف العربي بالغرب التي بدأها توفيق الحكيم (بعصفور من الشرق) ثم يحي حقي (بقنديل أم هاشم) والطيب صالح (بموسم الهجرة إلى الشمال) وتصور(من حقه ان يحلم)غربة المثقف في مجتمعه وعصره، وتبرز حيرته إزاء الواقع المعيش، فبطل الرواية متشبع بالثقافة الغربية، ولكنه لا يجد مكانا بين مثقفيها وكتابها، فيطارد ويحتقر، وهو متشبع بثقافته الوطنية، ولكنها هي الأخرى ترفضه، أو يرفضها لا يهم، ويبقى مترددا حائرا، كتردده في الزواج على العرف الجاري بماري أنج، رمز الثقافة الغربية المتهالكة على كل ما هو نفعي، وزينب رمز الثقافة الوطنية الباحثة عن أصالتها وانتمائها، ولكن هذه الحيرة، أو هذا الانغلاق، وضع له الكاتب انفتاحا، يظهر في آخر الرواية، أنه الابتسامة والسفر والبحث من جديد عن دور الكاتب في مجتمعه الحالم بالطريقة التي ترضي الجميع، وسواء أرضى الكاتب غيره أو لم يرضه، فمن حقه أن يحلم، ومن حقه أن يكتب.

إنتاج محمد الهادي بن صالح غزير في مجال الرواية، ولعله أكثر إنتاجا من أي كاتب روائي آخر في تونس، ومع ذلك لم يتصد بعض النقاد إلى دراسة إنتاجه والتعريف به لدى القراء، ثم إنه لم يلق حظه كما هو منتظر في الدراسات الجامعية، وفي أقسام العربية بالكليات التونسية وما أكثرها هذه الأيام.

ثم أن الناقد الذي يهتم بالإنتاج الأدبي الذي يصدر عن بعض المطابع ودور النشر في بلادنا غائب في الأوساط الأدبية بتونس، وإن اهتم بعضهم بأثر جديد فلأنه صديق للكاتب، وقليلون هم الذين يقبلون على دراسة رواية أو كتاب دون معرفة مسبقة بالمؤلف، في حين أن النقاد في بلدان أخرى ينظرون إلى الأثر ومدى قيمته، والإضافة التي قدمها للأدب بجميع أجناسه لا إلى صاحبه.

هذا الحصار والصمت والتعتيم آلم محمد الهادي بن صالح، وحزّ في نفسه، فهو عندما يدفع بكتابه إلى القارئ ينتظر رد فعله، وصداه في نفسه، وإلى أي حد أثر فيه، يقول صاحبنا: هنا أكون كاذبا إن زعمت أنني راض عن الصمت الذي قوبلت به رواياتي الأخيرة(نحن في ربيع 1991) لكن هذا الصمت، وإن آلمني كثيرا، فهو لا يزعجني إطلاقا، خاصة في بلد كبلادنا فيها من هو على استعداد لكي يناقش كتابا، وإن لم يره، ولم يقرأ منه حرفا واحدا، فضلا عن كلمة.

إن الكــاتب مهمــا كــان اختصاصــه يكتب لغــيره، هــذا أمــر بديهي،والإنسـان عمومـا، والكـاتب خصوصـا لا بـد أن تصـادفه لحظـات مشرقة في مسيرته الأدبية، فتطالعه مرة دراسة لأحـد آثـاره، أو تنـاول لهـا يـدخل على نفسـه بعض الطمأنينـة، ويشـحذ عزيمتـه، ويبعـد عنـه الإحباط، وهذا مـا وجـده محمـد الهـادي بن صـالح في بعض الدراسـات المعمقة خارج أسوار كليات الآداب بتونس.

ولاحظ ابن صالح أن التعتيم ومؤامرات الصمت أساليب متخلفة، لا تـدل إلا على الجهـل، ولا يمكن للكـاتب أن يعطيهـا أهميـة، حـتى لا تتجاوز حجمها الحقيقي، ويكون لها انعكـاس على مسـيرته في الإبـداع، فالزمن لا يهمل أبدا من تكون لكتاباته قيمة فنية، فهو الغربال الصادق، فإن كان لكتاباتي ــ كما يقول ــ قيمة فنية فلن يهملهـا الـزمن، مهمـا حاول الناقدون إنكارها، والأيام بيننا.

قـامت مسـيرة محمـد الهـادي بن صـالح على التحـدي، تحـدى معلميه وأساتذته، إن في التعليم الابتدائي أو في التعليم الثانوي، واقتلع شهادته العليا، بعد معركة ضارية مع أحد أعضاء لجنة الامتحان، وتحـدى أزمة النشر، فأسس دار نشـر، خصصـها لإنتاجـه فقـط، ومداخلاتـه في الندوات والملتقيات تتسم بالتحدي للحاضرين الذين ألفـوا نمطـا معينـا من التفكير، لا يحيدون عنه، وسـتكون آراؤه هي الـتي يعمـل بهـا غـدا ، والمستقبل بيننا .

تــوفيق بن عامــــر

معتـدل القامـة، نحيـل الجسـم، أسـمر البشـرة، كـثيف شـعر الحاجبين، فصيح اللسان، بليغ الكلام، قوي الحجة، له شعر جيـد، أغلبـه في الإخوانيات، كتبت له قصيدة طويلة على الرخــام، علقت على يمين الداخل إلى مكتبة كلية العلوم الإنسـانية والاجتماعيـة، تحـدث فيهـا عن تأسيس كلية الآداب والعلـوم الإنسـانية، والأسـاتذة الـذين سـاهموا في تأسيسها، وكان هو من الدفعـة الأولى الـذين تخرجـوا على يـدي هـؤلاء المؤسسين، تولى رئاسة قسم اللغة والآداب العربية، وكان في فــترتي رئاسته لهذا القسم مثـالا في التنظيم وحسـن التسـيير،يعمـل مـا يـراه خيرا، ولا ينتظر الشكر من أحد، يقابل الإساءة بالإحسـان، حريصـا على إقامة ندوات علمية كل سنتين، يستدعي لها بعض الأسـاتذة من تـونس والجزائـر والمغـرب والمشـرق العـربي، وحـتى من أوروبـا، ثم تجمـع المشـاركات العلميـة، وتصـدر في منشـورات، تتكفـل بإصـدارها كليـة

العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومن المحاور التي تناولتها هـذه النـدوات العلمية الدولية نذكر (الأصيل والدخيل في الفكـر العـربي) و(مجادلـة السـائد) وتتضـمن هـذه المحـاور أبحاثـا في اللغـة والحضـارة والأدبين القديم والحديث.

ولما غادر رئاسة القسم المشار إليه بقي هـاجس تنظيم النـدوات العلمية يـراوده، فكـون بالتعـاون مـع وزارة التعليم العـالي وحـدة بحث سـماها (وحـدة الثقافـات) وأمـامي سـفر نشـر فيـه أعمـال النـدوة المنعقدة في إطار وحدة البحث أطلق عليه (الـتراث العـربي والحـوار الثقافي).

وقد شارك في هذه الندوة ببحث جليل عنوانـه (الإسـلام والحـوار) بين فيه رأي (الإسلام والحـوار) يقـول:" إن الحـوار بمـا هـو ضـرب من التواصـل وأسـلوب من التعامـل في العلاقـات بين الـذوات الإنسـانية يتوقف وجوده على ما يسود تلكم العلاقات ويكتنفها من منـاخ سـلمي، فالسلام شرط أساسي لكل حوار ولا حديث فيـه بدونـه، ولا مـراء في أن رسالة الإسلام هي رسالة سلام بالأساس، إذ بشرت بـه في مجتمـع كان يسوده قانون العنف، وتحكمه تقاليد الغارة والثأر، وخاطبت أتباعها بلغة الألفة والإخاء " واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعـداء فـألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمتـه إخوانـا"" إنمـا المؤمنـون إخـوة فأصـلحوا بين أخويكم" " ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنـه ولي حميم" " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" بل جعلت هذه الرسالة من السلام تحيـة الإسـلام واسـما من أسـماء اللـه الحسنى، وتحية أهل الجنة السلام، وهي دار السلام، والسلام هو الغاية وهو الهداية " يهدي الله من اتبع رضـوانه سـبل السـلام" وهي في حـد ذاتها رحمة للعالمين" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".

وللأستاذ توفيق بن عامر أصيل مدينة القلعة الكبرى والمولود بها في جـانفي 1946 دراسـات قيمـة في الحضـارة الإسـلامية،هي على سبيل المثال (دراسات في الزهد والتصوف) و(التصوف الإسـلامي إلى القرن السادس للهجرة).

وليس من غايتنـــا في هـــذه الخـــواطر أن نلم بهـــذه الأبحـــاث والدراسات،أو نعمل على تقييمها، ولكن لا بد من الإشـارة إلى أن هـذه الأبحاث تتسم بروح النزاهة والموضوعية، فلا هو من الـذين يلمـزون أو يهمزون، كما يفعل غيره من مستشرقي العرب الـذين يشـككون فيمـا هو معلوم من الـدين بالضـرورة لغايـة في نفس هـؤلاء المشـككين في عقيدة القوم.

ونريد في هذه العجالة أن نهتم بأطروحته التي نشرها في جزأين وعنوانها (الحضارة الإسـلامية وتجـارة الرقيـق) الـتي قسـمها إلى ثلاثـة أقسـام، بين في الأول خصـائص تجـارة الرقيـق، قبـل القـرن الثـالث

للهجرة، فتعرض إلى ملامح هـذه التجـارة عنـد الأمم السـابقة، وخاصـة منها أمة العرب، ثم وضح موقف الإسلام من تجـارة الرقيـق، ومظـاهر تطورهـا بانتشـار الفتوحـات خلال القـرن الأول للهجـرة، وأمـا القسـم الثاني والأساسي في هذا البحث فقد أقبل فيه الأستاذ ابن عامر على تحليـل خصـائص هـذه التجـارة في القـرنين الثـالث والرابـع للهجـرة، فتحدث عن العرض والطلب في هذه التجـارة، وحركـة توريـد الرقيـق إلى العالم الإسلامي، ومختلف أجناس العبيد والأسواق التي يبـاع فيهـا، وما تميزت به من أساليب في المعاملات، ثم تنـاول تجـارة كـل صـنف من أصـناف الرقيـق حسـب الجنس وشـراته، واهتم في القسـم الأول والأخير بآثار تجارة الرقيق في المجتمع الإسلامي، وإلقاء بعض الأضواء على مآل هذه التجارة بعد القرن الرابع للهجرة.

وقد أردنـا أن نقـف عنـد مسـألتين هـامتين لنتعـرف إلى طريقـة تناول الأستاذ ابن عامر لبعض الإشكاليات التي مـا زال أصـحاب النوايـا المغرضة يطرحونها حتى اليـوم لنلمس منهجـه في الـردود على هـؤلاء المغرضين من مستشرقي الغرب وأتباعهم من العرب.

أمـا المسـألة الأولى فتتعلـق بمـدى قـدرة العـربي على القتـال، ومجابهة الخصم في ساحة الحرب، فقد زعم الأب لامنس ــــ وهـو من أشـد خصـوم الحضـارة الإسـلامية ــــ أن قريشـا كـان لهـا جيش من المرتزقة يتكون من العبيـد الأحـابيش، وهـذا الـرأي قـد يكـون مقبـولا، ولكن الأب لامنس بنى عليه قضـية أخـرى، ومؤداهـا أن هزيمـة قـريش في غزوة بدر الكبرى مـع جيش المسـلمين سـببها عـدم مشـاركة هـذا الجند المزعوم في هذه الغزوة، بدليل كما يقول أن هذا الجيش عنــدما شارك في غزوة أحد انتصرت قريش على المسلمين.

وزعم الأب لامنس أن لقـــريش جنـــدا قـــارا " من الرقيـــق ومجموعـات متمـيزة من العبيـد تعتمـد عليهـا قـريش في الـدفاع عن نفسها " ونسي هـذا الأب أن العـرب عرفـوا بالشـجاعة وفنـون القتـال والفروسية، ووجـود عبيـد لهم في غـزوة أحـد هـو من بـاب المسـاعدة وخدمة أسيادهم لا غير.

وقد اعتمد الأستاذ ابن عامر في بطلان أطروحـة لامنس سـكوت المصادر عن هـذا الجنـد المزعـوم، وإن ذكـر لفـظ الأحـابيش في بعض المصـادر، والـتي تخيـل منهـا لامنس وجـود جيش جـرار فإنهـا لاتـبرز" بوضوح هوية هؤلاء، ولا تسمح بأنهم جنـد سـود من أصـل حبشـي، وقـع استيرادهم من سواحل البحر الأحمر، بل أننا نجد في هذه المصادر من القرائن ما ينفي هذا الزعم، مما يجعلنـا نعتـبر أن هـذا المستشـرق قـد بالغ في تأويل بعض الإشارات، واعتسف في بعض الاستنتاجات"

ولم يكتف الأستاذ ابن عامر بهذا الرد،وإنما ذكر رأي القس والمستشرق الانجليزي مونتغمري وات الذي وصف هذا الجند القار بأنه بعيد عن الموضوعية والنظر العلمي.

ثم يثبت توفيق بن عامر تاريخيا ولغويا بطلان نظرية الأب لامنس، فمن الناحية التاريخية فإن الأحابيش نسبة إلى واد يسمى الأحبش، وأن تسميتهم بالأحابيش متأتية من تكوينهم لحلف في هذا الوادي، فهم إذن قبيلة من قبائل العرب التي كان لها دور في تاريخ الحروب عند عرب الجاهلية، وكان لهم أسياد ورؤساء يتحالفون مع بعض القبائل، وهو ما لا يؤيد نظرية لامنس.

أما الحجة اللغوية فتعتمد على بطلان فهم لامنس من كونه رأى أن لفظة الأحابيش مأخوذة من الحبشة ، لا إلى نسبتهم إلى وادي الأحبش من ناحية، وإلى معنى الأحبوش الذي يعني فريقا من الناس من ناحية ثانية، ومن ناحية ثالثة فإن المصادر تفرق بين الأحباش ذوي اللون الأسود، وتسميهم عبدان آهل مكة، وبين الأحابيش الذين هم من قبيلة عربية، كما رأينا، يسكنون خارج مكة، بينما العبدان كانوا يسكنون مع العائلات القرشية، للقيام بخدمتهم.

ويسوق ابن عامر حجة ديمغرافية تتمثل في أن قريشا كانت قليلة العدد، تزدحم كلها في الوادي المحيط بالكعبة، فلم تكن الظروف تسمح لهم بالنمو الديمغرافي، حتى يعملوا على تكوين هذا الجيش من المرتزقة.

لقد أراد لامنس أن يثبت بكل الطرق جبن أهل قريش مستدلا على ذلك بانهزامهم أمام المسلمين، عندما يتخلون عن جنودهم الأحباش ـــ حسب زعمه ـــ وعندما ينتصرون يرى أن هذا النصر ليس راجعا لخصال قريش الحربية، لأنهم مشغولون بالتجارة، وتكديس الثروات، فلم تكن لهم ما للبدو من خبرة باستعمال السلاح.

وواضح أن لامنس يعتقد، لغاية في نفسه، أن هذا الجيش تسبب " في انتصار قريش في أحد، وكانت هزيمتهم في بدر بسبب التخلي عن الاستعانة بهم" وبطريقة أخرى أراد أن " يبين أن المسلمين لم يجدوا عسرا في التغلب على قريش لجبنها، ولتخلي الأحابيش عنها في غزوة بدر الكبرى"

وواضح كذلك أن الأب لامنس يستنقص من القدرة القتالية لأهل مكة، كما يستنقص من شجاعة المسلمين، ففي بدر الكبرى انتصروا على قريش ، وليست لها خبرة حربية، والانتصار الحق يكون عادة على جيش شجاع، وقريش ليست كذلك، فغاية الأب لامنس التقليل من انتصار المسلمين في بدر،   ومن ناحية ثانية فقد انتصر العبيد على المسلمين في أحد، مما يؤكد حسب زعمه أن المسلمين لم يكن لهم استعداد حربي، وإلا فهذا جيش من المرتوقة ينتصر عليهم.

هكذا تبنى الآراء والنظريات، وتتداول بين البـاحثين، وهي مقامـة على جرف هار، لا تستند إلى أي أساس أو برهان.

أما المسالة الثانية فتتعلـق بموقـف الإسـلام من الـرق، وعبوديـة الإنسان لأخيه الإنسان، فقد كان الإسلام متهما بتشجيعه للـرق وتعذيبـه للإنسان، وحال دون تحريره، وهذا ما كـان يـردده الكاردينـال لافيجـري في أواخر القرن التاسع عشر، وكان يتجـول في أوروبـا منـددا بموقـف الإسلام من الرق، ودعا إلى انعقاد مؤتمر للرقيق ببلجيكا، وكان القصد من هذا المؤتمر تضييق الخناق على الدولة العثمانيـة الـتي أراد الغـرب تطويقها والإجهاز عليها، وبالتالي الحـد من انتشـار الإسـلام في إفريقيـا الذي أقض مضجع لافيجري.

موقف الإسلام من الرق واضح لمن يتجـرد عن الهـوى والغـرض، وقد عرضه علينا الأستاذ توفيق بن عامر بكـل وضـوح ، وهـو يبحث عن نفاد الرقيق في البيوتات العربية، إذ لاحظ أن استنزاف هذا الرصيد من العبيد له " علاقة متينة بنظرية الاسـترقاق في الإسـلام، وهي نظريـة لا تعتبر الرق نظاما طبيعيا، كما ذهب إليه فلاسفة اليونان، ولا نظاما إلهيـا ، كما ذهب إليه رجـال الكنيسـة، وإنمـا تعتـبره وضـعا اسـتثنائيا، وحالـة طارئة ومؤقتـة اسـتدعتها ظـروف اجتماعيـة، هي ظـروف الحـرب، ولا يمكن ان تكون أبدية، كمـا تعتـبر أن الأصـل في الإنسـان هـو الحريـة، ولذلك حثت المسلمين على العتق، وحددت لهم مصادر الرق، فضيقت بذلك أسباب العبودية، ووسعت في منافذ الحرية".

ووجد الأستاذ ابن عـامر في القـرآن والسـنة سـندا لهـذا الـرأي، فالقرآن يحث على العتق، ويجعل ثواب العتـق الجنـة، واعتـبر الرسـول أن أفضـل العتـق هـو تحريـر أحسـن أنـواع الرقيـق، وأغلاه ثمنـا، ودعـا الناس إلى المسـاهمة في جمـع المـال لعتـق الرقـاب، وأشـار الأسـتاذ توفيق ابن عامر إلى أن الإسلام أوجد منافذ أخرى أمام المسلمين لفك الرقاب وعتقها، ككفارة الحنث في اليمين، وكفارة قتل الخطأ، وكفـارة الظهار، وكفـارة الإفطـار العمـد في رمضـان، كـذلك اللجـوء إلى عتـق الرقاب عند ظهور الخسوف والكسـوف، ويسـتفيد من هـذا العتـق كـل أنواع الرقيق، مهمـا كـان دينـه ولونـه، بـل أن أفضـل أنـواع العتـق هي الرقبة غير المسلمة.

فإذا كان هذا رأي الإسلام شـريعة وعقيـدة في الـرق، فمـاذا يهم بعد ذلك تصرف المسلمين مع عبيدهم، فإن كان خيرا أثيبوا على حسن معاملتهم لرقيقهم، وإن كان سيئا يحاسـبهم اللـه على سـوء تصـرفهم مع عبيدهم،وقد أبرز ابن عامر صورا مشرقة وأمثلة رائعة تـبين سـلوك المسلم مع أرقائه، فقد وجد الكثير من الأرقاء العناية والرعاية، فتخـرج منهم العالم والشاعر والكاتب والقائد، وأنجبت الجـواري منهم الخلفـاء والأمراء والوزراء وغيرهم من وجوه القوم.

أفيقال بعد هذا أن معنى الإسلام والاسترقاق واحد، وهو الشعار الذي رفعه الكاردينال لافيجري في أواخر القرن التاسع عشر كما المعنا، ومع أن الاتجار في الرقيق لم يكن خاصا بقطر دون آخر، وببلد إسلامي أو مسيحي في ذلك العهد، فقد توجهت أصابع الاتهام إلى الإسلام والمسلمين، فتوهم غالب سكان أوروبا أن الاسترقاق من الفظائع الخاصة بالإسلام، وقد أبان الأستاذ ابن عامر دعوة الإسلام إلى عتق العبيد والترغيب فيه، ومنع قهر العبد وإذلاله، حتى أصبح موقف الإسلام من الرق يتمثل في هذا الشعار(التشوف إلى الحرية).

وبالعكس فقد أباحت المسيحية ـــ والكاردينال لافيجري ساهم في ذلك بسكوته ـــ نظام الرق واعتبرته ضربا من العقيدة، فلا يجوز للعبد أن يتشوف إلى الحرية، ولو اعتقه سيده، وقد رخصت الكنيسة في القرن السابع عشر للنخاسين الأوروبيين بيع الرقيق والاتجار فيه، فتأسست شركة فرنسية، وأخرى انجليزية لشراء الرقيق من أسواق خاصة على السواحل الإفريقية، ويشحن العبيد كالحيوانات إلى أمريكا للقيام بالأعمال الفلاحية والصناعية الشاقة.

والحاصل أن الرق بقي موجودا في المجتمع الإسلامي إلا أن " روح النصوص الدينية ومصادر التشريع لا تنظر في المقام الأول إلى القيمة التجارية لهذه البضاعة، بقدر ما تعتبر الجانب الإنساني والعقدي في علاقة السيد بعبده" كما أكد الأستاذ توفيق بن عامر بحق.

أما رأي الإسلام في الرق فيلخصه ابن عامر بقوله: " إن الإسلام لا يعتبر عبودية الرقيق مؤبدة، بل أننا لنجد في الحديث ما يشير إلى كونها ظرفية زائلة، فضلا عن الأسباب العديدة التي وفرها الشرع للقضاء على الرق بصورة تدريجية".

وهذا هو القول الفصل حول مسألة الرقيق والاتجار فيها في الحضارة الإسلامية.

ولا نريد أن تختم هذه الخواطر دون أن نشير إلى ظاهرة تلفت الانتباه في كتاب(الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق) وهي تعامل الأستاذ ابن عامر الحميم مع النص الديني، وخاصة القرآن، فلأول مرة نعثر في بحث علمي إيلاء الآيات القرآنية، وحتى الأحاديث النبوية ما تستحقه من تقدير وعناية، وافتح غيره من الأبحاث الأخرى، فسترى أقوال مونتغمري واط وبارنارد لويس والأب لامنس إلى جانب الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، حتى أنك تخلط بين آية قرآنية وبين رأي لمستشرق حانق على الإسلام والقرآن، إذ لا تدري، ولك الحق في ذلك، ما يميز هذا القول عن هذه الآية.

وما زال ابن عامر يواصل نشاطه العلمي تأليفا وتدريسا وإشرافا على أطاريح طلبته ، ولعل عطاءه في مجال البحث العلمي قد بدأ الآن، وهو في الثالثة والستين من العمر.

يوســـف الحناشي

قصــير القامــة، ضــعيف البنيــة، جهــوري الصــوت، ســهل المعاشرة،رقيق الحاشية،عوض النقص الكثير في شعر ناصيته بشـارب كثيف،أضفى عليه مسحة من الجمـال والبهـاء، تعـرفت عليـه في أثنـاء الدراسة بالتعليم العالي، ثم تفرقنا، ومن حين لآخـر كنت التقي بــه في بعض شوارع العاصمة.

ولـد يوسـف الحناشـي بجندوبـة 1947 وبهـا تعلم بالمدرسـة الابتدائيـة، ثم بالمعهـد الثـانوي، وبعـدهما التحـق بكليـة الآداب بتـونس الكائنـة بشـارع 9 افريل1938ومنهـا نـال الإجـازة في اللغـة والآداب العربيـة،ثم الكفـاءة في البحث، فشـهادة التعمـق في البحث، حـول (الرفض ومعانيه في شعر المتنـبي) ولـه في القصـة (عـذابات العشـق الأخضر)

اهتم في بداية الأمر باتجاهـات النقـد في تـونس، وذلـك من خلال الصحف الصادرة بتـونس في الثمانينـات كالصـباح والعمـل، وقـد نشـر أبحاثه في مجلة الحياة الثقافية الخاصة باتجاهات النقد في تونس،فبعد أن جمع كل المقالات ذات الصبغة النقدية،استنتج ثلاثة اتجاهات فكرية، وهي: اتجاه يعتني بتقديم الأدب القديم، واتجاه يعتني بالأدب الحـديث، واتجاه يحاول التجديد وتجاوز الموجود، وأن ما يميز هذه الاتجاهات عن بعضها بعضا هي الخصائص الشكلية بدون شك، وتفكير المنتسبين إليها، ويمكن إرجاع هذه الاتجاهـات إلى تعـايش ثلاثـة أجيـال في كـل مرحلـة انتقالية: جيل مؤمن ومتشـبث بالماضـي، وجيـل مهتم بالحاضـر، وجيـل يطمح إلى المستقبل، وقد أطلق على الجيل الأول اصـطلاح كلاسـيكي، وعلى الثـاني حـديث، وعلى الثـالث طلائعي، وكـان قـد اهتم بهـذا الموضوع في بحثه(اتجاهات النقد الأدبي التونسـي الحـديث 1956 ــ 1970) ونال به شهادة الكفاءة في البحث.

وتـوّج عملـه بـالبحث عن (مقومـات الـذوق الجمـالي العـربي من خلال الشعر القديم)وله حضور بارز في الندوات العلمية كمشاركته في ندوة ابن خلدون عالما ومفكرا وسياسيا ، ببحث حول (الفكر الخلـدوني والمادية التاريخية) وذلـك بمناسـبة سـتة قـرون على وفـاة العلامـة ابن خلدون.

أذكر أننا التقينا يوما بنهج انقلترا ــ أي منـذ حـوالي أربعين عامـا ــ فوقفنا طويلا نتجاذب أطراف الحديث، وكان قد سبقني إلى التعليم العـالي، وكنت أعمـل جاهـدا للالتحـاق بالتـدريس في الجامعـة، كـأي مـواطن يحمـل شـهادة عليـا، تخـول لـه العمـل في التعليم الجـامعي، فنصحني الأستاذ الحناشي بالطريقة التالية قال لي: إذا أردت أن تلتحق بنا، فخذ بحثا من أبحاثك، واتصل ببعض أعضاء لجنـة الامتحـان، وأطلب رأيه في هذا البحث أو ذاك،فكل الذين تعرفهم مرّوا من هـذا الطريـق، فشكرته على نصيحته، وأقسمت له أن لا أعمل بها، ولو انتظرت مـدى الـدهر، فقـال لي: أنت وشـأنك، ولكنهم سـيذيقونك من العـذاب ألوانـا،وسـتنتظر طـويلا، وفعلا عنـدما أقـدم ملفي، وأجلس أمـام اللجنة،وأشـرع في تقـديم أبحـاثي يأخـذ البعض في التنـدر،وقـد ينفجـر الآخـر ضـاحكا مـع جليسـه،وكـان يـوم الامتحـان يومـا عسـيرا على المترشحين، نبدأ في المرور أمـام اللجنـة من الصـباح إلى الليـل،وذات

مرة كان دوري في المتـأخرين،وكـان الـوقت ليلا، وعنـدما شـرعت في تقديم أبحاثي دخـل خفّـاش إلى قاعـة الامتحـان(قلت في نفسـي هـذا نذير شؤم)فاهتم به رئيس اللجنة،واخـذ يقهقـه، وكـثر اللغـط والضـجيج إلى أن خرج الخفاش من القاعة،ووجه إلي أحدهم سؤالا، وهو غاضب ، وكـاد يصـرخ في وجهي،وذالـك بعـد أن أزاح الغليـون من فمـه، وكـان حواره معي أقرب إلى الاسـتهزاء والسـخرية منـه إلى الحـديث العلمي المتزن، وكان يعاملنا كأننا أجراء في حديقته.

وأشير إلى أن هذا الأستاذ وقف في طريقي حجـر عـثرة،فلم يتم قبـولي بـالتعليم العـالي إلا بعـد أن أزيح هـو من لجنـة الامتحـان، ثم لم يكفه هذا فقد منع أن ينشر لي بحث في إحدى الدوريات،رغم أنه ألقي في ندوة علمية دولية، وأمام الكثير من الباحثين والحاضرين من تونس والشرق العربي، وقام البـاحثون والحضـور بمناقشـته،في حين نشـرت كل الأبحاث التي ألقيت في هذه الندوة، وقد نشرت دراستي في مجلة محكمة، ولمـا رأى بحثـا آخـر لي منشـورا في أحـدى المجلات العلميـة عاتب صاحب هذه المجلة على نشر ذلك البحث.

ذكرتني هذه الخواطر عن يوسف الحناشي الذي عانى هـو الآخـر من اللجنة التي نظرت في بحثه عن المتنبي(الرفض ومعانيه في شــعر المتنـبي)وأثـار ضـجة ولغطـا بين منتقـد ورافض للمنهج الـذي اختـاره الباحث يوسف الحناشي، وانتصر في الأخـير الحـق، ولقي الكتـاب بعـد طبعه ترحيبا من النقاد والدارسين في المشرق العربي، لم يلقـه كتـاب آخر عن المتنبي، رغم كثرة ما ألف حوله إن في تونس أو في غيرها.

ثم اتجــه في وقت من الأوقــات إلى التعليــق على بعض الكتب المحققة من ذلك مراجعته

(لكتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق) لمؤلف مجهول، يبــدو أنه مغربي سـافر إلى الشـرق، وهـو كتـاب في التـاريخ أرخ فيـه لبعض الخلفاء العباسيين، وقدم كـذلك بعض الأخبـار عن الأغالبـة والفـاطميين بافريقيـة ومصـر، وتـبرز أهميـة هـذا الكتـاب في انفـراده بأخبـاره عن المغـرب، اعتمـادا خاصـة على ابن الجـزار القـيرواني الـذي يعـد من المصــادر الأساسـية في هــذا البــاب، وبأخبــاره كــذلك عن المشــرق والأغالبة والفاطميين، ويعود اهتمام الحناشي بعـرض هـذا الكتـاب إلى بعض الاختلافات التي لاحظها لدى محققي هذا الكتاب، وأراد تنبيه أهــل الذكر إليها حتى تحصل الغاية المنشودة،وقد رأى الأستاذ الحناشي بعــد النظـر في تحقيـق نبيلـة عبـد المنعم داود وهي باحثـة عراقيـة لكتـاب العيون والحدائق وبين تحقيق عمر السعيدي وهو بـاحث تونسـي لنفس الكتـاب وجـود اختلاف في مسـتوى قـراءة المخطـوط، ونبّـه إليهـا في جـداول، وتوصـل في النهايـة إلى أن تحقيـق الباحثـة العراقيـة لكتـاب العيون والحـدائق لا تمثـل حقـا المخطـوط الأصـلي للأثـر، ولا المجهـود

العلمي المطلـوب لإخراجـه للنـاس في الشـكل الملائم، أمـا البـاحث التونسي المرحـوم عمـر السـعيدي فقـد وفى تحقيقـه بهـذه الشـروط، وتدارك هذه النقائص، وقدم النص في شكل أنيق، وتحقيـق ملم بعديـد الجوانب.

وقد رأيت أن أقدم في هذه الأسـطر مراجعـة الأسـتاذ الحناشـي لدراسـة وتحقيـق رضـوان السـيد لكتـاب الإشـارة إلى أدب الإمـارة للمرادي أبو بكـر محمـد بن الحسـن الحضـرمي القـيرواني الـذي عـده الشاذلي بويحي من الأفارقة الذين رحلـوا إلى الأنـدلس، وسـاهموا في الحياة الثقافية بالأندلس في عصر الطوائف والمرابطين.

في البداية يشـير الأسـتاذ الحناشـي إلى أن التـأليف في عوامـل استقامة الملك وشروطه وخصال الحاكم والبطانة وجه هـام من وجـوه التفكير السياسـي عنـد العـرب، ويـبرز عبـد اللـه بن المقفـع الفارسـي الأصل أحد مثبتيه، وخاصة في كتاب(الأدب الكبير) و(كليلة ودمنة)وقـد وضعت بعده رسائل ذكـر منهـا الأسـتاذ الحناشـي (التـبر المسـبوك في نصيحة الملوك) للغزالي، وسراج الملوك للطرطوشي و(سلوك المالك في تدبير الممالك) لابن أبي الربيع، و(قوانين الوزارة وسياسـة الملـك) لأبي الحسـن المـاوردي، ثم كـانت مقدمـة ابن خلـدون ذلـك التـأليف الجامع القائم على ثقافة عميقة، وبصيرة نافذة، وتجربة مشـبعة بـأمور السلطان والدنيا.

وذكـر أن كتـاب الإشـارة إلى أدب الإمـارة لمؤلـف مغـربي بقي مغمورا قرونا ينضاف لمكتبة التفكير السياسي عنـد العـرب، وقـد قـام بتحقيقه رضوان السيد، أستاذ الدراسات الإسـلامية بالجامعـة اللبنانيـة، ورئيس تحريـر مجلـة(الاجتهـاد) ومؤلـف (الأمـة والجماعـة والسـلطة) و(سياسات الإسلام المعاصر)و(الجماعة والمجتمع والدولة) وغيرها .

خص رضوان السيد رسالة المرادي بمقدمـة، وجههـا إلى تنزيـل الأثر وصاحبه ضمن إطارهما التاريخي، ثم سعى إلى التعريف بـالمؤلف متخلصـا إلى تحديـد الجنس الفـني للأثـر، مقارنـا بينـه وبين غـيره من التصانيف النظرية السياسية، وأشار الاستاد الحناشي إلى أنه لا بــد من تصفح بعض ما ورد في ترجمة المرادي، لما ألم بها من شبهة وغموض، من ذلــك أن القاضــي عيــاض لم يــترجم لــه في (المــدارك) واكتفى بالإشارة إليه مرات في كتابه(الغنية) الذي ترجم فيه لشيوخ ،وذكـر أنـه توفي 487 هـ بينما تذكر المصادر الأندلسـية إلى أن وفاتـه كـانت 489 للهجرة، وقد تنقل الرجل بين المغرب والأنـدلس، ولم يـترك ملكـا من ملوك الطوائف دون أن يزوره، وكانت له مع علماء الأندلس مجـادلات فقهية كلامية كما يقول الشاذلي بويحي.

اعتبر رضوان السـيد أن رحلـة المـرادي إلى الشـرق، بالإضـافة إلى أداء فريضة الحج، والاتصال بالشيوخ، كعادة المغاربـة والأندلسـيين

وأخذ العلم عنهم كـانت تهـدف لغـايتين: الأولى مصـادره في كتابـه في السياسـة،وهي يونانيـة وعربيـة، والثانيـة الطـابع العـام المميـز لثقافتـه واهتمامه، أمـا عن ثقافتـه فقـد أكـد أن المـرادي كـان ذا ثقافـة كلاميـة أصــولية، ولم يكن ذلــك معروفــا ولا معهــودا بين مالكيــة المغــرب والأنـدلس، والمغـرب الأقصـى على الأخص، وبالنسـبة لتـأثر المـرادي بكتاب أرسطو (سـر الأسـرار) يقـول الحناشـي: أمـا عن تـأثر المـرادي (بسر الأسرار)لأرسطو يبدو أن ابن جلجـل(تـوفي377)قـد أدخـل هـذا الكتاب في القرن الرابع للهجرة للأندلس، ويقول المحقق عن ذلك: أما ابن جلجل فهـو أندلسـي، وقـد عـرف (سـر الأسـرار) حـوالي منتصـف القرن الرابع الهجري، أي قبل المرادي بحـوالي المائـة عـام، ممـا يـدل على أنه كـانت هنـاك مخطوطـات من الكتـاب بـالغرب الإسـلامي منـذ مطلـع القـرن الرابـع الهجـري، وعقب الحناشـي على ذلـك بقولـه: ولا نستغرب أن يكون المرادي قد اطلع على ذلك.

وبخصوص معرفة مالكيـة المغـرب والأنـدلس لعلم الكلام وعلم أصول الديانات، فلا ينفي الحناشي هـذه المعرفـة، فقـد وجـد إشـارات عديدة في المصادر المغربيـة والأندلسـية تؤكـد ميـل كثـير من الفقهـاء الأفارقة للجدل والكلام، ووقوفهم على أصول الـديانات، وذلـك للـدفاع عن مذهبهم وتحصينه من الشبهات، وضرب مثالا على ذلك أن المالكي صاحب كتاب (رياض النفوس) عقد فصلا في كتابه سـماه(بـاب تسـمية من انتحـل النظـر وتحلى بالجـدل من أهـل السـنة وغـيرهم من طبقـة علماء القيروان) وذكر من هؤلاء العلماء محمد بن سحنون الـذي كـانت له أوضاع في المناظرة في فقه الفقهـاء وكلام المتكلمين، وكـذلك ابن أبي زيد القيرواني الذي اعتنق الأشعرية إثر رحيله للحج، وتـأثر بشـيوخ لـه مشـارقة، وكـذلك أبـو الحسـن القابسـي الـذي كـان متكلمـا، رغم تمسـكه بأصـول الديانـة، وكـل المتكلمين بـدون اسـتثناء يتمسـكون بعقيدتهم التي يدافعون عنها.

وأتى الحناشي بأمثلة لعلماء أندلسيين اهتموا بالجدل والكلام من أمثال عبد الرحمان بن أحمد بن خلف أصيل طليطلة الذي حذق الجدل والمناظرة، وذكر الحميـدي فقـال كـان إمامـا مختـارا، يتكلم في الفقـه والاعتقادات بالحجة القوية، وكذلك محمد بن أبان بن عثمـان بن سـعيد اللخمي، كـان ذا عنايـة قديمـة بطلب العلم، متقـدما في فهمـه، متفننـا فيـه، بصـيرا بالمقـالات في الاعتقـادات، وكـان علم الكلام والجـدل قـد غلب عليه، وغيرهما كثير.

وقبل أن يمر الأستاذ يوسف الحناشي إلى محتـوى الكتـاب أثـنى على المحقق الذي ضـمن تحقيقـه إحـالات وافيـة على المراجـع الـتي اعتمدها المرادي، وخاصة (الأدب الكبير) لابن المقفـع و(سـر الأسـرار)

لأرسطو، ثم آثارا أخرى في الأدب السياسي وضعت في أزمنة متفاوتة بعد المرادي، وقد يكون أصحابها اطلعوا على مصنفه.
أبواب الكتاب وزعها المرادي على ثلاثين بابا، استهلها بمقدمة أكد فيها على معالجة سابقيه لمسألة السياسة والحكم، وأشار إلى أنه كتب هذا الكتاب للعقلاء والأحداث، وتعرض بعد ذلك إلى بسط أبواب الكتاب وعناوينها، وعاد مرة أخرى إلى التأكيد على اعتماده على مؤلفات سابقة.
وأتى الحناشي على عناوين أبواب الكتاب الثلاثين، نذكر منها الباب الثالث الذي خصصه لمسألة الاستشارة، وخصال المستشار، فحلل دواعي المشورة، وعدد صفات المستشار، ومنها خاصة ضرورة مراعاة مناسبة التقدم بالنصح، وبين في الباب الرابع ظروف معيشة السلطان ومستلزماتها المادية، ودعا إلى الاعتدال،وأتم هذا الباب بالنصح بمجموع من الخصال، كضرورة تجنب الحسد، والانقباض على النفس، وكيفية توزيع مهام السلطان، وذلك بتخصيص الأهم له، وإسناد المهم للقادرين الأكفاء من أعوانه.
وخصص الباب السادس لمثالب صاحب السوء، وقابله بالصاحب الفاضل، وحذر من مجالسة أصحاب الصنائع الخسيسة، وانتقل إلى عرض أساليب اختيار الأصحاب، ومستلزمات الصداقة، والأخلاق التي يجب أن يجابه بها عامة الناس.
وتعرض في الباب السابع والثامن والتاسع إلى صفات الكتّاب والحجّاب والأعوان، ومناسبات الحجبة على الناس، وكذلك الظهور لهم، وفصل المرادي الحديث عن سلوك التعامل مع الناس، خاصة وعامة، فأبرز قيم التواضع والحذر والفطنة والهيبة والوقار،وتعرض في الباب العاشر والحادي عشر لخصال الجندي المراد للحرب، وكذلك مهمة الوالي والسلطان مع الجند، كما تعرض المؤلف لدور السلطان في توزيع مهام الجند، وتكليف الصاحب الكفء المهمة الجديرة به، وصنف في الباب الثالث عشر أنواع السلاطين وخصالهم، وحلل خصال العدل، ومساوئ الجور ودعائم السياسة.
وصنف في الباب الرابع عشر الناس إلى ثلاثة أجناس : كريم فاضل، ولئيم سافل، ومتوسط بينهما صار اللؤم إليه من أحد أبويه، أو من أصحابه ومعاشريه، وحلل المرادي هذه الأصناف، ونبه إلى الأساليب المحبذة في التعامل معها، وبين في الباب الخامس عشر الأدلة التي يستدل بها على أهل الفضل والنقصة والتوسط، وبسط في الباب السابع عشر حتى الخامس والعشرين شروط الحلم والصبر ، ووجوب ترك الحلم إذا أدى إلى الفساد، وتعرض بعد ذلك لمجموع الخصال الأخلاقية كالغضب والرضا والتجبر والخضوع والحزم والتفريط والكتمان والإذاعة والعجلة والتواني والتوسط والنفاق والجود

والإمساك والشجاعة والجبن، ووضح المرادي شروط هذه القيم الأخلاقية والظروف المناسبة للتحلي بها أو التخلي عنها.

وعالج المؤلف في الباب السادس والعشرين مسألة تصرف السلطان زمن الحرب والمسالمة، وما يتطلبه ذلك من فطنة وحزم، ونبّه في الباب الموالي إلى ضرورة التصرف مع الناس باللين والرفق عوض الشدة والتصلب، وطرح في الباب الثامن والعشرين موضوع الحيلة والمكر والخديعة، وتوقف خاصة لدى المكر في الحروب، وعرض في الباب الثلاثين، وهو آخر الأبواب حكما وأمثالا تلتقي جلها مع أغراض الأبواب السابقة.

ويرى الحناشي أن هذا التبويب يختلف عن تبويب أرسطو في كتابه(سر الأسرار) خلافا لما ذكره رضوان السيد، فالخلاف الأول ينعكس في الجانب الكمي بين الأثرين، ففي حين يتوزع كتاب أرسطو على عشر مقالات، وكتاب الإشارة إلى ثلاثين بابا، وقد صدر الفيلسوف اليوناني أثره بمعالجة مسألة أصناف الملوك، وهي من المواضيع الهامة في التفكير السياسي، بينما أخر المرادي تحليلها إلى الباب السادس عشر.

والخلاف الثاني، حسب الحناشي، يبرز في تركيز أرسطو ظاهرة الحكم السياسي على الجانب التنظيمي للسلطة في مستوى أجهزة الدولة خاصة، ثم مستلزمات الهيكلة العسكرية، كما يبدو في الأبواب الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع، بينما نلاحظ أن المرادي لا يلح كثيرا على التنظيمات المادية للسلطة، بقدر ما يؤكد على الجانب الأخلاقي في سلوك السلطان خاصة، ثم أهم أعوانه، ولا شك أن هذه الخلافات مع أحد أقطاب الفكر السياسي اليوناني تؤكد عدم اقتصار المرادي على النقل من غيره، بل أنه يخضع ثقافته ومراجعه التي أشار إليها بصفة عامة في المقدمة إلى تصور شخصي، يأخذ بعين الاعتبار المجتمع البدوي القبلي للمرابطين الذي يتأثر بقيم روحية وأخلاقية، أكثر من التنظيم المادي لشؤونه.

وفي خصوص التأثير السياسي الفارسي يشير الأستاذ الحناشي إلى أن المرادي يبتعد عن جوانب شكلية عديدة من التفكير السياسي الفارسي الذي نقل عنه ابن المقفع، خاصة كتاب (كليلة ودمنة)و(سير ملوك العجم)و(كتاب التاج) إلا أن المرادي تأثر خاصة (بالأدب الكبير)وهو من وضع ابن المقفع، وقد كان المثل السياسي الأعلى عند المفكرين السياسيين الفرس ضمان وفرة العدل، ودوام الاستقرار السياسي بفضله، إلا أن المرادي كما يقول الحناشي يثير هذه المسألة عرضا ، ويركز على مسألة الاحتفاظ بالسلطة عن طريق الخصال الأخلاقية المتعددة للسلطان وأعوانه.

هذه الجوانب المختلفة تدل كما يـرى الأسـتاذ الحناشـي على أن كتاب الإشـارة، وإن ورد مـوجزا مختصـرا، فإنـه يمثـل حلقـة هامـة من حلقات التفكير السياسي عند العرب عامة، والمغاربـة خاصـة، ولا شـك أن ظهور هـذا الكتـاب بعـد ركـود، يـوجب الثنـاء على محققـه، وتقـدير مجهوده العلمي في تقديمه وتحقيقه، وهذه هي آداب البحث، لم ينتقـد الأستاذ الحناشي المحقق، ولم يقلل من عمله،أو ينقص من قيمته، كما يفعل غيره، الذين لا يعملون، ويسيئهم أن يعمل غيرهم، كما يقول طـه حسين،عندما أهدى أحد كتبه إلى هذا الرهط من الناس.

محمـــــد رجب البـــــاردي

طلب مني صديقي القـادم من أقصـى الجنـوب التونسـي، وهـو يسـتعد للعـودة إلى بلاده، أن اعلمـه بنتيجـة الامتحـان، لأن الإعلان عن النتائج قد يطول، ولا يمكن له أن يكون بعيدا عن أسـرته، ويبقى مقيمـا بأحد نزل العاصمة، في انتظار هذه النتائج التي يبدو أنه كان متيقنـا من نجاحه فيها.

قصدت الكلية بشارع 9 أفريل، وتوجهت مسـرعا إلى المعلقـات، فوجدت اسمه في قائمة الناجحين بالفعل، فأسرعت إلى الهاتف القار، فلم يظهر بعد في تونس هـذا الهـاتف الجـوال الـذي أصـبح ألان بأيـدي التلامذة الصغار.

وهنا أذكر أن شابا يابانيا جاء إلى تونس،في نطاق التبادل الثقافي بين وتونس واليابان على ما أذكر، وكلف بالعمل في المدرسة القومية(كما كانت تسمى في ذلـك الـوقت) لإطـارات الشـباب والطفولـة ببـئر الباي في ورشة البراعة اليدوية والآلات الكهربائية، واسمه أيشي(وكنـا نسميه نحن العياشي) هذا الشاب كـان قـادرا على صـنع جهـاز تليفـون يصل مـداه إلى خمس وعشـرين ميلا، ولكنـه أبلغنـا أنـه يمنـع عليـه أن يصنع لنا هذا الجهاز في تونس، وأرانا قاموسا خاصا بـالأمور الصـناعية، وأمام كل اسم من هذه الأنواع علامة بالقلم الأزرق تـدل على أن هـذه الأشياء تمنع صناعتها في تونس.

قلت: أسرعت إلى الهاتف لأعلمه وأهنئه بالنجاح، رن الهاتف في بيته، فسمعت زوجتـه بصـوتها القابسـي الممـيز، كمـا سـمعت أصـوات الصغار يلعبون، أعلمتها بالخبر، وهنأتها، ثم شكرتني،واهتز بمن كان في

البيت فرحا وسرورا، ثم لم أسمع شيئا، فقد أرجعت المرأة السماعة الى مكانها، كنت أنتظر أن يكون هو من يرفع سماعة التليفون، ولكن لا يهم، فقد قمت بالمهمة، وانتهى الأمر.

وذات يوم كنت مارا بساحة القصبة، اعترضني ذلك الصديق القابسي، وقفنا للتحية والسلام والسؤال عن الأحوال، فأعلمني أنه سيقدم أطروحة، وينتظر المناقشة، كان الرجل مسرعا، فلم يقف إلا بعض ثوان، ثم انصرف يطوي الأرض طيا، هذا الصديق هو محمد رجب الباردي، أحد كبار نقاد الرواية والقصة هذه الأيام، وأستاذ التعليم العالي.

وكعادتنا في هذه الخواطر نقول إن الأستاذ الباردي معتدل القامة، قمحي اللون، لين العريكة، سهل المعاشرة، حسن الأخلاق، طيب القلب، خجول، متواضع، كثير الإنتاج، إن في المجال النقدي أو الروائي.

من مواليد مدينة قابس 1947زاول تعليمه الابتدائي والثانوي بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى العاصمة ليواصل بها دراسته الجامعية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بشارع 9 أفريل، ونال الإجازة، فشهادة الكفاءة في البحث، ثم شهادة التعمق في البحث، فدكتورا الدولة ، وهو الآن في رتبة أستاذ التعليم العالي، وهي أعلى رتبة في السلم المهني الجامعي، له في رصيده الروائي سبع روايات، منها : الملاح والسفينة، وقمح افريقيا، وعلى نار هادئة،وغيرها، أما في النقد، وفي الميدان الروائي بالخصوص فله، شخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة، وحنا مينه كاتب الكفاح والفرح، وفي نظرية الرواية، وعندما تتكلم الذات...

ذات صباح حمل إلي موزع البريد ظرفا متوسط الحجم، فتحته، فوجدت رواية بعثها إلي الأستاذ ألباردي، وفي الحين أقبلت على قراءتها، ولم يمض وقت طويل حتى أتيت على صفحاتها كلها.

هذه الرواية هي"مدينة الشموس الدافئة" وكتبت عنها في ذلك الوقت ما يلي:

مدينة الشموس الدافئة رواية أشرقت من الجنوب تأليفا ونشرا، أما المؤلف فهو الأستاذ محمد الباردي الذي خاض غمار القصة القصيرة، وعرفه قراء السبعينات قصاصا يغرف من الجنوب وواحاته مادة قصصه، ولم تؤثر فيه موجة (القصة البهلوانية) بألاعيبها ومضامينها الجوفاء، بل كان ينظر في سخرية واستهزاء إلى هذا العبث اللفظي، ويمر عليه مرور الكرام، وقد طالع ما كتبته هذه الجماعة، فرآه مسخا وزيفا وترديدا وصدى لما يرن في وسط أوروبا من صيحات مبحوحة، ملت أزيز المحركات التي تصم الأذان، كما ملت ألوان الترف وأنواع المجون إلى حد التخمة، فأرادت أن تغير المفاهيم الأدبية، حبا

في التهديم والتغيير، وهروبا من السآمة والضجر، هذا الوحش الذي يهدد الإنسان، ويفقده الطمأنينة والسكون.

وها هو محمد الباردي يقتحم ميدان الرواية، بعد أن امتلك تقنياتها وآلياتها، وبقي أمينا لاتجاهه الذي اختاره مند البداية، وهو الواقع التونسي، وحياة الناس في الجنوب بالخصوص.

والرواية ـــ وهي قصيرة نسبيا ، إذ لم تتجاوز مائة صفحة من القطع المتوسط ـــ تشدك إليها طيلة تسعين دقيقة أو تزيد، فتعيش مع أسرة في الجنوب التونسي،وربما في مدينة قابس بالذات، يتجاذب هذه العائلة عاملان قويان، أحدهما الماضي في صفائه وبساطته، وما يمتزج في هذه البساطة من زائف الخرافات، وباطل التقاليد، وسيء العادات التي ما انزل الله بها من سلطان.

وأما العامل الثاني فهو الحاضر الذي تعيشه هذه الأسرة، بما فيه من زحف العلوم والتقنية على المدينة العتيقة التي تكونت حولها المعامل والأحياء العصرية والمعاهد الثانوية والعالية، كما تفشت في هذه المدينة ظاهرة التفسخ الأخلاقي التي لم تكن مألوفة من قبل، بالإضافة إلى المشاكل اليومية، والتفكير في هموم الوطن، ومشاكل العالم السياسية والاقتصادية التي تهزنا، وتؤثر فينا أحببنا أم كرهنا.

هذا التمزق بين الحاضر والماضي، هو محور هذه الرواية، إلى جانب تأرجحها بين مكانين ، وهما قابس مدينة الشموس الدافئة، وتونس العاصمة مدينة العلم والنساء، وذلك على فترة تمتد سنة، وهي الفترة التي تستغرقها أحداث الرواية، وتتخللها أحداث جانفي النقابية 1978، ولكي نفهم القضية جيدا، لا بد من التعرف على مختلف أبطال الرواية، ودورهم في أحداثها.

وقطب الدائرة في هذه الرواية هو عائلة علي بن سالم، احد أبناء الولي الصالح سيدي القناوي، الذي قاوم الاستعمار الفرنسي، ومات مجرورا وراء بغل راكض، ولما تعفنت جثته جاء أصحابه، ففكوا وثاقه، ودفنوه، وبنوا له مقاما، ومع زمن الظلم واليأس أصبح القناوي سيد الأولياء، وأصبحت له كرامات يرددها أبناء المدينة، ويقضون في زاويته سهراتهم، تشفيا من المستعمر الغاشم، ويشاء سيدي القناوي أن يحبّس أرزاقه على الفقراء والمساكين، وتبقى أسرته فقيرة معدمة، ومع ذلك تقدم له ولمريديه كل سنة عجلا وحضرة وأذكارا طيلة ثلاثة أيام.

ويظل سيدي القناوي مسيطرا على الرواية من أولها إلى آخر سطر فيها، وهو شيخ يتهدد أفراد الأسرة، ويقض مضجعهم،وخاصة الكبار منهم، مما يدل على أن الخرافات لها سيطرة على كبار السن أكثر من غيرهم، وهو شخص يذكرنا بقصة عمار المعروفي لمحمد العروسي المطوي في كتابه (من طرائف التاريخ) الذي قاوم الصليبيين

في حملة لويس التاسع على تونس، ولما مات هذا البطل أصبح بمـرور الزمن وليا صالحا يزار قبره.

وحـق لهـؤلاء الأشـخاص أن يـزاروا، لأنهم دافعـوا عن هويتنـا وأصـالتنا، ولم يبحثـوا عن النفـع الشخصـي، بـل تجـاوزوه إلى خدمـة العموم، فمن أحب نفسه، فليعش، ثم يموت وينسـى، ومن أحب غـيره يخلد، ويذكر مـع الخالـدين، إلا أننـا لا نقـف عنـد جهـادهم، ونعمـل على تقديسهم، بل لا بد أن يكونوا منارات مشعة على الطريـق المـؤدي إلى العزة والكرامة، وزيارتهم، وهم في قبورهم، تعـني تخليـدهم وذكـرهم، أما ما عدا ذلك فهو غباء وبلاهة.

أما الشخصية الثانية فهي علي بن سالم، هذا الشـيخ الـذي يقـف حـائرا بين قـدم تعيش في عهـد الاسـتعمار، والقـدم الأخـرى في عهـد الاستقلال، فقد قاوم الاستعمار، إذ كان يطلع الجبل، بعد أن يملأ العربة تبنا وحشيشا، ويضع تحت التبن والحشيش أسلحة وقذائف يوصـلها إلى المقاومين، وعندما يمر بالقرب من الجندرمة يرفع صـوته بالغنـاء، وقـد بقي محافظا على الوليمة السنوية التي يولمها لسيده القناوي، فيركب عربته المتآكلة، ويضع فيها أبناءه وأمه وزوجتـه والعجـل والكلب وراءه، وهو يغني المواويـل العذبـة، والأذكـار المحببـة إلى النفس، وقـد حشـر الأطفال في هذه العربة حشرا، وبمرور الزمن ينفصل عنه الأولاد شـيئا فشيئا، فيتوجه إلى مقام سيدي القنـاوي في آخـر الروايـة هـو وزوجتـه وابنته فقط، ويبدو أنه عجز عن الانسجام مع مشاكل العصـر، فيتفصّـى من مسؤولياته كأب، إذ يترك مصير ابنته فاطمة لولديه:

ـــ يـا أولاد، أنـا كـبرت، العربـة هـرمت، وكـذلك البغـل، أختكم في ذمتكم، وافعلوا بها ما تشاؤون.

أما أمه وزوجته فهما كومتان من الإحساس الجـارف، فـإن كـانت الأولى تقدس وتعبد من دون الله سيدي القنـاوي فـإن الثانيـة تحترمـه، وديدنها في الحياة الرضى بـالواقع، دون محاولـة التـدخل في سـيره أو يكون لها رأي فيه، فهي لا تبدي أية معارضة عندما يستقل ابنهـا الأكـبر بالسكنى في الحي الجديد.

وإذا كـان أشـخاص الروايـة يمثلـون الجـانب الأكـبر من الأسـرة التونسـية التقليديـة فـإن الأبنـاء، رغم انصـياعهم بحكم الصـغر، إلى الاسـتماع إلى الخرافـات، فـإنهم عنـدما يصـلب عـودهم يـتركون هـذه العادات البالية، فـالابن الأكـبر عبـد اللـه يواصـل تعلمـه العـالي بتـونس العاصمة، ويتخرج مهندسا، وله موقفان في الحياة، عندما كـان طالبـا يؤمن بقيم سامية، تتمثل في العدالة والحرية، ويطلع في أثنـاء الطلب على أفكار جديدة، ويرتبط بطالبات ينادين بالحرية الجنسية، باعتبـار أن الحرية وحدة لا تتجزأ، والرجعي هو الذي يجزئ الحرية، ولمشاركته في إضـرابات الطلبـة وتنظيمـاتهم يلقى عليـه القبض، وانطلاقـا من هـذا

الحادث يتغير موقفه، وخاصة عندما يعين موظفا ساميا في معمل الاسمنت، فيفضل الركون والهدوء، ويقبل على الخمر والنساء، وقد استطاع الكاتب أن يصور هذه الشخصية، ويتتبعها في تبدلها من حال إلى حال، وخاصة ميلها إلى الخنوع والدناءة والقعود.

وإذا كان عبد الله بن سالم قد خيب ظن والديه في استقلاله بالسكنى، والأسرة التونسية يسكن أولادها عند الزواج في بيت واحد، ويجتمعون حول مائدة واحدة، مهما كان عدد أفرادها، كما خيب ظنهم بالإقبال على التدخين، وانتهازه للفرص، إذا كان عبد الله كذلك، فإن الابن الثاني رشيد، ولعل اختيار هذا الاسم لم يكن اعتباطيا، وهو شاب لم يكمل تعلمه الثانوي، وقد وجدت فيه أسرته الابن البار، والرجولة الكاملة التي تمثلت في دفاعه عن أخته، عندما أوقفها أبوها عن مواصلة الدراسة، بسبب علاقتها مع شاب تجرأ وخطبها من والدها، وقد أبرز لنا الكاتب انتقاد رشيد لأساتذته، وبرامج الدراسة، وعدم إيمانه بما يقوم به أبوه من زيارته لسيدي القناوي كل سنة، وتعنيفه لأخيه الأكبر الذي ينهى عن خلق ويأتي مثله، وهذا كله تمهيد لما سيأتي بعد.

يتغير رشيد كليا عندما يقبل على العمل في أحد المعامل بمدينة الشموس الدافئة، وهذا التبدل يزيد في ثراء شخصيته، واتساع معارفه وتجاربه، فيرى أن الحياة الاجتماعية تختلف عن الحياة المدرسية، فالأولى أغنى وأثرى في حين أن الثانية يقبع فيها التلميذ في الفصل فيستمع إلى أستاذ يملأ أدمغة تلامذته بأشياء نظرية مجردة لا تسمن ولا تغني من جوع عقلي، فيشارك رشيد العمال في إضراباتهم القانونية، ويتصل بالنقابيين، وعندما تقع أحداث جانفي 1978 يقبض عليه، وعند محاكمته يطلق سراحه لبراءته من كل ما نسب إليه.

وتبقى فاطمة المدينة التي لا بد من فك حصارها، والتي يشعرنا الكاتب منذ البداية بسخريتها من التقاليد البائدة، ولكن هذه السخرية لا تتجاوز الهمس، كحال المرأة في مجتمعنا، فصوتها غير مسموع، إلا أنها تتكلم بصوت مرتفع مع امرأة مثلها، وخاصة مع أمها، تقول لأمها:

ـــ بالله يا أمي، هل يرضيك أن نخرج كل عام بعجلنا وكلبنا، ونسلك هذه الطريق الطويلة والشمس تحرقنا.

وهي تؤمن بعجزها ،إذ أن اقتناعها أو عدم اقتناعها لا يغير من الأمر شيئا.

ــ هل أنت مقتنعة يا فاطمة؟

ــ مقتنعة أو غير مقتنعة، فهل هذا سيغير شيئا؟

وتربطها علاقة مع شاب كانت بين حيه وحي فاطمة عداوة قديمة، وبما أنهما يعيشان في عصر لا يعرف العشيرة، فقد تحابا، ونسيا تلك العداوة القديمة، وتقفز هذه العداوة إلى السطح بمجرد

سماع الأب بالأمر، فيقرر فصل ابنته عن المدرسة، ويمنعها من الخروج بسبب تلك العلاقة، إلا أن رشيدا يحـاول إرجاعهـا إلى المعهـد والإقامـة فيه.

وبعد محاكمة رشيد ونجاحها في البكالوريا تفكـر في الهجـرة إلى الشمال، إلى مدينة العلم والنساء، وتنسى علاقتها بهشام عبـد السـتار، وتتمرد على أنوثتها، وتقول لأبيهـا: لا تعتـبرني بنتـا يـا أبي، فكـأن قيمـة المرأة لا تكون، إلا إذا تشبهت بالرجل، هذا من حيث المضمون.

أما من ناحية الشكل فالرواية تقوم على اختيار مشـاهد ولقطـات من الأحداث التي عاشها أبطال الرواية، أو إن شئت فقل التجارب التي عرفها الكاتب وشاهدها طالبا وأستاذا.

وقـد لجـأ الكـاتب إلى اسـترجاع الماضـي، ويبـدو أنـه بـالغ في استعماله، إلا أن هذا التداخل بين الماضي والحاضر أضفى على الرواية حيوية وحركية، إذ يتسنى لنا أن نطلع على التطور والتغيـير الـذي طـرأ على أشخاص الرواية، وقد وفق الكـاتب في انتقـاء الأحـداث الـتي تهم أشخاصه، لعلمه أن الرواية تقوم على اعتماد المشاهد المعـبرة، وتـرك الفراغ ليكمله القارئ، بالاعتماد على خيالـه وثقافتـه، وقـد ألحنـا على إبـراز الأحـداث لعلمنـا أن هـذا العمـل ينتمي إلى مـا يسـمى بالروايـة التسجيلية.

وقد اهتمت الرواية بالناحيـة الفلكلوريـة الـتي تتمثـل في أضـرحة الأولياء، والقرابين التي تقدم بهذه المناسبة إلى جانب المدائح والأذكـار والحضرات التي لا تخلو من أعاجيب وحكايات، وهذا العمل يقـدم لعلم الاجتماع مشاهد حية عن الـزردة في الجنـوب التونسـي، بمـا فيهـا من مساوئ وحسنات.

أما الناحية الثانية فتتمثل في الاهتمام بقضايا العمال ومشـاكلهم، وما أحوجنـا إلى أدب عمـالي، يتغـنى بالعمـل والعمـال، ويصـور آلامهم وآمالهم ومدى وعيهم بمشاكلهم، فلقد أصـبح العمـال بـالفكر والسـاعد واقعا،وشريحة هامة في المجتمع،وبعض الكتاب يتجاهلونه ويقفون منـه موقفا سلبيا، يتنافى مع ما نادى به الرواد من أمثال محمد علي الحامي وفرحات حشاد، وقد اهتمت هذه الرواية بهـذا الجـانب، فـأبرزت جهـود العمـال، وكفـاحهم من أجـل حيـاة أفضـل، وإن اقتصـرت على حـدث عارض، واكتفت بتسجيله في نطاق ضيق.

أما الناحية الثالثة فهي اهتمـام الكـاتب بالحيـاة الطلابيـة، وتقـديم جانب من حياتهم في لهوهم وجدهم وانشغالهم بقضايا هامة، لا تقتصـر على المحيط الضيق، بل تتعداه إلى القضايا العالمية والإنسـانية، وهـذه هي المرحلة المثالية، ثم يتجاوزن ذلـك إلى المرحلـة الواقعيـة، فعنـدما يتحصل عبد الله على مبتغاه يتحول إلى عربيد وفاسق، وينسى ماضــيه وعائلته، ويقطع كل صلة بأفكاره القديمة، وبآمال عائلته فيه.

والناحيـة الأخـيرة تتعلـق بـالطرق التربويـة المتبعـة في مدارسـنا الثانوية، وخاصة في تدريس الأدب العربي، ولا غرو فالمؤلف أستاذ في هذه المادة، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا العمل الأدبي الجاد يثير قضـايا كثـيرة وكبـيرة في أسـلوب لا يخلـو من طلاوة وعذوبـة، إلا أنهـا كبقيـة الروايات في تونس تتسم بالقصر، وعدم التوسع في التحليل،وبالنسـبة للكـاتب محمـد البـاردي فهـذه الروايـة تعتـبر تجربتـه الأولى في هـذا الميدان ، وأول الغيث قطر ثم ينهمر.

هذا ما كتبته عند صدور (الشموس الدافئـة) أي منـد ثلاثين عامـا تقريبا،ولا شك أن الروايات التي أتت بعد ذلك قد تطـورت في أشـكالها ومضامينها تطورا جليا، وكيف لا تتطـور والرجـل أصـبح يعتـبر من كبـار النقاد في الرواية عمومـا،ولا ريب أن امتلاك الجـانب النظـري يسـاعده على النجـاح في الكتابـة الروائيـة،خاصـة وأن الرجـل لا تنقصـه موهبـة الكتابة، وما يتوفر فيهـا من إحسـاس مرهـف، ومن تـوق إلى الأرقى... ومــا زال الأســتاذ البــاردي البــاحث والــروائي يعمــل جــادا لتجــاوز الموجود،والبحث عن المنشود، ومتى رضي من كان مثله بما أنجــز، إن في مجال البحث العلمي أو الروائي، ومنهومان لا يشـبعان طـالب علم وطالب مال، ومحمد الباردي هو من الصنف الأول بلا شك...

فتحي اللــــواتي

بعد نزوله من قطار:تونس ـ حلق الوادي ـ المرسى، تـراه في شـارع بورقيبـة، يسـرع في مشـيته، كأنـه يسـابق الـريح، رغم تجـاوزه الستين من العمر(ولد سنة 1947) وبيـده اليمـنى محفظتـه المكتـنزة، حتى أنها أمالته في مشيته إلى اليمين، ولم تتركه معتدل القامـة، هـذه المحفظـة هي رفيقتـه الـتي لا تفارقـه طيلـة الفصـول الأربعـة، وفي وسطها أوراق ومذكرات، وملفان يسكنان في هذه المحفظة منذ أعوام وأعوام: أحدهما خاص بالمقالات التي ستنشر في المجلة الصادقية في سلسلتها الجديدة، والآخر كتاب من سلسلة (ذاكرة وإبداع) وقـد حملت هذه المحفظة أكثر من أربعين كتابا، يصدر منها كل عام أربعة من هـذه المؤلفات التي أرادها المشرف عليها الأسـتاذ عبـد الوهـاب الـدخلي أن

تكون خاصة بحياة الأدباء والمفكرين التونسيين،ونشر بعض تراثهم الذي صمد رغم تطاول الأعوام والسنين، ولم يزده مرور الأيام إلا بريقا ولمعانا.

المجلة الصادقية وسلسة ذاكرة وإبداع هما الثنائي الذي لا معنى لحياة فتحي اللواتي إلا بوجودهما، يصحبهما إلى المطابع، ويشرف على إخراجهما، ثم يلقي بأحدهما إلى جمعية قدماء الصادقية لتقوم بتوزيعها، ويضع الآخر في مركز الاتصال الثقافي، ويلقى في هذه المتابعة والتردد على المطابع كل العناء والجهد، ولكن حبه للكتاب والحرف العربي يخفف عنه كل هذه المتاعب التي يلقاها من عمال المطابع والمشرفين عليها، هذا بالإضافة إلى ما يصادفه من عناء في وسائل النقل.

إذا رأيته يذرع شارع الحرية، ويسرع في مشيته، والمحفظة الثقيلة بيده تظن أن الرجل في الأربعين أو الخمسين من العمر، ولكن شعره الأبيض وانحساره إلى الوراء يجعلك تقول إنه ربما في الستين من عمره، ومع ذلك لا تستطيع أن تجاريه في مشيته، بل في سيره.

والرجل قصير القامة، ضعيف البنية، أسمر اللون، مع ميل إلى الزرقة إن شئت، لين العريكة، لطيف المعشر،لين العريكة، يتحدث إن أراد فتسمع منه عجبا، يحدثك عن هوميروس وعن الإلياذة والأوديسة، كما يحدثك عن المتنبي والمعري والشابي وروسو وبودلير وابن رشد، ماذا أقول: إنه موسوعة للأدب العالمي، ويصمت إن تحدث غيره، ويولي اهتمامه بمحدثه، ولا تمل من الجلوس معه ، وتسأله من أين تخرج؟ ومن أين له كل هذه الثقافة الواسعة فتحتار في الأمر، ويعلمك أنه خريج كلية الآداب بتونس، ويحمل بالإضافة إلى ذلك دبلوم مدرسة الإدارة،بدأ حياته أستاذا للغة العربية أستاذا بمعهد سيدي منصور بصفاقس، ثم لأسباب سياسية ونقابية غادر التدريس، وامتهن الصحافة،والتحق بوزارة الثقافة فرأس تحرير مجلة "فنون"، ثم رئيس تحرير مجلة"الحياة الثقافية"

وكان الرجل يلتهم كل ما يأتي على يده من كتب، فقد كان يمضي سواد ليله بين صفحات المجلدات عربيها وفرنجيها، ويقضي نهاره يتصل بذلك الكاتب أو ذلك الأديب والشاعر، واسأله ما شئت عن الكاتب أو الشاعر الفلاني، فيحدثك عن آثاره بدون تردد أو تلكؤ،وربما عن خصوصياته كأنه كان يحتسي القهوة معه منذ لحظات.

واللواتي صحافي بامتياز، كان هكذا في مجلة (فنون) وفي مجلة (الحياة الثقافية) وأخيرا في (المجلة الصادقية)

وفتحي كالمسك إذا اقتربت منه يفوح لطفا وطيبة قلب، يعفو عمن ظلمه، ويكافئ الإساءة بالإحسان، ولا يتنكر لمن صاحبه، أو عمل معه في الإدارة، ويتغاضى عن الهفوة إذا ارتكبت ضده،اعترضنا رجل،

وأنا أجري رواءه، فحياه بلطف لا مزيد عليه، كان من زملائه في الإدارة، تحدث معه، أحسست أنه لا يحمل نحوه أي عداء أو ضغينة، ولما ذهب الرجل في حال سبيله قال فتحي، والأسى باد على وجهه: خرجت من المنزل الذي كنت اكتريه، وحل محلي هذا الرجل الذي رأيت، وتركت أثاثا: مكتبا وسريرا لابني، وبعض الكراسي الوثيرة، ريثما أعود إليها مرة أخرى،لأن الشاحنة التي اكتريتها لا تتحمل نقل كل الأثاث الذي أملكه، ولما رجعت مرة ثانية لأحملها إلى البيت أنكر أن يكون لي أثاث، أو تركت شيئا في هذا المحل، ورجعت بخفي حنين.

إذا وجدت بين يدي فتحي مقالا أو دراسة كتبها، وأعجبتك، وتمنيت لو كانت لك، وتنشرها باسمك، فلا يرى مانعا أن يسلمها إليك، المهم أنه كتب، وتخلص من حمل ثقيل كان يحمله، أما أن ينشر باسمه أو باسم غيره فلا يهم،فالرجل لا يريد الشهرة ، ولا يسعى إليها، ولا يبالي بها،ولا يتحمس لنشر إنتاجه، وككل أديب أو كاتب تراه قبل الوضع/ الكتابة كأنه يحمل عبئا ثقيلا، فإذا أفرغ ما عنده في الورق يشعر بالارتياح،ويرميه جانبا، وكذا الشأن بالنسبة لفتحي اللواتي.

لم يملك دارا أو عقارا، ولكنه استطاع أن يعلم أبناءه، ويتخرجوا كأحسن ما يكون التخرج والتربية، وكان يقول لي:هذا كل ما أملك، وهو عندي أعز ما في هذا الوجود.

علم القراء أنه سيصدر كتابا عن الشاعر المنسي محمد العريبي الذي مات في المهجر في ظروف غامضة، وقد جمع أشعاره وآثاره ،وكل ما يهم حياته، ويمتلك وثائق نادرة عن هذا الشاعر الغنائي، واتصل بعشيقة هذا الشاعر الفرنسية فالنتينا، ولكنه لم يصدر منه شيئا، وكأنه متردد في إتمام هذا العمل الهام،رغم إلحاحي عليه، مرة بعد أخرى، ويبدو أن هذا الكتاب يتجاوز الأربعمائة صفحة، كما فهمت من حديثه عنه،وشبيه بهذا كتابه الثاني وعنوانه"المسكوت عنه في تاريخ البربر"(يتجاوز 300صفحة) سأله المرحوم حمادي الساحلي مبتسما،بعد أن أهداه أحد كتبه:ألم يحن بعد أوان أن تبوح لنا بذلك المسكوت عنه في تاريخ البربر؟ فأجابه متسائلا:: وهل تعتقد أني راغب في إتمامه؟

والرجل لا يريد الظهور ، أو حتى حديث الناس عن تلك الآثار، وهي كثيرة ومبثوثة في الصحف والمجلات، وخاصة المجلة الصادقية، ومجلة الحياة الثقافية إلى درجة أنك تستطيع، كما ذكرت أن تطلب منه دراسة، وتنشرها باسمك فلا يرى غضاضة في ذلك، بل يشجعك حتى يتخلص مما كتب، وما كتب هو في القمة من حيث جمال الأسلوب، وعذوبة العبارة، وخاصة إذا ترجم شعرا عن اللغة الفرنسية.

وعندما كان في بيت الحكمة التي أمضى بها سنوات من عمره، يكلف بأن يكتب عن الباحث أو الأديب الفلاني، ولا يرى المكلف حرجا

في إسناد ما كتبه فتحي اللواتي إليه، وتلك هي الطامـة الكـبرى، وكـأن هذا المكلف على علم بأن الأستاذ فتحي لا يرى مانعا في ذلك، أو كـأن الكتابة الأدبية أو العلمية هي من مشـمولاته الإداريـة، لقـد كـان الرجـل كما نوهنا يزهد في الشهرة، ولا يطمح أن يكـون معروفـا لـدى النـاس، وهذا أمر غريب منه، ولكن الشهرة، وذيوع اسمه أتته منقـادة من حيث لا يدري، فالمجلة الصادقية في سلسلتها الجديدة التي يمضي فيها تارة باسمه، وطورا يشير إليه بالحرفين من لقبه واسـمه (فـل)، سـتكون ولا شك في المستقبل موضوع بحث جامعي، وسيذكر من جنودها البواسل الكاتب المبدع فتحي اللواتي، والتي يحرص على ظهورهـا في السـاحة الثقافية، وفي الإبان، في حين أن ما يتأتى له منهـا، لا يكفي لمصـاريف التنقل في القطار والحافلة وسيارة الأجرة، ولكنـه اتخـذها هوايـة، وفي سبيل الهوايـة يهـون كـل شـيء، وكـذا كـان يفعـل مـع سلسـلة ذاكـرة وإبداع، صحبة صديق عمره كما يقول، عبد الوهاب الـدخلي، فقـد كـان الأسـتاذ الـدخلي يقـرأ الكتـاب من أولـه إلى آخـره، ويصـلح مـا أمكن إصـلاحه، ثم يتكفـل اللـواتي بالمتابعـة المطبعيـة،ويتـابع مراحلـه في المطبعة، ويقوم بإخراج الكتاب إخراجا فنيا،إلى أن يستوي كتابا جميـل الشكل يغري الناس بالقراءة، وبهذه الطريقة يحبب الناس في الكتاب والمطالعـة الـتي ضـعف طالبوهـا في هـذا الـزمن الـذي يسـميه فتحي (زمن النكد) ولكنه كان يردده بطريقة أخرى، وهو يشير إلى من عرف من الكتاب والأدباء، ومـا أكـثر مـا عـرف منهم، بحكم اتصاله بهم عنـد طبع كتبهم، وكان غير راض عن سلوكهم معه، ولكنهم بالنسبة إليــه في آخر الأمر هم أصدقاء، ويتفكه معهم فيقول:"هم أصدقاء النكد في هــذا البلد"

أي أنه لا يحمل عنهم ضـغينة ولا كراهيـة، بـل يـذكرهم بكـل إجلال وتقدير.

ومـا يفعلـه الـرجلان عبـد الوهـاب الـدخلي وفتحي اللـواتي مـع سلسلة (ذاكرة و وإبداع)يفعلانـه أيضـا مـع المجلـة الصـادقية:إذ يقـرآن المقا -ن أوله إلى آخره.

فتحي اللـواتي كـاتب مبـدع،إذا كتب في الخـاطرة أو المقـال، يتـأنق في أسـلوبه،ويختـار الألفـاظ الموحيـة، ويتجنب الإسـفاف في التعبير، اقرأ إن شئت ما سماه بالحديث:" قراءة في مهاترة في فكـر" فسترى العجب العجـاب، يقـول:" تـرامت فيـه لحظـات أدركهـا الـزمن المنفلت من حميميتـه المسـتحيلة، وتنـاوبت عليـه موجـودات التمـزق الوجودي المبعثرة أوصالها بين ما كان ، وما يمكن أن يكون، بين تـاريخ مهمل منسي، ونفس قلقلة تهفـو إلى الأفـدح، إلى البـوح المضـاد، في يوم لم يعد يذكره،ولعله بدأ معه لحظة تساوت عنده بدايـة القـراءة بلا

نهاية الكتابة، تعمقت فيه رغبة الظهور والتخفي في متاهات التدفق والعداء اللامباح.

لكن الكتابة وحدها هي التي ظلت بالنسبة إليه مكابدة كريهة في مجتمع تحول فيه البوح إلى فرجة ممنوعة على الذات ــ الأنا المتهمة في خصوصيتها المهدورة، وفي نوعية الظروف ــ الأزمات التي أوجدتها بالعسف والإيذاء"

وتمضي المهاترة في هذيانها على هذا المنوال، مهاترة فكرية، ومهاترة لفظية، والمهاترة في اللغة ــ كما نعلم ــ القول الذي ينقض بعضه بعضا، وكذا كانت هذه المهاترة الفكرية: الشيء وضده.

يقول في آخر هذا الحديث متحدثا عن اللغة والناس وموقفهم مما يكتبك" في بعض نصوصه ــ أحاديثه تحولت اللغة إلى تناثرات حروفية، تعمد قولبة بعض اشتقاقاتها، وإن حافظ على البنى الجدلية التي انبثقت منها، واستباح سكونية البياضات، ولغمها بفواصل ونقط وإيحاءات قابلة للتبرير أو التأويل المشحون باحتمالات الرفض والتجاوز... وأحيانا تصل به انسياباته ــ أو تداعياته ــ اللغوية إلى حد النزق الحروفي المثقل ــ غالبا ــ بالإيذاء المتعمد، أما غضبكم فأنا به على علم، وسوف لن يصل بكم إلى القذف بهذه الأوراق في وجهي عندما ألمس أكتفكم الوطيئة، الوطيئة(...) بل هذا الغثيان لكم، غشوته منكم، فيكم، لكم، تقيأته لكم، جهرت به لنفسي بادئ ذي بدء، هذا الغثيان هو حقيقتكم(...) هذه الأحاديث في جلها خرقت ظلام النفس، أحبك أيتها الصراحة القاسية"

أما إذا كتب في ميدان الفنون التشكيلية، أو حاور أصحاب هذا الفن فإنه يبدع ويتفانى مع أصحاب هذه الفنون حتى يصبح كأنه واحد منهم،نذكر مثلا:" أيام مع علي بن سالم فنان البهجة الملهمة" فثم تختلط ألوان ورسوم الرسام التونسي علي بن سالم(1910 ــ 2001) بأسلوب فتحي اللواتي الممتع، وتحتار أيهما تحبذ رسوم ابن سالم وألوانه، أو أسلوب اللواتي الذي يتعالى عن الرسم بالألوان إلى الرسم بالكلمات، إلى درجة أنك لا تلتفت إلى الرسوم، وإنما تبدو لك من بعيد رسوم تجريدية ذات ألوان خلابة.

تقرأ "أيام مع علي بن سالم" فيتبادر إلى الذهن أن ما كتب هو قصة، وليس حوارا مع الرسام،سمات القصة وتقنياتها تتجلى لك في هذا الحوار، أبطالها: الرسام علي بن سالم، والكاتب فتحي اللواتي والبستاني، وزوجة الرسام المذكور، المكان بل الأمكنة هي الحمامات وتونس وستوكهولم وباريس،ثم الحوار تارة مع الرسام، وطورا مع لوحاته ومرة مع البحر، والسؤال هل يهتم المحاور مع أي كان بالحديث عن نفسه، ويقحم نفسه مع المحاور إلى درجة التماهي، ويبرز البحر كأحد إبطال هذه القصة في زرقته وغموضه، ويختلط الماء مع

الرسوم، فيبعث فيها الحياة، ومن الماء كانت الحياة،" وجعلنا من الماء كل شيء حي" وهكذا يمتزج الرسم بالكلمات امتزاجا عجيبا.

يقدم قصة هذا الرسام الذي امضي حياته في ستوكهولم فيقول: علي بن سالم رائد ومؤسس، شيخ ثمانيني بذاكرة طفل حالم موهوب أبدا، تاريخ "حياة" ما تزال تنبض تفاؤلا وألفة، تونسي أبدا بذلك الماضي الحميم الذي كانت فيه لجغرافية الأمكنة الأليفة روائح العشب والأتربة والندى، تونسي كان دواما، هو العابر بنا فراديسه الملهمة بخطو من الفرح الطليق.

علي بن سالم كتاب أنيق بهي ما قرأنا منه غير صفحات قليلة، أينعت فينا إعجابا ومسرة، أوائله كل أوائله عطاء وإضافة، لوحاته الثلاثينية شهادة فنان شاب ما سجل وما رسم غير ما عاشه يقينا حد التوحد والألم، نحوتاته،بلورياته، فسيفسائياته كاريكاتوياته، بقاياه الأربعينية، ميثيولوجياته، رمزياته، فردوسياته، ماتزال تنطق حضورا ودوام حياة.

علي بن سالم تونسي كما أحب حد الثمالة، لم تهجر تونس الجميلة قلبه قط، ما شكاها يوما، وإن لنفسه سهوا، وفاء منه إليها، رفع عاليات راياتها خفاقة هناك، بعيدا، مناديا بعزتها ومباهيا في مقدمة مواكب الوفاء بصمود أهلها، ناصر الحداد، كتابة ومعايشة زمن اعتبرت فيه الكتابة عن المرأة آفة كبرى، آمن بالتطور المبدع زمن كان التشبث بالبائد العقيم فضيلة:كتب، نشر، رسم حاضر، خطب، تأصيلا لهذا الأصل الأصيل الثابت فينا فوزا بالكيان الحر المستقل، ومن أجل أطفال تونس حكى يوما حكاياه البديعة ورسم رسومه الموحية، نقشا ناعما على ذاكرة براءة هي أيضا من صميم براءته.

ويواصل التغني بهذا الرسام المبدع،ويعرج على صداقاته مع الكبار فيذكر أن علي بن سالم عاشق كبير عرفته تونس وباريس وستوكهولم، لكن عشقه الأكبر كان دوما لمدن ومناخات وخرائط أخرى، صداقاته الرفيعة لم تزد قدره إلا تواضعا ونبلا وحكمة، الصحبة السامية لكوكبة من نبهاء جيله أبهرته، وأحيت فيه "حياة" جديدة مثمرة، أو ينسى هذا الثمانيني قهقهة دالي، وحياء لوركا، وانحناءة أراغون...

وينهي هذا التقدم الرائع قائلا: ثمانون هي حياته، حياة كفاح وحب وإبداع.

ويتواصل اللقاء مع الرسام علي بن سالم ومع لوحاته ومع البحر مدة أسبوع، ربما كان اللواتي في ضيافة هذا الفنان العملاق، ثم افترق الرجلان، ولا ينسى فتحي اللواتي البحر: ذا البحر أمامي عميق جليل، وأنا واقف وحدي على حجر نهش الموج ما اشتهى من نتوءاته العتيقة المتآكلة، الآن يا بحر ما عساي أقول لك أيضا في غياب ذلك الفنان

الشيخ، ولحظتها سمعت العم العروسي السائق يناديني ضاحكا، وبدأت سيارته تبتعد بي سريعا،وبعيدا عن الحمامات .

قلنا قصة رسام ، ونقول أيضا مذكرت اللواتي مع رسام ، مذكرات لم تدم في عمر الزمن سوى أسبوع من الجمعة إلى الخميس من سنة 1992

ومن علي بن سالم الرسام إلى ابن رشد الفيلسوف،هكذا يتنقل فتحي اللواتي من الألوان التي تتحكم فيها الأصابع إلى الفلسفة التي يحكمها العقل،وتقود الإنسان إلى دهاليز ما كان للإنسان أن يرتادها لولا هذا الصنف من التفكير، باختصار ترجم الأستاذ إبراهيم الغربي عن اللاتينية كتاب ابن رشد"شرح ابن رشد الكبير لكتاب النفس لأرسطو" وإبراهيم الغربي هو أول تونسي متحصل على التبريز في اللغة اللاتينية كما قال لي هو نفسه،وقد حدثني عن ترجمته لهذا الكتاب عن اللاتينية، وكان زميلا لنا في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، ثم فجأة اختفى عنا ، ولا ندري أين ذهب؟

لما نشر الكتاب في بيت الحكمة تعقبه فتحي اللواتي بملاحظات بارعة منها: هل هو كتاب ناقص؟ وهذا التساؤل منه للفهم ، بل لمحاولة الفهم فقط.

يبدأ ملاحظاته على الكتاب بضياع آثار ابن رشد يقول:ذات عهد تزمّت واضطهاد ضاع مخطوط نادر من مخطوطات ابن رشد، قيل احرقها المتعصبون، وقيل أخفاه المريدون في مكان ما لم يعثر عليه فيما بعد قط.

هذا في العهد العربي، وذات عهد آخر، يقول اللواتي: في بلد ما من البلدان اللاتينية ظهر فجأة وسريعا المخطوط الضائع، ولكن بلغة غير لغة صاحبه، قيل : لا يكتب مخطوطا مبهرا كهذا إلا ابن رشد، وقيل تلميذ وفيّ نابه من أبناء اللاتين نقل المخطوط الرشدي إلى اللاتينية، ثم هرّبها إلى حيث أنقذها من التلف والنسيان، بل قيل أيضا حتى في بلاد اللاتين لم يسلم المخطوط الرشدي/اللاتيني من الأذى.

ونوه اللواتي بدور الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان في الدعوة إلى البحث عن آثار ابن رشد، يقول: بعد عهود وعهود يكتشف ارنست رينان"ابن رشد والرشدية"كما شاء هو أن يكتشفهما، ملحمة معرفية نادرة، محكوم عليها بأن تظرفي تميز خصوصيتها لاتينيا أبدا، أولم يقل بعضهم : صدق المستشرقون وإن كذبوا، وما ذلك إلا من بعض فادح ثقتهم المفرطة في خير ما اكتشفوه عن غيرهم من حضور حضاري ساطع، كابروا طويلا في عدم الاعتراف به إلا لأنفسهم، ولكن الإنصاف التاريخي البحث يقتضي هنا أن ننصف رينان الذي أضاء سبيل الباحثين عن "المجهول ــ المفقود" من ابن رشد الفيلسوف العربي المتنور، فحثهم على إعادة اكتشافه مجددا حتى في هذا الغرب الذي

يأبى كعادته دوما إلا أن يعيد ما افتكه من خير ما اكتشفه عن الآخـرين، في أزمنة الافتكاك العميم، فابن رشد ــ الرمز والدلالة والعلامة متجـدد الحضـور، يـانع الأصـول والفـروع، مضـيء الشـروح والمتـون، كـان في مسيرة الفكر الإنساني ــ الكوني كمون الحي في "الحياة" وليس مدحا ما يحتاجه ابن رشـد،وإنمـا باسـتعادة مـا فاتنـا منـه، وهـو كثـير، يكتمـل مشـوارنا المعـرفي المتجـدد احتفـاء في كـل حين برشـديته الحداثيـة المتنورة.

ويــرى اللـــواتي في ترجمـــة (الشـــرح الكبـــير لكتـــاب النفس لأرسـطو)لابن رشـد" تكريمـا نـبيلا للـتراث الرشـدي" في آخـر القـرن العشرين، وهو تكريم لمفكر متوسطي حر ناضل ــ ولم يزل يناضل من خلال تراثـه الحي ـــ في سـبيل أن يكـون الإنسـان إنسـانا بالوجـدان وبالعقل، فلا انفصال عند ابن رشد بين الكيـان وخصوصـيته: جسـدا في ماهيته المتحولة، وفكرا في صيرورته المتجددة، ذا هو الإنسان/ الوجـود كما تاق ابن رشد في حياته، كما في كتاباته إلى " نحتـه" عضـوا عضـوا من شتى المقولات حتى استوى في "شرحه الكبير" كيانا من فكـر حـر مستنير، يفاجئنا اليوم بحداثتـه المبدعـة لغـة ومنهجـا وأسـلوب صـياغة، حتى تكاد تحسبه كتبه توا لقراء ما جهلوا يوما ابن رشد والرشدية.

أما طريقة شرح ابن رشد لأرسطو فيستشهد فتحي اللواتي بمـا قاله عنها ارنست رينان:" طريقة ابن شد في الشرح الكبير مختلفة كل الاختلاف عن غـيره من الفلاسـفة السـابقين كالفـارابي وابن سـينا، إذ يتنـاول كـل فقـرة من فقـرات المعلم أرسـطو، ويثبتهـا على حـدة، ثم يفسرها جزءا بعد جزء ممـيزا النص بهـذه العبـارة(قـال) وهي تسـاوي الحا[illegible]ن"

وما هو مفقود في ترجمة إبراهيم الغربي هو مقـولات أرسـطو التي شرحها ابن رشد: تبدأ الفقـرة الأولى من النص المـترجم هكـذا: " يعني بالدقة متانة البرهان، ويعني بما قاله: سمو الموضوع، الخ...يقـول اللواتي: فكيـف يتسـنى للقـارئ أن يعـرف، وبالتـالي أن يفهم مـا قالـه أرسطو في أول هذه الفقرة، وكذلك ما قاله في جميـع الفقـرات، وهـو غائب في هذه الترجمة: إذ اكتفى المترجم بوضـع مجموعـة من النقـط الدالة ضمنيا على وجوده في النص اللاتيني، ولماذا تم هـذا الحـذف أو هذا التغييب ومقولات أرسطو تعتبر الجزء الذي لا يتجـزأ من شـرح ابن رشد الكبير؟ فهو ينطلق منها ويعتمد عليهـا في شـروحاته واسـتنتاجاته وإضافاته أيضا، أتساءل أليس من بديهيات الترجمة المنهجية المفترضة أنها لا بد أن تكون أمينة، إثبات حضور هذا المقولات الأرسطية كمـا هي مثبتة الحضور في النص اللاتيني؟ أم أن نشر النص المنسـوب لإسـحاق بن حـنين ضـمن هـذا الكتـاب هـو الكفيـل حقـا بتعـويض غيـاب هـذه المقولات؟

وكان يمكن إقحام مقولات أرسطو التي ترجمها حنين ابن إسحاق في النص العربي، ومقارنتها بالمقولات الواردة في النص اللاتيني.

وفي رأي اللواتي أن ترجمة إبراهيم الغربي للكتاب المذكور لا تخلو من طرافة جديرة بالإثبات في عديد الفقرات المقطعية المفضي بعضها إلى بعض، وإن بشيء من الغموض أحيانا، ومثل هذا الغموض بديهي في ترجمة كهذه تستمد حضورها اللغوي الدلالي من الترجمة اللاتينية المفترض أنها الترجمة الأكثر حضورا للنص الرشدي الأصلي المفقود.

وعاد اللواتي مرة أخرى لابن رشد عند تقديمه لكتاب"ابن رشد الفيلسوف العالم" تأليف عبد الرحمان التليلي أستاذ الفلسفة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، فأكد اللواتي على حداثة ابن رشد وأصالة فلسفته، وبيّن أن ابن رشد لم يكن شارحا فذا لأرسطو، وإنما هو شارح نابه لأفلاطون أيضا، ومن خلالهما نفذ إلى عمق أعماق الفلسفة اليونانية التي ما تزال حية فاعلة في الفكر الإنساني الكوني، ولكن الرشدية التي عرفت ــ في الغرب المسيحي ــ باللاتينية كانت حصيلة الرشدية العربية الإسلامية ذاتها فابن رشد ــ في مجمله ــ كل لا يتجزّأ بعضه يكمل بعضه الآخر، فيتكامل بكله ، ويستوي معمارا معرفيا قائما بذاته.

وعندما أصدرت وزارة الثقافة سلسلة "ذاكرة وإبداع" من خلال المركز الوطني للاتصال الثقافي(بداية من ديسمبر 1997) بإشراف الأستاذ عبد الوهاب الدخلي كتب فتحي اللواتي الغاية من صدور هذه السلسلة، أو "الرمز والدلالة " من إصدارها" فقال: ما من شعب حي طموح إلا وله من بين أبنائه من يرعاه في كل حين، إن اعتل عالجه، وإن نسي ذكره، وإن أوشك أن يتعرض إلى مكروه سارع إلى نجدته والذود عنه، وإن فرح شاركه فرحه، وإن تكدر بادر بالبحث عن أسباب تكدره، للمضي به ومعه ــ قدر المستطاع المباح ــ إلى فسيح الثقة والأمل.

فهؤلاء الأبناء هم حفظة هويته وكيانه وذاكرته، هم أخيار بناة ماضيه وحاضره ومستقبله، هم روحه المتجددة حياة بعد حياة على الدوام، منهم قادة نبهاء، ومنهم أدباء شعراء، أصحاب فكر ورأي، دعاة تجديد وتحديث وتواصل من عهد إلى عهد، لأنهم يخدمون شعبهم، لا العابر من أعراض تعتري هذا الجزء أو ذاك من بلادهم، ولأنهم منه/ إليه فما غادروه يوما قط: إذ مكثوا فيه ذاكرة حية، تتوهج حيوية يوما بعد يوم، وإن انتهى بعضهم ــ بعد طول ممات ــ إلى رميم، فقدر الجسد أن يفنى، وأما الروح/ الذاكرة فدائمة التجدد والانطلاق إلى الحياة الأرحب إلى الإبداع الحق، هكذا يحيا الأخيار النبهاء ــ من خلال الباقيات الصالحات من أعمالهم ــ في وجدان الشعب، وأي شعب يدرك

خصوصية هويته، ويعرف كيف يصون كيانه، ويحافظ على حيوية ذاكرتـه جدير بأن يكون له في سجل الإبداع الإنسـاني حضـوره الخـاص بـه، ولا يكون ذلك إلا عندما تجتمع العزائم الصادقة على إحياء تراثـه المعـرفي الثقافي، مع السعي المتواصل إلى التعريف به وتحليله ونشره.

وبعد فإن تعامـل اللـواتي مـع الألـوان جعـل منـه ناقـدا للفنـون التشكيلية، ويعد من أبرز النقاد في هذا المجال، يكشـف للمتفـرج على اللوحات، واتجاه الرسـام وانتمـاءه للمدرسـة المعينـة، ثم يلقي الضـوء على لوحاته، ويوضحها للمشاهد، وخاصة إذا كانت من النوع التجريدي.

ويتعامل أيضا مـع الحـروف، وهنـا تتعـدد اتجاهاتـه فيكـون كاتبـا للمقالة أو الحديث كما يسميها، فيكون كاتبا من الطراز الأول، ويتحــول إلى صحفي فيقوم بحوارات مع الأدباء والكتاب والفنانين وأصـحاب دور النشر، وتكون هذه الحوارات من ارقي ما وصل إليه هذا الفن الصحفي في تــونس،وتبــدو براعتــه في عــرض الكتب ونقــدها،وإذا تــرجم عن الفرنسية ـ وخاصة الشعر ـ يحيل النص المترجم كأنه كتب أصلا باللغة العربية، وهكذا فالرجل كأنه يقوم بتطبيق مقولة النقاد العرب القـدامى في تعريفهم للأدب، وهو الأخذ من كل شيء بطـرف، وكـذا كـان فتحي اللــواتي متعــدد الاهتمامــات أو إن شــئت قلت متعــدد الاختصاصــات، وبالتالي فهو ذو ثقافة واسعة.

إذا رأيت رجلا واقفا في نهج جمال عبد الناصر مع رجل آخر، وهما يتحدثان عن الأدب والثقافة، وسـط أفـواج من المـارة وأزيـز محركـات السيارات، ثم يعانقه بحرارة مودعا، ويتجه صوب سفارة فرنسا، قاصدا محطـة القطـار الرابـط بين المرسـى وتـونس، وفي محفظتـه صـيدان ثمينـان لا يفارقـان تلـك المحفظـة، وهمـا البروفـة الأخـيرة من كتـاب سلسلة "ذاكرة وإبداع" والثاني محتوى المجلـة الصـادقية الـتي سـتولد على يديه بعد أيام، ثم يدلف إلى المحطة،ويتجه إلى منزلـه في ضـاحية الكرم. فهذا الرجل هو فتحي اللواتي.

شعبـــان بـــن بــــوبكر

نلتقي في حياتنا بكثير من الناس، ونقضي مع بعضهم السنوات الطوال، ثم إن غاب عنك بعضهم يمحى شخصه، وحتى رسمه من الذاكرة، وإن التقيت به بعد تلك الغيبة فكأنه عنك غريب، وأنك لم تقض معه إن في العمل أو في السكنى تلك السنوات الطوال، وقد نتعرف على أحدهم، ونراه من حين لآخر، إن في الطريق، أو في مكان العمل، فإذا حسبت الوقت الذي التقيت به تجد المدة لا تتجاوز بضع ساعات، نعم ساعات قليلات، ومع ذلك يبقى خياله في البال، وذكره على اللسان، فلماذا تنطبع صورة هذا في الذاكرة، رغم قلة المدة التي اجتمعت فيها معه، وتنمحي صورة الآخر، رغم كثرة السنوات التي قضيتها معه؟

وهذا ما وقع لي مع المرحوم شعبان بن بوبكر(1953 ـــ 2008) فعندما قدمه لي صديق ذات يوم، قلت في نفسي: هذا الشخص أعرفه، لا شك أنني التقيت به قبل هذا اليوم، وجه طفولي ضاحك، أسمر البشرة، عينان تلمعان ذكاء، وشفتان غليظتان، قصير القامة، مع ميل إلى البدانة، عريض المنكبين، صوته جهوري،يسمع عن بعد، كنت أمشي ذات يوم قرب محطة القطار بتونس العاصمة، فاختطفني شعبان خطفا، وأخذني من يدي، ودخل بي إلى المقهى، وألح علي أن أتناول معه فنجان قهوة، وكان كلما أراه يغني لي أغنيته المفضلة، أو ما كان تعبيرا لشيء ما في صدره، ولكنه كان يضحك بملء فيه، ويغني:" ميحي مع الارياح وين تميحي".

وكان آخر لقاء معه قبل سنة أو سنتين من وفاته، استقبلني بالأحضان، وعانقني طويلا، مهنئا بارتقائي في السلم الوظيفي، وكانت تهنئته لي نابعة من أعماق قلبه النقي، ونفسه الطاهرة، ولم أر من هنأني بهذه الطريقة مثل ما صنعه معي المرحوم شعبان بن بوبكر، ثم غنى لي الأغنية التي يسمعني إياها كلما التقينا" ميحي مع الارياح وين تميحي" وودعني ثم ذهب في حال سبيله، ولم أره بعد ذلك.

رحل شعبان، وبقي في نفوس محبيه، وما أكثرهم، وسينساه هؤلاء المحبون بمرور الأيام والسنون، فكلنا يغني على ليلاه، ليلاه هذه الدنيا التي كبلتنا بقيد لا ينكسر، نعم ينكسر بقدوم هادم اللذات، وعندها نستيقظ من غفلتنا ، فالناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا.

وإذا نسي محبو شعبان شخصه ورسمه فإن التاريخ لن ينساه، نعم هذا القاضي العادل سيذكر شعبان بن بوبكر وسينصفه، ولا ينسى ما بذله من جهد في دراسة المعنى في التراث النحوي، الذي عانى منه الأمرين في إنجازه، وسبب له الكثير من المشاكل الصحية والنفسية، والداعي إلى ذلك اعتداد بعض المشرفين على الأطاريح بآرائهم، وفرضها على من يشرفون عليهم ، أضف إلى ذلك من يقيم العمل

البحثي قبل مناقشته، ومنهم من لا يقرأ البحث من أوله إلى آخره،وهم قلة، في حين يريد صاحب الأطروحة أن يكون العمل البحثي معبرا عن وجهة نظره، وبيان رأيه في القضية أو المشكلية التي اهتم بدراستها، وكلما كان العمل شخصيا كان مبتكرا وجديدا، وهذا هو المطلوب من هذه الأبحاث الجامعية، وفي مثل هذه المسائل تختلف الآراء، وهذا الاختلاف مشروع، ولا يفسد الود، بل هو إثراء للمشاكل المطروحة، وكل يعالجها بالطريقة والمنهج الذي يريد، وهنا تكون الإضافة والطرافة، أما إدا كان البحث كما يريد هذا الأستاذ أو ذاك فهو تكرار ممل، لا يفيد تقدم البحث العلمي في قليل أو في كثير.

وبالإضافة إلى الأطروحة المذكورة كتب المرحوم شعبان بن بوبكر أبحاثا وفصولا قيمة عن الشعر التونسي المعاصر، وقبل شهر من وفاته نشر دراسة جيدة عن (الاقتراض اللغوي والدلالة المعجمية) صدره بقولة لابن منظور في مقدمة لسان العرب، يشكو فيها من الحالة التي وصلت إليها اللغة العربية في زمانه، واهتمام الناطقين بها باللغات الأجنبية، والتنافس في دراستها، يقول صاحب اللسان:" وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفتخرون" وما أشبه اليوم بالبارحة.

يرى شعبان بن بوبكر أن مسألة الاقتراض اللغوي ، وخاصة على المستوى الألسني، كانت محط أنظار اللغويين واللسانيين قدامى ومحدثين،وهذا واقع مؤد بالضرورة إلى الإقرار بأن الاقتراض ظاهرة اجتماعية قديمة متجددة.

لقد اعتنى بهذه الظاهرة اللغويون العرب القدامى منذ ما ينيف عن عشرة قرون، وتجلى اهتمامهم بهذه الظاهرة في بابي المعرب والدخيل اللذين لم يخل منهما كتاب من كتب الأمهات في النحو واللغة، ولا يعني اهتمامهم بالقضية عند شعبان بن بو بكر بقدر ما يهمه دواعي تلك العناية التي صرفوها لجوانب مختلفة منها، وأظهرها واقع اللغة العربية آنذاك في علاقتها بغيرها من اللغات، ويؤكد شعبان أن الرصيد المعجمي الأعجمي الثاوي في بطون تلك المصنفات يكشف عن عمق الصلة بين العربية واللغات الأخرى، مما يدل على كونية العربية، وتفتحها على العلوم الإنسانية في الشرق والغرب.

وهذا الرصيد المعجمي يعود بالضرورة في رأيه إلى تداخل اللغات المحكوم بتداخل الثقافات، وهي ظاهرة ناتجة حتما عن الاتصال بين المجموعات اللسانية، فهو يولد الحاجة بدافع ما إلى الاقتراض اللغوي، ولئن كانت الدوافع متنوعة فالمآل واحد، يتم التجاور اللغوي بين بيئتين مختلفتين بسبب النشاط التجاري أو العلمي أو الاستعماري أو الاستيطاني، والأمثلة على التجاور اللغوي كثيرة ومتنوعة، كتجاور

العربية والفرنسية في تـونس منـذ انتصـاب الحمايـة سـنة 1881 حـتى اليوم، والأمازيغية والعربية والفرنسية في الجنوب الجزائـري، والعربيـة والعبرية في فلسطين الآن.

ويكثر الاقتراض اللغوي عند المتفاصحين باللغات الأجنبيـة تعبـيرا عن مـوالاتهم وتبعيتهم للأجنـبي، وبحـذقهم للغـة الـدخيل، ألم يقـل ابن خلـدون:" والمغلـوب مولـع بالاقتـداء بالغـالب في زيـه ولغتـه ونحلتـه" ويفسر ابن بوبكر هذا الميل إلى الاقتراض من اللغات الأجنبيـة بالنزعـة إلى المجهود الأدنى، أو الحذلقة، أو الاحتياج إلى قاموس لغوي، لا تقدر البيئة اللسانية الأصيلة(أي العربية) على الاستجابة إليه.

ويتعرض شعبان بن بوبكر بعـد ذلـك إلى مفهـوم الاقـتراض لغـة، وهـو يعـني القـرض والسـلفة، واستقرضـت من فلان: أي طلبت منـه قرضا، كما جاء في لسان العرب لابن منظـور،واصـطلاحا هـو" اقتطـاع وحدة لغوية، أو سمة لغوية من لغة أصلية، واستخدامها في لغـة أخـرى ليست منها أصلا" وهذا هو معنى الإعارة، وهو ما يسمى في الدراسـات اللغوية العربية القديمة بالمعرب والدخيل.

والاقتراض ظـاهرة موجـودة في كـل اللغـات بـدليل وجـود فعـل الاقتراض، والشـيء المقـترض في كـل اللغـات، كالفرنسـية والألمانيـة والانجليزيـة والايطاليـة، وفي اسـتطاعة المتكلم كمـا ينقـل شـعبان بن بوبكر عن أولمان أن يسلك أحد طريقين، فهـو إمـا أن ينقـل من اللغـة على صورتها كما هي، من استعمال خـاص إلى آخـر، وإمـا أن يترجمهـا إلى لغتـه القوميـة، وهـذا التعريـف كمـا يقـول ابن بـوبكر يوقفنـا على درجتين للاقتراض هما الدخيل والمعرب.

والدخيل هي الدرجة التي تستعمل فيها اللغة المقترضة اسـتعمالا يبقي الكلمـة على صـورتها الصـوتية تامـا أو جزئيـا، مثـل فرشـيطة وسـكريتو وغيرهمـا، وبعبـارة سـيبويه" ممـا لم يلحقـوه من الحـروف الأعجميـة ببنـاء كلامهم" والـدخيل في رأي دارسـي اللغـة العربيـة هـو الذي دخل العربية على صيغته، سـواء كـان ذلـك في لغتـه الأصـلية، أو لحقه بعض التحريف، وكان دخوله بدافع الحاجة إليه.

أمـا المعـرب فهـو مـا لم يخضـع في اسـتعماله لقـوانين اللغـة المقترضة، وهو ما قصده ابن جني بقولـه:" مـا قيس على كلام العـرب فهو من كلام العرب" وقال ابن جني كذلك عن المعرب:" ما أعرب من أجناس العربيـة الأعجميـة، قـد أجـرت العـرب مجـرى كلامهم" وعرفـه الجوهري بقوله:" وتعـريب الاسـم أن تتفـوه بـه العـرب على مناهجهـا" فـالمعرب إذن مـا أعـرب من الكلام، وأدخـل كلام العـرب، جريـا على سننه، واسـتجابة لقوانينـه وقواعـده، وتم تطويـع بنائـه لأوزان العربيـة، واخضع لقواعد اشتقاقها.

أما طريق النقل إلى العربية فيتم بواسطة الدخيل أو المعرب أو الترجمة، ولئن كانت الطريقة الأولى والثانية قائمتين على التحول الصوتي أي على الشكل، فإن الترجمة قائمة على التحويل المعنوي، إن حرفيا أو توسيعا وتضييقا.

ومهما يكن من أمر فإن طرائق الاقتراض كما يقول شعبان بن بوبكر تعود في نهاية المطاف إلى كونها تمثل جميعها واجهة لمعارض المعنى، فالدخيل والمعرب الصوتي ظاهرتان شكليتان في الظاهر، ولكنهما لا تخلوان من المعنى، بل لا نبعد إن ذهبنا إلى أنه لولا المعنى لما احتيج إليهما، وهذا الاحتياج يمليه الواقع، ويستدعي تلبيته باقتراض مدلول ما حامله مبنى معين.

والحاصل ان اللفظ المقترض في نشأته وتكونه واستعماله ومقابله في اللغة المقترضة يحيل على بنية فكرية، وعلى منظومة انطولوجية، ترتد على بنية عقلية، فاللفظ كما يقول ابن بوبكر ليس معطى جاهزا، او ظاهرة بالطفرة، فهو سليل تفاعل عناصر لغوية ونفسية واجتماعية وثقافية في الآن ذاته، هذا بالنسبة للقسم الأول من هذه الدراسة المعمقة.

أما القسم الثاني فقد خصصه للحديث عن معجم يتناول لهجة إحدى قرى الجنوب التونسي، وما احتوت عليه من دخيل، وما مازج هذه اللهجة المنطوقة من ألفاظ أعجمية، ومؤلف هذا المعجم لا شك أنه مقلد لأعمال المستشرقين ودراساتهم للغة العربية، وما خالطها من دخيل ومعرب، وقام محررو مجلة(إبلا) قبله بعمل رائد في هذا الميدان.

لقد رحل شعبان بن بوبكر، وهو في أوج العطاء في مجال البحث والدراسات العلمية المعمقة، وفارق رحاب الكلية التي كان بها مدرسا جادا، ورجلا راعى إرضاء ضميره، وهو على وعي تام بأن ربا في السماء يراقبه، ويبارك عمله... رحمه الله.

إبراهيم عوض

هذا رجل بعيد عني بجسمه، قريب مني بعقله وقلبه، وكثيرا ما ينشأ الود والتقدير بين الأباعد، فالود لا يعرف طول المسافة، ولو كان البعيد في الصين، عرفته من خلال دراسة له قرأتها، ولشدة إعجابي

بها، والتقارب بيني وبينه في الفكر والتوجه كاتبته، مبديا ما بيـني وبينـه من تجاوب فيما يكتب،ومن ذلك الحين أصبحت الرسـائل متبادلـة بيـني وبينه، ثم اطلعت على بعض إنتاجه، وكتاباته ــ والحق يقال ـــ لا يمكن الاطلاع عليها إلا بعد سنوات من المطالعـة لكثرتهـا، وتشـعب مناحيهـا، فهو يكتب في النقـد الأدبي، كمـا يكتب في شـؤون الإسـلام وحضـارته، وهــو مهتم بــالردود على كــل من يخــدش في الــدين، أو يســيء إلى الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يفلت منه أحد، إن في مصر أو في خارجها، ورغم أنـه متخـرج من جامعـة بريطانيـة، وملم بـاللغتين الفرنسية والانجليزيـة قـراءة وكتابـة إلا أنـه بقي أمينـا لدينـه وعروبتـه، ومعلــوم أن المتخــرجين من جامعــات غربيــة كثــيرا مــا يعــودون، وقــد اصطبغت أفكارهم وألسنتهم بقذارات الحضارة الغربية، أو مما يسمونه تقــدما وحداثــة، فحالمــا يجلســون على كراســي الجامعــات الغربيــة ينحرفــون عن الجــادة، أمــا هــو فقــد بقي أمينــا لثقافتــه العربيــة الإسلامية،وللقيم الأصيلة في المجتمع المصـري، فلم يتبـدل ولم يتغـير، ولم تؤثر فيه دروس المستشرقين، وكتاباتهم المغرضة عن الإسلام، بل أنـه جـرد قلمـه حـال عودتـه إلى مصـر للـرد على أكـاذيبهم، وإبطـال دعاويهم الفارغة، هذا الرجل هو الدكتور إبراهيم عوض

ولد إبـراهيم عـوض سـنة 1948 بقريـة (كتامـة الغابـة) التابعـة لمركز بسيون بالغربية، وهي من محافظات مصر الكبيرة، وتعتبر الغربية عاصمة إقليم الدلتا أي في قلب دلتـا نهـر النيـل، تقـع بين أربـع ولايات، وهي :كفر الشيخ، والمنوفيـة، ثم القليوبيـة، والدقهليـة، وأخـيرا محافظة البحـيرة، فكـانت الغربيـة ملتقى لكثـير من الثقافـات القوميـة والفرعيـة، ومركـزا لكثـير من الصـناعات، وقـد أنجبت هـذه المحافظـة الكثـير من العلمـاء والمفكـرين وكبـار الساسـة والفنـانين، مثـل: عبـد الرحمــان الجــبرتي المــؤرخ المشــهور، وعبــده الحــامولي، والــزعيم مصـطفى كامـل، وزغلـول النجـار، ويوسـف القرضـاوي وسـعد الـدين الشاذلي. وصاحبنا إبراهيم عوض

نشأ يتيم الأبوين، وهو دون العاشرة من عمره،حفظ القرآن، وهـو في الثامنة من عمـره، وبعـد ذلـك انخـرط في المعهـد الأحمـدي التـابع للأزهر، وواصل بـه دراسـته حـتى نـال منـه الثانويـة العامـة(أي شـهادة البكالوريا) ســنة 1966(أي دون العشــرين من عمــره) وكــان من المتفـوقين، بـل كـان الأول على المسـتوى الوطـني، وواصـل دراسـته الجامعيـة بكليـة الآداب (قسـم اللغـة العربيـة) وتخـرج منهـا بعـد أربـع سـنوات بتفـوق، وهكـذا كـان من المتفـوقين إن في تعليمـه الثـانوي أو العالي،واختارته آداب عين شمس من بين المترشحين ليكـون معيـدا أو مساعدا في قسم اللغة العربيـة وآدابهـا، وفي هـذه الأثنـاء حصـل على درجة الماجستير، ثم اختير في بعثة إلى بريطانيا لإكمال تعليمه العالي،

فانخرط في جامعة أكسفورد، وعاد منها حاملا لدرجة دكتورا في النقد الأدبي، ورجع إلى كليته أي عين شمس ليدرس الطلاب الأدب والنقد العربي والدراسات الإسلامية ، والترجمة من الانجليزية إلى العربية، هذا بالإضافة إلى إشرافه على طلاب الماجستير والدكتورا

وقد أعلمني مؤخرا أنه انتهى من كتابة سيرته الفكرية، وسماها(من كُتّاب الشيخ مرسى إلى جامعة أكسفورد) في ألف صفحة،أي منذ أن كان في كتاب القرية إلى أن صار أستاذا في الجامعة، ولعل هذه السيرة ستكسف مدى كفاح هذا الرجل من أجل تسنم المجد رغم يتمه، وقلة ذات اليد.

ومن يطلع على كتابات الدكتور عوض يتبين له أن الرجل موسوعي، ينتمي إلى جيل العمالقة، إن كانوا من القدماء أو من المحدثين،وما أقلهم هذه الأيام، فهو يكتب في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي حتى اليوم، ويكتب في القرآن وسيرة الرسول، ولا ينسى أن ينقد الأدب الروائي والقصصي، وللرجل ولع بالردود على المناوئين للإسلام وللنبي محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، وقد ألف ما يقرب من مائة كتاب، حسب الكتاب الذي بين يدي، وهو(أفكار مارقة) وهو في أكثر من 800 صفحة، وقد يتجاوز بعض كتبه الأخرى الألف صفحة، هذا بالإضافة إلى عشرات المقالات والدراسات في مواضيع شتى،وترجماته من الفرنسية والانجليزية.

ولا تفوته الحوادث التي تقع في دنيا العرب والمسلمين، فيبادر إلى الكتابة نقدا وتعليقا، وأذكر أنه لما اندلعت الثورة التونسية كتب مقالا طويلا تحت عنوان:(يا إخواننا بل يا أسيادنا في تونس) يقول: لقد رفعتم رؤوس المسلمين والعرب عالية إلى عَنَان السماء، رغم أن هذه الرفعة ليست من صنعهم، بل من صنعكم أنتم، لكن ما فعلتموه وما يمكنكم أن تفعلوه، وسوف بمشيئة الله تفعلونه هو شيء لم تخطر عظمته على بال، لقد كنت وما زلت أقول إن الأمر يتوقف في الأساس على الشعوب لا على الحكام، الذين هم انعكاس لحالة الشعوب وأخلاقها وعقليتها بوجه عام، وإنه ما لم تتحرك الشعوب لتذود عن مصالحها وكرامتها ودينها وتثبت لربها سبحانه فى علاه أنها شعوب كريمة عزيزة فلا أمل.

وكانت نصيحته للشعب التونسي الثائر أن لا يصدق هؤلاء الذين خَلَّفهم الطاغية وراءه في أية كلمة يقولونها لكم، لا تتركوهم يهنأون لحظة واحدة، فتعود الأمور إلى ما كانت عليه، بل أسوأ مما كانت عليه، وواصلوا جهادكم وتقدمكم، فالله ينظر إليكم راضيا من فوق سبع سماوات، والتاريخ يفتح عينيه لا يصدق أن شعبا عربيا قد هب من رقدة العدم، يطالب بحقوقه، ويقول إن هذه البلاد بلادي، لا بلاد الثيران التى

تُعْلَـف وتُسَـمَّن لتنطحـه بقرونهـا، وتسـحقه بأظلافهـا فتقتلـه وتمزقـه، وتستمتع بقتله وتمزيقه.

إن ما يكتبه إبراهيم عوض ممتـع كلـه، فلا يمـل القـارئ متابعـة أبحاثه ودراساته، فهو يأخذ المطالع بهذا الأسلوب السـاخر الـذي يجعـل القارئ يضحك، وفي بعض الأحيان يقهقه، ويحتار الإنسان عندما عــرض بعض آثاره، فكلها تستحق العرض، أما اختيار واحـد منهـا فـأمر صـعب، ومع ذلك سنحاول عرض فصل من كتاباته كمـا اتفـق، وليكن(مسـيلمة أمريكا الأفاق رشاد خليفة رسول الميثاق)

كان اسم رشاد خليفة في أواخر القرن العشرين حديث الصـحف والمجلات والمنتـديات، فقـد لفت نظـر النـاس إلى إمكانيـة اسـتخدام الحاسوب(يسميه الدكتور عوض الكاتوب) لفائدة القرآن الكـريم، وفعلا توصل إلى مـا يسـمى في ذلـك الـوقت بالإعجـاز العـددي في القـرآن، وكان المرحوم لدكتور البشير التركي قد رحب به، كما رحب بـه الكثـير من علماء السنة، وخصص له ركنا في مجلته الشـهيرة(العلم والإيمـان) تحت العنوان المذكور(الإعجـاز العـددي في القـرآن) ولم يكن الأسـتاذ الـتركي يعلم أن للرجـل نوايـا خبيثـة بعـد توصـله إلى الـرقم(19)وأن معجزة القرآن العددية مبنية على هذا الرقم أنه رسول يوحى إليه.

بحث الدكتور عوض عن رشاد خليفة جاء في كتابه(أفكـار مارقـة) يحتــل أربعين صــفحة من الكتــاب المــذكور، عــرف في البدايــة بالرجـل،وهـو من مدينـة كفـر الزيـات بمحافظـة الغربيـة، أي أنـه من المحافظة التي ينتمي إليها الأستاذ عوض، تولى والـده مشـيخة إحـدى الطـرق الصـوفية، تخـرج من كليـة الزراعـة بجامعـة عين شـمس، ثم أرسل في بعثة إلى أمريكا لمواصلة الدراسة في الاختصـاص المـذكور، ورجع إلى بلاده ليتولى التدريس بجامعـة القـاهرة، ثم هـرب من عملـه إلى الولايـات المتحـدة الأمريكيـة عن طريـق ليبيـا، فعمـل خبـيرا للأمم المتحدة في تخصصه، ثم انتقل إلى مدينة توسان بولاية أريزونا، وتـولى إمامة جامعها، وترأس المركز الإسلامي فيها، ويقـول عـوض :إنـه أعلن في سنة 1980 أن جبريل عليه السلام أتـاه بـالوحي، وفي سـنة1988 أخذ يدعو إلى الإيمان بأنـه رسـول اللـه، والحـق أنـه رسـول الشـيطان أمريكا، وزعم أن النبوة وثنية وشـرك، وسـمى نفسـه(رسـول الميثـاق) ولم يلبث أن وجـد مطعونـا بسـكين من قبـل رجـل أسـود، وكـان هـذا الدعي ق لجأ الى أمريكا لتحميه، وتشـجعه على دعوتـه بإغـداق المـال عليه بدون حساب، ولكن القاتل أجهز عليه، ولم تسمع مخابرات أمريكا الحامية إلا بعد فوات الأوان.

إن كل ما يطنطن به ـــ كمـا يقـول إبـراهيم عـوض ـــ هـو الـرقم تسعة عشر، ولم يقل القرآن أو الرسول إن هذا الرقم يمثل نبــوة لمن يكتشفه، ومن جهة أخرى فإن هذا الرقم هو عدد خزنـة جهنم، كمـا في

سورة المدثر"سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مثلا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ "(المدثر:25 ـ 31)

وهذا العدد هو فتنة للذين كفروا، وهذا هو ضلال خليفة، كأن هذا الدعي أراد أن يغر الناس، ويوردهم مورد الجحيم، ثم يتساءل الدكتور عوض: هل يمكن أن ينحصر الإسلام في هذه المسألة؟ وماذا لو أننا لم نصل إلى معرفة هذا العدد، أفلم نؤمن بمحمد وبدعوة محمد؟ لقد آمن بمحمد مند بعثته عدد لا يحصى من الناس، ولم ينتظروا مجيء هذا الضال ليتم إيمانهم بالإسلام عن طريق الرقم تسعة عشر، ولكي تتم المؤامرة على الإسلام حذف هذا الضال مسألة النبوة، وأسقط كل ما جاء عن الرسول من قول وفعل وتقرير، واعتبره لاغيا، واعتبر أن كل من آمن بالله مهما كان دينه فهو مسلم،وهنا ذكر الأستاذ عوض موقف هذا الضال ،وحشره جميع الناس في دين واحد بموقف الإمام محمد عبده عندما قال:إنه لا فرق بين اليهودي والنصراني والصابئ في المصير، فالجميع ناجون يوم القيامة، ما داموا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويعملون صالحا، وخلافا لما يقوله محمد عبده ورشاد خليفة فإن المقصود من الآية" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون" (المائدة:69)   كما يرى الدكتور عوض أن الباب مفتوح لمن ذكر في الآية في الدخول إلى الإسلام،وعندها لا خوف عليهم ، ولاهم يحزنون، لأن دين الإسلام دين لجميع الناس، وليس لقوم دون قوم، كما هو شأن الأديان السابقة.

ومن المضحكات التي أطلعنا عليها الدكتور عوض أن ضلال خليفة يرى حذف إحدى الشهادتين: أي شهادة أن محمدا رسول الله، لأن ذلك يعتبر حسب ادعائه من باب الوثنية والشرك، على معنى أن الله واحد فإذا شهدنا أن محمدا رسول الله أشركنا مع الله غيره، ويعتبر أن وظيفة الرسول هي تبليغ القرآن فقط، وليس له أن يفسر القرآن، أو يكون مشرعا مع القرآن، وهو جهل من رشاد الضلال بدين الإسلام،ويبدو أن الرجل مدفوع إلى تشويه الإسلام مقابل كم من الدولارات.

ثم يبين عوض أن ضلال خليفة قد كذب نفسه بنفسه في مسألة إنكار السنة النبوية، إذ كان منطلقه قي موضوع الصلاة مثلا أن عددها خمس في اليوم والليلة، وأن ركعات كل منها كذا، وعدد سجداتها كذا،

وما نقرؤه في كل ركعة هو كذا... إلخ.. وليس شـيء من هـذا كلـه في القرآن، بل هو مما جـاءت بـه الأحـاديث النبويـة والسـنة الفعليـة، تلـك الأحاديث التي عدها لونا من الشرك والوثنيـة، وهـذا يـدل على تفاهتـه، وخسة عقله.

ويكشف إبراهيم عـوض عن جنـون رشـاد خليفـة وضـلاله عنـدما يرى في القرآن أن مادة (رشد) تكرر في القرآن 19 مرة، ويسـتخلص منها الدليل على نبوته،ونسي أو تناسى أن النبوة ختمت بمحمد بن عبد اللـه، وحسـب زعمـه أن النبـوة ختمت أمـا الرسـالة فلم تختم، ولهـذا سمى نفسه رسول الميثاق

ويستعرض الدكتور إبراهيم جملة من الآيـات الـتي فسـرها ضـلال خليفة تفسـيرا لا يشـاركه فيـه أحـد، ونـذكر من بين هـذه الآيـات قولـه تعالى:" وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون"(يوسف: 106) يقول هــذا الضــال: إن معظم من يؤمنــون باللــه هم في ذات الــوقت من المشركين، بينما المعنى كما يرى عوض ومعه أكـثر المفسـرين هـو أن كفار قريش وأمثـالهم ممن نـزلت فيهم الآيـة مشـركون، رغم إعلانهم بالله، ذلك أنه إيمـان مغشـوش: إذ لا يكفي أن يكـون الإنسـان معتقـدا بوجود الله حتى يكون موحدا،بل لا بـد أن يـواكب هـذا الاعتقـاد اعتقـاد آخر بتوحيده، هذا هو التفسير الصحيح للآية، لا السـخف المتنطـع الـذي يهرف به ذلك الجهول.

ومن أكاذيب هذا الضال أن الله أطلعه على ميعـاد قيـام السـاعة، في حين أن القرآن يؤكد أنه لم يطلع عليها أحـدا، حـتى محمـد بن عبـد الله نفسه، ويزعم أنه سيكون انخرام العـالم وقيـام السـاعة بعـد 300 سنة بداية من سنة 1980، وقد ذكرنا بعالم تكهن بفناء العالم سنة كذا، فمات هـو في تلـك السـنة، وبقي العـالم كمـا هـو، وجـاء بعـده رسـول توسان الكاذب ليقول إن مصر ستموت سنة 1990 ويـأبى اللـه ــ كمـا يقول محمود القاعود ــ إلا أن يفضح هذا الخنزير، فيقبض روحه الخبيثة النجســة في 1990م .

ومن أعاجيب هذا الرجل أن مـا نسـب في القـرآن لليهـود والنصـارى ألصقه بالمسلمين الذين أبدى حقده الأسود نحوهم، وهـذا ليس بغـريب فقد كان عاقا لأبيه،ويروى أنه عنـدما جـاء الى زيارتـه في كفـر الزيـات حــاول أن يجــره إلى الإيمــان بأنــه رســول، فــامتنع فلكمــه،وكســر نظارته،فمرض ، ولم يلبث أن توفي بعد أيام قليلات.

وضال كهذا لا تثريب عليـه إذا اتهم الصـحابة بـأنهم عبـدة أوثـان، ولم يتورعـوا أن زادوا آيـتين للقـرآن، وهمـا قولـه تعـالى:" قَـد جـاءَكُم رَسولٌ مِن أَنفُسِكُم عَزيزٌ عَلَيهِ ما عَنِتُّم حَريصٌ عَلَيكُم بِالمُؤمِنينَ رَءوفٌ رَحيمٌ فَإِن تَوَلَّوا فَقُل حَسبِيَ اللَّـهُ لا إِلــهَ إِلّا هُـوَ عَلَيـهِ تَـوَكَّلتُ وَهُـوَ رَبُّ العَــــــــــرشِ العَظيمِ" (التوبــــــــــة:128 ـ 129)

وهـذان الآيتـان اسـتدل بهمـا المستشـرقون كـذبا وافـتراءً على وجـود التحريف بالزيادة في القرآن، لأن زيد بن ثابت (ومعــه الرجـال الثلاثـة) ألحقهمـا بمصـحف عثمـان، ومسـألة الآيـتين وضـح العلمـاء إلحاقهمـا بالمصحف المـذكور،ولم يـتركوا مجـالا في نسـبتهما الى القـرآن، وقـد لخص عوض هـذه المسـألة بقولـه: كـانت الآيتـان مـع خزيمـة بن ثـابت وحده، فأخذ بهمـا جـامعو القـرآن،رغم أنهم كـانوا يشـتركون أن يكـون هناك شاهدان، لا شاهد واحد، نزولا على ما قالـه الرسـول الكـريم في حق خزيمة من أن شهادته بشهادة اثنين، يقـول عـوض: ولا بـد أن ننبـه القراء إلى أن الآيتين لم تكونا مـع خزيمـة وحـده إلا من ناحيـة الحفـظ الشفوي، وفي نطاق المدينة وحدها، أمـا من ناحيـة الكتابـة فقـد كـانت مسجلتين بالقلم والمداد ككـل آيـات القـرآن، وعلى هـذا فلم تكن ثمـة شبهة شك على الإطلاق في أن الآيتين صحيحتان، وأتى الدكتور إبراهيم شــواهد من القــرآن تـدل على أن الأسـلوب والمضـمون في الآيـتين المذكورتين وأشباههما شيء واحد،ولعوض دراسات رائدة في خصائص الأسلوب القرآني، منها(سـورة طـه: دراسـة لغويـة وأسـلوبية مقارنـة) وكذلك (سورة يوسف) و(المائدة)و(القرآن والحديث: مقارنة أسـلوبية) وهذه الدراسات الأسلوبية تدعم إيماننا بأن القرآن من عند اللـه، ويؤيـد مؤلفي كتب علوم القرآن بأن الآيتين الأخيرتين من سـورة التوبـة همـا من القرآن.

ورجل(؟!) يلجأ لضرب والده الشيخ، ماذا ينتظر منه، يذكر الأستاذ محمود القاعود أن خليفة هـذا عُـرف بعصـيانه الـدائم لوالديـه وعقوقـه لهما ، كذلك فقد عُرف عنـه سـوء الأدب والأخلاق والكـذب والتـدليس، يقول القاعود: في نهاية 1986 ، اشتد المرض على الشيخ عبد الحكيم خليفـة ، وخاصـة مـا ألم بـه في عينيـه ، فنصـحه الأطبـاء بالسـفر إلى الخارج للعلاج، وسافر الشيخ الجليـل إلى الولايـات المتحـدة حيث يقيم ابنه العاق رشاد ، لعلاج عينيه من المرض الذي ألم بهما ،وذات يوم دار حوار ساخن بين الأب الشيخ والابن العاق ، الشـيخ يدفعـه حنـان الأبـوة والخوف على ابنه من غضب الله ، فأخذ ينصح ابنه بالكف عن ادعاءاته الكاذبة حول الرقم (19) وتصحيح معتقداته الخاطئة حول إنكـار السـنة الشـــــريفة، وكـــــانت نهايـــــة الحـــــوار كالتــــالي :

الأب الشـــيخ : أريـــد أن أخطب الجمعـــة في مســـجد توســـان .

الابن العاق : بشرط ألا تشير ، من قريب أو بعيد إلى نبـوة محمـد، لأن بهـــــذا الجـــــامع موحـــــدين، ولا يقـــــال فيـــــه الشـــــرك .

الأب الشيخ : أما زلت يا بُنى على عنـادك ومكابرتـك، كيـف تنكـر نبـوة ســــــــــــــــــــــيدنا محمــــــــــــــــــــــد ؟

الابن العاق مقاطعاً ومحتـداً : لـو ظللت أنت على هـذا العنـاد ، وتـؤمن بمحمد نبياً، ومت هنا في أمريكا، سوف أدفنـك في مقـابر النصـارى !!

وعلى الفور طلب الشيخ من ابنه العاق أن يحجز له مقعداً في أقرب طائرة، ليعود إلى مصر، وقلبه يدمى من أفعال وسلوكيات ابنه العاق ، المارق ، منكر السنة .

وقرب منتصف عام 1987 زار المارق رشاد خليفة مصر ، وذهب إلى والده في طنطا يُطيب خاطره، وانتهز الشيخ الوالد هذه الفرصة ودار الحوار المعتاد بين الأب وابنه ، حول نفس الموضوع .

الشيخ يحدوه الأمل في رد صواب ابنه ، فكان منفعلا ، غيوراً على دينه الإسلامي،ولكن نهاية الحوار – فى هذه المرة – كانت دامية ، فقد اعتدى الابن العاق ، المارق رشاد ، بالضرب المبرح على والده الشيخ المريض ، فكسر له نظارته الطبية ، وأحدث به وفى وجهه جروحاً دامية، وفرّ هارباً خارج البلاد ، إلى الولايات المتحدة، تاركاً خلفه والده الشيخ المريض ، في حالة يُرثى لها ، من الإعياء والحزن الشديد ،وبعد أسبوعين فاضت روح الشيخ الجليل إلى باريها حزناً وكمداً ، وهو غاضب على ابنه قاتله.

ونعود فنقول إن تبجح رشاد خليفة باكتشاف العدد تسعة الذي يراه متحكما في البنية القرآنية تبجح ليس في محله،لأن عدم معرفته لا ينقص من إيماننا البتة، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يجعل منه دليلا على أنه رسول يوحى إليه، ووحيه هذيان لا طائل من ورائه،وشتمه للمسلمين، والمس من رسولنا الكريم هو نباح كلب مسعور، ويأتي الدكتور عوض بمثال الباحث الذي لم يسمه، له دراسة مطولة عن (البنَاء الرّقمي لآيات القرآن الكريم) ينطلق فيها من الرقم(7) ومضاعفاته لا الرقم(19) البهائي الخاص برسول الميثاق، ومع ذلك فإن هذا الرجل(المهندس عبد الدائم الكحيل) لم يعلن أنه رسول، على عكس رشاد خليفة الذي انخبط في مخه الزنخ وادعى الرسالة، فأخزاه الله، وتلاحقت عليه لعنات الله والملائكة أجمعين من وقتها إلى يوم الدين.

وهو جدير بهذا السيل الجارف من السباب واللعنات، وفعلا أشبعه الدكتور عوض جملة **<u>من الشتائم،</u>** وعبث به كما يحلو له، ومما زاد في العبث بهذا النبي الكذاب، والسخرية منه ومن أنصاره، استعمال قوالب تعبيرية هي إلى لغة الحديث أقرب، مثل:(حلوة مسلم مسلم هذه) و(قال تابعه قفة) و(كل عام وأنتم بخير)و(أنعم وأكرم)و(الله عال) ويلجا إلى تصغير الاسم امتهانا واحتقارا، فأحمد يصبح(حميد) وغيرها كثير، وهذه القوالب عرف بها أسلوب عوض في كتاباته، وهي وسائل يشد بها القارئ لمتابعة القراءة حتى ينتهي منها، وتضفي هذه القوالب، وأغلبها من اللهجة المصرية ، على أسلوب الرجل حيوية وحرارة،وبذلك ينتفي عنها البرود والجمود.

وكيف لا يستحق هذه العبث والرجل(وهو لا يستحق أن يقال عنه رجل كما يشير عوض) عاق لأبيه ولدينه ولأمته، ورضي أن يكون عميلا لمخابرات أجنبية لإدخال البلبلة والحيرة في نفوس بعض المسلمين، ولم ينس عوض أن ينهال على مؤيدة بالجهالة والإلحاد، والفهم البائس للقرآن جملة وتفصيلا، ولعل إبراهيم عوض كتب ما كتب عن دجال توسان ليوقظ الجهلة من أتباع الرسول الكاذب بالحجة الدامغة والدليل الساطع على أنهم في ضلال ما بعده ضلال، إذا ساروا وراء هذا المجرم العميل، ويشير الدكتور عوض إلى احد أتباع الرسول الكذاب، وهو المدعو أحمد صبحي منصور الذي يفرق بين النبي والرسول، وهي تفرقة لا تستند إلى أي دليل أو حجة معقولة، يقول هذا الغبي، بعد أن أصلح أخونا عوض الأخطاء في اللغة والرسم والتعبير: يتهم فلان(الدكتور عوض) في هذا المقال رشاد خليفة بأنه نبي كذاب، هذه التهمة باطلة لسبب بسيط، لم يدع رشاد يوما أنه نبي، بل أكد مرارا تصريح القرآن بأن محمدا هو خاتم النبيين، لم يحبرنا الله أن محمدا هو خاتم المرسلين، لأن هناك فارقا جوهريا بين النبي والرسول، فالنبي هو رسول يبلغ كتاب نبوات، أما الرسول فهو يبين هذه النبوات،ويستخرج آيات الله من الكتاب، وعلى ذلك فكل نبي رسول، أما العكس فهو حجة إبليس، ليجعل الناس ترفض الرسل، حتى لو قدموا معجزات مؤيدة لهم، كما حدث مع رسول الميثاق رشاد خليفة، فقد أيده الله بكشف معجزة القرآن التي ظلت في مكمنها أربعة عشر قرنا، ألا وهي برهان صحة تنزيل القرآن المعجزة الرقمية:19

فإذا كانت رسالته متوقفة على وصوله إلى هذا الرقم، وهو في القرآن يدل على خزنة جهنم، فلسنا في حاجة إلى هذا الرقم، ونطلب من الله السلامة من فتنة هذا النبي الكذاب ومن أتباعه الصعاليك، ولله في خلقه شؤون...

:

الفهرس